التاريخ السري للمعتقل

أحمد رائف

البوابة السوداء

صفحات من تاريخ الإخوان المسلمين

الزهراء للإعلام العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

البوابة السـوداء

التاريخ السري للمعتقل

الزهراء للإعلام العربي

قسم النشر

ص.ب : ١٠٢ مدينة نصر - القاهرة - تلغرافياً : زهراتيف - تليفون ٦٠١٩٨٨ - ٦٨٠٢١٣ - تلكس ٩٤٠٢١ رائف يو إن

P . O : 102 Madinat Nasr - Cairo - Cable : Zahratif - Tel : 601988 - 680213 - Telex : 94021 Raef U N

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله
وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ﴾

صدق الله العظيم
فصلت / ٣٣

الجمع التصويرى والتجهيز
بالزهراء للإعلام العربى

تصميم الغلاف والاخراج الفنى : عصمت داوستاشى

أحمـــد رائــف

البوابة الســـوداء

التـاريخ الســـرى للمعتقـل

الطبعة الثانية الشرعية أ
١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ولا تحسبنَّ ٱللهَ غـٰفِلاً عمَّا يعملُ الظَّـٰلِمُون إنَّما يُؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصـٰر * مُهطعين مُقنِعِى رُءُوسِهِم لا يرتدُّ إليهِم طَرْفُهُم وأفئدتُهُم هوآء * وأنذر الناس يوم يأتِيهِمُ ٱلْعذابُ فيقولُ ٱلّذين ظلموآْ ربنآ أخّرنآ إلىٰٓ أجل قريب نجب دعوتك ونتبع ٱلرسل أو لم تكونوٓاْ أقسمتم من قبلُ مالكم من زوال * وسكنتم فى مسٰكن ٱلّذين ظلموٓاْ أنفسهُم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم ٱلأَمثال * وقد مكروآْ مكْرَهُم وعند ٱلله مكرُهُم وإن كان مكرُهُم لتزول منه الجبال * فلا تحسبنَّ ٱللهَ مُخْلِفَ وعدِهِ رُسُلَهُ إن الله عزيزٌ ذو ٱنتقام * يوم تُبدّلُ ٱلأَرضُ غيرَ ٱلأَرضِ والسّمٰوٰتُ وبرزُواْ لله الوٰحد القهّار * وترى ٱلمجرمين يومئِذٍ مُقرّنينَ فى ٱلأَصفاد * سرابيلهم مّن قطران وتغشىٰ وجوهَهُم ٱلنّار * ليجزىَ ٱللهُ كُلَّ نفسٍ ما كسبت إنّ ٱلله سريعُ ٱلحساب * هذا بلـٰغ لّلناس ولِيُنذرواْ بهِ ولِيَعْلَمُوٓاْ أنما هو إلـٰهٌ وٰحدٌ ولِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلألبـٰب * ﴾

صدق الله العظيم

إبراهيم / ٤٢ — ٥٢

إهداء

إلى أشقاء السجن:

الذين تحملوا ضراوة المحنة وآلام الغربة فى إيمان وصبر. ذكرى أيام قضيناها هناك وراء السدود والقيود نرجو أن تكون فى ميزان الحسنات يوم الحساب.

والله من وراء القصد.

أحمد رائف

مقدمة الطبعة الأولى الشرعية
البوابة السوداء

أخى القارىء

إن هذا الكتاب الذى نقدمه إليك وثيقة اتهام خطيرة لاتدين نظاما بعينه بل تدين جيلا بأكمله ، لأن النظام لم يقو على ارتكاب هذه الفظائع إلا بعد أن استخف بالإنسان على الخريطة العربية كلها .

ومن العجيب المخجل ، ليس للنظام فقط بل للجيل بأكمله ، أن ترتكب كل هذه الفظائع تحت شعار الحرية . واليوم وبعد أن تكشف عيوب ذلك النظام إلى درجة الفضيحة ، هل استطاع المواطن العربى أن يصل إلى مرحلة الوعى بحيث لايسمح للجريمة أن تتكرر من جديد ؟

وإن أولئك الذين بغى عليهم الجلادون رفضوا الظلم وأعلنوا الرفض بكل شجاعة وإباءهل هم قادرون على الإفادة من التجربة المرة ليأخذوا بيد هذا الشعب الذبيح على يد أولئك الطغاة الذين انكشف أمرهم وبانت عورتهم ، وهل أيقن الشعب أن الدواء الناجح للخلاص هو نبذ كل الشعارات والمبادىء التى أزكمت الأنوف بعد التجربة القاسية ، وأن السبيل الوحيد للعزة والكرامة هو طريق الإسلام ، والإسلام وحده .

أما مؤلف هذا الكتاب فهو واحد من بين عشرات الآلاف الذين آثروا البلاء ، وعانوا مرارة السجن ، فكتب حروف كتابه بدمه ، ليقدم تجربته للتاريخ لتكون رفدا للأحرار على طريق الحرية الطويلة ، وكذلك لتكون وثيقة للتاريخ الذى سيكشف الطيب من الخبيث .

إن مسئولية الناشر فى هذه المرحلة المضطربة من تاريخ العروبة والإسلام أن يقدم المادة الفكرية القادرة على إزالة الغشاوة عن عيون النائمين وأحسب أن أحمد رائف فى كتابه البوابة السوداء – التاريخ السرى للمعتقل-كان واحدا من القلة النادرة فى ساحة الفكر العربى الذى قدم زادا فكريا على مائدة الحرية .

حسن التل

مدير ورئيس تحرير دار اللواء

الأردن – عمان

ناشر الطبعة الأولى

عمان فى مارس سنة ١٩٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم المؤلف للطبعة الأولى

كان لابد من قدر غير قليل من الشجاعة حتى أمسك القلم وأخط الصفحات التى بين يدى القارىء الكريم . ففى هذا الكتاب قصة طغيان أجهزة الأمن ووصولها إلى أبعد مدى فى العبث بأرواح الناس وأمنهم ، حتى أحالوا نهار مصر إلى ليل طويل بالغ الحلكة شديد الوطأة .

ولعلى إذ أقص عليكم قصة ماحدث لى من لحظة أن طرق بابى ضابط المباحث عند الفجر حتى قدر لى أن أخرج حيا بعد سنوات ، أقول لعلى بهذا أعطى علامات تضىء لنا طريقا لابد من أن نسلكها كمجتمع ، آن له أن يأخذ مكان القيادة والريادة ، بعد نوم طويل بعضه فى سراديب الشيطان الملتوية حيث أودعت طليعة هذا الشعب بالسجون والمعتقلات ، وبعضه الآخر فى جحور الخوف المحض والانتظار الطويل .

ويأتى هذا الكتاب على أعقاب فترة طويلة من الاستبداد السياسى وحكم الفرد فى مصر ، وقد طويت هذه الصفحة وفتحت بدلها أخرى جديدة نرجو لها أن تزدهر وتعيد إلى مصر مافاتها من خير كثير .

هذا الكتاب للناس جميعا ، صغيرهم وكبيرهم ، رجالهم ونسائهم ، إن الذى يسمح بالطغيان فى بلد ما هم أفراد الشعب ، وإذا كان الناس على درجة من الوعى فلن يسمحوا أن يستبد بهم حاكم مهما علا شأنه وذاع صيته ، وأتاهم بالشمس والقمر ، وخلق فيهم العزة والكرامة فى الخطب والتصريحات .

ولاريب أن العزة الحقيقية فى أن يعيش الناس أحرارا فى أمن من طرقة الفجر المفزعة ، والعزة الحقيقية فى أن يقول

كل واحد مايريد أن يقول ، وأن يعبر عما يختلج فى صدره وعقله دون خشية السجن أو الاعتقال .

وإننى أقدم هذا إلى القراء ليعرف الجميع بعضا مما حدث فى معتقلات أجهزة الأمن فى مصر قبل أن ينتهى عهدها إلى غير رجعة إن شاء الله .

فلتقرأوا هذه الصفحات وليتحول ألمكم من هول ما جاء بها إلى إصرار عاقل على ألا يتكرر ماحدث ثانية .

وأذكركم أن سيادة القانون لا تصنعها القرارات بقدر مايقرها وعى الشعب وحسن إدراكه وطرح الجبن جانبا ، والذى يسكت على الاستبداد لابد أن ينكوى بناره ، والساكت عن الحق شيطان أخرس .

فهذا الكتاب ليس للتسلية ، رغم مافيه من تسلية مرة ، ولكنه وثيقة ينبغى أن توضع نصب أعيننا دائما ، حتى يقف الناس فى الوقت المناسب ويحولوا بين الظالم وظلمه ، وكفى ماحدث فقد دفع المجتمع ثمنه غاليا .

وكنت قد خشيت على هذه الأحداث أن تأخذ سبيلها إلى النسيان والضياع فأردت أن أسجل جانبا منها كوثيقة أقدمها إلى محكمة التاريخ .

وقد ارتفعت ألسنة فى هذه الأيام تدين ماكان أيام الاستبداد ، ومن أصحاب هذه الألسنة من اكتوى بنار هذا الاستبداد ، ولهؤلاء نقول لهم : سلام عليكم بما صبرتم ، أما أولئك الذين كانوا يحرضون (الظلمة) ويحلون لهم مايفعلون على صفحات الصحف ويهللون أثناء سلخ الضحايا ويرسلون صفيرا عاليا والأسود تنهش لحم الشهداء ، ثم ذهب

العهد وبدأت حياة جديدة فى مصر وبدأوا ينتقدون وينعون على الظلم والظالمين ، فلهؤلاء نقول لهم ، ماأخبثكم وأتعسكم ! أين كنتم آنذاك ؟ ألم تكونوا سدنة هذا الضلال ؟ ألم تكن الأقلام فى أيديكم وأنتم للأسف كثر ؟ وجميعكم يعرف ماكان يدور فى السجن الحربى وأبى زعبل والقلعة وكانت أجهزة الأمن هى التى تتولى تبليغكم بأنباء التعذيب لتغرس الخوف فى نفوسكم .

آن الأوان أن نتذكر هذه الويلات لا لننتقم منها بل لنتحاشاها فى مستقبل الأيام ، وقد علمنا الإسلام أن نتسامح مع من آذونا وأن ندعو لهم بالهداية ، فنحن معشر المسلمين دعاة حضارة ، ونحن أولى من غيرنا بالتخلق بأخلاق الإسلام ، ولنحتسب كل ماحدث لنا عند الله سبحانه وتعالى حيث لايضيع عنده شىء ويثيب المؤمن الصادق على كل مايصيبه فى الحياة ، حتى الشوكة يشاكها ، والأمر كما تعلمون لم يكن فيه شوك بل كانت سياط من عذاب وأسياخ من حديد أحمر .

وأرجو من الله عز وجل أن يجمعنا على الخير ليس فى السجن ولكن فى معترك الحياة الفسيح حيث العمل الدءوب لرفع كلمة الإسلام .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

أحمد رائف

بيروت فى
الإثنين ١٧ صفر سنة ١٣٩٤
الموافق ١١ مارس سنة ١٩٧٤ م

مقدمة هذه الطبعة

قدر لكتاب « **البوابة السوداء** » رواج كبير بين القراء فى العالم العربى والإسلامى ، وقد طبع الكتاب أكثر من عشرين طبعة فى دول مختلفة ، وقام على نشره وتوزيعه كثيرون ، عرفت بعضهم ولم أعرف البعض الآخر ، وفى الحالين لم أتقاض مليما واحدا من كل هذه الطبعات ، وكان عزائى أن رواج الكتاب معناه أن الناس يعرفون مايجرى فى السجون ، وأن هذا يكون سببا فى عدم تكرار ماحدث ، وأن يسود القانون ، وتهب رياح الحرية على هذه البلاد التى شاء لها سوء الطالع أن تظل أبدا ليس باليسير تحكمها عصبة ، ويتغشاها إله ، والكل يدين له بالطاعة والولاء ، والويل كل الويل لمن يخرج عن سلطانه أو يفكر فى عصيانه .

« **البوابة السوداء** » تغلق بمصراعيها على شعوب بأكملها ، فتحول بينهم وبين رؤية الحقائق ، وتحجب عنهم حقهم فى عيش كريم ، وكرم العيش أن يكون للإنسان رأى فى حياته ، كيف يعيش ، ومن يحكمه ، وأن يسمع له إن أراد الحديث ، ويمنح الفرصة الكاملة ليدلى برأيه فيما يشاء من أشياء .

حرية فى اختيار من يحكمه .

حرية فى اختيار من يمثله .

حرية فى التعبير عما يراه .

حرية فى اختيار النظام الذى يرتضيه .

على الأقل بالرأى والكلمة !

« **البوابة السوداء** » قد أوصدت على الحاكم والمحكوم على حد سواء .

« ومن بينهما حجاب وعلى الأعراف رجال » .

صار الحاكم فى هذه البلاد فى حجاب منيع من أصحابه

وحاشيته وأجهزته ، فهو لايرى إلا مايرون ، وهم الذين يصنعون قراره ويمدونه بالمعلومات ، ومن ثم فهو لايعرف مايدور إلا من خلال هؤلاء ، وهم بشر ليسوا كسائر البشر ، يصيبون ويخطئون ، ولكنهم مختلفون ، فهم يخطئون ، ولايعرف الصواب طريقه إلى قلوبهم وعقولهم أبداً .

ومن لايصدق فليفتح كتاب التاريخ .

وكتاب التاريخ الحديث فى هذه البلاد ملىء بالعبر والشواهد .

« **البوابة السوداء** » قد أغلقت على شعب مسكين لايكاد يجد قوت يومه ، يريد أن يصل صوته إلى من يحكمه ، فلا تجيبه غير صرخات المعذبين ، وصفير السياط ، وأصوات الزنازين وهى تغلق فى عنف وصرامة .

ارتفع الحجاب منيعا بين الحاكم والمحكوم ، لم يعد أحدهما يفهم الآخر ، لأنه لايراه ولايسمعه ، هذا فى واد وذاك فى واد آخر .

وصرنا بين « شعب » قد صنعته الأجهزة وقدمته لحاكم لايعرفه الشعب ولايفهمه ، وبينهما مرارة وكراهية ، واحتقار صامت ، وتربص بالآخر ، كل من الإثنين يتمنى زوال الآخر ، وهى حالة فريدة من حالات التاريخ ، لعل قريبتها ومثيلتها تلك الأيام التى كانت تعيشها مصر أيام المماليك .

« مماليك » يعرف كل واحد منهم الآخر ، يتهادنون ويتقاتلون ، ومماالشعب إلا أجراء يعملون بالضيعة لزيادة « الغلة » ، وهؤلاء الأجراء لايعرفون شيئا عن سادتهم العظماء ، فيم يفكرون ، وماذا يفعلون ؟ ولكنهم يسوقونهم كالنعاج إن كان هناك قتال ، بين بعضهم البعض ، أو بينهم جميعا وبين آخرين .

وهذا الحجاب المانع بين السلطان وبين الإنسان فى هذه البلاد قد تكوّن عبر سنين ، صنعته الملابسات ، وكرسته الحوادث ، حتى صار شيئا لاينكر ، قد تمثل فى أجهزة وتشكيلات لها عقلها الخاص ، ونظامها الذى تحميه ، ووجهة نظر غريبة لايفهمها سواهم ، وهم يكرهون الحاكم والمحكوم على حد سواء .

« **البوابة السوداء** » قد أغلقت بمصراعيها على قلوب هؤلاء الناس وعقولهم ، حتى زادوا الفرقة والكراهية بين الحاكم والمحكوم ، فلا عيش لهم إلا فى ظل هذه الكراهية المتبادلة ، ومن هنا يأتى دورهم وتبرز أهميتهم ، فهم يحكمون الشعب والحاكم فى وقت واحد .

الشعب يمقتهم ويكرههم ويخشاهم ويهابهم فى آن واحد ، ويتمنى لو نقلوا كلمة صادقة عنه إلى السلطان .

وهم لايفعلون فى أغلب الأحيان ، إلا بالقدر الذى يتفق مع مصالحهم ويحقق أهدافهم ويجعلهم دائما فى عليين .

والحاكم يسألهم ويصدقهم ولايرى إلا مايرونه ، وإلا انفرط العقد وضاع النظام ، وذهب كل واحد إلى بيته .

وفى مثل هذه البلاد لاطريق ينفذ منه الحاكم إلى المحكوم ، أو المحكوم إلى الحاكم إلا عبر هؤلاء الغلاظ الشداد ، والكل فى غفلة وفى حجاب عن الآخر ، وكم من أموال تنفق ، وأرواح تزهق ، لتظل هذه الهوة أبدية ، حتى يرتفع على الأعراف رجال .

كيف يمكن للحاكم أن يرى المحكوم ويسمع صوته ، ويعيش مشكلاته ، ويعرف آلامه وآماله ؟

كيف يستطيع الحاكم أن يطلع على المحكوم ، من وجهة نظر الأخير ؟

كيف يحس نبضه ويعرف مايريد ؟
مشكلة عويصة أعيت الأذهان ، وكلت النفوس دون الوصول لغايتها ، مع بساطتها وسهولتها وإمكانيتها ، ويتحقق حلم السلام والرخاء والأمن .

ومن يدرى ؟ لعل الكون يتغير إن التقى الحاكم بالمحكوم .

ولكنه حجاب منيع من الصلف والقوة والقهر .

هناك من يريد أن يثبت وجوده وأهميته والحاجة إليه ، ولو أدى هذا إلى دمار شعب بأكمله ، حاكمه ومحكوميه .

ولن يؤدى هذا إلا الكوارث التي لاتبقى ولاتذر .

« **البوابة السوداء** » إذا أغلقت تجعل الحاكم يبيع ويشترى فى الأمة دون وازع أو رقيب أو حسيب ، وتنصب منه زعيما ملهما ، أفكاره وحى من السماء ، وكلامه قدسى منزل .

يبيع الأرض والجيش والناس في لحظة من نهار صيف قائظ شديد الحرارة ، ويضيع شرف الأمة على بحر من رمال لا أول له ولا آخر ، ثم يأتى الحجاب الحاجز فيملأ الشاحنات بالأنفار ، ويجعلونهم يطبلون ، ويزمرون ويرقصون لأن القائد المنهزم بقى فى مكانه حاكما . وأفهموا المساكين البلهاء التعساء أنه لاعاصم لهم منه ، وأنه الأول والآخر ولاحاكم غيره ، ولايهم من مات ، ولايعنينا ماضاع ، ولكن النصر الأعظم أن يبقى « الملهم » يجر الناس من خراب إلى خراب ، ومن هوان إلى هوان ، حتى أدركتهم عناية الله بالموت أو القتل .

« **البوابة السوداء** » إذا أغلقت تجعل الحاكم يستهين بأمته وقومه ، ولايعنيه أن يسخر الناس منهم ، وأن يكون هو سببا فى ذلك ، فيقولون له اجعل إتفاقك مع أعدائك رهنا بموافقة

قومك كما يفعلون ، فيقول لهم :
– أنا الدولة وأنا الشعب وأنا القانون وأنا كل شيء .
ولايعمل حسابا لشعبه حتى فى الشكليات .

وتخرج صحافة الدنيا تقول إن الاتفاقية ينبغى أن يوافق عليها مجلس اليهود حتى تصير سارية المفعول .
أما المسلمون فلا مجلس لهم !

« **البوابة السوداء** » إذا أغلقت تجعل الحاكم يترك كل أصحاب الخبرة والرأى فى أمر الاقتصاد وهو أمر عظيم ، ويجعل من لايعرف يقرر مالايفهم فى أمور الحياة ، ويتوقف كل شيء فى هذه البلاد ، ويسأل القاصى والدانى ، والكل يشهد أن الوزير الجاهل يضر ضررا عظيما بمصالح الأمة ، ورغم هذا يبقيه الحاكم ، ربما لأنه لايصل إليه إلا مايسمح به « الحجاب الحاجز » ، وربما لم يعرف بمدى الضرر الذى أصاب البلاد والعباد .

ويأتى حكم المحكمة فيندد بالقائمين على أمر الاقتصاد وينصح الدولة أن لاتعين فى هذا المكان إلا من كانت له خبرة أو حرص على مصالح البلاد ، وهو أمر لايحتاج إلى نصيحة أو توجيه من محكمة ، فالمفروض أن يتم ذلك بشكل بديهى ، ورغم كل هذا ، فلا أحد يرى ولاأحد يسمع .
« الحجاب الحاجز » قد ملأ الآذان بالطين والعجين .

« **البوابة السوداء** » جعلتنا لا نستطيع نقد الحاكم إلا إذا مات أو قتل . والحاكم الحالى فى أى زمن هو العظيم القادر الفاهم ، وعصره هو عصر النقاء والطهارة والخير والنماء ،

لايخطىء ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه ، ثم يموت فتنكشف الحجب ، ويبدو لنا أن كل ماعشناه كان وهما وخيالا ، وتظهر الخطايا ، وتطل الأخطاء والجرائم برؤوسها من بين ثنايا تاريخ لم توشك صفحته أن تنطوى .

ويدور الزمن ، وتتكرر نفس الأحداث « والحجاب الحاجز » يعظم ويعظم حتى كأنه يحجب السماء عن الأرض .

من يستطيع أن يرفع هذا الحجاب ؟ الحاكم أم المحكوم ؟ أم الاثنان معا ؟ إن نظرة إلى تاريخنا القريب تؤكد لنا أن الحكومات المتعاقبة قد أوقفت نمو هذا الشعب وحولته — أو تكاد — إلى شعب قاصر ، وعينت من نفسها وصيا عليه ، وصيا مستفيدا ، من مصلحته أن لايبلغ الغلام رشده أبدا ، فلا ينبغى عليه أن يسمع أو يتكلم أو يفعل إلا مايملى عليه،أرادته الحكومات المتعاقبة فاقد الأهلية ضعيفا لايقدر على شىء،فيسهل عليهم حكمه والتسلط عليه ، والبيع والشراء دون مااعتراض أو احتجاج ، وأجبروه ألا ينقد نظاما إلا بعد موت صاحبه .

وهذا الشعب القاصر هو الذى أنشأهم وأوجدهم ، وهو الذى صنع أمجادهم ولو أرادوا رد الجميل لما فعلوا معه هذا ، ولكانوا قدروا له دوره فى تكوينهم ، وإضفائه النعمة عليهم .

ومالفرق بين الأوصياء القادرين والقصر المساكين ؟
الفرق هو القدرة والقوة والجبروت ولاشىء آخر .
الاستكبار والتعالى فى الأرض ، ومكر السيىء .

إنها كلمة قالها حكيم :

– كُن فردا فى جماعة الأسود ، خير لك من أن تكون رئيسا على قطيع من النعاج .

ماالفائدة التى يجنيها المجتمع من شعب أبكم يعذب ويضرب وتلفق له القضايا أو تفصل له على مقاسه ، وتكون همة الناس أن تجرد نفسها من كل محتوى فكرى أو دينى ، حتى تبدو باهتة مسطحة مأمونة الجانب ، لايخشى منها ، ومثل هذا النوع لا يصلح لشىء وهْو عبء على الحياة نفسها .

الخائفون لايعرفون الطريق الصحيح إلى النهضة والحضارة والازدهار .

ورغم كل مانرى ومايمر بنا فإن الأصل لايخبو أبدا ..

هناك نور ينبثق من خلف الظلمة .

والأيام لاتجرى القهقرى .

والتاريخ يصّوب إلى الأمام .

الدنيا تتغير ، ربما ببطء ولكنها تتغير إلى الأحسن بالتأكيد .

الذى ننشده من الناس أن تحاول بطريقة واعية أن تمهدَ لمكان لها صحيح فى عالم قد لفظ الضعفاء .

أن يصر الناس إصرارا عاقلا على حكم أنفسهم ، وألا يتهاونوا **فى أقل جزئية من هذا مهما هانت فى نظرهم ، فالطريق إلى أن تحكم الشعوب نفسها بنفسها طريق شاقة وطويلة ، والضحايا كثير على جانبيه ، ولايبنى الممالك كالضحايا كما يقول أحمد شوقى .**

ودور الحكومات كبير فى إصلاح الشعوب إن كان الخير رائدها ، فهى الوحيدة القادرة على رفع « الحجاب الحاجز » بجرة قلم كما يقولون ، ولكنهم لايريدون . أما الأجهزة

فماذا نذكرها به غير الوطنية والمروءة والدين ، وكل معنى طيب ينبغى على الإنسان أن يتمسك به ويجاهد فى سبيله ، ويستطيع كل إنسان أن يفهم واجبه على نحو شريف ومفيد لو أراد .

ونريد أن نقول هنا مقولة مشهورة رددها الناس :

العدل أساس الملك ، وبغيره لايتحقق الانضباط والنظام .
وليس فى التعذيب نظام .
وليس فى جلد الناس نظام .

ولاتوجد جريمة فى هذا الكون تعادل تعذيب برىء والتمثيل به ، حتى ولو كان مسيئا .

وإن النظام الذى يهدد كرامة الإنسان ،لايقوى أمام أى هجمة مهما كانت يسيرة . وإذا أردنا أن نصنع بلدا قويا وشعبا عظيما **فلنعط كل واحد حقه فى حياة كريمة ، ولنجعله يأمن من طرقة الليل المفزعة ، ومن زيارة الفجر التى تبعث الخوف والذعر فى قلوب الجميع ، الرجال والنساء والأطفال ، وفى هزيمة يونيو ١٩٦٧ عظة وعبرة .**

ولن يتحقق أمن فى دولة مهما ظنت نفسها قوية وقادرة إلا بالقدر من الحرية الذى تسمح به لأفراد شعبها ، وفى حادث **المنصة أكتوبر ١٩٨١ عظة وعبرة .**

والأيام دول ، والناس لايخلدون ، وكل حاكم أو رئيس له أيام فى علم الغيب قد قضاها الله له ، وقضاها عليه أيضا . ثم يذهب ويأتى آخر على قدر ومشيئة من الله سبحانه وتعالى .

ولنا فى الأيام القريبة والبعيدة عظة وعبرة .

فإن كانت أمور الحياة والموت تجرى بقدر معلوم من الله سبحانه وتعالى ، فلماذا التعالى والاستكبار ومكر السيىء ؟
فإن كانت الدنيا فانية ، والموت قادم لامحالة ، فالعمل الصالح أجدر وأجدى وأقرب للتقوى .

وبناء الأمم وتحقيق العدل وإقامة الشرع أعظم عند الله .

ولنتذكر من ذهب من الملوك والعظماء ، كأنهم لم يكونوا ، ولم يتبق منهم غير ذكرى عطرة أو كريهة .

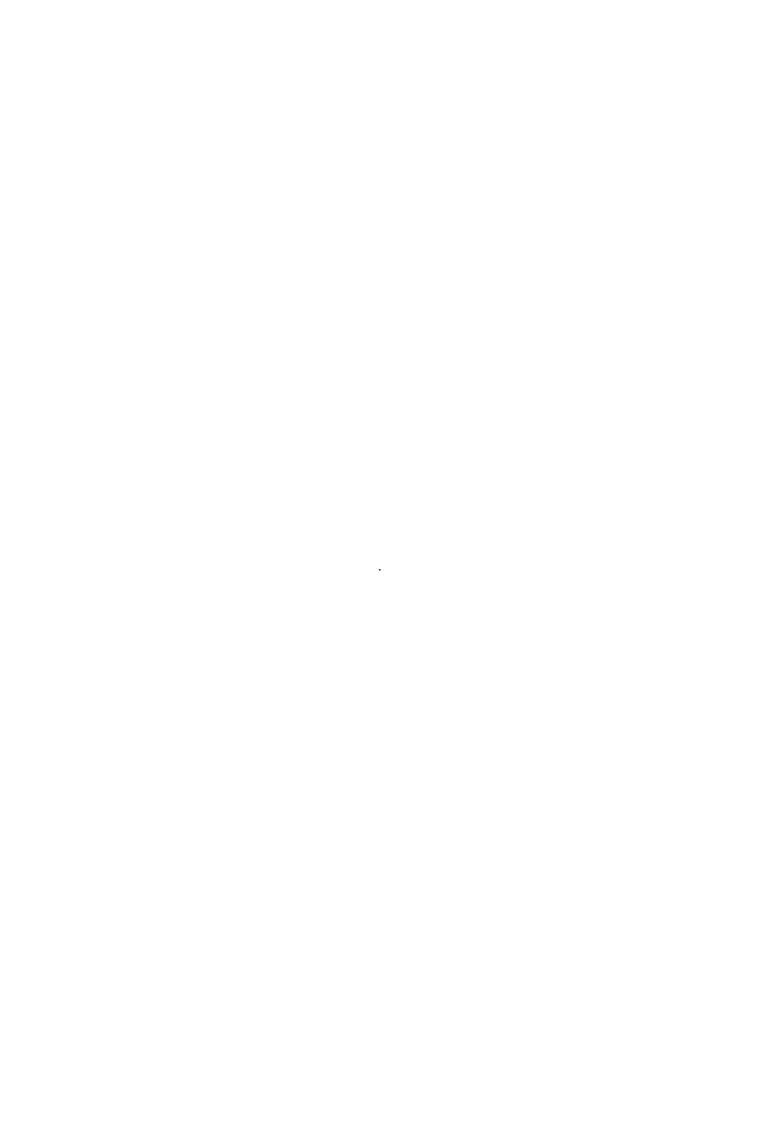
إن كنا سنموت فلماذا لانعيش فى أمن وسلام ؟
هذا كلام للجميع .
الحاكم .
المحكوم .
ومن هم ليسوا بحكام ولامحكومين .

بين يديكم صفحة نكدة من صفحات التاريخ ، فلنقرأها بإمعان لعل ذكرها يجعلها لاتكون مرة أخرى .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أحمد رائف

القاهرة فى الاثنين ١٠ رجب ١٤٠٥ هـ
الموافق ١ إبريل ١٩٨٥ م



الفصل الأول

خمس دقائق
ثم تعود

هذا ماقاله لى الرائد **محمد عبد الغفار ترك** عندما قبض على من منزلى فى الساعات الأولى من نهار (٢٥) أغسطس سنة ١٩٦٥ ، وأشهد أن الرجل كان مهذبا فى سلوكه معى حتى أودعنى معتقل القلعة السياسى مع إشراقه شمس ذلك اليوم العصيب .

كنت قد فرغت من قراءة مسرحية رجال وفئران للمؤلف الأمريكى (**جون شتاينيك**) ، وكانت الساعة تقترب من الواحدة صباحا عندما دق جرس الباب ، وكان الطارق سمير الهضيبى ووجدته ممتقع الوجه شارد النظر بادى القلق ، وجلسنا ، وبدأ يذكر ماعنده من أخبار ، أخبرنى أن يحيى حسين صديقنا الذى يعمل طيارا فى شركة الطيران العربية قد اختفى - أثناء هبوط طائرته التى يقودها - بالخرطوم فى طريقها إلى أديس أبابا ، وانتابتنى دهشة شديدة لهذا الخبر ،

وتذكرت يحيى ، ذلك الصديق الذى تخرج من كلية الزراعة ثم التحق بمعهد الطيران المدنى وصار طيارا وزاد دخله وتزوج زميلة له من الكلية وأنجب بنتين ظريفتين إحداهما سمية على ماأذكر الآن بعد مرور كل تلك السنوات ، وكان يعيش حياة هادئة خالية من المنغصات ولم يكن يعانى من مشكلة ما فى حدود علمى .

وسألت سمير : وكيف علمت بهذا الخبر ؟

فقال : إنه كان يجلس مع محمد الغنام زوج شقيقته وضياء الطوبجى الذى أخبرهم بذلك .

وسألته :

ترى ماذا حدث ليحيى حسين ؟

وأجابنى والحيرة تملؤه :

لست أدرى .

وتعـددت الأقـوال

والاستنتاجات فى تلك الجلسة كما أخبرنى سمير ، وكان أغرب استنتاج أن المخابرات الأمريكية قامت بخطفه ، ولكن لماذا ؟ لاأحد يدرى ، وقال البعض إنه نزل إلى كافتيريا المطار فى الخرطوم ليشرب قدحا من القهوة فأصابته نوبة إغماء أو فقدان وقتى للذاكرة ، وأخذ الحديث جانبا آخرا .

قال سمير : هناك أنباء مؤكذة تقول إن الحكومة تقبض على الإخوان المسلمين ، وصرت أفكر هل لهذا علاقة بخبر اختفاء يحيى حسين ؟

وجعلنا نضرب أخماسا فى أسداس ، نحلل ونفسر ونستنتج بلا طائل .

وأشرفت الساعة على الثالثة صباحا واستأذن صديقى فى الانصراف وانصرف بعد أن شغلنى بهذا الخبر المثير ، واستسلمت للنوم .

استيقظت بعد قليل على ضجة قريبة فى صالة المنزل التى وجدتها مضاءة ، ووجدت ابن خالتى رمزى الذى أسكن معه يقف وعليه علامات الدهشة والاستغراب والقلق ، وتبينت طرقا شديدا على باب الشقة ، وهمس رمزى فى أذنى: المباحث العامة ، ايه رأيك ؟ ولم يكن هناك رأى غير فتح الباب ، وطار النوم من عينى وأنا أرى الضابط يندفع داخلا معه مجموعة من المخبرين قد شهروا مسدساتهم . واستفقت تماما ، المباحث العامة !! ماذا تريد ؟ هل لذلك علاقة بيحيى حسين المختفى؟ وشعرت كأننى فى حلم مزعج ، ودخل خلف هؤلاء عم هاشم البواب ، الرجل الصعيدى الذى كان مثلنا لايفهم مايدور حوله .

وسأل رمزى الضابط مين حضرتك ؟

– الرائد محمد عبد الغفار ترك ، المباحث العامة .

– ممكن أن أرى بطاقتك ؟

ومن بين نظرات الغيظ والحنق التى كان يرمقنا بها المخبرون أخرج الرائد بطاقة مر بها أمام أعيننا ، ولكننا لم نقرأ فيها شيئا ، فقد اختلط سوادها ببياضها فى نظرنا ، وأمر الضابط أحد المخبرين بغلق الباب بعد صرف عم هاشم البواب الذى غادرنا ذاهلا ، وخيم السكون على النظرات القلقة من ناحية ، والمتحفزة من ناحية أخرى ، وكانت الأنفاس اللاهثة تسمع بوضوح .

وقطع السكون صوت الضابط يسأل :

أيكم فلان (وذكر اسمى) ؟

– أنا.

–وأين حجرتك ؟

وأشرت إليها صامتا ، فقال وهو متجه إليها : ممكن نفتش ؟ .

وحاول رمزى أن يمنعه ويطلب منه أمرا من النيابة بالتفتيش ، وابتسم الضابط ابتسامة مريرة ساخرة ولم يرد ، وأوقفت هذه المحاولة العقيمة .

دخلنا حجرتى لتفتيشها وانبث المخبرون فى أرجاء المنزل ، وجعلت أسأل الضابط :

هل يمكن أن أعرف السبب لهذا كله ؟ عن أى شىء تبحثون ؟

وتردد فى ذهنى خاطر مجنون ، لعلهم يبحثون عن يحيى حسين ، ولكن لماذا يبحثون عنه ؟ وماعلاقته بالمباحث العامة ؟ وهل لذلك كله علاقة بالقبض على الإخوان المسلمين ؟

وأفقت على إجابة الضابط ، وكان حقا مهذبا .

– نحن نريد أن نلقى نظرة على الكتب والأوراق التى فى حيازتك .

وشعرت بالغضب يملأ جوانحى ، الكتب هى أكثر الأشياء قداسة فى هذه الحياة وهى عندى فى حرم آمن ، ولايجب أن تعبث بها الأيدى ، وابتلعت غضبى فلم أكن أملك لحظتها سوى ذلك ، واستمر تقليب الكتب والعبث بها أكثر من ساعة ، وأخذوا وقتها مجموعة ثمينة من الكتب فى مختلف المعارف والآداب وحملها بعضهم إلى سيارتهم التى كانت تنتظر أسفل البناية– وقدعلمت بعد ذلك أنهم عندما ذهبوا يقبضون على شقيقى الأصغر فى بلدتنا أخذوا ثمانية صناديق من كتبى التى كنت أحتفظ بها هناك – وانتهى التفتيش وأنا أحاول تخمين مايكون بعد ذلك ، وتكلم الضابط .

– ممكن ترتدى ملابسك ؟

– ممكن ، ولكن ، لماذا ؟

وأجاب الضابط بلهجة ودية :

– أبدا ، سؤال بسيط فى المباحث العامة ، خمس دقائق ثم تعود .

فقلت فى تردد :

– فى مثل هذا الوقت المتأخر ؟

فأجاب الضابط ، ولكن فى حزم هذه المرة :

– نعم ، في مثل هذا الوقت المتأخر .

وأدركت عقم المناقشة ، وارتديت ملابسى بهدوء وخرجت معه فى استسلام تام ، ولاأدرى لماذا – رغم أن الوقت كان حارا جدا – حرصت على اختيار ملابس صوفية ثقيلة .

ومع تباشير الفجر الرمادية ، كانت السيارة تقطع شوارع القاهرة النائمة بسرعة فائقة ، وجلس الضابط بجوار السائق ، أما أنا فجلست فى المقعد الخلفى أفكر فى مصيرى بين مجموعة المخبرين ، وقد أمسك اثنان منهما بذراعى كأنهما رقيب وعتيد ، وكان عقلى يمور بأسئلة كثيرة سرعان ماعرفت إجابتها قبل أن تطلع شمس ذلك النهار ، النهار الذى استقبلت فيه يوما من أكثر أيام حياتى عجبا وغرابة .

وصلنا إلى مبنى المباحث العامة وقد بدأ الصبح يتنفس تنفسا بطيئا ضجرا ، وكان المبنى غارقا فى الصمت ، موحشا كأنه الموت ، هكذا بدا لى من الوهلة الأولى .

ونزلت من السيارة فى صحبة المخبرين ، وسرنا خلف الضابط ، كان يرتدى قميصا وبنطلونا كغيره من الناس فى القاهرة ، ولعلى قابلته يوما فى طريقى بين مئات من الناس فى الشارع عند غدوى ورواحى ، ولكن ، هل لو تحققته يوما كنت أتصور أن هذا الإنسان الوديع بيده كل هذه المقدرات ، نعم إنه يستطيع أن يأخذ أى إنسان من بيته فى أى ساعة يشاء إلى حيث لايعلم أحد ، ويكفى أن يبرز بطاقة صغيرة فى يده ، بطاقة لايتمكن أحد من قراءتها ، وسرعان ماتنفتح أمامه كل الأبواب المغلقة كأنها خاتم سليمان ، أو هى مصباح علاء الدين ، وطبيعى أنه يستطيع أن يفعل أى شىء دون أن يبرز هذه البطاقة .

والحقيقة المرة أن الحال فى مصر ، آنذاك ، كان يكفل لأى ممثل للسلطة أن يفعل مايشاء دون حساب أو عقاب أو حتى مساءلة .

ضابط بينه وبين أحد الناس خصومة يستطيع هذا الضابط بسهولة وببساطة كاملة أن يذهب فى صحبة بعض المخبرين إلى منزل المسكين ويقتادونه الى حيث لايعلم أحد ، وبعد هذا الاعتقال بشهور طويلة يمكن أن يكتب أمر الاعتقال ، وقد يسأل هذا المواطن ، وقد لايسأل .

ومن أغرب ماكان يجرى فى تلك الأيام الثقيلة أن المواطن عندما يمثل أمام مكتب التحقيق ، كانوا يسألونه عن سبب اعتقاله ، وكان عليه أن يقدم سببا وجيها معقولا يبرر هذا الاعتقال وإلا فالويل له !

هكذا كان الأمر .

وإنى أذكر فيما مر بى بعد ذلك ، عندما كنت فى ضيافة المباحث الجنائية العسكرية بالسجن الحربى ، وكنت أجلس فى انتظار التحقيق معى خارج أحد المكاتب ، واستدعى أحد المواطنين وسئل عن سبب اعتقاله من الضابط المكلف ، وأجاب بأنه لايعرف ، وقد عرف بعد ذلك أنه كان لايعرف فعلا ، ولكن الضابط أمر فرقة العذاب بصب جام غضبها عليه ، واستمر الضرب بالسياط والكى بالنار لمدة تزيد على ثمان ساعات ويحاول ذلك الرجل أن يتبين الأمر عله يلهم بإجابة تنقذه من هذه النار التى فتحت عليه فجأة ، ثم استدعيت للتحقيق فى مكتب آخر ولم أدر ماذا كان من شأنه بعد ذلك .

ثم أذكر قصة منكود آخر ، كان يقطن بجوار أحد رجال السلطة فى بناية واحدة ، وحدث خلاف بين زوجة هذا وزوجة ذاك ، وانتظر الضابط الفرصة حتى واتته فى حملة اعتقالات عام (١٩٥٤) ، واعتقل الرجل ،والتقى به غريمه صدفة فى فناء السجن الحربى وكتب اسمه فى المكان الخالى

من ادعاء النيابة العسكرية وماهى إلا لحظات حتى وجد صاحبنا نفسه فى شاحنة مع آخرين ، حيث ذهبوا بهم إلى مبنى محكمة الشعب .

وزاد حظه سوءا أن المحكمة قررت فى هذا اليوم أن توزع الأحكام على المتهمين دون محاكمة ، واصطف المتهمون صفين تحت وطأة الخوف والقهر ومر رقيب من الجيش وكتب أسماء كل صف فى قائمة بيده ، وخرج أحد المساعدين وأعلن فى صوت جهورى ، بطريقة عشوائية :

– كل من سجل اسمه فى هذا الصف قررت المحكمة سجنه عشر سنوات مع الأشغال الشاقة ، أما هذا الصف فكل واحد فيه قد عاقبته المحكمة بأكثر من هذا بخمس سنوات . وماهى إلا ليلة أو تكاد حتى وجد صاحبنا نفسه فى الليمان يكسر الحجارة تحت حرارة شمس (المقطم) الحامية .

ماعلينا ، نعود إلى مبنى المباحث العامة فى صباح (٢٥) أغسطس ١٩٦٥ صعد الضابط ومن معه من المخبرين وأنا بينهم الدرج خفافا ، وبدأت خطواتى تثقل وبدأت أشعر بالقلق ، فقد شعرت أننى أتحرك نحو مصير لاأعلمه ، ولم يكن هناك إنسان واحد فى ردهة المبنى الواسعة ، أهذه هى المباحث العامة التى يبعث اسمها الخوف فى أكثر القلوب شجاعة ؟ وصرت أصيح فى الضابط :

– إلى أين تأخذنى ؟ ماسبب كل هذا ؟

لم يرد على ، وتحول إلى إنسان آخر غير ذلك الذى عرفته ، كان يكلمنى بلطف وعذوبة منذ قليل من الوقت ، وتركنى بين حارسين ودلف إلى حجرة من الحجرات ،

وبقيت مدة واقفا يلفنى الصمت والقلق ، فقد تصورت أن هذا المبنى لابد وأن يكون قد ملىء بحرس شديد وشهب خاطفة ، ولكن لم يكن هناك شىء من هذا أبدا ، إلا أن هذا الصمت لابد أن يخفى شيئا ، شيئا لأادرى ما كنهه ، وكيف يكون أثره على عندما يهب من كل ناحية .

ونظرت إلى أحد الحارسين ، وكان ينظر إلى متفرسا وسألته .

ولاادرى لماذا سألته هذا السؤال :

- أهناك تعذيب ؟

- أين ؟

- فى المكان الذى تذهبون بى إليه .

ونظر إلى الحارس نظرة وانية ثم قال :

- أهذه أول مرة تعتقل فيها ؟

استبان الأمر ، هو اعتقال اذن ؟ ولكن لماذا؟ وكان وقع كلمةاعتقال غريبا جدا على أذنى ، ووجدت نفسى أفكر بعمق فى الأمر ، هى ليست خمس دقائق كما قال الضابط اذن ، واستفقت على صوت الحارس :

- على كل حال لاتقلق .

- كيف ؟

- الضرب بسيط . ياإلهى !! كيف أخرج من هذه الورطة ؟ الضرب بسيط ؟ ، ومالفرق بين الضرب البسيط والضرب المركب ؟ كنت ساعتها لأرى فرقا بين الاثنين ، ولكنى علمت بعد ذلك أن الفرق بين الضرب البسيط وغير البسيط مثل الفرق بين السماء والأرض تماما دون أدنى مبالغة ، وسأبين لكم كيف كان ذلك .

أدخلونى الحجرة التى دلف إليها الضابط ، ودعانى إلى الجلوس، فجلست برهة يسيرة ثم طلبت أن يسمح لى بأداء فريضة الصبح فوافق ، وعندما سألته عن جهة القبلة اعتذر بأنه لايعرف مكانها ، وتذكرت أننى أستطيع الصلاة إلى أية ناحية .

لاأريد أن أطيل عليكم .

كتب محضرا بالمضبوطات التى ضبطت عندى من كتب وخطابات وبعض الدراسات التى كنت قد كتبتها عن التاريخ الإسلامى ، ثم ناولنى القلم وطلب منى أن أوقع على المحضر ، وفوجئت أنه لم يتضمن الكثير من الكتب التى أخذت من عندى ، ولكنى لم أهتم ووقعت باسمى فى هدوء وبلا ضجيج ، وفى دقائق قليلة كانت السيارة تضرب بنا مرة أخرى فى شوارع القاهرة ، بعد أن أمر الضابط السائق أن يصعد بنا إلى فوق ، هكذا قال له .

وظهرت مآذن القلعة وصارت تقترب عبر الطرق المتعرجة ، وتقترب أكثر حتى بدت فى ناظرى كمارد شامخ الرأس فى السماء ، ولاأدرى لماذا أحسست ساعتها بروح عمرو بن العاص ترف قريبا منى ، ذلك الرجل العظيم الذى خلص مصر من ظلم الدولة الرومانية الشرقية ، وكان له الفضل فى اعتناقى الإسلام ، وشعرت ساعتها أيضا أن روح الإسلام هى المهيمنة على القاهرة مهما مر بها من أحداث وخطوب .

وسارت السيارة فى سراديب ملتوية متعرجة حتى وصلت إلى مكان لم أعد أرى فيه المارة الذين كانوا يروحون ويجيئون منذ قليل ، أصبحت السراديب تعج بالجنود الذين يحملون بنادقهم وقد غرسوا فيها السلاح الأبيض وارتدوا جميعا الخوذات كأنهم مقدمون على حرب ، وانتهينا إلى باب ، ونزلنا جميعا ، ولاحظت أن معاملة من معى قد صارت أكثر خشونة ، ودخلنا مكانا أشبه بمدخل قبو عتيق فى قصر قديم ، لقد كنا على باب معتقل القلعة السياسى ، ذلك المكان الذى شهدت فيه مذبحة أكثر وحشية من تلك التى فعلها محمد على فى زمن أغبر ، وأذكر أننى حملت على كتفى أحد قتلى تلك المذبحة فى يوم لاحق لوصولى كما سيأتى فيما بعد .

الفصل الثانى

حقوقك
أيها المواطن إذا اعتقلت

طرق الرائد **محمد عبد الغفار** **ترك** الباب الذى يقع في مدخل القبو ، وفتح لنا شخص يرتدى ملابس مدنية متجهم النظرة تبدو عليه أمارات الغباء والغلظة وأدى التحية للضابط وسمح لنا بالدخول .

كان هذا المدخل عبارة عن حجرة ضيقة أشبه ماتكون بالزنزانة وفى مواجهة الباب الذى دخلنا منه باب آخر ضيق مغلق ، وتذكرت ساعتها حكمة تقول : (لاتدخلوا من الباب الضيق) ولكن أنى لى بطاعة هذه الحكم والأمثال فى هذا الوقت الضيق ؟ كان هناك مكتب صغير دهن بطلاء بنى اللون وفى خشبة بدت أسماء كثيرة لم أتبينها قد حفرت فيه بسن بارز ، وعليه دفتران أو ثلاثة شبيهة بدفاتر الأحوال الموجودة عادة فى أقسام الشرطة ، وبجوار المكتب توجد خزانة حديدية خضراء الطلاء ولها مقبض نحاسى لامع ، تصورت ساعتها أنهم قد يفتحونها ويودعوننى فيها إلى يوم الدين ، وياليتهم فعلوا ذلك ، وخلف المكتب كان سرير صغير ، قد تمدد عليه عملاق يغط غطيطا عاليا قد برزت ساقاه من نهاية السرير فى الفضاء ولم توقظه الضجة التى أحدثها دخولنا ، وكان يبدو وكأنه قطعة من الحجرة الصماء باردة الملامح ، وكان يجلس خلف المكتب ضابط آخر علق سترته على مقعد قريب وتشير النجوم الثلاث الملتصقة فوق كتف سترته بأنه نقيب وصار يرحب بالضابط الذى اصطحبنى إلى هناك وأخذا يتحدثان وكأنه لاوجود لى على الإطلاق .

وسرعان ما انصرف الرائد محمد عبد الغفار ومن معه وصرت وجها لوجه مع ذلك الضابط الجديد ، وماهى إلا لحظة حتى دارت الأسئلة ، سريعة متلاحقة ، اسمك ؟ ، سنك ؟ ، صناعتك ؟ ، عنوانك ؟ ، هل معك أمانات ؟ ، اخلع الحزام كذلك النظارة الطبية . واعترضت . النظارة بالنسبة لى ضرورية ، أو هكذا خيل إلى لحظتها .

وارتفع صوت كالصفير من فم العملاق الذى كان نائما منذ قليل :

– من مصلحتك أن تسلم هذه النظارة .

– ماذا تعنى بهذا ؟

– أنت لاتدرى ماذا ينتظرك خلف هذا الباب .

ولفنى وجوم ثقيل ، وسلمته النظارة ويداى ترتعشان ، ماذا ينتظرنى ؟ ولماذا ؟

وتذكرت محمد على والمماليك ، محمد على بلحيته الفضية ونظرته القاسية الساخرة ، وأمين بك شاهين وهو يقفز بجواره من فوق أسوار القلعة ودوى الرصاص يصم أذنيه ، وسرعان ماوجدت نفسى أُدلف من الباب الضيق بعد أن جردونى من كل مامعى وفى لحظة دخولى رأيت مشهدا لاأستطيع أن أنساه ، وظنى أنه لن يخرج من مخيلتى حتى آخر يوم من حياتى .

عندما دخلت من الباب وأغلقوه خلفى تحسست قدماى درجتين حجريتين نزلتهمامترددا ثم أُرسلت بصرى إلى المكان المكشوف الذى بدأت الشمس فى غزوه كان ثمة على الجانبين حجرات صغيرة مفتحة الأبواب فى أعلى كل واحدة رقم ، وكان هناك طابور عجيب من البشر عرفت فيما بعد أنهم كانوا فى طريقهم إلى دورة المياه بعد ليلة حافلة من ليالى العذاب بمعتقل القلعة .

كانوا بين الثلاثين والأربعين ، وكان جميعهم يئنون من الألم وبدوا جميعهم مشوهين من التعذيب القاسى الذى أنزل بهم فتجد إثنين يحملان واحدا منتفخ القدمين بالصديد الاصفر اللامع الذى يبدو تحت الجلد الذى تمزق فى مواضع

كثيرة ، ولاتستطيع أن تتبين معالم وجهه من الإنتفاخات التى تحيط به ومن الألوان المختلفة التى أحدثتها الكدمات وكأنه قد ارتدى قناعا بشعا قميئا ليخيف به الناس . وترى آخر قد شج رأسه شجا منكرا فبدا لون الدم الأحمر بين سواد الشعر القاتم وكأن رأسه قد فلقت بسيف . ثم ترى آخر يزحف على بطنه لأنه لايستطيع المشى من شدة مالاقى على قدميه ، وعلى غير قدميه ، وليس هناك من يحمله فالكل مشغول بحمل من لايستطيع الزحف – هذا هو الضرب البسيط الذى قال عنه الحارس إنه كل ما ينتظرنى فى رحلتى المجهولة إلى ذلك العالم العجيب .

ووقفت صامتا أزدرد ما أرى وقلم جف ريقى من الدهشة وليس من الخوف فإنى أتذكر جيدا أن الخوف قد زايلنى تماما فى تلك اللحظة ، وحتى الآن لاأستطيع أن أعلل كيف كان ذلك .

وفجأة رأيت أمامى شابا أسمر اللون فى الخامسة والثلاثين من عمره تقريبا له شارب دقيق رفيع كأنه سوط سودانى جديد لم يضرب به أحد بعد ، ولاأدرى من أين جاء فقد كنت مشغولا بمراقبة الطابور الذاهب إلى دورة المياه .

وتقدم منى هذا الرجل حتى وقف قبالتى وصار يحدق فى وجهى للحظات كأنما يريد أن يستشف ماوراء وجهى ، وصرت أحدق أنا الآخر ثم سألنى :

– هل أنت فلان ؟

– نعم .

وفى حركة سريعة خاطفة صفعنى صفعة هائلة على وجهى طار على أثرها شرر من عينى وانهالت الشتائم من فمه كأنها سيل منهمر،وكان يردد أبذأ ماكان فى قاموس الشتائم ! إن جاز التعبير .

ووجدت نفسى بطريقة لا شعورية وقد أمسكت بتلابيبه ودفعته إلى الجدار فى حركة عصبية دون تفكير أو تقدير وصرت أصرخ فى وجهه :

– كيف تضربنى بهذه الطريقة ؟ أنت مجنون بالتأكيد ، هناك دستور وقانون ومجلس أمة ، والويل لك إن نسيت شيئا من هذا .

لم أكن أتصور يومها أن شيئا من هذا يمكن أن يحدث لى فى بلدى ، والشيء الغريب أن أحدا من المعتقلين لم يلتفت إلى ، كأن الأمر لايعنيهم ، كل مشغول بما هو فيه .

وأسرع نحوى عدد من المخبرين ، واستفقت وتبينت لى حقيقة هائلة ، لقد صرت فى مكان لا أستطيع فيه شيئا ولاأملك لنفسى ضرا ولانفعا على الإطلاق ولم يكن هناك غير التسليم لإرادة الله تفعل بى ماتشاء .

وهموا أن يبطشوا بى فمنعهم الضابط الذى صفعنى وكان اسمه أحمد راسخ – كما علمت فيما بعد – وبعد أن تأكد من هدوئى أخذنى من يدى عبر طريق طويلة بين الزنازين القائمة كالأشباح الميتة فى مطلع ذلك الصباح الكئيب .

وفى نهاية الممر وجدت سلما خشبيا يفضى إلى الطابق الثانى ، وصعدت السلم خلف الضابط صامتا متجمد المشاعر ميت الانفعال والحس من هول ذلك الحدث الهائل الذى صدمت به فى ذلك اليوم .

وفى نهاية السلم وجدت صالة صغيرة تفصل بين عنبرين كبيرين ،كان الواحدمنهما حوالى خمسة وعشرين مترا طولا وعشرة فى العرض ، وألقيت نظرة إلى اليسار ، فوجدت العنبر خاليا من الأثاث عدا دكة خشبية وكرسيين أو ثلاثة ، ومكتب صغير شبيه بذلك الموجود فى فصول المدرسة ، ولم يكن

هناك أحد ولكن كان جداره مخضبا بدماء قديمة ، ومن النافذة التى غطاها الحديد عرفت أن سمك الحائط أكثر من متر على وجه التأكيد .

وفى هذه اللحظة شممت رائحة الموت ، ثم التفت ناحية اليمين ، كان هذا ، وأحمد راسخ يراقبنى صامتا ، على شفتيه ابتسامة صفراء ، وعندما رآنى أحول بصرى ناحية العنبر الواقع فى هذه الناحية أشار بيده إشارة ما إلى من فى العنبر ، وإذا بى أسمع ضجة كبيرة وأصواتا مليئة بالفزع والألم ، نعم صيحات بشر يجرون من وحش مفترس يطاردهم وبدأت أشعر بالخوف .

ماهذا كله ؟ أناس يجرون فى حركة دائرية على طول العنبر وقد تجردوا من ملابسهم وظهروا كيوم ولدتهم أمهاتهم ، وقد وضعت القيود الحديدية فى أيديهم ووقف فى كل ركن من أركان العنبر ثلاثة مخبرين أمسك كل واحد بهراوة تزيد عن طول الرجل، وكانوا يهوون بهذه الهراوات على أولئك المنكودين .

والتفت إلى أحمد راسخ مشدوها مذهولا من هول مارأيت ، ولكنه قال لى من خلال ابتسامة صفراء :

– هل تعرف أحدا من هؤلاء ؟

– كلا

– دقق النظر جيدا .

وأرسلت نظرى من جديد، وكدت أسقط على الأرض من المفاجأة ، لقد كان هؤلاء المنكودون ثلاثة من أصدقائى، ولم أتبينهم للوهلة الأولى فقد كانوا عراة تماما .

وفى هذه اللحظة جاءنى صوت أحمد راسخ كالفحيح :

– هل رأيت الدستور ومجلس الأمة ، وكيف أن هذه الأشياء لامعنى لها أبدا ؟ وابتلعت ريقى ولم أجد جوابا فقد

كان الأمر أعظم من أن يقال فيه شيء ، وعاد إلى الكلام ثانية وكان صوته هذه المرة مجسما يأتى من كل ناحية .

– هيه ناوى تتكلم ؟

ووجدتنى أرد عليه بلا وعى :

– أتكلم عن أى شيء .

– يبدو أنك متعب .

– مطلقا ، واسألنى وأنا أجيبك ، لاأظن أن هناك ماأخفيه .

– سوف نرى أيها التعس .

ولم أكن أدرى ساعتها حقيقة هذا الأمر ، ماالقصة ؟ عن أى شيء سأتكلم ؟ ولكنى شعرت أننى إن لم أتكلم فسوف يقتلوننى من الضرب ولم أكن قد ذقت الضرب بعد ، حتى هذه اللحظة اللهم إلا تلك الصفعة المجنونة التى أخذتها عند دخولى ، وقد علمت فيما بعد أن هذه الصفعة كانت أهون مايمكن أن يناله الإنسان فى تلك الأيام .

وقادنى أحمد راسخ إلى العنبر ناحية الشمال وجلس على الدكة الخشبية وقال :

– هيا تكلم .

ومرة ثانية ازدردت ريقى وأنا فى حالة بالغة من السوء ، وصرت أحدق فى وجهه دون أن أتكلم أو أنطق بكلمة واحدة ، فلم أكن أعرف فى أى موضوع أتكلم .

وسألته فى صوت خافت :

– هل يمكن أن تسألنى وسوف أقوم بإجابتك على كل سؤال ؟

وضحك ضحكة وحشية خشنة ثم صرخ بعدها يستدعى الزبانية ، وسرعان ماكان بيننا أربعة منهم يتطاير الشرر من أعينهم وفى أيديهم الهراوات التى وصفتها ، وكانوا كأنهم يفهمون مايراد منهم .

وفى أقل من نصف دقيقة كنت مجردا من ملابسى وأدور فى ساقية العذاب ، والهراوات تأتينى من كل مكان ، وكأن سقف الحجرة صار يمطر عصيا وأسواطا من نار ، والضرب يوجعنى ويسبب لى ألما لا أستطيع وصفه وأشعر كأن أشياء من جسدى ونفسى تتمزق وتتحول إلى هباء يضيع بين دخان العذاب الثقيل الذى يشمل العنبر .

ويبدو أن الضرب قد استمر ساعة كاملة أو يزيد ولو أننى ظننت أنه استمر دهرا طويلا ، وسقطت على الأرض إعياء وتعبا ، وتمددت دون حراك ، ولم يتركنى المخبرون ولكنهم التفوا حولى يضربون بعصيهم وهراواتهم ، تماما مثل الذبيحة التى ينفخونها ثم يضربونها بالعصى ليتسنى لهم سلخها بعد ذلك دون مشقة .

وكان السلخ فى حالتنا تلك هو التحقيق ، وماهى إلا لحظات أو تكاد حتى ظهر أحمد بك،ومن بين قدميه المفتوحين كنت أرى أدوات العذاب وهى تجر على الأرض فترسل صوتا يبعث القشعريرة فى أكثر القلوب شجاعة ، وفى تشف ووحشية سألنى :

– هيه ناوى تتكلم ؟

ولم ينتظر أن أرد عليه بل أردف قائلا :

– لقد أذن لنا سيادة المشير بقتل خمسين كلبا منكم .

وتخلل الضباب عقلى ، ولكنى شعرت بخدر لذيذ يسرى فى جسدى ، لقد اقترب الفرج وما هى إلا هنيهة حتى يأمر هذا المخلوق بقتلى وأطأ بعدها بقدمى فى ملكوت الله الفسيح .

وانتابتنى لمحات من التفكير،أترانى لو مت هل أذهب شهيدا ؟ وانتهيت من أفكارى الملائكية على عذاب الأرض يصب صبا ، وعاد الضرب من جديد ، ولكنه أكثر وحشية وضراوة هذه المرة ، ومن بين الضرب المبرح صرت أقول له :

– ألا تبين لى عن أى شىء تريدنى أن أتكلم ؟

وقال الكلمة التى أنارت لى الطريق ، وسرعان ما لفنى الظلام من جديد ، لقد نطق بكلمة واحدة ، كلمة حادة كأنها السيف .

– الإخوان ؟؟؟

وفى دهشة قلت له :

– ماذا عن الإخوان ؟

– التنظيمات ، المؤامرة ، الأسلحة ، المدربون ، تكلم عن كل شىء ؟

وعاد الضرب من جديد قويا أخاذا عبقريا .

لم أدر كم مر بى من الوقت ، فقد أخذتنى غاشية أفقت منها وكأننى فى حلم ، كان النهار قد انتصف ، وغادر أحمد بك العنبر وجاء ضباط آخرون ، وأحضر الجند مكاتب شبيهة بتلك التى كانت فى فصول المدارس ، وانتحى كل ضابط ركنا من أركان العنبر وسيق أمثالى إلى كل واحد من الضباط الجالسين ، أما أنا فقد أهملونى إلى حين .

ومن خلال التحقيق فهمت القصة فى ذلك النهار العصيب .

الضباط يؤكدون للمتهمين أن هناك مؤامرة دبرتها جماعة من الإخوان المسلمين ، والمتهمون فى حالة ذهول حقيقى فرغم أن جميعهم تقريبا من أعضاء الجماعة إلا أنهم لم يكونوا

على علم بما يؤكده الضباط من أن هذه المؤامرة قد دبرت ضد الحكومة التى يرأسها جمال عبد الناصر ، وانه قد ضبطتها المباحث الجنائية العسكرية تحت إشراف شمس بدران ، والمباحث العامة لاتدرى شيئا عنها ، والقضية الأساسية تحت تصرف المباحث الجنائية العسكرية بالسجن الحربى،كانوا يجرون التحقيق الرئيسى ، وهناك لايسمحون بتسرب شىء من المعلومات إلى المباحث العامة التى كانت تقبض على كل من هب ودب حتى تستطيع أن تكون فكرة واضحة عن الموضوع على الأقل .

وكانت المباحث الجنائية العسكرية هى أعلى سلطة فى مصر آنذاك فقرارها قضاء وقانون بل كان هناك استئناف لحكم القضاء ونقض فى أحكامه أما هذه فلا ، وكان يرأسها العميد سعد زغلول عبد الكريم الذى يتبع مباشرة لرئاسة شمس بدران الرهيب .

وشمس بدران هذا هو مدير مكتب المشير عبد الحكيم عامر الذى كان مثقلا بأعباء كثيرة جعلته يوكل عنه مدير مكتبه فى عمل كل مايراه فى صالح مصر ولم يكن يراجعه أو يسأله بل أطلق يده يفعل بالعباد مايشاء .

ويدخل الإنسان إلى مكان التحقيق ويضرب حتى يفقد الوعى ، ولايتكلم لأنه لا يعرف شيئا ، ثم يؤتى بآخر ، وهكذا..

وكانوا يضربون الناس ضربا شديدا حتى يعترفوا أنهم جناة ، لايكتفى المحقق منه بالاعتراف بل عليه أن يقنع المحقق بجرمه ، وعليه أيضا أن يسد الثغرات التى قد تتخلل كذبه على نفسه .

ومن الحكايات التى سمعتها ورأيتها تروى أمامى فى ذلك اليوم الدامى ، قصة (جوال الأُرز) :

مصلح زريق عامل يعمل فى شركة تقوم على رصف الطرق فى أنحاء البلاد ، وفى غضون عام (١٩٦٠) كانت شركته تعمل على رصف طريق بجوار مدينة دمياط حيث تشتهر هذه المنطقة بالأُرز الجيد ، وبعد أن انتهى من العمل وآن أوان عودته إلى القاهرة اقترح على زميله أحمد السيد إسماعيل أن يمروا على بلدة قريبة اسمها (كفر البطيخ) حيث يوجد بها تاجر أرز وليس بأية صفة أخرى ، فقد كان عبد الفتاح اسماعيل من زعماء الجيل الثالث لجماعة الإخوان المسلمين ، وهى حقيقة غابت عن مصلح المسكين .

قصد مصلح وأحمد السيد اسماعيل قرية كفر البطيخ ليحصلا على جوال من أرز دمياط الفاخر ، ولو كانا يعلمان ماسيكون من جراء هذا لحرما أكل الأُرز عليهما وعلى ذريتهما من بعدهما إلى الأبد .

نزلا القرية وسألا عن عبد الفتاح اسماعيل ، ويشاء حظهما أو قدرهما أن يلتقيا بمخبر المباحث العامة الموجود فى الناحية ، وماكادا يسألانه حتى استنطقهما وسجل أسماءهما فى دفتره من واقع بطاقة كل منهما ، ثم نصحهما بالذهاب بعد أن عرف طلبهما وأوصاهما أُلا يعودا إلى القرية أُبدا ، وحرر المخبر تقريرا بالحادث رفعه إلى المباحث العامة ، ولم يلتفت إلى التقرير نظرا لتفاهة الوقائع ، ولكنه حفظ فى النهاية فى ملف عبد الفتاح اسماعيل ، ورجع مصلح وأحمد السيد اسماعيل ونسيا الموضوع تماما .

ومرت السنون وجاء عام (١٩٦٥) وقبض على عبد الفتاح اسماعيل وأودع السجن الحربى رهن التحقيق ، هناك

عند المباحث الجنائية العسكرية وعكفت المباحث العامة – التى لم تكن تدرى شيئا عن الأمر – على دراسة المسألة واستخرجت كل الأسماء التى ورد ذكرها ضمن التقارير بملف عبد الفتاح اسماعيل ، وألقت القبض على أصحابها . وجرى معهم التحقيق .

وجاء اليوم الذى لم يخطر ببال مصلح وصاحبه أبدا .

وحاولوا أن يعرفوا من مصلح سر السؤال عن عبد الفتاح اسماعيل منذ سنوات ، وكانت الإجابة سهلة وبسيطة ، لقد ذهبا من أجل أرز (دمياط) الذى اشتهر بالبقاع ، ولم تزده هذه الإجابة إلا عذابا .

وصار العذاب يصب فوق رأسه حمما حمما ، تارة بالهراوات وأخرى بالكرابيج النوبى منها والسودانى ، والرجل يصرخ بكلمات مفهومة وأخرى غريبة لم ترد فى لغة مما يعرفها البشر ، ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت .

وعندما يكل الزبانية من التعذيب يرفع مصلح صوته بصراخ مفهوم .

– والله العظيم كنا بنسأل عن عبد الفتاح من أجل الأُرز ، جوال الأُرز ياسعادة البك .

ويرد عليه الضابط :

– جوال الأُرز ولا جوال سلاح ياابن الكلب ؟

ووجد مصلح فرصته لينجو من العذاب ، فصرخ بكل قوته وكأنما قد أصابه مس من الجنون :

– ماذا قلت ؟ جوال سلاح ؟ نعم . نعم . هذا ماكنا نرمى إليه برحلتنا إلى كفر البطيخ ، كان لابد للحقيقة أن تظهر ، لقد ذهبنا من أجل جوال سلاح ، نعم . نعم لقد ذهبنا من أجل السلاح .

وصار يضحك فى جنون ، وتوقف العذاب وتحول مجرى التحقيق وأخذ منحى آخر ، مضحكا ومبكيا فى نفس الوقت .

كانت المأساة ملتصقة بالملهاة حتى لاتكاد تبين هذه من تلك ، وفك قيد مصلح الحديدى ورفع عنه العذاب ، واعترف بأنه نقل جوالا من السلاح خرج به صاحبه من قرية كفر البطيخ .

وانبرى أحمد السيد اسماعيل يؤكد رواية مصلح فى حماسة وجنون ، كان هذا أو الموت لكليهما .
وانقلبت وزارة الداخلية وتحركت المباحث العامة ، حضر إلى معتقل القلعة سيادة العميد أحمد صالح داود وكان ركنا من أركان جهاز المباحث العامة ، لقد جاء بنفسه ليشرف على التحقيق ، وكان لابد لمصلح أن يظهر السلاح الذى اعترف بنقله من كفر البطيخ كذبا ، وفكر الرجل بسرعة ، القضية خاصة بالإخوان المسلمين ، وهذه الأسلحة ينبغى أن تكون فى حوزتهم ، ولم يجد فى ذهنه سوى إثنين من الإخوان يقيمون فى ناحيته ، وكانا قد خرجا من السجن مؤخرا فى عام (١٩٦٤) وهما أحمد شعلان وزكريا المشتولى ثم عززهما بثالث بدر القصبى ، عليهم رحمة الله جميعا .

وادعى مصلح أن الأسلحة قد أعطيت للثلاثة أو لبعضهم — لأذكر بالضبط — وجىء بالثلاثة من معتقل الفيوم حيث كانوا يقيمون ، ودارت ساقية العذاب عنيفة وأخاذة وعبقرية كما وصفت مرة ، وقتل الثلاثة .

وقد مات أحدهم وأنا أحمله وهو زكريا المشتولى رحمة الله ، فقد كانوا لايعرفون شيئا عن هذه القصة وضربوا جميعا حتى الموت .

وفى العادة يكتبون أمام اسم الذى يموت من التعذيب كلمة ، هارب ، ثم يهاجمون منزله ويمزقون الأمتعة ويخربون الدار ويضربون كل من فيها وقد يأخذون بعض الذكور والإناث إلى المعتقل بحجة أنهم ساعدوا على هرب ذلك الذى ذهب إلى ربه مستريحا من وعثاء الحياة .

أما مصلح زريق فقد أرسل وصاحبه إلى السجن الحربى وافرجت عنهما المباحث الجنائية العسكرية صاحبة الحول والطول بعد وصولهما بأيام قليلة .

ولاأنسى تلك اللحظة التى اقتربت فيها من مصلح عندما ذهب الضابط لتناول الغداء وقلت له :

– الكلام الذى تفوهت به منذ قليل (وكان ذلك عقب اعترافه) واضح أنه غير صحيح ولكنه ممكن أن يؤدى بك إلى الليمان .

فنظر إلى بشرود وقال :

– ماذا تعنى ؟

فقلت له متعجبا :

– كلامك هذا يعنى خمسة وعشرين عاما فى الأشغال الشاقة .

فنظر إلى نظرة جادة مليئة بالخوف وقال :

– يعنى .. ماذا تريد منى بالضبط ؟

فقلت له :

– مادام هذا الكلام لم يحدث فلا بد أن ترجع عنه .

وتحولت نظرة الخوف فى وجهه إلى نظرة احتقار وازدراء ثم قال لى :

– يبدو أنك أبله .

– أنا ؟

– نعم ، والله لو كان نتيجة اعترافى أن أسجن مائتين

وخمسين سنة ماغيرت حرفا واحدا منه .

فقلت له :

– طيب هل تسمح لى فأفهم الضابط حقيقة القصة ؟

فبكى بكاء مرا وتوسل إلى ألا أفعل ، وماكنت لأفعل فقد شغلتنى أحداث وأحداث .

وقطع الحديث فقد عاد الضابط بعد أن امتلأت بطونهم بالطعام والشراب وردت إليهم الحيوية التى أضاعها التعذيب .

ومن الأشياء التى تستحق الذكر فى تلك الأيام أن أحمد صالح داود قد جاء للاجتماع بالضباط للكلام معهم فى الشؤون الخاصة بالتحقيق ومجراه ، وبعد أن تم الاجتماع ، وكان يقف مع بعضهم فى فناء المعتقل على بعد أمتار قليلة من المكان الذى كنت أعذب فيه وسمعته يقول :

– ياجماعة ، ضعوا نصب أعينكم أن هناك تنظيما يضم كل أفراد جماعة الإخوان .

– ولكن ياسعادة البك كل النتائج التى حصلنا عليها لاتفيد ذلك .

وفى حدة قال سعادة البك أحمد صالح :

– الرئيس قال إن فيه تنظيم ، يبقى فيه تنظيم ، فاهمون ؟

يجب أن يسير التحقيق على هذا النحو ، أين الهمة ؟ أنا أرى بعض المعتقلين يمشون على أرجلهم .

وعادت طاحونة العذاب المميتة والتى كانت قد توقفت للإجتماع ودارت دورة أكثر شراسة وقسوة حتى لايقدر أحد على المشى ، كانوا يريدون قتل الجميع ، كأن الزمن قد توقف فى تلك الأيام البغيضة .

وتركت في عنبر التحقيق ثلاثة أيام ، أغذب حينا ، وينسوننى حينا آخر ، وأنا أجلس أثناء نسيانهم لى على البلاط عاريا من الملابس .

وكان يؤتى بالرجل السمين العظيم فلا يزن عندهم جناح بعوضة ، فيجردونه من الملابس وينزلون عليه ضربا بالشوم (الهراوات) ضربا موجعا قاتلا ، ينزل فى جسده حيث شاء له أن ينزل ، ومايزالون به حتى يغمى عليه ، ويفقده قواه وكل مافى نفسه من طاقة ، ثم يقف بعد ذلك عاريا مشوها من الضرب أمام الضباط ليتلقى سيلا من الأسئلة والاستفسارات بين ركل وصفع المخبرين وسبهم وشتمهم ، ولم يكن المحققون يهمهم فى قليل أو كثير ما فى كلام المتهم — الذى لايعرف أنه كان مشتركا فى مؤامرة لقلب نظام الحكم وحال ضبطه دون التنفيذ .

وكان وجه المحقق يتهلل بالبشر والحبور حينما يبدأ المتهم بالهلوسة ، وتبدو علامات الأنتصار على وجه الضابط حينما يبدأ المتهم فى قص الاكاذيب حول نفسه ونشاطه المزعوم حتى ينجو من العذاب .

قال لى أحد الضباط آنذاك :

— الشعب كله متهم ومتآمر حتى تثبت براءته .

وكانت هذه الحيلة تفلح إلى حين ، فما يبدأ الانسان فى الكذب واختراع المؤامرات الوهمية حتى يرفع عنه سوط العذاب ليعود أكثر ضراوة ووحشية .

هكذا كانت الامور تسير فى معتقل القلعة الرهيب فى الأيام الأخيرة من شهر أغسطس من عام (١٩٦٥) .

الفصل الثالث

أيام الاعتقال الأولى

استطعت أن أفهم أخيرا سبب اعتقالى .

كانوا يريدون القبض على **(يحيى حسين)** ذاك الذى ورد ذكره فى الفصل الأول ، وهرب يحيى عندما أحس بذلك وكان لابد من القبض على أصدقائه وزملائه فى الدراسة والعمل ، وماهى إلا ساعات قلائل حتى تم ذلك ، قبض على كل من كانت لهم علاقة مع يحيى ، دفعته فى الكلية ، دفعته فى معهد الطيران ، أصدقاؤه الذين لم يكونوا فى كلية الزراعة ولم يكونوا فى معهد الطيران .

وكنت من الصنف الأخير .

ومن بين هذا العدد الذى يقارب المائة شخص كان يجرى التحقيق لمعرفة الذين كانوا على علاقة تنظيمية معه .
وكان الأمر لايخلو من صور طريفة .

عبد الرءوف عبد الناصر ، من أولاد الذوات كان أبوه عضو مجلس شيوخ سابق ، قضى الفترة بين (١٩٥٢) - (١٩٥٩) فى سويسرا يدرس الصيدلة . وبعد أن حصل على شهادة البكالوريوس فى الكيمياء والصيدلة حضر إلى مصر ، والتحق بمعهد الطيران ، وصار طيارا وافتتح (صيدلية) فى شارع القصر العينى ، وصار وقته موزعا بين الصيدلية وبين السفر إلى الخارج قائدا لإحدى الطائرات ، وأسرع إليه المال يغترف مه اغترافا . تارة من الصيدلية وتارة من التجارة الخفية التى يقوم بها عبر رحلاته إلى خارج البلاد .

ولم تكن له علاقة بالدين ، وكذلك كان حاله مع السياسة ، فلم يكن يفهم **فيها** حرفا واحدا ، ولم يكن يهمه أن يسيطر هذا أو ذاك ، ولايهمه من يحكم . وكان يعيش حياة هانئة مليئة بالمتع واللذات واللطائف .

ولم يكن يعيبه شيء فى نظر الواقع الماثل سوى أنه كان ضمن أفراد دفعة يحيى حسين من معهد الطيران .

وجاء إلى التحقيق وقبض عليه عقب قدومه من لندن ، وفى المطار أخبروه أنهم يريدونه لمدة خمس دقائق وقد كان .

وأخذ بحقيبته إلى المعتقل ، وضرب حتى أوشك على الموت .

ومن طريف مايرويه لى بعد ذلك أنه أثناء الضرب ورأسه إلى أسفل ورجلاه الى أعلى شاهد عددا من زملائه الطيارين ، محمد الغنام ، خالد سيف ، ضياء الطوبجى فظن أن الحكومة تريد تأديب العاملين بشركة مصر للطيران لفسادهم وسوء أخلاقهم .

ومن الطريف أيضا أنهم حينما قاموا بتفتيش حقيبته وجدوا فيها زجاجتين من الويسكى الفاخر وكان فى ذلك الدليل الناصع على براءته من تهمة الإسلام ، ولكن لا فائدة .

خالد سيف زميل يحيى حسين بكلية الزراعة ثم فى شركة الطيران ، لم يحتمل وطأة التحقيق فاعترف أنه عضو فى جماعة الإخوان التى لم يسمع عنها إلا لماما ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل اعترف عندما سألوه عن الأسرة [1] التى فيها أجاب بأن هناك أسرا خارجية وأخرى داخلية وأنه كان فى الأسر الخارجية ، لأنه يسافر إلى الخارج كثيرا .

وعندما سئل عن الاشتراكات المالية أسقط فى يده وظن أنه سيكشف ، وسيعلمون أنه يكذب ، ولكن سرعان ماتصرف ، وقال إنه كان أمام مسجد عمر مكرم بميدان التحرير يوما ما فأتاه شخص لايعرف اسمه وسأله :

---

(١) الأسرة : مجموعة تنظيمية .

– هل أنت أخ ؟

فأجاب خالد :

– نعم !

وعند ذلك طلب منه الرجل المزعوم ثلاثين قرشا ، وفى مرة أخرى طلب منه خمسين قرشا .

هكذا كانت قصة خالد سيف فى التحقيق ، ساذجة ومضحكة .

وخرج من أصدقاء يحيى حسين وأفرج عنهم بعض من ابتسم لهم الحظ بعد حوالى ستة شهور ، وخرج البعض الآخر بعد عام ، وعامين ، ومنهم من ظل فى المعتقل حتى لحظة كتابة هذا الكلام . [٢]

أما بالنسبة ليحيى حسين فقد ورد فى أمر الإحالة إلى محكمة أمن الدولة العليا ، الجناية رقم ١٢ لسنة ١٩٦٥ أمن دولة عليا ما يلى :

بالنسبة للمتهم العاشر يحيى حسين :

١ – قرر المتهم السابع محمد ضياء الدين عباس الطوبجى بالتحقيقات أن المتهم كان عضوا معه فى التنظيم السرى الجديد لجماعة الإخوان المسلمين فى أسرة كانت تجتمع دوريا فى منزله ، كما يدفع (٥٪) من دخله اشتراكا شهريا ، وقد تلقى تدريبات على المصارعة اليابانية وعلى الأسلحة النارية بمنزله كما تسلم خنجرا وأضاف أنه تسلم من على عشماوى وزينب الغزالى بعض الخطابات التنظيمية لإرسالها أثناء وجوده بالخارج إلى أشخاص معينين من جماعة الإخوان المسلمين المقيمين بجدة والخرطوم .

(٢) مساء الأربعاء ٥ نوفمبر سنة ١٩٦٩ معتقل طره السياسى .

كما كلفه على عشماوى عام (١٩٦٥) بشراء كاتم صوت من الخارج إذا تيسر له ذلك ، واستطرد إلى أن المتهم اشترك معه فى خلال شهر يونيو سنة (١٩٦٥) فى معاينة محطة توليد الكهرباء بمطار القاهرة الدولى تمهيدا لنسفها وتدميرها وكان هو الذى سيقوم بوضع قنابل زمنية بتلك المحطات ، وقد رافق أحد المهندسين من أعضاء التنظيم وأجريا معاينة ثانية ، وعاينا مولدات الكهرباء والاتصالات التلفونية وبرج المراقبة وجهاز توجيه الطائرات ، وأضاف أيضا أن على عشماوى كلف المتهم المذكور خلال شهر يوليو عام (١٩٦٥) بالذهاب إلى محطة سكة الحديد بالقاهرة لمراقبة ركب السيد رئيس الجمهورية عند سفره وتقديم تقرير بنتيجة مراقبته وقد طلب منه فى شهر أغسطس عام (١٩٦٥) الاتصال بفاروق المنشاوى لتلقى التعليمات منه حال القبض عليه وقد حاول الاتصال بالأخير بعد القبض على الأول ولما لم يتسن له ذلك أخبره أنه سيهرب إلى الخرطوم ولم يلتق به بعد ذلك .

٢ - قرر المتهم الثانى عشر فاروق عباس سيد أحمد أن المتهم أخبره عام (١٩٦٥) أنه عضو فى تنظيم سرى لجماعة الإخوان المسلمين يهدف إلى تغيير الحكم القائم بالقوة ويتلقى تدريبات على المصارعة اليابانية وعلى السير على الأقدام لمسافات طويلة تنفيذا لأوامر التنظيم ، وعرض عليه الانضمام إليه ، وطلب منه فى ١٩٦٥/٨/٢٢ الاتصال تلفونيا بفاروق المنشاوى لإبلاغه أن بعض أعضاء التنظيم قبض عليهم وتلقى تعليماته ، غير أنه لم يتيسر له الاتصال به ، انتهى .

وقدم يحيى حسين غيابيا إلى محكمة أمن الدولة العليا برئاسة جمال الدين محمود وتوفى الفريق على جمال الدين محمود أثناء نظر القضية فأعيدت محاكمته غيابيا أمام اللواء حسن التميمى .

وصدر الحكم الغيابى ضد يحيى حسين بالسجن لمدة خمسة وعشرين عاما .

وكان هو فى ذلك الوقت يتمتع بالحرية فى أرباض السودان .

جريمته الشنعاء أنه عاين ، واتصل ، وأوصل ، وقابل ، وقال ، فكان لابد من صدور الحكم ضده بالأشغال الشاقة المؤبدة .

وكان يكتب بجوار اسمه بالادعاء كلمة (هارب) وكان هو الشخص الوحيد الذى انطبقت عليه هذه الصفة [1] .

(١) كان يكتب بجوار اسم من يقتل من التعذيب كلمة « هارب » .

الفصل الرابع

معتقل القلعة

معتقل القلعة هو جزء من قلعة صلاح الدين ، القلعة التى قتل فيها محمد على المماليك ، وقد أعد الجزء الذى كنا نسكنه الإنجليز ، وهو لايتسع لأكثر من ثلاثمائة معتقل ، ويستعمل كمكتب للتحقيقات تابع للمباحث العامة .

وكان التحقيق يجرى هناك ، وفى داخل زنازينه الضيقة السيئة التهوية وضعنا أربعات أو خمسات رغم أنها - أى الزنزانة - لاتتسع لأكثر من اثنين على الأكثر ، ولكن ، للضرورة أحكام كما يقولون .

وكان فى القلعة فى ذلك الوقت حوالى أربعمائة معتقل ، باكورة التحقيق التابع للمباحث العامة فى أيامه الأولى ، ناهيك عن التحقيق الآخر الذى يجرى فى السجن الحربى ، بالإضافة إلى وجود حوالى مائتين فى معتقل الفيوم ، وهم الذين أمضوا مدة عشر سنوات كاملة صادرة ضدهم من محكمة الشعب فى عام (١٩٥٤) .

مكثت عدة أيام فى معتقل القلعة ورغم هذا فذكرياتى عن الطعام ضئيلة جدا ، ويبدو أنهم لم يكونوا يقدمون طعاما لأحد فيه ، والذى كنا فيه أعظم من الإحساس بالجوع أو البحث عن الطعام ، ولعلى لم أتذوق طعاما طيلة المدة التى قضيتها فى القلعة .

وأذكر أن أحد المخبرين قد أعطانى نصف كوب صغير من الشاى السيىء الصنع فى مساء سيىء العذاب .

وأذكر أيضا أننى حاولت أن أضع شيئا من الجبن فى فم زكريا المشتولى قبل أن يذهب إلى ربه ، ولست أدرى من أين أحضرت هذا الجبن .

وقد عرفت فيما بعد أن الطعام فى معتقل القلعة يقوم به متعهد أطعمة يأخذ على إطعام كل معتقل قدرا من المال ،

وليست هناك فرصة للربح خيرا من تلك الظروف التى كنا فيها ، والمتعهد يعرف أنه ليس هناك من يهتم بذلك الأمر البسيط ، الطعام .

كانت الزنازين فى سرداب مكشوف على الجانبين ، ينزل إليه بسلالم حجرية ، وكان ينادى على أى شخص للتحقيق ، فيفتح له رقيب عجوز باب الزنزانة ، وكان على هذا الشخص أن يذهب عدوا إلى مكان التحقيق ، ولابد له إذا أراد أن يرحم نفسه من بعض العذاب أن يقف عاريا أمام المحقق ، فعليه حيال هذا أن يخلع ملابسه أثناء عدوه سريعا والسياط تلاحقه ليوفر على نفسه (علقة الافتتاح) .

وكان يمكث أكثر من يومين فى التحقيق عاريا ، وعند عودته لزنزانته لايمكنه أحد من البحث عن ملابسه فى طريقه ، فإما أن يجدها مصادفة وقد تلوثت وتمزقت أو لايجدها ، ويذهب عاريا إلى الزنزانة .

وكان كل الموجودين فى القلعة مصابين بجروح قاتلة ، ولم يكن هناك أى إشراف طبى أو حتى أية إسعافات أولية ! كل هذا رغم وجود شخص سمين جدا يدعى (موريس) كانوا يدعونه بالطبيب ولكنه لم يقدم شيئا لإسعاف المصابين . والأنكى من هذا أننا سمعنا عن اشتراكه فى قتل عدد من المصابين بعد ذلك .

ومما أذكره فى هذه الأيام التى قضيتها فى معتقل القلعة ذلك الشاب الوسيم الظريف الذى كان يقف خجلا فى عنبر التحقيق ، ولم أكن أعرف هويته ، بل ظننته للحظة أحد المعتقلين ، كنت أراه ينظر فى إشفاق بالغ إلى الذين يحقق معهم ، ثم فهمت بعد ذلك أنه ضابط صغير تحت التمرين ، وسرعان ماسلمونى إليه ليتمرن على التحقيق معى .

وعلى طاولة صغيرة كانت بعض الأوراق الخاصة بى ، خطابات شخصية نسيت مضمونها ومرسلها ، بعض الدراسات عن المسيحية والتاريخ الإسلامى ، مفكرة صغيرة لعام (١٩٦٥) وقلب الشاب الوسيم الظريف هذه الأوراق ، ثم اقترب منى وسألنى :

– هل لديك هاتف فى منزلك ؟

وكانت إجابتى :

–لا ..

وإذا بهذا الشاب الوسيم الظريف يصفعنى صفعة هائلة كادت أن تقلع عينى ، واقترب أكثر ، ثم كلمنى فى صوت كالفحيح :

– سنبدأ بالكذب ياابن الكلب ؟

وانتابنى الذهول فعلا لم يكن فى منزلى هاتف ، وقلت له وأنا أتهاوى من فرط الدهشة والألم .

– أقسم لك أنه لايوجد فى منزلى هاتف .

وانهالت الصفعات والركلات من الشاب الوسيم الظريف ، الذى كان ينظر إلينا منذ لحظات بإشفاق ، وجعلت أؤكد له أنه لايوجد هاتف فى بيتى ، وأخبرته أنه يمكنه التأكد من هذا بسؤال مصلحة التلفونات عن طريق الهاتف الموجود فى المعتقل ، ثم ماأهمية ان أنكر وجود هاتف فى بيتى وخاصة أن الحكومة لم تحرم التلفونات بعد ، كل هذا بلا فائدة .

كان الضابط شديد الغباء ، وأحسست أنه سوف يقضى على ، وفى النهاية لم أجد فائدة من المقاومة ، واعترفت بحيازتى لتليفون فى المنزل بين ابتسامات الظفر التى علت وجه الوسيم الظريف .

وتصورت أن الأزمة قد مرت بسلام ولكننى فوجئت به يسألنى عن رقمه وارتبكت ، وهممت أن أذكر له أى رقم ، لولا أننى لاحظته ينظر فى المفكرة الصغيرة الموضوعة على الطاولة والتى كانت تخصنى .

وتذكرت يوم اشتريت هذه المفكرة فى أول العام ، وكيف كنت أملأ البيانات المكتوبة فى الصفحة الأولى ، الاسم .. العنوان .. رقم التلفون .. وكان ذلك فى منزل أحد الأصدقاء الذى اقترح على أن اضع رقم تلفونه فى الخانة الخاصة برقم التلفون ، وأسرعت بترديد الرقم ، وانهال على الضرب من الشاب الوسيم ومساعديه ، وصارت الشتائم واللعنات تنصب فوق رأسى كأنها الحمم وصاحبنا يتمتم :

– ما فائدة الانكار ؟ نحن نعرف عنك كل شىء ياابن الكلب .

وأنقذنى منه ضابط يدعى عبد المنعم الصيرفى ، ولكنه ضربنى بعد ذلك فى هذا اليوم حتى أوشكت على الموت ، فقد كان يفترض أننى فى قيادة تنظيم الإخوان ، وعلى هذا فكان لزاما على أن أخبره ببيانات مفصلة عن قيادة التنظيم ، ورغم أن هذا هو المحال بعينه فإننى لم أجد هناك جدوى من الإنكار ، فقد كان يجب على العاقل أن يبدأ بالإجابة ، أية إجابة ، فور سماعه السؤال ، وكان عليه ألا يتوانى وألا يتردد ، بل يتكلم ويتكلم ، وبطلاقة ، معترفا بأشياء لم يرتكبها ، وأن يكون واسع الخيال ، فلا بد لقصته من حبكة وعقدة ، ولايجب أن يشم منها المحقق رائحة الكذب ، هذا أو العذاب المهين .

أخذنى عبد المنعم الصيرفى إلى فناء المعتقل ، وانتحى بى ناحية وصار يتودد إلى توددا ظاهرا ، فبدأت الطمأنية تغزو قلبى ، ثم سألنى ببساطة ، للمرة العشرين ، عن تنظيم الإخوان واللجنة الخماسية القائدة . وتصورت أن الحديث قد أخذ جانبا بشوشا ، وأن الرجل سوف يصدقنى وقلت له ببساطة أنا الآخر :

– لا علم لى باللجنة الخماسية ، ولاأظن أن هناك مايسمى بهذا الاسم .

– ولماذا تظن هذا ؟

– هذا هو انطباعى ، ومدى علمى أيضا .

– اذن فلا علاقة لك بالإخوان وبالتنظيم ؟

– كلا

– يبدو أن الذوق لن ينفع معك .

وانقلب الرجل إلى وحش كاسر ، وصاح صيحة عظيمة ، أتاه الزبانية بعدها من كل مكان ، وخلعوا عنى ملابسى التى كان قد سمح لى بارتدائها وأصعدونى إلى عنابر التعذيب بالصفع والركل والشتم .

ولم يكن هناك ليل أو نهار ، فقد كان المشهد مستمرا بلا انتهاء ، وبلا أمل فى الإنتهاء ، فمرة نجد أنفسنا فى عنابر التعذيب ، ومرة أخرى فى الزنازين ، أو فى دورات المياه ، والحوادث تجثم على صدورنا بثقلها فنشعر بالاختناق .

مواطنون أبرياء جاءوا بهم من كل مكان بلا ذنب ولا جناية ، ومحققون يضربون الناس بحثا عن سر لايعرفونه ، والكل تطحنه رحى ثقيلة من العذاب .

وانتهت مجزرة القلعة ذات صباح وكان نتيجتها ثلاثة من القتلى وربما أكثر من ذلك وحوالى أربعمائة جريح بجروح بالغة .

وأخرجونا من الزنازين أربعات أربعات ، وملأنا فناء المعتقل ، واختفت الهراوات والسياط والآت التعذيب ، حتى وجوه المعذبين لم نعد نراها ، ولم يكن بين الجالسين من يدرك معنى لهذا الإجراء .

ومن تلك الكوة التى دخلنا منها يوم ودعنا العالم دخل كهل فى الخمسين ، نحيل القد ، دقيق القسمات ، وفى جانب من فمه تقبع سيجارة مشتعلة لم يمسها بأصابعه ، وفى صحبته شاب فى الثلاثين ، أسمر اللون ، بليد القسمات . وتكلم هذا الشاب :

– حضرة الطبيب يريد أن يكشف عليكم لاتخافوا لن يكون هناك تعذيب بعد اليوم .

– كل من فى جسمه إصابة بالغة يرفع يده .

ورفع أغلب الناس أيديهم ، فقد كانت إصابتهم أكثر من بالغة .

وصار الطبيب يمر بين الصفوف وعلى وجهه علامات الألم والإشفاق والحزن ، وكان يلعن الجلادين جهرا كلما رأى إصابة بالغة ، ويأمر مرافقه الشاب بكتابة اسم صاحبها فى كشف معه ، وتشجع الجميع ، وصاروا يسبون الحكومة ويلعنون الظلم والظالمين ، والطبيب يهز رأسه موافقا ومشجعا ومواسيا ثم ينصرف إلى آخرين حتى مر بنا جميعا .

كان هذا الطبيب هو العميد **أحمد رشدى** قائد معتقل التعذيب بأبى زعبل بعد ذلك بساعات قلائل وقد

أحضر كل من قيد اسمه فى الورقة وضربه ضربا قاتلا ، ورغم أننى لم أسجل نفسى فى كشفه إلا أننى لم أنج من هذا

الضرب القاتل عندما ذهبنا إلى أبى زعبل ، فقد اكتنفنى لحظة مروره شعور غامض منعنى من أن أريه الإصابات التى أصبت بها .

وركبنا (شاحنات) مغطاة فى الطريق إلى أبى زعبل ، وفى بابها الخلفي يقبع مجموعة من جند الشرطة بملابسهم الرسمية فيظن من يراها فى الشارع العام أن الشاحنة مليئة بالجنود ، وفى حقيقة الأمر أنها زاخرة بالمعتقلين من الداخل ، وكم كنت أرى قبل هذه التجربة كثيرا من الشاحنات على النحو الذى وصفت به ولم أعرف إلا فى هذه اللحظة أنها كانت تقل إخوة سبقونا فى هذا الطريق ، كنا حوالى ثلاثين فى الشاحنة التى ركبتها ، وكان معنا بدر القصبى الذى حملناه فى بطانية نظرا لإصابته الخطرة[١] .

وفى الطريق كنت أرى الناس يعيشون كما كانوا والحياة لم يتغير فيها شىء ، ولاأحد يهتم بما يدور ، وربما كانوا لايعلمون شيئا عما جرى فى المقشرة[٢] السيارات تزمجر والمارة يصخبون وشاب يغازل فتاة على محطة الأتوبيس ، والحياة فى تدفق سيال .

وأذكر أن جميع من كان معى فى الشاحنة ، كانوا يبتسمون ابتسامات سعيدة تعكس ما فى قلوبهم من ارتياح لخروجهم من ذلك العذاب المقيم ، وكان معنا شاب رقيق الحال من الناحية النفسية ، اعترف بما فعله وبما لم يفعله ، وكنا نزجره وننصحه بالتريث بلا فائدة ، وكان هذا الشاب

---

(١) توفى عليه رحمة الله بعد وصولنا إلى أبى زعبل بنصف ساعة .

(٢) المقشرة هو اسم سجن التعذيب أيام سلاطين المماليك .

يظن أن التحقيق قد انتهى إلى عقوبتنا بأحكام تتفاوت على حسب جرم كل واحد فينا ، وأن هذه الأحكام قد صدرت ، وأننا بصدد تنفيذها ، وسوف نعلم عنها عندما نصل إلى المكان الذى نقصده ، وصرت أفهمه أن الأحكام التى تصدر لابد لها من قضاء ، محكمة ، إجراءات .

ولكنه قال لى :

– فى مصر لايهم هذا كله ياصديقى .

وصار يتمتم فى سخرية بالغة :

– قضاء ، محكمة ، إجراءات ، هل نسيت أنك فى مصر بلد العجايب .

وكان منطقه أقرب إلى الصواب من منطقى .

وانبرى ثانية :

– عندما نذهب إلى الليمان علينا بتأييد الحكومة .

وساعتها سوف يفرجون عنا ولو كنا فعلنا بهم الأفاعيل .

كان الأمر بالغ الزراية ، كئيبا ، موحشا عميق الوحشة ، فيم كل هذا ؟ ولماذا ولحساب من ؟

أسئلة تدور فى ذهنى ، ثم تطن طنينا مخيفا ، وتطغى بضجتها على العذاب الذى أحس به من جراحاتى .

الفصل الخامس

معتقل أبى زعبل

كان وصولنا إلى معتقل أبى زعبل عصر يوم من أيام السبت ، وكنا فرحين سعداء فقد انتهى التعذيب ، هكذا كان الظن ، وتبينت المباحث العامة عدم جدوى هذا ، وسوف نقضى بأبى زعبل فترة من الوقت حتى تندمل الجراح ، ثم يذهب كل منا إلى حال سبيله ، وسرت بيننا روح نشطة طروب لتفشى هذه الظنون فينا ، حتى ضحكنا كثيرا عندما كانوا يسلموننا إلى القائمين على الأمر فى أبى زعبل .

كان واحد منهم يتسلم المعتقلين وهو يعدهم ويحصيهم واحدا واحدا ، وإذا بذلك الذى جاء بنا يقول له :

– استلم يااسماعيل ولاتخش شيئا ، من ناحية العدد ، أى عجز أستطيع أن أرده لك .

واستلم اسماعيل دون ماخوف من عجز يكون فى عدد هؤلاء الآدميين ، وكم شغلتنى ذكرى هذه العبارة الصغيرة كثيرا ، ترى كيف كان يسدد هذا الرجل عجزا فى الآدميين ؟ من أين يأتى بهم ؟ لا شك أنه كان يستطيع أن يأتى بالعدد الناقص من أى مكان ، ولن يهتم أحد بما يحدث لأحد .

كنا نحمل معنا بدر القصبى كما قلت ، وكانت حالته سيئة للغاية ، وعند بوابة المعتقل قابلنا الرائد فوزى ، الذى صار فيما بعد قائدا للمعتقل لفترة من الوقت ، وعلى وجهه أمارات التأثر لرؤية بدر القصيبى وهو (معجن) من الضرب ، وطلب منا أن نضعه فى زنزانة من الزنازين ، ولم نر بدرا بعد ذلك أبدا ، وخرج من التاريخ ، أو ربما دخل فيه ، ولم يعلم أحد بمكان قبره .

كان المعتقل عبارة عن مبنى من ثلاثة طوابق ، فى كل طابق اثنتاعشرة حجرة . يطلق علىّ كل واحدة اسم عنبر ، وباب فناء هذا المبنى المحكم له قضبان من الحديد ولسوره أيضا ، مما يجعل هذا الفناء كالقفص المحكم المغلق ، وكان المبنى موجودا فى منطقة ليمان أبى زعبل ، وهو مبنى جديد من حيث البناء ، فقد أقيم على أنقاض مبنى آخر قصفته الطوربيدات أثناء ضرب الإذاعة فى عام (١٩٥٦) فهو لا يبعد عنها أكثر من مائتى متر ، وكان موعد تسليمه لمصلحة السجون من المقاول بعد أيام من وصولنا ، ولكن المباحث العامة قد تعجلت المقاول كما سمعنا وكان المفروض أن يستقبل الشيوعيين ، وشاءت إرادة الله أمرا آخرا .

دخلنا المعتقل قبل مغيب الشمس وكان العمال ينتهون من بعض الأعمال على عجل ، وعند وصولنا لم نلتق بوجه واحد من رجال التعذيب ، ووجدنا بدلا منهم وجوها سمحة رقيقة سمراء ، وعاملونا فى لطف شديد ، وتسلم كل واحد منا ثلاث بطانيات من الصوف ، جديدة لم تستخدم قبل ذلك ، ووعاء (قروانه) وملعقة وطبقا صغيرا جديدا من الألمونيوم اللامع .

كان الأمر بهيجا يبعث على الإثارة والسعادة ، وصار كل واحد منا يمنى نفسه بحياة رغدة مريحة فى هذا المكان الجديد الأنيق الذى كان قد صنع توا .

وكان العنبر يتسع لثلاثين شخصا على الأكثر – وضعوا فيه فيما بعد مائة وثلاثين معتقلا – وأودعت مع آخرين فى العنبر رقم واحد . وكانت سعادتى كبيرة لأنى وجدت كل أصدقائى معى فى نفس العنبر ، وفرش كل واحد منا نمرته[1]

(١) النمرة :هى كل حاجيات المعتقل بلغة السجون والمعتقلات .

وتمددنا فى فرح وهناء ، وجاء الطعام وكان عبارة عن عدس مطبوخ بالزلط والحصى فى أوان حديدية قذرة يطلق عليها اسم (كانتين) ، ورغم قذارة صنعه وقذارة الإناء الموجود فيه والكمية الكبيرة من الرمل والزلط الموجود بكل (كانتين) إلا أننا أكلنا بشهية بالغة فمعظمنا لم يكن قد أكل شيئا فى معتقل القلعة على الإطلاق .

ووزع علينا صابون قذر جدا من صناعة المساجين المقيمين فى الليمان ، ولكننا لم نكن نرى الصابون منذ أيام ، وأسرعنا إلى دورات المياه نغسل ماتبقى من ملابسنا التى تجمدت عليها أشياء كثيرة أوضحها الدماء التى أريقت فى معتقل القلعة ، وكانت دورة المياه مكونة من مكانين وموضعين للتبول وحوض به ثلاثة صنابير للمياه يتسع لاستعمال ثلاثة أشخاص فى وقت واحد ، وفى المكانين رشاشان سرعان ماتزاحمنا عليها جميعا ، وأخذ كل (دشا) باردا لطيفا أزال مالحقه من وعثاء السفر وسوء المنقلب فى الدنيا .

وكان هنالك من لايستطيع ذلك لكثرة جراحاته ، فبقى على قذارته فى سعادة ورضا لابتعاده عن الأرض المخوفة فى القلعة ، وألقيت نظرة على المكان الذى ننام فيه ، المكان ذى الباب القفصى[1] فوجدت أن معظم قاطنيه من الشيوخ المتقدمين فى السن ، إلا حفنة صغيرة من الشباب أصدقاء يحيى حسين وكنت أنا منهم .

ومن طريف ماعرفت عن هؤلاء القاطنين أنهم ينتمون إلى جميع الجمعيات الإسلامية الموجودة فى مصر مثل جمعية الصراط المستقيم وجمعية التبليغ الإسلامية ، وجمعيات أخرى كثيرة وبعض أفراد من حزب التحرير الإسلامى ، كل

(١) كان الباب على هيئة قضبان حديدية تسمح بإدخال الطعام من فرجاتها .

هذا بالإضافة إلى أفراد جماعة من الإخوان المسلمين ، وكان هناك من لاينتمون إلى أى جمعية ، دينية كانت أو غير دينية . ولكنهم كانوا جميعا على علاقة ما بمن تهمهم هذه الأمور .

وفوق هذا كله كان هناك من لا ينتمى إلى شىء ، ولم تكن له أدنى علاقة بأى شخص له صلة بهذه الشؤون ، وكم كان عجبنا كثيرا من وجود مثل هؤلاء ، ولكن هذا العجب لم يدم بعد ذلك كثيرا .

وقضينا تلك الليلة فى التعارف وتبادل النكات والقفشات والحديث عما جرى فى القلعة من ويلات ، كنت أظن أننا سوف نعيش فى أحزان الذكريات القريبة وألمها الشديد ، وكم كان صداها يلف رؤوسنا وعقولنا . وكم كانت آثارها على ملابسنا الممزقة والجراح الغائرة وبقع الدم الحمراء ، كانت الأيام القليلة التى أمضيناها فى القلعة تطن فى مخيلتنا كأنها قرن متكامل من الزمن ، وكان المكان جديدا غاية الجدة بهيا كل البهاء .

جاء الصبح سريعا ومع خيوطه الأولى استيقظنا فى نشاط وتوضأنا للصلاة ووقفنا جميعا بين يدى الله عز وجل يلفنا شعور عظيم بالطاقة والقوة اللامحدودة ، كان الأمل يملأ نفوسنا بانتهاء العذاب ، وانتهينا من الصلاة وكانت تختلف كثيرا عن تلك التى كنا نصليها خارج أسوار المعتقل ، ولايفوتنى هنا أن أذكر ملحوظة لامندوحة عن ذكرها .

لم تسمح لى الظروف الخاصة بى فى القلعة وظروف بعض مارأيت وصاحبت بتأدية فريضة واحدة فالعذاب لم ينقطع لحظة واحدة ، فقد كان الأمر فى معتقل القلعة أشبه مايكون بيوم الحشر .

بدأت شقشقة العصافير تخالط أصواتنا ونحن نقرأ القرآن رخيما عذبا فى اليوم الأول من أيام أبى زعبل ، ولم نكن

ساعتها نعرف أن أيامه أكثر هولا وعذابا من أيام القلعة . ولم نكن نعرف أيضا أننا سوف نترحم على أيام القلعة ونتمنى لو كانت قد دامت .

أشرقت الشمس وقدم إلينا الطعام ، عسل أسود ملأ كل واحد منا طبقه الصغير منه ، ومعه قطعة من الجبن الردىء الصنع ، ورغيف من الخبز البارد الذى اختلط دقيقه بمواد غريبة وحشرات مختلفة عرفت منها الصرصور .

وتناولنا الطعام وانصرفنا إلى الحديث ، وكم ظننا ساعتها أن الأمر سيطول بهذا الهدوء إلى حد بعيد ، وفوجئنا بأحد الضباط يمر بنا من خلال الباب القفصى ، ووجدناه يقف ويتحدث معنا ، وكان هذا الضابط معقولا لايحب العنف ، وكان دوره فى التعذيب لايكاد يذكر ، ومثل هذا كانت له فى نفوسنا أعظم المكانة . وكان أحد الذين حققوا معى فى القلعة ، وهو الوحيد الذى أنهى معى التحقيق دون ضرب أو تعذيب ، ومضت نوبته معى كأنها النسمة فى ليلة صيف شديد الحر . كان يناقشنى ويسألنى ويستفسر ويلف ويدور ، كان يستعمل عقله وذكاءه ولم يستعمل يده وعصاه حتى ذلك الوقت ، وتحدث الرجل من خلال الباب وفهمنا من حديثه أن الأمر قد انتهى وليس هناك بعد ماحدث فى القلعة غير اعتقال لفترة لن تطول وأصيب البعض بلوثة من الفرح والإحساس بالفرج ، ولكن كان هناك من يجلس وكأن الأمر لايعنيه فى قليل أو كثير ، على وجوههم الصارمة يأخذ الإيمان بالله خطوطه العميقة فيحيل نظراتهم إلى صفاء وأمن وراحة ، كان هذا هو الجيل الذى صنع جماعة الإخوان أيام الشيخ حسن البنا ، ويحضرنى من أسماء هؤلاء ثلاثة لاأدرى أين هم الآن ، الشيخ حامد الطحان ، والأستاذ محمود عبده ، أحد قادة الإخوان فى حرب فلسطين عام (١٩٤٨)

والحاج عبد الرحمن حسب الله أحد ستة أشخاص تكونت منهم جماعة الإخوان فى أيام بعيدة من عام (١٩٢٨) فى مدينة الإسماعيلية ، كان يكفى أن ينظر المرء إلى واحد من هؤلاء ليشعر باليقين والثقة بالله فيزداد قوة على تحمل القلق والعذاب .

وكانت هناك فى ذلك اليوم الأول من أيام أبى زعبل نماذج أقل درجة وأكثر خوفا وقلقا ، كان معنا مفتش فى وزارة التربية والتعليم كثير الخوف شديد البخل ، ترك فى الأمانات خمسة جنيهات ، ويردد فى كل لحظة أنه على استعداد لأن يترك لهم (المباحث العامة) جنيهاته الخمسة على أن يخلوا سبيله ، لم يكن يدرى أن الأمر أعظم من جنيهاته تلك .

جلسنا نستمع إلى نوادر ذلك الطيار الذى لم يفطن إلى ذلك الجانب المظلم من العالم ، وكان الكل يضحك للصور المضحكة التى رسمها جهله بالقضية والأمر برمته ، وتصورنا أننا سنقضى إجازة جميلة فى معسكر جميل ، وماهى إلا لحظات حتى انقبضت قلوبنا وشملنا هم عميق ، حركة غير عادية فى المعتقل ، هرج ومرج ، أناس يدخلون ويخرجون ، ثم جاءنا أحد المخبرين وكان فظا غليظ القلب ثقيل الكف اسمه (الملا) وأخذ أسماء الموجودين وكتبها فى أوراق كانت فى يده (الطرشاء) ، ومر بجميع العنابر وفعل معها نفس الشيء .

ثم جاءونا بالملابس الخاصة بالمعتقلين ، ملابس مليئة بالقمل رغم أنها لم تلبس قبل ذلك ، صنعت من قماش هو إلى (الخيش) أقرب ، خالية من التناسق والاستواء . وطلبوا إلينا تسليم كل الملابس المدنية التى كنا نرتديها ، وتسلم كل

واحد فينا سروالا لا ينطبق بحال على جسم صاحبه ، ومئزرا مبهدلا وقميصا داخليا شديد العفونة كأنه قد نقع زمنا طويلا فى مرحاض ، وطاقية سخيفة المنظر .

وكان الحر شديدا يومها ، وفعلت هذه الملابس فعلها القاتل مع الحر الذى يكتم الأنفاس ، وإنى أذكر كيف بكى ذلك الطيار الذى كان يقص علينا حكاياته بكاء مرا حينما طلبوا إليه ارتداء تلك الملابس ، وكم توسل إليهم أن يتركوه بتلك الأخرى التى جاء بها من لندن ، وقد طلب منه (الملا) أن يحمد الله أنهم تركوه مع حياته .

ومن بين القضبان التى كانت بالباب رأينا الجند يحملون إلى الداخل بالمعتقل كميات كبيرة من الهراوات والخيزران والسياط تكفى لجلد قارة بأكملها ، وكانوا يلقون بحمولتهم المخيفة على بلاط المعتقل فتحدث صوتا يبعث الخوف فى أكثر القلوب شجاعة ، وارتفع صوت من بين زملائنا : « يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » ، وكان لهذه الآية مفعول السحر فى نفوس الناس ، فقد دوى العنبر بذكر الله وبقراءة القرآن . وعادت الطمأنينة إلى القلوب .

وبينما نحن على هذه الحال إذا بصوت جهورى يهز جدران المعتقل وشعرت بطنين فى أذنى لم أتبين الصوت الذى صار يتكرر فى رتابة ، ثم رأيت كل من فى العنبر ينظر إلى ، كانوا ينادوننى ، وعاودنى الخوف ، فقد كان لهذا النداء معنى لايفهمه إلا الذى ذهب إلى هذا المكان ، كانت مظاهر الراحة حلما ووهما ، لقد جاءت الصاخة ، وبدأ الجد ، وعاودنا شجن لاندرى متى ينتهى ، واقترب الشيوخ منى وملأوا أذنى بآيات القرآن وتقدمت من

الباب ليرانى ذلك الذى ينادى من مكان بعيد ، ورآنى وفى لحظات كان أمامى وبيده مفتاح ، وفتح باب العنبر وأخرجنى وطلب إلى أن ألف عصابه على عينى ، وفتح باب العنبر وأخرجنى كالأعمى فقد كانت العصابة محكمة ولم أكن أرى منها شيئا على الإطلاق ، وصار الرجل ينزل ويصعد ، ثم يسير بى على أرض مليئة بالعشب الجاف والشوك ، وأحسست أنه غادر المعتقل وذهب بى إلى مكان آخر .

واستيقظت حواسى على صوت مخيف أعرفه جيدا كان صوت الرائد فؤاد علام الذى فعل بى الأفاعيل بالقلعة أثناء التحقيق العجيب الذى كان هناك .

وبلهجة ممطوطة مزعجة سألنى :

– هل أتيت ؟

لم أرد عليه .

– حظك سيىء للغاية .

وتمتمت فى صوت خفيض :

– ولماذا ؟

– أحقا لاتعرف لماذا ؟

ثم أتبع تساؤله ببعض الشتائم البذيئة ، وقبل أن أجيبه كانت الركلات تنهمر على كالمطر ، وفى ثوان كنت معلقا فى الهواء وسط الظلام الذى صنعته العصابة حول عينى ، وصارت دقات الهراوة تنزل رتيبة على قدمى فأشعر بألم عميق مخيف يتضاءل بجانبه الموت .

واشتد بى الهول فصرت أرجو أن يتركنى مذكرا إياه أننى مسلم ومصرى مثله ، ولكنه أصر على أن أتكلم ، ولم يكن كلانا يعرف شيئا عن الأمر الذى ينبغى على الكلام فيه ، وكنت فى كل مرة أذهب فيها إلى التعذيب أنوى بينى وبين نفسى إلا أصرخ ، وكنت أفشل فى كل مرة ، نعم كنت

أفشل فى كل مرة ، فقد كان العذاب فوق احتمال أى مخلوق ، أو على أقل تقدير فوق احتمالى أنا شخصيا .

وبعد أن أخذت علقة ساخنة تفككت عظامى من جرائها ، فكوا قيدى وأنزلونى من هذه (التعليقة) وأمرونى تحت الضرب أن أقفز على قدمى حتى لايتورما . ومن ثم لايمتلئان بالصديد ، وهذا بطبيعة الحال ليس من باب الرحمة ، ولكن حتى أستطيع تحمل قدر آخر من العذاب حينما يريدون .

ولم أستطع الوقوف فقد أصيبت أعصاب الساق بخدر منعنى من القيام واقفا ، واشتد الضرب وحمى وطيس الصفع والركل حتى أصدع للأمر وأنفذ (خطوة التنظيم) التى يطلبونها ، ووقفت بعد لأى ، وصرخ الرائد يطلب منى الإسراع فى الحركة ، وأثناء تنفيذى شعرت بقدمى ينغرزان فى لوحة خشبية قد رشق بها عدد كبير من المسامير الحادة المسنونة ، وصرخت من الألم ، وسقطت على الأرض .

وكان هذا المشهد نهاية العلقة الأليمة التى أخذتها فى هذا اليوم .

وعلى مستوى معتقل أبى زعبل بدأ التعذيب أو بدأ التحقيق أو بدأ كلاهما معا ، فهما اسمان لحقيقة واحدة ، وكان يبدأ فى الساعة العاشرة صباحا ، ويستمر حتى منتصف الليل ، ويمضى المحققون ، حضرات الضباط وحضرات الـ... يذهبون إلى منازلهم ، ويوكل بالمعتقلين إلى من يجهزهم ليوم جديد فى التحقيق ، حتى يأتى حضرات الجميع فى العاشرة من الصباح الجديد .

واستقر هذا النظام بعد يومين ، وعدت إلى العنبر فوجدته قد امتلأ بآخرين ، لقد وفد معتقلون جدد إلى المكان ، العنبر الذى لايتسع لأكثر من ثلاثين صار به أكثر من ضعف هذا العدد ، ارتميت منهوكا على النمرة التى تضاءل الحيز الذى كانت تشغله قبل ذهابى إلى التحقيق ، جاء أناس من سائر البلدان ، وكلهم تحت وطأة دهشة مما جرى ويجرى .

أخذونى فى اليوم التالى بنفس الطريقة إلى نفس المكان الغريب ، وفى هذه المرة لم يبدأونى بالجلد والضرب كعادتهم ، كنت مغمض العينين ، والتقطت أذناى حركات كثيرة ، كان من الواضح أن هناك شيئا بالغ الأهمية فى ذلك المكان الذى يقع خارج المعتقل ، وبينما أسحب إلى حيث يريدون صفعنى واحد منهم على قفاى ، وامتلأت دهشة ، ليس من الصفعة ولكننى سمعت أحد الضباط ينهى ذلك الذى ضربنى ، وتعجبت ولم أستطع لحظتها أن أخمن سبب ذلك التصرف من الضابط ، أول مرة أسمع فيها من ينهى عن الضرب .

وجاءنى الرائد فؤاد علام – وكنت أعرفه من صوته – وقال لى :

– أنا آسف يافلان ، لم أكن أود أن يحدث ذلك لك ، ولكن هذه تعليمات القيادة العليا للقوات المسلحة .

فقلت له :

– ماذا تعنى ؟

فقال لى فى لهجة منذرة :

– جاءتنا قائمة بها بعض الأسماء .

وسكت برهة فقلت له :

– لست أفهم .

هذه الأسماء يجب تنفيذ حكم الإعدام فى أصحابها ، هذه القائمة موقع عليها من سيادة المشير عبد الحكيم عامر .

– ماذا تقصد ؟

– اسمك فى أول قائمة المطلوب إعدامهم .

– هكذا دون محاكمة .

– وماذا تعنى المحاكمة ؟ صدقنى ، لامعنى لها على الإطلاق ، وقلت له :

– ومتى يتم هذا ؟

– الآن .

وسمعت وقع أقدام تأتى مهرولة عن بعد ، واقتربت ، ثم وقفت ، وسمعت صاحبها يسأل من بين لهاثه :

– أين المحكوم عليهم ؟

وأمسكنى الرائد من ذراعى وقال :

– هذا أول الخمسين الذين سيعدمون اليوم .

وسلمنى لصاحب الصوت الغريب الذى مشى بى خطوات ، وغرقت فى أفكارى ، أهكذا تنتهى حياتى ؟ بهذه البساطة ، وهذه الطريقة ، لاأظن أن المشير عبد الحكيم عامر يعرفنى ، لماذا يكرهنى هؤلاء الناس هذه الكراهية العميقة ؟ ماذا فعلت بهم ؟

وتذكرت آمالى وقراءاتى والبهجة التى كنت أشعر بها عندما أقرأ كتابا جديدا ، كل هذا سوف ينتهى من الدنيا بعد لحظات ، أين القانون ؟ أين الحضارة ؟ أين التقدم ؟ وضاعت صورة العدل فى مخيلتى وانتابنى غثيان ، وشعرت برغبة جارفة للتقيؤ . كل هذا وأنا سائر خلف ذلك الذى يسحبنى ، إلى مكان تنفيذ الإعدام ، هكذا ظننت .

شعرت أن الذى يسحبنى قد توقف ، فوقفت وأرهفت حواسى كلها ، واقتربت أقدام أخر ، وسمعت صوت الرائد :

– ماذا تتمنى قبل أن تموت ؟
– أن أصلى ركعتين استعدادا للقاء الله . كانت النهاية سريعة ولم أستعد لهذا اللقاء .
– وماذا تعنى صلاتك ؟
– كأنى أستأذنه سبحانه وتعالى فى المثول بين يديه .
– كلا ، لن نأذن لك بالصلاة ، هذه خارج صلاحياتنا .

وتقدم طابور الإعدام مرة أخرى ، وأثناء السير انقض على رجل لاأعرفه ، وطبعا لاأراه لأن العصابة على عينى ، وبسرعة ألقانى على الأرض ، وفى لمح البصر كانت يداى فى القيد الحديدى خلف ظهرى وهنا زايلنى الخوف على عكس ماتوقعت ، لقد دنت الساعة ، سوف أذبح بعد لحظة أو تكاد ، إنها أعظم النهايات فى الدنيا ، سيقتلوننى وأمضى بعدها إلى الله هائما فى الرضوان الأعظم .

أنهضنى الرجل ، أصعدونى درجا مرتفعا استطعت أن أراه من خلال ضوء بسيط يتسلل من أسفل العصابة ، ثم أوقفونى لحظة فى مقدمة ممر حجرى يبدأ من نهاية السلم ، وأمرت بالتقدم بعد ذلك ، فى خطوة بطيئة ، المفروض أنها تبعث الخوف والرهبة فى القلب ، ثم أوقفونى بعد أن مشيت كثيرا فوق هذا الممر .

وانحدر بصرى إلى قدمى من خلال الفرجة الضيقة فى العصابة ورأيت أننى أقف على شفا جرف هار ، ويكفى دفعة صغيرة لأسقط فى هذه الهوة التى ليس لها قرار يبدو أمام ناظرى ، ولفوا أنشوطة حول عنقى ، هو الإعدام شنقا .

وتقدم منى الضابط عصام الشوكى[1] وطلب أن أتلو صلواتى الأخيرة فقد أزفت ساعة الإنتقال إلى العالم الآخر .

(١) احترقت به طائرة عام (١٩٦٨) كما سمعت فى معتقل طره .

وصرت أدعو الله دعاء حارا أن يغفر لى ذنوبى ، ولم أعد أشك فى قرب قدومى عليه ، وتذكرت فى هذه اللحظة الذنوب التى ارتكبتها ، وكم تألمت لحظتها ، وتمنيت لو عاد بى الزمن كى أكفر عنها ولاأعود إليها أبدا .

وشدونى إلى الأنشوطة وتحت قدمى الهاوية العميقة البعيدة القرار ، وكانت أصوات السياط الملتهبة تأتى من بعيد تحمل صرخات حارقة تملأ الجو حولى ، ولكن كل هذا لم يخفنى بقدر ماكنت أتمنى أن يغفر الله لى بذهابى إليه على هذه الصورة ، وتذكرت أمى وإخوانى وأصدقائى وكل من كانت له علاقة بى ، ولفتنى نسمات عذبة رقيقة من السماء ، واستغرقت فى دعائى واستغفارى من جديد .

وكانت الوجوه تداعب خيالى ، وجوه من كل مكان ، مكثت على هذه الحال عدة ساعات ، شعرت بعدها أن قدمى قد فقدتا القدرة على حملى ، الأنشوطة حول عنقى قوية وضاغطة ، وأصوات الصراخ والسياط تأتى مولولة من بعيد وأنا أبصر عند قدمى هوة سحيقة بعيدة القرار ، واقترب أحد الضباط ، وبصوت كالفحيح أمرنى أن أقفز إلى الهاوية ، وقلت له :

– تستطيع أن تدفعنى إليها ، أما أنا فلن أقفز أبدا .

وصرخ الرجل :

– قلت لك اقفز ، هذه أوامر المشير .

وشعرت بالإغماء وبدأت أتهاوى ، وسقطت من شاهق .

كان بينى وبين قاع الهوة حوالى متر ونصف ، وصوره الوهم على أنه قاع عميق ، سحيق .

قادونى بعد ذلك منهك القوى إلى حجرة تصل إليها

الصرخات من قريب ، ورفعوا العصابة من فوق عينى فوجدت أمامى الرائد فؤاد علام والملازم عصام الشوكى . وقال الرائد فؤاد علام :

– لقد كان حظك حسنا ، لقد أتت الأوامر من المخابرات بتأجيل إعدامك ، وبعد قليل سوف يخابروننا بسبب ذلك .

وسكتنا برهة ضئيلة ثم انبرى يسألنى :

– عندك معلومات تحب أن تخبرنا بها ؟

وهززت رأسى نفيا .

– هل لك رغبة فى أى شىء ؟

وهززت رأسى نفيا للمرة الثانية .

وقدم لى مقعدا من الخشب شبيها بالكرسى – وما هو بكرسى – وطلب منى الجلوس وأعطانى سيجارة ، ثم أشعلها لى والعجب يملأنى ، وسرعان مازال العجب حينما وجدته يقدم لى ورقة وقلم وقال :

– الآن ستكتب اعترافاتك .

وغشيتنى سحابة .

– عن أى اعترافات أتكلم ؟

فقال :

– أنا سأملى عليك وأنت تكتب ، من واقع كلامك الذى سبق . فشكرت له فى نفسى هذا الموقف ، فقد أعفانى من الضرب والتعذيب والإهانة وكم كنت أتمنى أن يفعل ذلك من اللحظة الأولى لاعتقالى .

واستدرك الرائد :

– لا تظن أننى سوف أملى عليك أكاذيب لم تفعلها ،

ورددت عليه بسرعة :

– العفو ياسعادة البك ، وهل هذا معقول ؟

– كل المسألة أننى سأنظم أقوالك وأضعها فى ثوب واضح .

– وأنا على استعداد لأى شيء .

وكتبت من إملائه تسع صفحات فولسكاب ، مضمونها خطة أعددتها لقلب نظام الحكم ، وكان هذا مع بعض الأصدقاء ، وكنت متأكدا أنهم لن يحكموا على بأقل من عشرين عاما أو أكثر ، لأن اعتقالى – كما يقولون – حال دون تنفيذ هذه الخطة .

وعندما دخل الليل انصرفت راضيا سعيدا مع المخبر إلى المعتقل ، فقد ظننت أن التحقيق قد انتهى ، ولم يعد أمامى سوى انتظار المحاكمة والذهاب إلى الليمان لتكسير الحجارة تحت وهج الشمس الحارق ، وكم كنت سعيدا لهذه الأفكار التى ستجعلنى أغادر هذا المكان اللعين .

وعند دخولى العنبر كان به ضعف العدد الذى كان به فى الصباح ، ووجدت أن فناء المعتقل الشبيه بالقفص قد امتلأ بعشرات الأشخاص العراة من ملابسهم ، ومنهم من يمشى عاريا على أربع وهناك من يسوقه بالعصا ، ومنهم من يجرى عاريا مغمض العينين حتى يصطدم بالجدار المقابل فتشج رأسه ، ويقوم ليجرى من جديد ومنهم المعلق على السور ذى القضبان الحديدية مصلوبا عاريا مغمض العينين أيضا ، وارتميت فى ركن أفسحوه لى واستغرقت فى نوم عميق .

استيقظت منهكا من جراء ماحدث معى فى التحقيق ، والتف الإخوة حولى يسألوننى الأخبار ، ماذا حدث وماذا قالوا لى ؟ وماذا فعلت لهم ؟ وكان بعض السذج يسألون متى ينصرف الجميع إلى منازلهم ؟ .

كان العنبر قد اكتظ بساكنيه ، وأصبح الأمر بالغ السوء من كثرة المعتقلين وعادوا لايهتمون بطعامنا ، فيأتون بالوجبة بعد موعدها بساعات طويلة ، وكان يأتينا أيامها لحم لاتستطيع الأنوف أن تشم رائحته الكريهة ولا تقدر الأسنان

على تمزيقه ، أقوى الأسنان ، فكنا نكتفى أن نلوكه بعد أن نغسله بالصابون لنتخلص من بعض رائحته .

كان معنا فى تلك الأيام من شهر سبتمبر أطفال لم يصلوا سن البلوغ وكانوا يرتعدون من الخوف الشديد ، من أفراد جماعة التبليغ ، أطفال صغار على كل هذه الآلام .

وكان معنا شيوخ جاوزوا سن النشاط والحركة لا يكفون عن قراءة القرآن والتوسل إلى الله سبحانه وتعالى أن يقيهم فى شيخوختهم تلك غوائل العذاب والخوف ، وكانوا يبدأون فى قراءة « قل هو الله أحد » بلا انقطاع إذا مادعى أحد إلى التحقيق وكان الخوف يبدو نبيلا حزينا فى عيونهم المذعورة وقسماتهم المتوجسة ، وأغلبهم لم يمثل أمام المحقق أبدا ، كانوا من جمعيات شتى وكلهم لايفقه السياسة ولادخل له بها ، وكانوا فى دهشة من وجودهم فى ذلك المكان .

كان الأمر آنذاك أكبر من الدهشة وأبعد عمقا من الخوف ، لقد ربط الخوف والجوع والألم بين هذه النفوس جميعا فالتحمت فى رباط قدسى بليغ .

الفصل السادس

عـــودة
إلى التحقيــق

ثلاثة أيام مكثتها بالعنبر وأنا أظن أن التحقيق قد انتهى ، رأيت خلالها من الباب صورا شتى للتعذيب ، وكان مرأى هذه الأشياء أشد ألما على نفسى من وقعه على أصحابه ، كان الباب يطل على فناء السجن الذى أطلق عليه اسم (المحمصة) ، وكان يترك فى هذا الفناء من ينتظرون التحقيق ، أو من يعدون له ، الكل عاريا تماما كما ولدتهم أمهاتهم ، وكان الضباط ينصرفون فى المساء إلى بيوتهم ويتركون هؤلاء دون نوم حتى يحضروا فى الصباح ليستكملوا مابدأوه بالأمس ، ولم يكونوا يتركونهم دون نوم فقط ، وهو بحد ذاته عذاب بالغ الألم عميق التأثير لايشعر بفظاعته إلا من اكتوى به ، أن يترك الإنسان بلا نوم أياما وأياما ، بل كانوا مع هذا يستخدمون معهم أعتى أنواع القسر والقهر بنوعيه ، البدنى والروحى ، وقدر لى أن اكون واحدا منهم بعد زمن يسير .

كانوا يقفون ووجوههم إلى الحائط وعيونهم تلفها عصابة سميكة ، وعلى هذه فلا يدرى واحد متى انتهى الليل ومتى جاء النهار ، والويل كل الويل لمن تحدثه نفسه بنزع هذه العصابة التى تنشر الظلام فى رأسه ، وعلى كل واحد أن يكرر عبارة بعينها بصوت مسموع ، وإذا بدأ فى أول الليل فلن ينتهى من هذا إلا عندما يأتيه الأمر فى مطلع الصباح ، عبارة بلهاء لا يتوانى عن تكرارها وإلا هبت عليه ريح العذاب الساخن ، « البحر فيه ملوخية » هكذا .. يرددها ساعات طوالا وبصوت عال ، أو يختار رقما ما ، سبعة أو ثمانية ، أو تسعة ، أى رقم ويردده بصوت عال طوال الليل ، فيصير المكان أشبه بمستشفى المجانين .

ومن يدخل هذا المكان عليه أن يودع النوم والطعام أياما لايدرى عددها ، وله كوب من الماء كلما تدور الشمس ، وإذا أراد أن يقضى حاجته فليقضها حيث كان .

وكان هناك من يعلق داخل (المحمصة) على السور الحديدى ساعات طوالا ، حتى يسقط إعياء من ارتفاع شاهق فتشج رأسه أو تكسر ساقه أو أى شيء ، ولم يكن هذا محل اهتمام من أحد .

وكان يعن أحيانا لبعض الضباط أن يتسلى على ساكنى (المحمصة)، فيأتى ليقضى معهم وقتا طيبا ، يتسلى فيه بكل الألاعيب المعذبة التى يعرفها أو التى يتفتق عنها ذهنه فى ذلك المكان الغريب .

كان يصف الجميع صفا طويلا ، كل خلف الآخر ، ويقف هو فى نهاية الصف ، ويصفع ذلك الذى يقف فى نهايته صفعة قوية مدوية تعوى فى سكون الليل ، ويطلب منه أن يوصلها إلى الذى أمامه ، وهكذا حتى تصل إلى ذلك الواقف فى آخر الصف ، والأدهى من هذا ، أن سيادة الضابط ينظر إلى ساعته ويحسب الوقت الذى تصل فيه رسالته المؤلمة إلى غايتها ، ويتأفف ويستاء من التهاون والتكاسل من جانب البؤساء الذين اشتركوا فى اللعبة ، فيزمجر ويتوعد ويهدد ، ويطلب زمنا أقل وسرعة وحماسة وقوة .

ويكون الجميع قد فقدوا قدرتهم على التفكير ، وأصيبوا بالإعياء البالغ ، فيخفت حسهم الإنسانى فى هذه اللعبة القذرة ، ويحاول كل واحد أن يرضى هذا الضابط على أمل فى تخفيف العذاب ، فلا يجد أمامه حينذاك إلا أن يصفع الذى أمامه بسرعة ونشاط ويصير الأمر بعد مضى ساعة من الوقت شيئا مهينا مزريا مؤلما يبعث على الرثاء والحزن ، بينما يضحك الضابط ملء شدقيه ، ولا يكون هناك غير ضحكته هو وحده .

ومن الضباط الذين أجروا اللعبة فى صف كنت فيه الرائد **(زكريا عمار)** .

ومما فعله هذا الضابط أيضا أن جعل صفين يقفان متقابلين ، كل فى مواجهة الآخر ويطلب من كل واحد أن يصفع الذى أمامه ، وكانت تتم هذه اللعبة على التناوب ، كل صف يضرب الآخر مرة ، وينتظر الضابط (الرائد) ليرى من الذين سيسقطون إعياء ، وكلما سقط فرد من الإعياء يضحك الرائد ملء شدقيه .

وكان كل واحد من المعلقين فوق السور بيده ورقة ، أو بجسده ورقة ، كانوا يسمونها (الروشته) بها طريقة معاملته ، يعنى الاسم ، ومتى يذهب إلى دورة المياه ، ومتى يتناول كوبا من الماء ، ومتى يتناول رغيفا ، ومتى يضرب وكانت المدد تقاس بالأيام ، إلا فى حالة الضرب ، ساعتان بين (العلقة) و (العلقة) .

وفى صبيحة يوم وجدت نفسى فى (المحمصة) مع زقزقة العصافير ، وأخذت مايسمونه (بالطريحة) وهى (علقة) بالهراوات ، تناولت فيها مالايقل عن مائتى هراوة ثم علقت على الحديد ، وكان على أن آخذ هذه (الطريحة) كل ساعة ونصف .

وظللت معلقا ثلاثة أيام دون نوم ، ومأأفظع هذه الذكرى ، فهى جملة تأخذ من وقت القارىء أقل من ثانية من الزمن ، ولكنها كانت بالنسبة لى آنذاك شيئا يجل عن الوصف ولا تحيط به الكلمات ، كانت شيئا يذكرنى بالله ، ويخوفنى من الآخرة وكان معلقا بجوارى أحد الأطباء (ع) – سمعت أنه ترك مصر إلى غير رجعة . وأشفق على رغم أن حاله ليست أحسن من حالى ونصحنى أن أتظاهر بأنى مصاب بمغص

كلوى حاد ، وشرح لى الأعراض ، ولكنى آثرت أن أحتفظ بهذه الأعراض فقد يأتى يوم أو تأتى لحظة أجد فيها ما هو أعتى مما رأيت .

وقد يسألنى سائل ، أهم يهتمون بالمغص الكلوى ؟ نعم بالقدر الذى يحفظ عليه حياته حتى ينتهى التحقيق ، فحرصهم على المعلومات يجعلهم حريصين على بقائنا أحياء لفترة أطول .

وجاءت اللحظة ، فتحت على أفواه الهراوات المتوحشة تحت إشراف الرائد (**فؤاد علام**) وأوشكت على الجنون من شدة الألم فصرت أصرخ صراخا جنونيا ، مدعيا أننى أصبت بمغص كلوى حاد ، فكفوا عن ضربى ، فقد كانوا لايريدون موتى كما بينت قبل معرفة ماعندى مما يظنون .

وجاء الطبيب الوغد وحقننى بالاتروبين ، وأوصى بأن أستريح وكانت استراحتى أن أجلس مستيقظا بجانب السور طول الليل ولم يسمح لى بالنوم بطبيعة الحال .

وكانت ليلة ليلاء ، وكان عذابى فى مقاومة النوم الذى يهب على من كل جانب يفوق ضرب السياط والكى بالنار ، والعبرة لمن جرب .

وجاء الصباح وكان علينا أن ننام على ظهورنا ونرفع أرجلنا فى الهواء ، وننتظم فى صف طويل ليستعرضنا العميد (أحمد رشدى) وفى صحبته ثلاثة من رجاله الغلاظ ، وكانت الأوامر الجديدة أن نرتدى الجاكتات فوق العصابة التى حول أعيننا ، فلا يبدو من وجه أحدنا شىء بالمرة ، ويقترب سيادة العميد من أول الصف ويسأل :

– من أنت ؟

فيجيبه :

– أنا فلان .

ويذكر اسمه ، وكان العميد يحفظ كل اسم وما يتعلق به من موضوعات التحقيق فيسأله عن بعض الموضوعات ، وعادة لاتعجبه الإجابة ، فيأمر أحد مرافقيه فى صوت خفيض :

– خمسين .

أو يقول ثلاثين ، وكان يقول مائة أحيانا .

ومعنى هذا الرقم أن يضرب المسئول بالهراوة عددا لايقل عن الرقم الذى ذكره سيادة العميد ، وكانت الثلاثون تعنى خمسين ، والخمسون تعنى ثمانين ، وهكذا ، وكان الشخص النائم فى آخر الصف عليه أن يظل رافعا رجليه حتى يصل إليه سيادة العميد والويل كل الويل لمن يخفض رجليه من التعب ففى هذه الحالة يبطشون به بطشا مخيفا .

وكان طابور الصباح هذا يستمر من ساعتين إلى ساعتين ونصف ، بعد ليلة منهكة من التمرينات الرياضية والإجبارية والضرب بالهراوات والتعليق عل القضبان الحديدية حتى تنسلخ الأقدام ، وبعد أن ينتهى هذا الطابور يصعد كل واحد إلى مكانه من السور ذى القضبان ، وكل ينتظر الذى يحقق معه .

وأتانى الرائد (فؤاد علام) فقد كان من قرعتى ، أو كنت من قرعته ، ووقف تجاهى خارج السور ، فغضب عندما رآنى معلقا بملابسى ، واستدعى المخبر الموكل بالمحمصة فى تلك الليلة وسبه سبا قبيحا لسماحه لى بارتداء الملابس ، وأفهمه المخبر أننى مصاب بالمغص الكلوى ، وأن هذه أوامر الطبيب (..) وسب الرائد الطبيب سبا مقذعا ، وانتهت المناقشة بأن نزلت من فوق السور وخلعت ملابسى كلها وضربت علقة ساخنة ، صعدت على أثرها إلى مكانى الأول ، واقترب الرائد ولمعت عيناه ببريق مخيف وفى يده ولاعة (رونسون) مشتعلة وصعقت عندما رأيته يقربها من جسدى

العارى ، وتصورت لحظتها أن هذه الشعلة إذا اقتربت من جسدى فإننى سأموت ولا ريب ، ولكنه حرق بها أجزاء متفرقة اختارها بلا اهتمام ، ولم أمت رغم أن أنفى قد امتلأ برائحة الجلد المحترق .

ويبدأ الحوار اللزج السخيف :-

- ألا تنوى الكلام ؟
- عن أى شيء .
- فى هذه المرة نريد شيئا محددا .
- وما هو ؟
- ماذا تعرف عن يحيى حسين ؟
- لقد قلت كل ماعندى ، ولم يبق هناك جديد أقوله .
- هل كنت تعرف أنه عضو فى تنظيم الإخوان ؟
- كلا .
- متى قابلته آخر مرة ؟
- منذ عدة شهور .
- كأنه لم يمر عليك قبل هربه إلى السودان ؟
- لم يحدث .
- إذن فأنت عضو فى تنظيم الاخوان ؟
- كلا .
- لماذا لست عضوا فيه ؟
- من الصعب الإجابة على هذا السؤال .
- وضح كلامك ؟
- أترى أنه ينبغى أن أكون عضوا فى تنظيم الإخوان ؟
- هذا ماينبغى عليك أن تشرحه لنا .

- لم يعرض على أحد الإخوان أن أشترك فى تنظيمهم الذى تقصد .
- رغم أنك تعرف ذلك العدد الكبير منهم ؟
- رغم أنى أعرف العدد الكبير منهم .

– أنت تكذب .
– وأين الحقيقة ؟
– الحقيقة أنك عضو فى تنظيم الإخوان ويجب أن تعترف بهذا . أتفهم ؟
– أفهم .
– هيه ، ماذا قلت ؟
– وماذا يمكننى أن أقوله بعد قرارك ، أنا عضو فى تنظيم الإخوان .

– وعلى علاقة بقيادة التنظيم !
– وعلى علاقة بقيادة التنظيم .
– بل أنت أحد قادة التنظيم .

– ....
– لماذا تسكت ؟
– لاأدرى ما أقول .
وبصوت كالفحيح يقول الضابط :
– بل عليك أن تقول وإلا ساءت عاقبتك .
– اتفقنا .

– على أى شىء ؟
– أنا أحد قادة التنظيم .
– ستكتب اعترافا بهذا أليس كذلك ؟
– شريطة أن أنجو من الضرب .
– اتفقنا سوف تنجو من الضرب ، هيه ، ماذا ستكتب ؟
– سأكتب أنى عضو فى جماعة الإخوان .
– ثم تعطينا التفاصيل عن تنظيم الإخوان وعن قيادة التنظيم .

— هذا المحال بعينه ياسيادة الرائد ، لن أكتب حرفا أكثر من الجملة التى ذكرت لك ، وافعل ما بدا لك فليس فى إستطاعتى أكثر من هذا ، صدقنى .

وتدور رحى العذاب ضروسا بشعة تحمل معها التعاسة والألم والشقاء . كان ذلك قبل قرار الاعتقال العام الذى صدر بتاريخ ٦ – ٩ – ١٩٦٥ فقد تغير كل شىء بعد صدور هذا القرار الذى ينص على اعتقال كل من سبق اعتقاله ، ويفوض وزير الداخلية باعتقال من يشتبه فيه ، ولهذا قصة أخرى .

جاء أكبر وارد إلى المعتقل قبل قرار الاعتقال العام يوم ٣ – ٩ – ١٩٦٥ وكان فى ذلك الوارد شقيقى الذى لم تكن له فى ذلك الحين علاقة بشىء سوى معرفته بأحد أصدقائى ، وفى مناسبة ما أرسل له خطاب مجاملة عاديا ، وضبط هذا الخطاب عند صديقى هذا الذى اعتقل بسبب علاقته بيحيى حسين هو الآخر ، وكانوا يقبضون على أية أسماء يجدونها مكتوبة فى أوراق ما فى حيازة أحد المعتقلين ، ولو كانت هذه الأوراق صكوك دين .

وكان هناك ماأخفيه عن المباحث العامة ، ولم يكن ماأخفيه ذا علاقة بأمن الدولة ونظام الحكم فى نظرى ، وكشف واحد من أصدقائى عن بعض ماأخفيه بعدما جهدت نفسى فى إخفائه طيلة أيام التحقيق الأولى ، وكان هذا الصديق قد اعتقل بسبب وجود بطاقة تهنئة تحمل اسمه فى منزل أحد الذين سبقوه وتمكنت من مقابلته لحظة حضوره وأفهمته سبب اعتقاله وأن عليه أن ينسى ذلك الأمر الآخر الذى حرصت على إخفائه ، ولكن الرجل سامحه الله صار يهذى من شدة العذاب وقال مايعرف وما لايعرف ، وأتوا بى ووقعت الواقعة ، وأظلمت السماء ، وقامت الدنيا وقعدت .

ثم جاء يوم ٦ - ٩ - ١٩٦٥ الذى كان شبيها بيوم الحشر ، فقد وصلت دفعة ضخمة من المعتقلين من أهل الصعيد ما يزيد عن سبعمائة شخص يمثلون نصيب معتقل التحقيق من هذا القربان البشرى الذى يقدم على مذبح القوة .

أمروا جميعا أن يضعوا أمتعتهم فى مكان واحد فصار كل واحد يقذف أمتعته فى ذعر حقيقى ، وماهى إلا لحظة أو تكاد حتى تجرد الجميع من ملابسهم ، وكانوا يجرون ويتخبطون وهم عراة من شدة الضرب كالفئران المذعورة فى مصيدة كبيرة ، وكان المكان لايسمح لمناورات واسعة ، ولايستطيع واحد فينا أن ينسى منظر الهلع البالغ الذى ارتسم فى أعين هؤلاء البائسين وهم يرون جثثنا معلقة على الحديد وقد سالت منها الدماء ، وفاحت رائحة الصديد ، فكانوا يسقطون من الخوف والذعر والإنهاك .

وكانت الصرخات تدوى فى كل مكان أما نحن الذين علقنا على الحديد قبل وصولهم فقد تحررنا من الخوف إلى حد ما وهذا بعد أن ألفنا الجلادين ، ولكن الشىء الذى لم أستطع أن أتحرر منه رغم محاولاتى المتكررة فكان الألم .

وكم حدثت نفسى أن الألم عبارة عن فكرة موجودة فى مركز ما من مراكز المخ ، وبفكرة أخرى أقوى منها أستطيع أن أتغلب على الفكرة الأولى ، وهكذا يختفى الألم ليفسح مكانا للفكرة الأولى ، كنت أحدث نفسى هذه الأحاديث فى كل مرة أعلق فيها وأركز تفكيرى وسرعان ما يتبدد كل شىء عند أول لفحة من لفحات العذاب وربما كان تصورى هذا صحيحا ، ولكن لابد للفكرة البديلة أن تفوق الألم عنفا وسيطرة وقوة .

كان التعذيب فى أبى زعبل يعتمد أول مايعتمد على القهر الروحى ، التجريد من الملابس فتضيع قيمة الإنسان أمام نفسه ويشعر أنه شيء مباح لاقيمة له ولا وزن ثم الإهانة الفائقة التى تهز كيانه هزا عنيفا مزلزلا ، وبعد ذلك الضرب المبرح والكى بالنيران والتجويع والعطش الشديد .

وكانت آلة الضرب الأساسية فى أبى زعبل هى (الهراوة) ولذلك حكمة ، فالهراوة لاتترك أثرا كبيرا فى الجسد ، أو من الممكن أن يداوى هذا الأثر بعد حين قريب أو بعيد ، ولو أنها قتلت أشخاصا فى أحيان كثيرة .

وكانت المباحث العامة لاتلجأ للسياط إلا فيما ندر ، وربما لمزيد من الإرهاب والتخويف فلصوتها فحيح يبعث الخوف فى أشد القلوب جسارة .

ويكمن الفرق بين المباحث العامة فى أبى زعبل والمباحث الجنائية العسكرية فى السجن الحربى أن الأولين أكثر مهارة وفنا فى التعذيب ، وكان الآخرون أشد قسوة واستهانة ، فلا عجب أن يكون عدد القتلى فى السجن الحربى ضعفه مرتين فى معتقلات المباحث العامة .

كان صديقى الذى كشف ماكنت أخفيه يقضى معى أمسيات شهر أبريل ومايو من عام النكبة عام (١٩٦٥) فى استذكار الدروس ، ولعل من المناسب أن أعرج على ما كنت أود أن أخفيه عن المباحث العامة ، مجرد نشاط دينى وثقافى .

دراسة لأحوال العالم الإسلامى ، إلقاء محاضرات يعدها بعض منا ، تلقى كل حين من الوقت عندما يتسنى ذلك ، وكنا قد بدأنا بداية طيبة حتى فتح باب الإعتقال والتشريد ، وكان لقاؤنا للاستذكار ، ثم لاستكمال هذا النشاط ، ولو

كنت حكيت لهم هذا لما صدقونى ، وفكرت وقدرت ورأيت أن أخفى هذا عليهم ، ثم جاء المسكين وقص عليهم القصة ببساطة فى أول الأمر ، ولم يكن هذا التبرير كافيا عندهم فلا شك أننا كنا نجتمع فى مؤامرة لقلب نظام الحكم .

كان الشعب بأكمله يتآمر لقلب حكم عبد الناصر ، هكذا كانت تظن أجهزة الأمن العديدة فى مصر ، وكان لا بد لصديقى أن يعترف أن الأمر مؤامرة بعد أن أخذ نصيبا من الضرب يفوق العقل ، وحتى يكون التآمر واضحا لابد من (سيناريو) جيد ، وكان من الصعب إعداد مثل هذا (السيناريو) الجيد ، بعكس الاعترافات ، فمن السهل التوقيع على الاعترافات ، وقد رأيت أننى فى جولة التحقيق الأولى كتبت ماأملاه على الرائد (فؤاد علام) ووقعت عليه بإمضائى ، ولعلى لا أذكر الآن ماذا كتبت بالضبط ، ولكنه كان (سيناريو) هزيلا لتآمر مزعوم ضد حكومة كرهها الشعب من أعماقه وصار ينتظر ساعة الخلاص منها .

قلت للرائد لامانع من توقيع اعترافات جديدة ، ولكن ، أليست الاعترافات الأولية كافية ؟

وامتلأ صوته بالغضب وهو يزمجر :

– احنا بنزور يا ابن الكلب ؟ نريد حقائق .

ولم يكن أمامى عند ذاك غير الاستسلام للتعذيب وإطفاء السجاير فى أنحاء جسدى حتى أن وجهى صار (منقرشا) من كى السجاير لمدة طويلة ، وزاد الطين بلة اعتقال آخر من أصدقائنا ، وكان شديد الخوف يصيبه الفرق من أقل شىء ، وساعد هذا فى إعداد (السيناريو) الخاص بالتآمر المزعوم ، ولم تعد هناك فائدة من الدفاع بل علينا أن نتقن الكذب حتى ننجو من العذاب . فالاعتراف بالتآمر لايكفى ،

بل يجب أن تكون الأحداث متناسقة ومنسجمة مع بعضها البعض ، وكم مات كثير من الشهداء من أجل هذه الغاية بلا فائدة .

وكانت العبارة المشهورة على ألسنة المحققين :
– سوف تموت ليس فى هذا شك ، ولكن لابد أن تتكلم أولا .

كان الأمر كما قلت ، أجهزة الأمن تنظر إلى الشعب كله على أنه متهم بالتآمر ضد نظام عبد الناصر ! وكل ماينقص هذه الأجهزة هو جمع أدلة الاتهام لتقديم المواطنين للمحاكمة ، وكان لابد لهم من هذا ليثبتوا أنهم جديرون بالوظائف والمناصب التى يتسنمونها ، فلو كانت الأمور هادئة مستقرة والشعب منصرفا إلى حاله يصنع الحضارة كما يقول بعض المؤرخين فما فائدة وجود هذه الأجهزة التى لا أول لها ولا آخر ؟ ومن أين تدفع المخصصات الضخمة الكثيرة للحفاظ على أركان الدولة ؟ كانت المسألة مسألة حياة فى المقام الأول بالنسبة للمباحث العامة والمباحث العسكرية والمخابرات العامة ، والمخابرات العسكرية ، ومخابرات رئاسة الجمهورية ومكتب المعلومات التابع للمأسوف على شبابه سامى شرف سكرتير عبد الناصر ، وكان لكل من هؤلاء أكثر من مخبر فى كل شارع وكل قرية وكل مدينة وكل مصلحة حكومية أو غير حكومية ، كان عدد المخبرين التابعين لأجهزة الأمن أكثر من عدد المواطنين فى ذلك الزمن الغابر الذى ذهب ولن يعود . بإذن الله .

الفصل السابع

ذكريـــات
من معتقل أبى زعبل

مكثت فى أبى زعبل سبعة عشر يوما ، فقد دخلته يوم ٢٨ أغسطس وغادرته فى ١٣ من سبتمبر من نفس العام (١٩٦٥) ولم أذق فى هذه الأيام طعما للراحة فى أية لحظة من اللحظات ، وقد يسر لى وجودى فى (المحمصة) أن أرى أشياء عجيبة غريبة فمثلا :

اعتقلوا أحد المواطنين وعند تفتيشه وجدوا فى جيبه قائمة فيها أحد عشر اسما وكان من الطبيعى أن يعتقلوا أصحابها ، لم يكن صاحبنا يعلم ، وكان معلقا بجانبى على الحديد وزاد اشتباه رجال المباحث فى أصحاب هذه الأسماء عندما وجدوهم من الطلاب ولايزيد أكبرهم عن عشرين عاما ، فلا شك أن هؤلاء هم (الخامة) الجيدة للتآمر ضد نظام الحكم واستمر ضرب أصحاب الأسماء أكثر من ثلاثة أيام حتى يعترفوا بما كانوا ينتوونه من انقلاب ضد نظام الحكم بلا فائدة ، فلم يكن هناك تنظيم ولا يحزنون ، وأشرفوا جميعا على الموت وفى النهاية اضطروا لسؤال ذلك الرجل الذى وجدوا فى جيبه القائمة وكان من السخرية البالغة أن يعلم الجميع بعد ذلك أن صاحبنا قد اختار هذه الأسماء ودونها دون علم أصحابها ليشكل منهم فريقا من كرة القدم فى نادى القرية .

ومن الأشياء الطريفة أيضا أنهم يكتشفون حديثا معينا دار بين زيد وعمرو من الناس فى مقهى من المقاهى فى يوم من الأيام ، فيتم اعتقال رواد المقهى لاستكمال التحقيق بالطريقة التى نعرفها والتى حكيت عنها آنفا .

كان الأمر بالغ الإثارة وبالغ الغرابة أيضا ففى أبى زعبل رأيت الابن وهو يجلد أباه بالسوط والأب يصرخ والابن يصرخ أيضا وقد انتابت الجميع حالة شبيهة بالصرع الذى كان يحكى عنه (دستويوفسكى) فى كتاباته .

ولم أنس تلك الليلة من ليالى أبى زعبل بعد أن امتلأ المعتقل عن آخره بالمعتقلين إذا بهم يصدرون أمرا بأن يضع كل واحد العصابة على عينيه ولعلكم تذكرون أن بناية المعتقل مكونة من ثلاثة طوابق وصدر الأمر الثانى وكان ينفذ تحت الضرب بالهراوات .

كان على جميع العنابر أن تتجمع فى فناء(المحمصة)، وكان على جميع المعتقلين أن ينزلوا على أيديهم وأرجلهم ويصدرون صوتا شبيها بصوت الأغنام عندما تصدر عن المرعى الخصب ولم يكن النزول بنظام بطبيعة الحال ، فالكل عرايا والكل معصوب العينين فكانت موجة عارية من البشر تنساب بائسة على درج المعتقل تحت وطأة الهراوات وصيحات التخويف والقهر .

واكتظ فناء (المحمصة) بذلك العدد الكبير ، وكان لابد من جلد هذا العدد جميعا واحدا واحدا ولم يكن الحرس يكفون لهذه المهمة الشاقة فاستعانوا بكل من وجدوه فى ذلك اليوم من موظفين مدنيين وممرضين والذين يعملون فى مخبز قريب تابع لليمان أبى زعبل ، وجلد الجميع جلدا وحشيا رهيبا لم ينج شيخ أو مريض أو جريح أو طفل ، وسمعنا أنها أوامر رئاسة الجمهورية بجلد ذلك الجمهور الغفير .

جلد فى هذا اليوم أكثر من ألفى شخص يسبحون الله تعالى ، ومانقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ، كل من كان فى المعتقل فى ذلك اليوم ، كان الجميع يعصبون أعينهم ويتخبطون وهم مذعورون وتعالى صراخ الجميع فى الفضاء مع عتمة الليل القاتمة ولا مغيث .

الشهود على هذا الحادث كل من كان فى معتقل أبى زعبل السياسى فى النصف الأول من سبتمبر (أيلول) عام (١٩٦٥) وأغلبهم لايزال على قيد الحياة .

ولن أنسى فى ذلك اليوم ضابط الشرطة حديث التخرج الذى كان يبكى بحرقة فى زاوية من مناظر التعذيب المفزعه.

وفى أبى زعبل كان بجوارى على بعد أمتار شخص ظل يطلب الماء ليشرب طول الليل ولم يسقه أحد وفاضت روحه عند الفجر وسكن إلى الأبد .

ولعل أحدا من الذين استضافتهم المباحث فى أبى زعبل لا ينسى ليلة ٣١ أغسطس الرهيبة يوم أعلن عبد الناصر بنادى الشباب السوفياتى بموسكو إكتشاف مؤامرة للإخوان المسلمين وأنه عفا عنهم عام ١٩٥٤ ولكن هذه المرة لن تكون هناك رحمة ، وقد صدق . فقد تحول المعتقل بعد هذا التصريح إلى سلخانة بشرية (مسلخ) .

وفى أبى زعبل رأيت شقيقى الأصغر مع عدد كبير من أصدقائى وهم يجلدون عراة من ملابسهم .

وفى أبى زعبل ودعت كل أمل فى المستقبل فى حين سلمنا ضابط الترحيلات وكان الضابط الذى استلمنا قد دقق فى الاستلام ، وصار يحصى المعتقلين بحرص ، فقال له :

– لا تهتم أى عجز فى العدد ممكن أن أسدده ، كأنما يسلمه قطيعا من الخراف .

وفى أبى زعبل رأيت الدكتور أحمد الملط أستاذ جراحة القلب وهو يركل ويضرب بكل أدوات الضرب المعروفة وغير المعروفة حتى فقد النطق .

وهناك أيضا رأيت مئات الأبرياء لا يعلمون سبب القبض عليهم وحتى الذين اعتقلوهم لم يكونوا يعلمون أيضا .

وفى أبى زعبل عرفت أن وسائل التعذيب والإرهاب التى استخدمتها المباحث العامة ضد المواطنين فاقت كل ماتم فى عصور الإرهاب والاضطهاد عند الرومان أو الفرس ، أو فى عهود الاضطهاد الدينى المختلفة أو محاكم التفتيش فقد قرأت عن هذا فى كتب التاريخ ولكن ما جربته بنفسى كان شيئا مختلفا تماما عن كل ماسبق أن قرأته وكان يفوقه همجية وفحشا وإمعانا فى التنكيل .

ولاأنسى ذلك اليوم الأول لاعتقالى يوم تكلم معى أحد الضباط بالمنطق وقال لى :

– لقد سمعت أنك مثقف ودائم الاطلاع والقراءة .

– لعل هذا يشفع لى عندك .

– بالنسبة لى لن أفعل معك شيئا ، لايمكننى أن أضرب إنسانا مهما كان المبرر قويا وملحا ، ولكن هل قرأت شيئا عن محاكم التفتيش ؟

– نعم .

وفى صوت فاحت منه رائحة الحزن قال هذا الضابط ، ما ستراه فى هذا المكان يفوق كل ماقرأته بشاعة ، وقلت له فى فزع :

– ولكن ، أيفعل هذا معى ؟

– نعم ، ولماذا يستثنونك ؟

– ألا يشفع لى شىء ؟

– ولا الله نفسه يستطيع لك شيئا .

ثم أكمل بصوت كفحيح الأفاعى :

– هذا المكان لا يدخله الله ولايعلم عنه شيئا ، وسترى بنفسك مدى صدقى .

– وماذا أفعل ؟

– تكلم ، قل ماتعرفه ، احك عن كل شىء ، المؤامرة واتصالك بالمتآمرين .

– ليس هناك شيء من هذا .
– لافائدة ، المفروض أنك تعرف .
وهكذا كان كل إنسان يدخل هذا المكان الذى لايدخله الله – فى زعمهم – عليه أن يكون متآمرا ضد الحكومة ، وإلا فهو يغامر بروحه تحت وطأة تحقيق لايعلم كيف تكون نتيجته .

ولقد صدق الضابط معى فى واحدة وكذب فى الأخرى .
صدق حين قال إن التعذيب الذى سأراه يفوق ما كان يحدث فى محاكم التفتيش فى ظلمات القرون الوسطى ، فقد كان هذا مارأيته فيما تلا ذلك من أيام ثقال طوال ، تنكيل جعل الكثير يتمنى الموت فى كل دقيقة وكل لحظة ، وآلام نفسية مزقت نفسى وروحى من جراء مارأيت من أناس يلفظون أنفاسهم تحت وطأة السياط ، وأنا أعلم أنهم أبرياء وكان منهم من يتمتع بروح بطولية عالية ، فقد كان بعضهم يسخر من الجلادين ويهزأ بهم وبينه وبين الموت لحظات .

وكذب الضابط حين قال : إن هذا المكان لايدخله الله ولايعلم عنه شيئا ، فقد كان الله هناك ، ورأيته مرارا وأنا تحت وطأة الهول القاسية ، وماأظن أننى كنت أعرفه سبحانه وتعالى معرفة حقة قبل أن أذهب إلى ذلك المكان الذى يقوم على الشاطىء الآخر من الحياة .

فى أبى زعبل رأيت المهندس الزراعى (محمد نجيب زكى) ذلك الذى كنت أعرفه منذ مدة وكانت علاقتى به سطحية ، كان يسكن مع الصديق (محمد الغنام) الذى كنت أتردد عليه وخرج الجميع من كلية الزراعة ، الدفعة المنكودة ، دفعة يحيى حسين ، وفرقت الأيام بينهم وذهب كل فى حال سبيله ، وقابلته أنا و (محمد الغنام) فى الطريق صدفة ، عندما كنا نسير فى حى الزيتون ذات مساء ، وكان

لقاء وأشواق وسلام ، وعرفنا أنه يعمل فى محافظة (سوهاج) فى مديرية الزراعة ، ولحظة التعس أنه كتب عنوانه على قصاصة صغيرة من الورق ، وسلمه للصديق الآخر .

ومرت الأيام ولم يلتقيا بعد ذلك ، وجيء بصاحبنا (محمد نجيب زكى) مكبلا بالحديد من سوهاج وهو يضرب أخماسا بأسداس ، وفى أبى زعبل سئل عن التنظيم سؤال الملكين ، وكان عذابه قاسيا شديدا مريعا ، وهو لايدرى شيئا ، ولازلت أذكر عندما رأيته وهو يزحف عاريا والحديد فى يده وهو يكاد يجن من شدة الألم .

واضطر فى النهاية أن يعترف بعضويته للتنظيم السرى ، وحاول أن يجعل لاعترافاته وزنا أو قيمة فلم يفلح ، فهو لم يكن يعرف شيئا عن التنظيم ولم تكن ثقافته لتسمح له بالتصور المعقول فى مثل هذه الأمور .

أصيب هذا الشخص بانهيار عصبى ، لازمه سنوات الاعتقال ثم أفرج عنه محطما كئيبا بعد ثلاث سنوات .

الفصل الثامن

الذهـــاب
إلى السجن الحربى

قضيت ليلة ١٣ سبتمبر (أيلول) (١٩٦٥) ساهرا معلقا على الحديد فى (المحمصة) وعندما أشرق الصبح سحبت معصوب العينين إلى (الفيلا) المجاورة للمعتقل والتى يجرى فيها التحقيق ، وكان يوما مرهقا حارا ضربت فيه ضربا فاق مامر بى من أيام الجلد والتعذيب .

ووجدت الرائد (فؤاد علام) يعتصرنى عصرا ليحصل على معلومات وهمية جديدة ، وكنت أؤكد فى كل دقيقة أنه لايوجد عندى غير ماسبق أن قلته له من قبل ، لست عضوا فى التنظيم واسألوا أصحاب التنظيم وعلاقتى ببعض أفراده كانت علاقة سطحية ولم يفكروا فى ضمى إليهم فى يوم من الأيام اسألوهم .

– طيب ، وعلاقتك بحزب التحرير الإسلامى ؟

– دى مصيبة ايه دى !! لاعلاقة لى به .

– والكتب التى ضبطت فى منزلك من منشورات الحزب ؟

كانت تباع فى مكتبات القاهرة ، وأرسلوا واحدا من حضرات المخبرين يأتيكم منها بالمئات .

– وماسر اهتمامك بهذه الكتب ؟

– الثقافة ، المعرفة ، لابد للإنسان أن يكون داريا بما يدور حوله من أحداث .

– وصلنا إلى بيت القصيد ، لابد أنك تعرف شيئا عن تنظيم الإخوان .

– لاحول ولاقوة إلا بالله !! لماذا ؟

– أنت تقول إنه لابد للإنسان أن يكون واعيا لما حوله ، واهتماماتك إسلامية وتنظيم الإخوان يقع تحت هذا النطاق .

– ياافندم ، هذا التنظيم الذى تتكلم عنه سرى أم علنى ؟

– سرى . ياابن الكلب .

– فكيف يتسنى لى معرفته اذن ؟
وفى ثورة جامحة يقول الرائد :
– ياابن الكلب . ماكلهم قالوا إنك فى اللجنة الخماسية .
– يانهار أسود ، اللجنة الخماسية مرة واحدة ؟ هذا كلام غير صحيح وغير منطقى ، اسألوا اللجنة الخماسية .
– وإذا سألناها وظهر أن هذه هى الحقيقة ؟
– فى هذه الحالة يحل لكم الضرب بالرصاص .
– فى هذه الحالة سوف تضرب بالأحذية حتى تموت .
هكذا فى حوار متكرر ، نفس المضمون ، وربما نفس الألفاظ .

وعند العصر أدخلت ثانية على الرائد (فؤاد علام) وبلا مقدمات سألنى :
– هل تعرف شعبان بتاع الخانكة ؟
– وماحكاية شعبان هذا ؟
– ياابن الكلب لما اسألك تجاوب .
« كام صفعة وكام كرباج على اكتافى »
– حاضر ياأفندم .
– هيه . تعرف شعبان بتاع الخانكة ؟
– كلا . لاأعرف واحدا بهذه الصفة . وليس من معارفى من يدعى شعبان ، ولم يكن لى فى أى يوم من الأيام معرفة بشخص اسمه شعبان ، وعلى استعداد لكتابة إقرار بهذا .
– فكر جيدا ..
– ياأفندم أنا فاكر ، وعلى ثقة من أننى كذلك ، لاأعرف شخصا اسمه شعبان سواء كان من الخانكة أو من أى بلد آخر .
– أنت مصيبتك ثقيلة .
– وهل هناك مصائب أثقل من هذا ؟

– ستعرف الآن إذا كان هناك ماهو أثقل من هذا أم لا .

– والله العظيم ماأعرف أحدا اسمه شعبان .

– دعك من هذا . جهز نفسك ، سوف تذهب الليلة إلى الحربى ، ولو أن شخصا أطلق على الرصاص فى هذه اللحظة لما شعرت ، تجمع الخوف والهلع فى قلبى مرة واحدة ، فقد كنا فى تلك الأيام نسمع أساطير عن السجن الحربى ، وبالرغم من كل مامر بنا من عذاب فقد كنا نعلم أن عذاب السجن الحربى لايفوقه عذاب غير عذاب الآخرة ، ولم أفكر لحظة أنه يمكننى الذهاب إلى هناك .

واستعدت رباطة جأشى عندما ظننت أن هذا الكلام لن يعدو إرهابا وتخويفا من الرائد ، أما الذهاب إلى هناك فذاك شىء بعيد جدا ، أين نحن من السجن الحربى ؟

واطمأنت نفسى قليلا .

واقترب الملازم عصام الشوكى ورفع العصابة عن عينى وطلب منى أن أتبعه إلى المعتقل حتى آتى بحاجياتى وأسلم ملابس السجن ، فقلت لنفسى هذا إمعان فى الإرهاب والتخويف ، فلأ تظاهر بالخوف لأرضى غروره .

وسلكنا الطريق إلى المعتقل ، وكانت أول مرة أسير فيها مفتوح العينين ، ورأيت أكوام الزلط التى كنت أتعثر بها ، والأشواك التى طالما أدمت قدمى فى ذهابى ورواحى ، ورأيت الحرس فوق الأسوار شاكى السلاح ، وينظرون شزرا فى تجهم كأنهم الشياطين .

وعند باب المعتقل رأيت عربة كبيرة من النوع الذى يستخدم فى نقل المعتقلين ، مثل الأخرى التى جئنا فيها من معتقل القلعة ، ولعب الفأر فى عبى ، ربما يكون الأمر جدا .

وتكلم الملازم عصام الشوكى وكأن صوته يأتى من مكان سحيق .

– أنت ستذهب إلى السجن الحربى الآن . لماذا ؟
– لاأدرى لماذا يطلبونك ، ولكن لو ظهرت لديك أقوال أخرى غير التى قلتها فمعناها أننا لانعرف عملنا ، وهذا وحده سيكون كافيا لقتلك عندما تعود إلينا مرة أخرى .

وهبطت على شياطين الخوف من كل مكان ، المسألة جد إذن ، ساعدنى يارب ، ودخلت مخطوف اللون شارد الذهن ، وبجوار السلم كان يجلس اثنان وعشرون ممن سيذهبون معى إلى الحربى ، ونظرة واحدة ناحيتهم تبين الحالة السيئة من الخوف الذى يركبهم ، كانوا يجلسون القرفصاء صفر الوجوه ، ناكسى رؤوسهم ، وأغلبهم كان يرتعد رغم شدة الحرارة .

وسلمنى الملازم عصام إلى الرائد قائد الرحلة إلى الجحيم . وسألنى :

– أين ملابسك التى اعتقلت بها ؟
– فوق ، فى العنبر .
– أسرع يا ابن الكلب وأت بها على الفور .

ودخلت العنبر فوجدته قد اكتظ على آخره بالمعتقلين ، وأصبح شبيها بالأتوبيس المزدحم ، ووجدت المعتقلين القدامى الذين كانوا معى حين دخلنا فيه لأول مرة ينتظروننى ، وتقدم أحدهم وواسانى .

– شد حيلك ، احنا عرفنا أنك ذاهب إلى السجن الحربى .

الموت حق ، والساعة حق ، والله يبعث من فى القبور ، وصرت أتمتم بدعائى وأحاول أن أستجمع نفسى فلا أستطيع ، وارتديت بذلتى التى اعتقلت بها ولففت ملابس المعتقل ووضعت فى اللفة القروانة والطبق الصغير والملعقة الالمونيوم الجديدة ، وكنت أول من استعملها بعد أن صنعت .

وودعنى كل من فى العنبر بالدعاء وداعهم لشخص يساق إلى الموت .

هبطت إلى الدور الأول حتى أسلم هذه العهدة الحقيرة وأستلم أماناتى ، وكانت عبارة عن ثلاثين قرشا ، كانت كل مامعى لحظة اعتقلت ، وصرت بعد ذلك أتنقل بها من معتقل إلى معتقل ، وقد أحسست ساعتها أن المعتقل عزيز على نفسى لأن المكان الذى أنتزع إليه شبيه بالجحيم ، لحظتها أدركت نسبية الأشياء ، والأمر الذى ملأنى فزعا أننى رأيت الجلادين وهم ينظرون ناحيتنا - نحن الذاهبين إلى الحربى - نظرة مليئة بالشفقة والرثاء العميق ، معنى هذا أنهم يعلمون أن الذهاب إلى هناك يعنى عذابا أكثر مما يدور فى هذه الطاحونة ، ومعناه أيضا أن مايجرى فى السجن الحربى قد أثار الشفقة فى هذه القلوب المتحجرة شديدة القسوة !!

- أين النجاة يارب ؟ لابد أن يبلغ الكتاب أجله .

وفى قيد من حديد وضعوا كل اثنين منا ، ثم ربطوا هذه القيود فى جنزير طويل وهكذا أصبحنا جميعا كتلة واحدة ، ربط الألم بينها ، ولم ينسوا أن يعصبوا أعيننا ، وتم هذا كله فى جو من الإرهاب الشديد الذى تمثل فى الركل والصفع والسب القبيح ، ثم ألقوا علينا تحذيرا أخيرا ، من يفتح فاه بكلمة فى الطريق سيكون مصيره الضرب بالرصاص ، دون رحمة أو شفقة .

ولم يكن لهذا التحذير قيمة فلم تكن عند واحد منا رغبة أو قدرة على النطق بكلمة ونحن فى طريقنا إلى السجن الحربى حيث الموت الذى لالون له وماكان الموت بالشىء الذى يخشاه واحد فينا بل العذاب .

وكان معنا فى هذه الشاحنة اثنان من المخبرين . كنا نحن نرتعد من الخوف ، وكانا هما يسخران منا ويسباننا .

قال أحدهما :

– يكون حظكم من السماء لو نزلت هذه الشاحنة فى الترعة ومتم عن آخركم .

وكانت السيارة تسير فى طريق الترعة الإسماعيلية وأمامها عربات شرطة ، وخلفها كذلك ، هكذا فهمنا من كلام المخبرين ، ثم قال الثانى :

– أنتم لاتدرون ماينتظركم فى الجحيم الذى تذهبون إليه .

ووجدت شفتى تهمسان الله سبحانه وتعالى بدعاء حار أن يستجيب لهذا المخبر وتسقط الشاحنة بنا فى الترعة ونغرق عن بكرة أبينا ، وتمنيت لو كانوا أتموا شنقى فى يوم مضى ، وقدر الله أن نعيش التجربة ، ولم تسقط العربة فى الترعة .

وعلمت فيما بعد أن كل واحد من الذين معى قد داعبته نفس الأمنية وتوجه إلى الله عز وجل بالدعاء .

وبعد حوالى ساعتين من السير بالشاحنة على ضفاف الترعة الإسماعيلية التى لم نرها فى رحلتنا ، وملامسة الضجيج فى شوارع القاهرة ، الهادرة بالأصوات المتباينة ، وهى لاتعلم عن منكوبى الرحلة البائسة ، ثم التسكع قليلا فى بعض أقسام الشرطة ، وفى مبنى المباحث العامة .

وفجأة وجدنا الضجة تخفت والضوضاء تتضاءل ، ثم لايقطع علينا خوفنا غير صوت محرك الشاحنة ، عند ذلك علمت أننا قد دخلنا فى منطقة (مدينة نصر) حيث يقبع السجن الحربى الرهيب بجدرانه الحجرية الباهتة وبوابته السوداء ، حيث يتحدى الحرية والشعب فى سلاطة ووقاحة .

وكان عقلي يمور ويثور ، وروحي تتخللها الأفكار على مدى قسوة الإنسان لأخيه الإنسان فى هذا المكان الرهيب الذى يسمونه بالسجن الحربى ، ولماذا يطلبوننى فيه ؟ وماذا يمكن أن أجد هناك ؟

ووقفت الشاحنة ، وفى لحظة تجمد الزمن فى ذهنى من الخوف ، ثم استيقظت بعد فترة غير محدودة فى شعورى على صوت الجنزير الحديدى والقيد فى يدى يشدنى إلى خارج الشاحنة ، كنا جميعا مقيدين فى سلسلة واحدة ، سلسلة باردة صلبة قاسية تبعث البرودة فى الأعماق رغم سخونة الهواء الجاف فى سماء مدينة نصر .

ونزلنا من السيارة على عجل ، وعيناى معصوبتان ووصل إلى أذنى صوت ضئيل سرعان ماعلا وارتفع حتى صار مجسما مخيفا يملأ أذنى وكيانى كله .

كان هذا الصوت هو صوت السياط وهى تمزق الهواء والأجساد ، وتعوى بين هذا كله عواء مخيفا ، كأن ذئاب الأرض قد اجتمعت جميعا فى صعيد واحد ، ثم صراخ الإنسان المتعالى فى الفضاء العريض ، صراخا لاتستطيع تمييزه أهو لرجل أم لامرأة أم لطفل ؟ وكأن الثلاثة يجلدون فى السجن الحربى .

وخيل إلى وقتها أن الدنيا قد أصابها صمم ، وأن الحضارة قد لحقتها عفونة قضت على روحها وقتلتها وأدرجتها مدارج الفناء .

لقد وصلنا إلى السجن الحربى .

كنا وقوفا أمام البوابة ونحن نرسف فى القيود والسلاسل وعيوننا مغمضة والصراخ يتعالى ، ثم الجند يسوقوننا بعد ذلك بالسياط سوقا ، منظر غريب فريد ، لم أكن أتصور وجوده

إلا فى كتب التاريخ ، حينما تصف عصرا موغلا فى القدم ، ربما يكون حينما كان (كراسوس) فى فجر الحضارات يقضى على ثورة العبيد ويقتل زعيمهم .(سبارتاكوس) الذى يهدد نظام روما العتيد .

ربما يكون فى المناجم الليبية عندما كان الرومان يقتلون العبيد بعد يوم من العمل الشاق المرهق الذى يستمر طوال النهار وشطرا من الليل .

ربما حين كان رمسيس الظافر يسوق الأسرى من بلاد الحيثيين وبلاد بونت .

ربما فى مزارع القطن والسكر وفى العالم الجديد فى القرنين السادس عشر والسابع عشر .

ربما ، وربما ، فى أى زمن من أزمان التاريخ ، إلا أن يكون هذا فى القرن العشرين ، وفى مصر !

كان ذلك بعيدا عن ذهنى ، أهذا يحدث فى قلب الحضارة من ناحية الزمن حيث تصطرع الثقافات وكلها يمجد الإنسان وحريته تجاه الحياة ؟

كانت الصورة فى خاطرى وقتها ، عصابة من قطاع الطرق تخطف الناس من منازلهم وتذهب بهم إلى مكان مظلم مجهول . ولاأظن أن رجال الجستابو فى عهد (اللعين الراحل) آدولف هتلر كانوا على قدرة من الإذلال والتحطيم مثل ماأوتى هؤلاء الناس .

أى ريح عفنة هبت على مصر فى صيف ذلك العام ؟

كان الدخول إلى السجن الحربى بمثابة الدخول إلى غابة مظلمة ممتلئة بالحيوانات الضارية المفترسة ، حتى الحيوانات ، لاأظن أن قلبها الذى خلقه الله سبحانه وتعالى ، قد خلا من اختلاجة رحمة أو لمسة شفقة ، أما هؤلاء الناس

الذين عذبونى فى هذا السجن لمدة عام كامل فلم ينبعث من جوفهم غير ريح نتنة ساخنة تفسد كل شيء وتقضى على كل ماهو طيب وجميل فى نفس الإنسان ، ومن بين الصراخ انطلق صوت رفيع حاد :

– ماهذا ؟

– هؤلاء معتقلون جدد ، من معتقل أبى زعبل يا سعادة البك .

– ولماذا تضعون هذه العصابات على أعينهم ؟

– هذا نظام المباحث العامة ياسعادة البك .

وضحك سعادة البك ضحكة ماجنة سعيدة وقال :

– المباحث العامة تغمض عيون الناس خوفا من انتقام أصحابها فى مستقبل الأيام أما نحن فنقتل ونعذب ، ثم نقتل ونعذب ، ولانخشى أحدا ، ومن يأتى لهذا المكان فعليه أن يكون عبدا لعبد الناصر إلى الأبد ، (وهنا تذكرت السحرة وفرعون وملك مصر) أو يموت ، وإذا نجا من الموت لسبب يخرج عن إراداتنا فسيظل طول عمره يتجنب هذه القلعة الشماء والطرق المؤدية إليها ، ارفعوا هذه العصابات القذرة من فوق عيون هذه الجرذان .

وصفونا صفا واحدا ووجوهنا إلى حائط السور من الداخل ، ورفعوا القيود الحديدية وأمرونا فرفعنا العصابات من فوق أعيننا وكان الصراخ يرتفع ويصبح اللحن الجنائزى المميز للدخول فى هذه البئر الذى انفتح من جحيم الأرض دون حساب أو تقدير من كل هؤلاء المساكين الذين يواجهون مصيرا مجهولا بين هذه الجدران الصماء القاسية .

كان عندى بقية من تفكير ساعة دخلنا السجن الحربى ، وقادتنى هذه البقية إلى أن أودع كل أمل وكل أمنية وكل رغبة جميلة أو مريرة ، وأن أقدر أننى على باب من أبواب الآخرة ، وأن أترك نفسى بين يدى الله الحانية تفعل بها ماتشاء فقد يكون الخير ، خير الآخرة ، فيما هو كائن ، ولم يكن أمامى أن أفعل شيئا سوى هذا ، وتمتمت بيتين من الشعر لاأدرى من قالهما :

لاتدبــــر لك أمــــرا فأولـو التدبيـر هلكـى
سلــم الأمــر تجدنـــا نحن أولـى بك منكـا

واعتبرت نفسى ضيفا على الله فى هذا المكان الذى يتحدى كل من فيه الله سبحانه وتعالى بعظمته وجبروته .

ماذا يمكن أن أكتب لكم فى هذا المقام ؟ إن نفسى ترتعد كلما أتذكر هذه الأيام المريرة ، وأجدها كلما عاودت النظر تنضح رعبا وألما وسخطا ، لقد قدر لمن يذهب إلى السجن الحربى أن يرى أسوا مايمكن فى الحياة ، وليس فى ظنى أن مصائب الدنيا كلها تساوى قضاء ليلة واحدة فى زنازين السجن الحربى الباردة الشمطاء ، ومهما كتبت ومهما صورت فلن أفى هذا المكان حقه من الوصف والتحليل .

كان من تقاليد السجن الحربى العتيقة شىء يسمونه « الاستقبال » وكان هذا التقليد يسلمه الزبانية إلى أخلافهم ، وصار مع الأيام شيئا مميزا ، وهو عبارة عن استلام الشخص المنكوب وضربه ضربا شديدا قد يودى بحياته لكى يتعود الذل والطاعة ، ولايستطيع أن يفتح عينيه فى وجه جلاديه أبدا ، وكان علينا أن نمر بهذا الاستقبال ، وكنا نسمع عن هوله الأساطير أيام كنا فى معتقل أبى زعبل ، هل أستطيع أن أصفه لكم ؟ لست أدرى ولكننى سأحاول .

من بين الجو الذى وصفته قبل ذلك ، الصراخ والعويل والأنات المتحشرجة والسياط العاوية اللاعقة من دم البشر جيء بالكلاب المفترسة يقودها الجند فى سلاسل مربوطة بأعناقها ، وصارت تعوى وتداعب أقدامنا مداعبة خفيفة ونحن نلتصق بالجدار نكاد نتجمد من الرعب والخوف ، ثم أتوا بعدد من الجند أكثر من خمسين ، وكان على كل واحد منهم أن يفعل شيئا ، وكان هؤلاء الجند مدربين مثل الكلاب تماما ، وقاموا بأعمال شبيهة بأعمالها فى مرات سابقة كما تبين لنا بعد ، وكان على كل جندى أن يمر على هذا الصف المنكود ويصفع كل واحد صفعة على قفاه ، صفعة شبيهة بالقنبلة لبشاعتها وقوتها ، وكان يقف بجانبى شيخ عجوز محطم لم يحتمل الصفعة فسرعان ماسقط على الأرض ، ولاأدرى هل سقط من هول الصفعة أم من شدة الخوف ، المهم أنه تهاوى إلى الأرض ، ووجدت نفسى أنحنى إليه وقلبى يتمزق من الصفعة والرحمة ، والرجل يرسل أنينا مخيفا ، ويتوسل ويستعطف ثم سكت إلى الأبد ، لا شك أنه قد مات من الخوف .

أما أنا فقد أخرجونى من الصف وضربونى جميعا حتى فقدت الرشد ، ولما أفقت وجدت نفسى ضمن كومة من لحم زملائى ، فقد ضربنا جميعا حتى تكومنا من شدة الضرب ، وكانت الكلاب تلغ فى الدماء بشراهة ووحشية وكم نالت الكلاب من اللحم البشرى فى هذه الليلة .

ثم صرخوا فينا صرخة عظيمة ، أن ننتبه وقوفا ورغم الآلام العظيمة لم يكن أمامنا غير أن نمتثل ، ووقفنا وكل ذرة فى أجسادنا تنضح بالشكوى والألم والضعف ، وكان أمامنا أن ننطلق إلى حيث نبيت ونقضى أول ليلة فى جحيم الأرض ، وصدر الأمر لنا بأن ننطلق إلى السجن الكبير .

السجن الحربى عبارة عن سور بداخله بنايات ضخمة يطلق عليها ، رقم واحد وهو السجن الكبير ، ويتسع لألف

شخص حشرا ، وبه ثلاثمائة زنزانة تقريبا ، مكونة من أدوار ثلاثة ، وهو المكان الذى قضيت فيه مدة الاعتقال ، ثم رقم اثنين ، وثلاثة ، وأربعة ، وخمسة ، والمستشفى الذى لايذهب إليه إلا الذين أوشكوا على الموت ، أو الذين ماتوا فعلا ، ثم أماكن الإدارة ، وأماكن التعذيب ، ويوجد فى داخل أسوار السجن الحربى (فيلا) أنيقة حيث يقيم جلاد السجن الشهير حمزة البسيونى ، الذى سيظل اسمه لصيقا بتاريخ الإرهاب والقتل والتعذيب والتشريد .

وبجانب هذه البنايات يتوارى مسجد صغير خجلا حزينا مما يجرى تحت نظره وبصره ، وبين البوابة الرئيسية التى يتم عندها الاستقبال الذى أستمر معنا أكثر من ثلاث ساعات وبين السجن الكبير حيث سنقيم حوالى مائتين وخمسين مترا .

وصدر الأمر أن نقطع هذه الطريق الملتوية المجهولة لنا إلى هناك دون دليل ، تسوقنا سياط الجند ، وعلى كل واحد أن يصفع أخاه على قفاه إذا لحق به والويل لمن لايفعل ، وصلنا إلى ساحة السجن الكبير منهوكين محطمين خائفين ، وكانت دهشتنا شديدة وخوفنا أشد حين علمنا أن علينا استقبالا آخر يجب أن نمر به ، استقبال محلى فى ساحة السجن الكبير .

كانت الساحة مربعة واسعة ويبلغ عرضها مائة وخمسين مترا ، وفى ركن من أركان هذه الساحة - التى قتل فيها الكثير من أبناء مصر المسلمين - بئر عن يمين الداخل من باب السجن الكبير ، وبجوار هذه البئر الممتلئة بالماء منضدة خشبية مستطيلة يأكل عليها حرس السجن عادة .

وعندما دخلنا الساحة وجعلنا وجوهنا إلى الحائط امتثالا للأوامر هب الحراس سراعا وكانوا يأكلون ، وقد علمنا بعد ذلك أن هؤلاء الجند لايفضلون شيئا آخر على الطعام الكثير المنهوب سوى التعذيب ولهذا تركوا الطعام ليحصلوا على متعة أكبر ، متعة ركلنا وضربنا وجلدنا .

انتهى استقبال السجن الكبير بعد ساعتين ، وكان شبيها بالآخر عند البوابة الرئيسية من حيث الطريقة ، ولكنه يفوقه فى الكم ضراوة ووحشية ، وبعد أن جردونا من نقودنا والساعات التى كانت فى أيدينا وأقلام الحبر وبعض الملابس التى كانت تروق لهم ، أودعونا مخزن رقم (٦) جياعا مذعورين نخاف أن نتخطف من الأرض .

الفصل التاسع

المخـــزن
رقم (٦) الرهيـــب

هو حجرة فى الدور الأرضى على يمين الداخل من بوابة السجن الحديدية الكبيرة ، تقع أمام بئر الماء ، لها نافذة تطل على خارج السجن الكبير حيث فناء السجن الحربى ، ويقع المستشفى أمامها مباشرة ، وتبدو مكاتب التحقيق بعيدة فى نهاية الطريق المؤدى إليها .

والحجرة لا تتسع لأكثر من عشرة ، فهى ضيقة بالنسبة للعدد الكبير الذى وضع فيها ، فقد أشرقت علينا شمس النهار وعددنا خمسة وأربعون ، بينما مساحة الحجرة التى يطلقون عليها مخزن رقم (٦) حوالى مترين فى ثلاثة أمتار ، وكانت تفوح منها رائحة البول والبراز والصديد ، وتنطلق منها الأنات الخافتة المكتومة ، فالتعليمات تقضى بعدم صدور أى صوت ، وإلا فسوف تدخل الكلاب الجائعة التى تثيرها رائحة

الجروح ، وهنا ينبغى التنويه ، لقد أدخلنا المخزن وليس فينا واحد إلا وبه بعض الجراح ، والدم يسيل دون توقف ، أدخلونا المخزن فى فزع وخوف فتساقطنا فى ظلامه كل منا فوق الآخر ، وجمد كل منا بالوضع الذى قذف عليه حتى مطلع النهار ، فقد قال الحراس إنهم لايريدون أصواتا أو حركة فالموت جزاء من يفعل ، وكنا نعرف أنهم لا يكذبون فى مثل هذه التهديدات .

شذ عن هذا واحد منا كان يحبس بوله ، وكان أقلنا فى الذهاب إلى دورة المياه قد انتهى عهده بها منذ ست وثلاثين ساعة ، فبعد فترة قصيرة فتح الباب وظهر من فرجته شبح لجندي عملاق كريه المنظر قد أمسك سوطا فى يده وصرخ فينا :

- هل هناك من يريد الذهاب إلى دورة المياه ؟
- وسكتنا جميعا .

وفتح الجندى فمه بسباب قذر بذىء ، ثم صرخ ثانية مكررا نفس السؤال ، وكان الظلام شديدا ، فكان من الصعب أن نرى الانفعالات المختلفة على الوجوه ، ولكن الخوف هو القاسم المشترك بينها بطبيعة الحال .

وتشجع صاحبنا ، وطلب الذهاب إلى دورة المياه ، وكان لواء فى الجيش ، فأخرجه الجندى الكريه المنظر من المخزن بعد أن مر هذا الزميل فوق جثث زملائه المكومة دون ترتيب .

وأمام باب المخزن ، حيث الأنوار الخافتة المنبعثة من المصابيح الموجودة فى المكان ، ضرب هذا الضابط الكبير ضربا شديدا موجعا ، ثم جاءت الكلاب ونهشت من لحمه أمامنا وبعد هذا كله ألقوه فى البئر ، وعندما أوشك على الموت أخرجوه وأدخلوه إلينا يقطر دماء وماء ، وتركوه يرتجف حتى جفت ملابسه وحدها .

وكانت هذه (العلقة) مدعاة لاستغنائه عن الذهاب إلى دورة المياه ، فقد تبرز الرجل وبال على نفسه ، وصارت رائحته تزكم الأنوف القريبة منه ، وكان منها أنفى ، وبقى كل فى مكانه يجتر أفكاره وآلامه فى صمت رهيب ولم تكن تسمع همسة أو تحس بنأمة ، وكل ربع ساعة تقريبا يفتح الباب ويقذف إلينا بمعتقل جديد ، يقذف كما يقذف جوال ملىء بالبطاطس مثلا ، دون ما اهتمام ، وفى العادة يكون هذا الشخص عائدا من التحقيق أو من منزله .

وكان الظلام شديدا فلم نستطع تمييز وجه أحد ، ولكن كانت هناك أيد تمتد فى الظلام لتكتم الأنات الخافتة الصادرة من أفواه الجرحى خوفا من بطش الجنود ، وكان جوعنا شديدا وعطشنا أشد ، ولكن ، ماالجوع والعطش بجانب هذا

الخوف العارم الذى يقتلع القلوب من الصدور ، وبعد مدة سمعت أحدهم يهمس :

– ياجماعة .

وانبرى إليه صوت الضابط الكبير ، الكريه الرائحة من ملابسه المتسخة بالبول والبراز :

– ماذا تريد ؟ ألا يكفيك مانحن فيه ؟

ولكن الصوت الهامس قال بإلحاح :

– لقد اكتشفت شيئا هاما .

– وماهو ؟

– بجانب الباب وعاءان من المطاط .

– ماذا تعنى ؟

– أظن أن أحدهما للبول والآخر للشراب ، ولكن لا إدرى على وجه التحديد أيهما البول وأيهما للشرب .

وقام بعضنا بخفة وتلطف شديدين ، يتبول الواحد فى أناء ويشرب من الآخر .

وفى هذه الليلة المباركة شربت البول لأول مرة فى حياتى ، ولم يكن طعمه مريحا على أية حال ، وليس هناك داع لأن أقول إن أحدا منا لم يذق طعم النوم فى هذه الليلة ، وربما لليال أخرى أتت فى أعقابها ، وكانت الآلام التى واجهناها وعايشناها تشغلنا قليلا عن التفكير فى التحقيق الذى قد يدعى إليه أحدنا فى أية لحظة من اللحظات .

وقد قدر لى أن أعيش فى هذا الانتظار أكثر من أربعين يوما حتى أرسلت بعدها إلى التحقيق ، وقد رأيت كم هو مختلف عن مثيله فى أبى زعبل ، إنه القتل تحت السياط والأسياخ الحمراء ، وخلع الأظافر ونهش الكلاب وأسلاك الكهرباء ، أو تحت وطأة ركل الأحذية الثقيل .

وفى رحلتنا عبر هذه الليلة الرهيبة فتح الباب وقذف إلينا باثنين ثم نودى على أحد الأسماء ، وقام صاحب الاسم يرتعد خوفا وفرقاً، ونحن نستمع إلى صرير أسنانه وصرت أركز بصرى فى الظلام واستطعت أن أتبينه وهو يمر من فرجة الباب خلال الضوء الشاحب الآتى من المصابيح المنتشرة عبر الساحة ، كان الضابط المسكين الذى لم يسترح من علقة المساء ، لقد طلبوه للتحقيق ، وإنى أعتقد بعد مرور ذلك الوقت الطويل أن كل من بالمخزن قد شاركنى دعائى الحار حتى يخفف الله من آلامه وهو ذاهب إلى مصيره المجهول .

ومع الخيوط الأولى للنهار حيث استطاع كل واحد منا أن يتبين وجه زميله فتح الباب وظهر أربعة من الجند الأشداء يحملون الضابط الكبير وقد تمزق جسده من السياط ، وأكلت الكلاب من جسمه حتى شبعت ، وفى لمح البصر سمعنا صوت ارتطامه فوقنا ولم يجرؤ واحد منا على لمسه أو تخفيف آلامه التى كانت ممثلة فى أناته الخافتة المعذبة وكانت ملابسه غارقة بالدماء ، وكان من الصعب أن نعرف مصدر النزيف ، كان جسده جرحا كبيرا غائرا ينزف دما من كل مكان ، ومع إشراقة الشمس فتح الضابط عينيه عن آخرهما ثم أرسل صرخة عظيمة خيل إلى معها أن جنبات السجن قد ارتجت ، ثم سكن إلى الأبد .

وكانت خسائر هذه الليلة ، اثنين من القتلى وأكثر من أربعين جريحا كما علمنا فيما بعد .

جاء الجند وحملوا جثة الضابط المسكينَ فى بطانية من الصوف إلى حيث لايعلم أحد .

وطلع النهار واستوت الشمس ودبت الحركة فى الآلة الرهيبة .

لاأكتمكم أن أحدا لم يحزن على واحد من الذين ماتوا في الليل ، لم يكن فى قلب أحدنا مكان للحزن فقد غطى الألم والخوف كل جوانحنا ، وكنا نغبط الذين ينجون من العذاب بالشهادة والذهاب إلى الله .

فتح باب المخزن قليلا ، واستطعت أن أتبين فناء السجن من خلال عينى اللتين أضناهما السهر والألم وأبخرة البول فى تلك الليلة الحارة .

ورأيت منظرا لاأنساه .

مجموعة من الجند ينهالون على شيخ بالسياط ضربا ، وهو يصرخ ويستغيث ولاتجيبه سوى فرقعة السياط الملتهبة على جسده الواهى الضعيف ، وسكت الشيخ أخيرا بعد أن بح صوته من الاستعطاف وطلب النجدة ، وظلت يداه مرفوعتين إلى السماء الصافية ، ولاأدرى أكانتا تحتجان أم تتوسلان ، وعلى الجدار المواجه كانت صورتان لجمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر مرسومتين بالزيت ، ولم تكونا من رسم فنان ، بل كانا رسما شبيها برسم الأطفال فى السنة الأولى من مدرسة ابتدائية ، وفوقهما حكمة مكتوبة بخط واضح .

« كنت أخادع الحياة كى أعيش كما أريد »

ولاأدرى من كتبها ، أكان منكوبا مثلى ، أم أحد الجلادين .

كنت أشعر أننى فى كابوس مزعج ولاأحتمل التفكير فيما يدور حولى ، لم يكن هناك ثمة سبب يبرر كل تلك الآلام ، ولم أتصور الشكل الذى ينتهى عليه هذا الحلم المزعج ، وكنت أحسب ألف حساب لكل لحظة قادمة ، كانت الطاحونة التى تهرسنى كل لحظة أقوى من طاقتى كإنسان

محدود الطاقات ، كان شيئا مرا كالعلقم أو أشد مرارة ، ولم يكن أمامى فى مواجهة هذه الأحداث غير الاستسلام الكامل .

ورويدا رويدا أصبحت أبعد التذمر عن قلبى وأتذكر المؤمنين الصادقين الذين بنوا الإسلام على أكتافهم وصدقوا ماعاهدوا الله عليه ، وأدعو من قلبى أن أكون منهم وأن أتحمل هذه الوطأة القاسية دون اعتراض أو احتجاج .

دخل جندى كريه الوجه واليد واللسان عرفت أن اسمه (الروبى) وانهال علينا هذا (الروبى) بسيل من الشتائم البذيئة وكنا نفهم بعضها ونعجز عن فهم بعضها الآخر ، ولكننا على ثقة من أنه يسبنا سبا قبيحا .

كان يحمل فى يده وعاء قذرا ، وبأصابعه المتسخة صار يعطى كل واحد منا قرصا صغيرا من الطعمية ، وتمخط أثناء ذلك مرتين ، ومسح يديه فى بدلته الرسمية ، وعاود التوزيع ، وأذكر أننى لم أتقزز ، كان الأمر كما قلت لكم أكبر من التقزز ومن كل شيء ، ثم ألقى فوق رؤوسنا حفنة من الأرغفة ، وانصرف .

وأحصينا الخبز فوجدناه كسرات مجموعها مايوازى خمسة أرغفة وكان عددنا قد قارب الخمسين ، فكان لكل عشرة رغيف واحد من الخبز ، بعد جوع طويل ، ورغم هذا فقد رفض الكثير منا تناول هذا الطعام ، ولم يكن الرفض احتجاجا أو تكبرا ، بل الخوف يجعلنا لا نحس بضراوة الجوع .

وبعد قليل دخل الجندى (الروبى) نفسه وأعاد على مسامعنا ماسبق أن قاله ، وكان ممسكا بيده اليمنى سيخا طويلا من الحديد ، وفى يده اليسرى ، كوبا من الألمنيوم القديم قد امتلأ حتى حافته بالشاى .

وبسيخه الطويل شج رؤوس بعض المساكين وانسكب قدر كبير من الشاى الموجود فى الكوب أثناء ضربه لنا ، ثم أعلن لنا مفاجأته : كانت بقية الشاى الموجود فى الكوب هو ماتقرر صرفه للخمسين المجتمعين فى مخزن (٦) الرهيب .

وفى هذه المرة رفضنا أن نشرب الشاى احتقارا منا لكل شىء ، وبقى فى مكانه حتى الظهر .

واكتشف الروبى أننا لم نشربه فضربنا جميعا علقة ساخنة .

بعد ذلك أتانا جندى آخر أشد بشاعة من صاحبه ، لقد تقرر أن نذهب إلى دورة المياه لنقضى حاجتنا ونغتسل ونشرب بدل البول ماء زلالا من الصنابير ، ولم تتم الفرحة ، ذهبنا إلى دورة المياه المقامة بالدور الأول عدوا والسياط والكلاب تنوشنا من كل ناحية ، ظهورنا ووجوهنا ورؤوسنا ، وأدخلوا كل واحد منا مكانا ، وكان المكان قذرا جدا والبراز يملأ كل شبر فيه ، ولا توجد به نقطة واحدة من الماء ، ليس هذا فحسب ، بل فوجئت - عندما أغلقت الباب وهممت أن أفعل شيئا - بالجندى وقد فتح الباب فى قسوة وانهال على ضربا بالسوط ، وارتبكت ، ولم أفهم ماذا يريد هذا المخلوق بالضبط ، كان فى نظرى مجرد مخلوق من مخلوقات الله ليس إنسانا وماينبغى أن يكون ، أسود الوجه ، غائر العينين تنبعث من فمه رائحة كريهة نتنة بفعل التعفن الذى أصاب اللثة والأسنان من زمن بعيد ، وكانت البقع الجلدية اباهتة البياض تتخلل وجهه الدميم ، وتذكرت دارون وحلقته المفقودة ، وكذلك مر بمخيلتى الكاتب النرويجى ابسن .

وانطلق من فمه الأهتم صوت كالزئير :

- اطلع بره ياابن الكلب .

– يافندم . لسه .

– انت بترد على ياجربوع ياحثالة . يا .. يا..

والسوط يفرقع فى حمية وشدة وحماس .

وعدت إلى المخزن ، وماستفدت شيئا من هذه الرحلة المشئومة إلى دورة المياه غير العلقة الساخنة ، تلك التى تركت آثارها جروحا فى وجهى وعلى كتفى وظهرى ، ورأيت الباقين وهم يهرولون كالفئران المذعورة ، والجند وراءهم كالوحوش والسياط والكلاب تعوى فى الفضاء الخانق عبر ساحة السجن الكبير .

وجلست مكوما ساخطا بين عشرات الأجساد التى ألهبتها حرارة السياط ، وعرفت أن أحدا لم يقض حاجته ، وظلت الوجوه صامتة قاتمة عليها غبرة غريبة ثم حرك أحدهم يده فى عصبية وانخرط فى بكاء مرير ، ونسى نفسه وتمتم بكلمات :

– هذا ظلم ، هذا ظلم .

وقال له ناظر المدرسة الثانوية الأشيب الذى حنكته الأيام :

– كلنا نعرف أن هذا ظلم ، فاضبط نفسك ولا تنطق بكلمة واحدة ، فنحن لاندرى من سيموت منا هذا النهار .

وخيم صمت مطبق على المخزن لم يقطعه إلا صوت السياط العاوية والصرخات المكتومة تأتينا من بعيد .

وعاد كل واحد فينا يجتر أفكاره فى شرود .

وكان كل مايشغل تفكيرى تلك الكلمة التى قالها لى الضابط فى معتقل القلعة ، شعبان بتاع الخانكة ، أين أنت ؟ سيكون هلاكى على يديك ياشعبان ، يسألوننى عنك وأنا لاأعرفك ، وسأموت من أجل جهلى بك ، ولكن الموت تحت السياط شىء رهيب ياشعبان ، ربما يجلدونك فى هذه اللحظة .

ووجدت نفسى أسأل الموجودين فى صوت ضعيف :
– ياجماعة ، هل فيكم من يعرف شخصا من الخانكة اسمه شعبان ؟

وبصوت هامس استجاب لى صوت متأفف النبرة :
– أنا من الخانكة ولاأعرف فيها من يدعى شعبان غير رجل فى الستين من عمره يعمل فراشا فى الوحدة الصحية .

واقتربت منه بإلحاح :
– هل له علاقة بك ؟
– لاأظن ، إنه رجل أمى ولايفهم شيئا من شؤون السياسة .
– هل له علاقة بالإخوان ؟
– كلا .
– ومن أدراك ؟
فأجابنى فى تأفف خوفا من حضور الجند :
– أنا من الإخوان ، صدقنى ، ليس فى المنطقة كلها شخص واحد فى جماعة الإخوان يحمل هذا الاسم .
وعدت إليه فى إصرار وتوسل .
– أرجوك .
– ماذا تريد بالضبط ؟
– أعطنى أية معلومات عن شعبان .
– فراش الوحدة الصحية ؟
– نعم .
– لماذا ؟
– سوف يسألوننى عنه ولاأعرف عنه شيئا على الإطلاق .
وأجابنى بتذمر وكأنما أراد أن ينهى الحديث ، فكل منا له مشكلته المعقدة .

– لقد قلت لك ، هذا رجل مسكين ولايعلم شيئا عن العالم ، وربما لم يغادر الخانكة أبدا ولم يكن له أى نشاط سياسى ، وربما لايعرف من يحكم مصر فى هذه الأيام ، هذا الشعبان الذى يسألونك عنه لايمكن أن يكون من مدينة الخانكة ، فلا تشغل بالك وتشغلنى معك .

– ولكن .

فقاطعنى :

– أرجوك أن تسكت ، فى رأسى مايشغلنى ، وليس عندى كلام عن شعبان أكثر مما قلته لك

وعاد إلى نظرته الشاردة وإلى مافى جوفه من خوف وهلع وانشغال ، وفشلت كل محاولاتى معه لأجعله يتحدث عن شعبان ، ومن بين النظرات التائهة الشاردة صرت أتفحص الوجوه وأتأملها بطريقة غير واعية ، كان الألم يفترسها افتراسا ، وكانت وجوها مصفرة كئيبة عليها آثار التراب المختلط بالدم المتجلط ، وكان فى بعضها دم مازال رطبا طازجا ينز من جرح فى أعلى حاجب ذلك الوجه ، ويبدو أن صاحبه لم يلتفت إليه فقد كان فى حالة شرود كاملة .

كان الدم يتساقط على وجهه وملابسه ولايفعل هذا الإنسان شيئا سوى أن يزيحه بأصبعه إذا اقترب من عينيه .

وصرت أتنقل ببصرى من وجه إلى آخر ، وأجدها جميعا متغضنة ولاشىء يميزها عن بعضها بعضا ، ثم وقف نظرى على وجه ، كان صاحبه قد أتى قبل أن يطلع النهار ، ولاأدرى لماذا ركزت عينى على مكانه فى الظلام حتى أستطيع أن أراه بوضوح عندما يطلع النهار ، وقد شغلنى قتل الضابط للحظات عن أى شىء آخر ، والآن واتتنى الفرصة لأتأمل هذا الإنسان .

كان وسيم الوجه ، فى الخامسة والعشرين - هكذا خيل إلى - على شفتيه ابتسامة ميتة ، أو ابتسامة فى طريقها إلى الموت ، يرتدى ملابس فاخرة ، حليق الذقن والشارب ، وكان يداعب أصبعه الوسطى فى يده اليمنى فى شرود ثم يرسل نظرات إلى المكان ، ويحاول أن يبعث ابتسامة ولكنها ماتت أو ظلت فى طريقها إلى أن تموت .

وصرت أمر بين الوجوه ثم أعود إلى هذا الوجه ، ولاحظ صاحبنا أننى أعاود النظر إليه بين الحين والحين ، وكنت أسأل نفسى ، ترى هل رأيت هذا الإنسان قبل ذلك ؟ أين ومتى ؟ ترى ماذا يكون مصيره بعد حين ؟ وماذا يكون مصيرى أنا ؟ لقد كنا جميعا نقف على حافة الأبدية ، وكانت رائحة الموت تملأ أنوفنا ، فقد كان الموت هو الحقيقة الوحيدة التى نمارسها فى هذا المكان .

واقترب هذا الشاب بوجهه منى ، فقد كان لايبعد عنى بأكثر من شبرين ، وباهتمام بالغ همس فى أذنى :

- أريد أن أفضى لك بشىء بالغ الأهمية ..

وارتعدت فرائصى ، ماذا يمكن أن يقول هذا الشاب لى ؟ وقلت له وكأنى أدفع خطرا عنى :

- أنا لاأعرفك ، ولم أرك قبل الآن .

وكأنه لم يسمع كلماتى .

وخيل إلى لحظتها أن ابتسامته قد بعثت ، ولكنى عرفت بعد ذلك أنه كان وهما صوره لى اقتراب وجهه منى .

وقال لى :

- اسمى عاطف ، أعمل فى بنك مصر .

- ياسيدى لاأعرفك ، واسمك لايذكرنى بشىء .

- لاترفع صوتك واستمع لما أقول .

وقلت لنفسى ربما يكون هذا الشاب فى ورطة ، وتخيل أننى أستطيع أن أمد له يد المساعدة ، وفى نوبة من نوبات الشهامة ، قررت أن أستمع إليه ، والتفت إلى فى حماسة ، وآلمتنى نظرته الحزينة ، وقلت له :

– ماذا تريد ؟ أنا تحت أمرك ، ليتنى أستطيع أن أقدم لك شيئا .

– ألا تعرفنى حقا ؟

– كلا .

– حاول أن تتذكر ، وجهك ليس غريبا عنى ، يخيل إلى أننى رأيتك فى مكان ما .

– صدقنى ، لم أرك قبل الآن .

– لماذا يبدو وجهك مألوفا لدى اذن ؟

– لست أدرى .

– هل تستطيع أن تكتم سرا ؟

– فى هذا المكان

– نعم .

أليس من الخير أن تحتفظ بأسرارك هنا ؟ ربما .

– ربما ! ولماذا ربما ؟ يستطيع أى إنسان أن يكتم سرا .

– إذا كان ذلك الإنسان أقوى من السوط .

– وهل السوط أقوى من الإنسان ؟

– لست أدرى ربما .

– هذا لايهم ، سأقول لك سرى .

– أنصحك بالتريث ..

– دعك من هذا سأقول لك .

– ولماذا تقول لى أنا بالذات ؟

– وجهك يبدو مألوفا لدى .

– ألا تخشى أن يخونك التقدير .

– وماذا يهم ؟
– في الحقيقة أنك تثير اهتمامى .
– كأننا أصدقاء .
– فى الماضى كلا .
– أقصد أن نتصادق الآن .
– أنت تمزح ولاريب .
– كلا ، أنا أعنى ماأقول .

ووجدت نفسى أبتسم بسمة ساخرة من ذلك الإنسان العجيب ، أفى مثل هذا الوقت يحاول أن ينشىء صداقة ؟ ربما إحساسه بالخطر هو الذى يدفعه إلى الارتباط، ربما يريد أن يحتمى خلف شىء ما ، ربما . وربما .

ووجدت وجهه صبوحا نبيلا مليئا بالأسى ، ونظرة صافية حزينة تشع من عينيه وابتسمت من جديد ، وكانت ابتسامة عذبة مخلصة ، وكانت لحظة سعيدة ، وكدت أضحك وأنا أقول له :

– أنا موافق ، لابأس أن نكون أصدقاء ، اسمى ..

وقاطعنى :

– نسيت أن أقول لك السر .
– أى سر ؟
– السر الذى حدثتك عنه قبل قليل .
– آه لا بأس ، إنى مصغ إليك .
– وتلفت حذرا هنا وهناك ، وبدت عليه علامات الجد والاهتمام .
– الموضوع له علاقة بنبيلة .
– نبيلة ؟
– نعم .

– ومن نبيلة ؟

– اصبر ، سأذكر لك كل شىء فى حينه .

وبدأ الخوف يغزو قلبى من جديد ، وغاصت سعادتى ، كنت أريد أن أبتعد بأى اسم لأى فتاة عن هذا المكان ، فأى اسم يتردد وعلى أية شفة ممكن أن يأتى خلال ساعة من الزمن ، ولو كان هذا الاسم لعفريت من الجن على حد تعبير أحد الضباط ، ولكن عاطف هذا لم يكن ملتفتا إلى أفكارى التى تنساب عبر عقلى ، ويبدو أنه كان يريد التحدث فقط ، وأتانى صوته ضعيفا :

– كنت أحبها ، حبا عميقا ، وكانت هى كذلك ،

وشملنى إحساس عارم بالسخرية وقلت له :

– لعلك سوف تحكى لى قصة غرامك .

ونظر إلى بجدية وهو يجيب .

– نعم ، وماذا فى هذا ؟

– لاشىء ، ولكن ألا ترى أن المكان لاتناسبه هذه القصة ؟

– ولكنى أراه مناسبا تماما .

وتفرست فى وجهه ، كان المسكين فى حالة ذهول كاملة ، وأدركت ذلك عندما دققت النظر فى وجهه ، وأحسست بمدية حادة تمزق قلبى ، كان المسكين فى حالة غير عادية ، لقد أذهله الموقف ، وشعرت بالحيرة ، ماذا يمكن أن أفعله له ؟ لاشىء وفجأة رأيناه ينخرط فى بكاء حاد ومن بين البكاء صار يقول :

– لقد أخذوها عنوة ، توسلت إليهم أن يتركوها فرفضوا ، كانت فتاة رائعة .

وقاطعته فقد وقف شعرى من هول المعنى الذى تحمله هذه الكلمات :

– عمن تتكلم
– نبيلة ، كنا سنتزوج بالأمس ، جاء المأذون لعقد القران ، ولكن .
– ولكن ماذا ؟
– قبض على أنا وهى ، أخذوها .
– من الذى أخذها ؟
– المباحث الجنائية العسكرية .
– أثناء عقد القران ؟
– قبل أن يعقد .
– لماذا ؟
– لست أدرى .
– أنتما من الإخوان ولا ريب .
– أنا وهى من المسلمين .
– إنهم يقبضون على المسلمين فى هذه الأيام الحمراء .
– لحساب من ؟
– لحساب الروس ، لحساب الأمريكان ، وربما لحساب اليهود .
– اليهود ؟
– نعم .
– ألسنا أعداء لهم وفى حرب معهم ؟
واقترب شيخ عجوز يسيل الدم بجوار علامة الصلاة فى جبينه وهمس :
– نحن نعاديهم فى الظاهر ، **أما حقيقة الأمر فنحن خدم اليهود المخلصون .**

– نحن من ؟
– المباحث الجنائية وسائر أجهزة الأمن ومن يوجههم
– أنت تقول كلاما خطيرا .

– أنا أقول الحقيقة ، كل هذا يضعف الأمة فلا تقوى على الحرب .

– أية حرب ؟

– بعد أن ينتهى هذا المعترك سوف ندخل فى حرب مع إسرائيل ، وننهزم أمامهم هزيمة منكرة تقتل روح الأمة .[1]

– لعمرى هذا أمر غريب .

– ستأتيكم الأيام بما لاتعرفون .

وكان عاطف شارد الذهن ولعله لم يدرك شيئا من هذا الحوار ولكنه كان يتمتم :

– عندما أتينا ذهبوا بها إلى مكان ، يقولون سجن اثنين ، وهنا أخذ منى الأمباشى دبلة الزواج .

وقال له الشيخ :

– أكانت دبلة من الذهب ؟

وأجابه عاطف :

– نعم . كانت كذلك .

– ألا تعرف أن الذهب حرام على الرجال ؟

واستغرق كل فى أفكاره ، أنا أفكر فى شعبان بتاع الخانكة ، وعاطف يفكر فى زوجته والشيخ يفكر باليهود القادمين .

قطع علينا الصمت الذى يخيم على المخزن صوت فتح الباب فى جلبة وضوضاء ، ودخل جندى كريه كأصحابه ، يحمل فى يده ماكينة حلاقة مما يستعمله الحلاقون لحلق الشعر ، وكان يمسكها بطريقة مخيفة ، كأنه يمسك بآلة حادة يهم أن يبطش بها بإنسان ، وتكلم كأنه ذكر الخنزير .

(١) كان هذا الحديث فى الأيام الأولى من سبتمبر عام ١٩٦٥ أى قبل الهزيمة العسكرية فى يونيو عام ١٩٦٧ .

ياأوغاد ، ياأولاد الكلاب ، ياحشرات ، ستحلقون رؤوسكم القذرة بعد قليل ياأبناء العاهرات ، وهذا شرف لايليق بكم يالمامة ، عبد النبى ، نعم أنا الأسطى عبد النبى .
(وقالها بطريقة كأنه يقول أنا نابليون) الحلاق السابق والمجند حاليا ، سأحلق لكم ، هل تفهمون هذا الكلام ؟ شرف كبير يصرف لكم دون جهد ، هيا تعالِ أنت .

وإختار واحدا منا وكان الذهول يلفنا كالدوامة ، وتقدم الشخص الذى اختاره ، وجلس صاغرا بين يديه كالمغشى عليه من الموت ، وكان هذا الشخص ملتحيا ، ورأينا الأُسطه عبد النبى الأسطورى صاحب الصيت الذائع فى عالم الحلاقة كما يدعى ، وقد هم به كأنه سيفترسه وليس ليحلق له .

ومن بين الكلمات والصفعات المتوالية حلق له ، وكانت حلاقة عجيبة ، فقد حلق له نصف لحيته ونصف الشارب المحلوق ، ثم حلق له شعر رأسه ، وختم الأسطى له حلاقته بضربة قوية من ماكينة الحلاقة على رأس الزميل المسكين فتناثر الدم وسقط مغشيا عليه .

واستمرت الحلاقة أكثر من ساعتين بين الصرخات والأنات المكتومة ، والكلاب تعوى فى فناء السجن ، وماكينة الحلاقة فى يد عبد النبى التى تقطر دما ، وضحكات الجنون ترتفع فوق الصرخات والأنات وعواء الكلاب الضارية فى فناء السجن .

وجاء دورى فى الحلاقة وكان نصيبى جرحا عميقا فى أعلى جبهتى .

وانتهت هذه المجزرة وانصرف الأسطى عبد النبى ضاحكا مسرورا ، ولم ينس قبل أن ينصرف أن يوزع علينا بركاته من الشتائم المنتقاة التى – والحق أقول لكم – منها مالم أسمع

به قبل أن ينطق بها الأسطى عبد النبى ، وانشغلنا بعد ذهابه بتضميد جراحنا ، ولم تكن هناك أدوات الإسعاف اللازمة فكنا نمزق ملابسنا الداخلية ونحاول أن نكتم الدم المتدفق .

وأذكر أنهم أثناء ذلك قذفوا لنا بأحد المصابين العائدين من التحقيق ، وكان ذلك المسكين قد أخذ علقته منذ يومين وترك فى العراء حتى جفت جروحه وتقيحت ، وفاحت رائحتها الكريهة ، فلحظة دخوله المخزن هبت رائحة كريهة كأنها صادرة من قبر دفن صاحبه حديثا ، وتكوم الرجل بيننا ولم ينقطع صراخه لحظة واحدة .

« رجلى ياناس ، الحقونى ياناس ، النار ، النار ، ياناس ، حاأموت ، ألا يوجد فيكم مسلمون ، والله ماأعرف حاجة عن الإخوان ، الله يلعن السياسة ، ياناس أنا عربجى ، إيش عرفنى بالإخوان ، ياناس واحد يطفى النار اللى فى رجلى » .

كانت قدمه اليسرى ملتهبة وممتلئة بالصديد ، ولم نكن نملك غير الدعاء بأن يخفف الله آلامه .

وعندما اشتدت آلام الرجل وعلا صراخه حتى جاوز المكان ، اندفع الدم فى عروق أحد الذين معنا وقام وطرق الباب طرقا عصبيا حتى يأتينا أحد الحراس ، وتجمد الدم فى عروقى ، وفى عروق الموجودين على ماأظن ، ولم نتمكن من منعه فقد قام وفعل ذلك فى حركة خاطفة ، وصح ماتوقعنا ، فقد فتح الباب وظهر من فرجته ثلاثة من الجنود كأنهم الشياطين ، وفى يد كل واحد هراوة ضخمة ، وكأنهم كانوا على استعداد وفى انتظار إشارة البدء وصاح رئيسهم وهو أقبحهم وجها :

– وقعتم فى المحظور ياأولاد الكلب ، كنا ننتظر هذه الغلطة ، هيا إلى الخارج جميعا .

وأوثقونا صفا متجاورين ولم يأت معنا الرجل الجريح فما كان بقادر على الوقوف ، وقد تأكد رئيس الحرس من ذلك

بعد أن طحنه بهراوته طحنا ، ولم يقم الرجل بل كسرت ذراعه فى هذ العلقة ، أما ما فعلوه بنا فقد كان شيئا جديدا ، لقد أرغمونا على كنس فناء السجن بأيدينا التى مزقها الزجاج الدقيق المتناثر فى الفناء وأوسعونا ضربا ولكما ورفسا ثم جعلونا نلحس سلالم السجن بألسنتنا تحت ضغط السياط والهراوات ونهش الكلاب .

وعدنا إلى المخزن والدماء تسيل من أفواهنا ، ومنا من صاحبه ورم فى لسانه حتى وقتنا هذا .

أما الرجل الذى تركناه جريحا يعانى من الصديد الذى ملأ قدمه فقد رأيناه يفعل شيئا عجيبا .

كان يتبرز ثم يدهن قدمه المتورمة ببرازه علّه يطفىء نارها المستعرة ، ثم انتابته حالة عصبية فصار يأكل البراز ويصرخ صراخا عالياً وحاولنا رغم كل ماحدث أن نهدئه وأن نمنعه مما كان يفعل .

ووجدت دموعى تنساب على خدى دون صوت ، كان قلبى يتمزق ، وكان هو يتمزق وينضغط تحت ثقل يد قوية عاصرة ، ولم يفكر أحد منا فى استدعاء الحرس لإسعاف هذا الرجل المسكين ولم ينقطع صراخه طوال النهار .

وفى الليل وأثناء تغيير نوبة الحرس المسائية صار الرجل ينادى زوجته وأبناءه بأعلى صوته ، ويطلب منهم أن يسامحوه ويغفروا له ذنوبا لانعرفها ، ثم اختلج جسده وأسلم الروح .

وفى الصباح وجدنا فى وجهه تعبيرا هادئا مطمئنا ، كأن الله قد غفر له .

بعد أن مات الرجل وعرف كل من فى المخزن أنه مات انفعل أحد الموجودين وبكى بصوت مكتوم ، ثم ارتج المخزن بالبكاء ، وصلينا عليه ونحن فى أماكننا وهو غارق فى برازه وصديده ، وابتسامته الهادئة التى لم نرها إلا فى الصباح .

وكانت هذه الليلة هى الليلة الثانية فى السجن الحربى ، الليلة الثانية التى لم أذق فيها طعم النوم ، وإذا أضفنا الأربعة أيام التى قضيتها فى المحمصة بأبى زعبل فيكون مجموع أيام السهر ستة أيام كاملة ، ويبدو أن معظمنا قد نسى أن هناك ضرورة حياتية اسمها النوم .

وفى هذه الليلة كان جوفى يحترق من العطش مما جعلنى أشرب قدرا أكبر من البول الذى جمعناه فى أوعية المطاط طوال النهار ، وجاء النهار ومعه الجند ليفعلوا معنا مافعلوه بالأمس ، فتكلم أحدنا فى صوت ضعيف :

ياأفندم ، فيه واحد ميت .

وأشار بيده إلى الجثة الهامدة وارتسمت على وجه الجندى ابتسامة وقحة :

– واحد فقط ياأولاد الكلب ؟ أين نذهب بوجهنا من سيادة العميد .

أى إنسان هذا الذى يتحدث عنه الجندى ؟

لاشك أنه ليس من البشر ، ألا يؤثر فيه منظر الموت الجليل ؟

لقد رأيت جنديين يحملان الجثة وهما يتضاحكان ويتغامزان كأنهما يحملان . ماذا أقول ؟ كأنهما يحملان أرخص الأشياء وأرخصها قيمة .

وذهب الرجل المسكين الذى لم نعرف عنه شيئا سوى أسماء أبنائه الذين ظل يناديهم فى لحظاته الأخيرة قبل أن يموت ، لقد ذهب الرجل إلى مكان آخر خلف الحياة إلى

الله الذى يجد عنده العدل والرحمة والسلوان .

وكانت الأفكار فى هذا اليوم تمور فى نفسى .

ما الحياة ؟ وما الموت ؟ ما الظلم ؟ وما العدل ؟ ما العزة وما الذل ؟ ما الحب ؟ ما البغض ؟ ما الجوع ؟ ما الخوف ؟ كل هذا ليس سوى كلمات ، وما أنا ؟ لست سوى كلمة ، وما الألم ؟ · أيضا كلمة ، وما الفكرة ؟ وما الصنم ؟ كلمات ، الحق والباطل ، ولكن ، تختلف الكلمات وتتباين ، هناك كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار ، وهناك الكلمة الخالدة ، طيبة كشجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس ، والحياة التى نعيش فيها ويصنعنا بعضها ونصنع نحن البعض الآخر ، ليس هذا كله إلا صراعا بين الكلمات ، الكلمات الخبيثة ، والكلمات الطيبة ، ونحن بين هذه وتلك فى علو وانخفاض ، ولا يتربع فوق عرش الحياة فى النهاية – التى لايمكن قياسها بمقاييس البشر – إلا أصحاب الكلمة العليا ، الكلمة الطيبة ذات الأكل المتجدد الدفاق اللامتناهى مادام للوجود حس أو شعور .

الحقيقة أننا واجهنا الموت فى هذا المخزن وبعضنا ناله ، قضيت فى هذا المخزن ثلاثة أيام ونقلت فى اليوم الرابع إلى الزنازين ، ولم يتركنى الموت لحظة طيلة العام الذى قضيته فى السجن الحربى ، فقد كنت ألقاه فى كل دقيقة وفى كل وقت ، وقد ترك هذا العام فى نفسى أثرا لا يمكن أن يمحى أو يوصف أو يتخيله إنسان غير ذلك الذى عاشه وعاناه .

وقد تكونت ثقافة مشتركة بين هؤلاء الذين عاشوا تلك الأيام المفزعة ، فكم من الكلمات لا تعنى شيئا بالنسبة لكثير من الناس ، ولكن هناك كلمات تتردد بين هؤلاء الذين كانوا

هناك ، فتسرى بينهم كما تسرى الكهرباء فى سلك النحاس ويكون فى نفوسهم معنى لايختلفون عليه .

كانت أكثر اللحظات أمنا تلك التى يحكم فيها الحراس علينا غلق باب المخزن ، رغم الرائحة القذرة التى تملأ المكان من البراز والبول والصديد ، الموجودة فى كل مكان ورائحة كريهة أخرى تهب من الأجواف التى أنتنها الجوع والسغب وقذارة الأسنان ، وكان صوت المزلاج عندما يتحرك إيذانا بفتح الباب يجعل كل من يسمعه ينتبه ويصل إلى قوة انفعاله وتمتلىء عروقه بالأدرينالين تحفزا واستعدادا لمواجهة الخطر ، ويتمثل لنا أسوأ الأوقات فى لحظة تسليم الطعام الضئيل الكمية ، القذر الصناعة ، لأنهم ينتهزون هذه الفرص فيوسعوننا ضربا ولكما وأذى .

وكان كل واحد ينتظر لحظته الرهيبة ، لحظة استدعائه إلى التحقيق وكان عذاب الانتظار رهيبا ، هناك من مات فى انتظار هذه اللحظة ، لم يستطع قلبه احتمال ذلك القدر العارم من الخوف ، فلم يكن أمامه غير الموت .

الفصل العاشر

الزنزانة ١٠؟ في انتظار التحقيق

كنت أعيش هذه الأيام فى انشغال شديد ، دائب التفكير فى السبب الذى من أجله جاءوا بى إلى السجن الحربى ، وكان ظنى أنه لايذهب إلى هناك إلا من كان ضالعا فى المؤامرة التى تكلموا عنها ، وكنت أيضا دائب التفكير فى الكلمات التى تفوه بها ضابط المباحث أمامى فى أبى زعبل والتى لم أفهم عنها شيئا لمدة طويلة بعد ذلك ، وكنت أفكر فى العذاب الأسطورى الذى ينتظرنى فى التحقيق الذى لم يتم بعد ، وكنت أحاول أن أتخيل كيف سيسير التحقيق ، وكيف يمكننى أن أبتدع طريقة فى حديثى مع الضابط المحقق أستطيع أن أخلص بها من عذابه ، وكنت أفكر فى الظلم الذى يفرد جناحيه على سماء مصر ، وكنت أفكر فى هذه الأجهزة القادرة المتسلطة التى تفعل مابدا لها دون وازع من دين أو ضمير ، وكم سألت نفسى ، هل يعرف عبد الناصر مايدور فى أروقة السجون وظلام الزنازين ؟ وكانت الإجابة نعم يعرف والأدلة على ذلك كثيرة والشواهد متعددة لانستطيع تجاهلها .

وسوف أذكر شاهدا واحدا .

الصحفى الكبير محمد حسنين هيكل ، صديق عبد الناصر ، الرجل الوحيد الذى احتفظ بمكانته عالية مع الزعيم حتى مات ، فيلسوف الاتحاد الاشتراكى ، الذى شارك بفكره بكثير مما مر بمصر من أحداث .

لاأريد أن أطيل عليكم .

لقد رأيت بنفسى محمد حسنين هيكل وهو يدخل بنفسه إلى فناء السجن بسيارته السوداء الفارهة ، ثم ينزل منها ويأتيه سعد زغلول عبد الكريم مهرولا وهو كبير المباحث الجنائية العسكرية التى تضرب وتقتل وتشرد وتفعل بالعباد ماتشاء بإذن من ؟ ما علينا .

دخل الصحفى الكبير وجوقات التعذيب تعزف لحنها الصاخب اللاإنسانى ، السياط تعوى والبشر يصرخون ، ووقف الصحفى الكبير فى ساحة السجن ورأى بعينه وسمع بأذنه أكثر من نصف ساعة حتى جاءوه بواحد من أصحابه الذى أراد له الله أن ينجو من العذاب ، وأخذه بسيارته

وانصرف ، فإن كان الزعيم لايعرف شيئا فلا ريب أن الصحفى قد أخبره ، وإن كان الصحفى لم يخبره بشىء ، والزعيم لايدرى بما هو كائن فى سجون مصر ومعتقلاتها فالأمر أعظم وأدهى ، ونعود من هذا الاستطراد إلى سياق القصة حيث كنا فى المخزن رقم (٦) الرهيب .

فى صباح يوم (١٦) سبتمبر (١٩٦٥) وكانت الطاحونة الرهيبة تدور دورانا مخيفا مفزعا كشأنها كل يوم ، فتح الباب علينا كالعادة ، وأثناء الركل والشتم والإيذاء ، أخرجونا وصفونا صفوفا أمام المخزن ، وجاء عريف وفى يده دفتر كبير ، وكان غلاما فى الثامنة عشرة من عمره على أكثر تقدير ، وجلس على كرسى يحمله له أحد الجنود ووضعه له باحترام شديد ، وجلس العريف فى استعلاء وتكبر وزهو ، وهو ليس أكثر من عريف ، ورغم هذا ففى نفسه كل هذه الطاقة على التكبر والتجبر ! كان هذا العريف يتصرف ككبار جنرالات الحرب الألمان النازيين الذين كنا نقرأ عنهم ونسمع بهم ، على أية حال لم يكن هذا غريبا فى شىء ، فقد كان فى سلطة هذا العريف أن يفعل مايشاء دون مساعدة من أحد فى الجمع الذى يقف أمامه وفيهم ضباط فى الجيش ، فكان من المنطق أن تتوهج فى ذاته تلك الجذوة الشيطانية المدمرة .

وبعد أن جلد بعض الأشخاص الواقفين بالسياط لغير ماسبب سوى أن يؤكد في ذواتنا أنه على كل شيء قدير ، وأن سلطانه لاحدود له ولاغاية لمنتهاه ، صار ينادى الأسماء ويرسلها كيفما اتفق إلى الزنازين المختصة فى هذا البناء الشيطانى ، وكان يدعو المعتقل باسمه ثم يذكر له رقم الزنزانة فينتقل إليها الشخص المراد كالريح فى هبوبها والويل له إذا تقاعس أو تردد أو كانت رجله مصابة لايقوى على الجرى بها ، فى هذه الحالة ينال عذابا رهيبا موجعا بالغ الألم ، وكان عليه أن يستدل على مكان الزنزانة من الأرقام المبينة أعلى الزنازين باللون الأسود ، ثم نادانى العريف ومعى اثنان من الإخوة ، وكان صوته يزمجر بين صفعات الجند والسياط الهاوية على أى مكان فى جسدى غير آبهة لشيء ، الزنزانة (٢١٠) وانطلقت كغيرى فى سرعة البرق ولم أتبين من كان يجرى معى ، ولكن السياط واللكمات تقابلنى فى كل شبر من فناء السجن المريع ، وعلى الدرج الطويل المؤدى إلى الدور الثالث حيث كانت الزنزانة المقصودة كان يقبع العذاب على كل درجة من درجاته ممثلا فى جندى قمىء الشكل عفن الرائحة يطل الشر من بين عينيه وتتجمع الإهانة فى قبضته سواء كانت خاوية أو ممسكة بسوط طويل أسود ممتلىء باللعنة .

وعلى باب الزنزانة كان يقف (سامبو) كأنه الشيطان ، ومن دخل السجن الحربى ولايعرف (سامبو)؟ لقد كان أشهر من الكلب (عنتر) وكان من معالم السجن فى تلك الأيام ، لايصفع على الوجه إلا بكلتا يديه ، فيصيبك بدوار طوال اليوم وبعد أن قال لنا أشياء كثيرة لاأذكرها أدخلنا الزنزانة وأحكم إغلاقها علينا ووقفنا ثلاثتنا لاهثين من فرط الضرب والعدو والانفعال والسعادة أيضا ، فقد كنا نحلم أثناء

جودنا بالمخزن باللحظة الجميلة التى سيصرفوننا فيها إلى زنازين حيث نتخفف من كمية العذاب ونكون بمنأى عن جند ، هكذا كان الظن .

وحقق الله لنا الحلم ، وها نحن أولاء فى زنزانة مقفلة فى الدور الثالث حيث لايسمع صوتنا أحد ولايشعر بنا مخلوق ، ونظر كل واحد منا إلى زميله ، وانفجرنا فى ضحك جنونى ، وبعد لحظات اكتشفنا أن هناك شخصا رابعا فى الزنزانة وماكدت أتفرس فى وجهه البرىء حتى تبينت أنه الطبيب الذى التقيت به قبل مدة فى المحمصة بمعتقل أبى زعبل ، ووجدتنى أقبل عليه بلهفة .

– أنت فلان ؟

– نعم . وأنت فلان ؟

– نعم .

وعدنا إلى الضحك من جديد ، وكانت سعادة هذا الصديق فاروق عباس كبيرة فقد علمنا منه أنه ظل فى الزنزانة وحيدا لمدة طويلة حتى كاد يجن من الوحدة ، وكانت الزنزانة خالية من أى شىء عدا وعاء مطاطى للتبول ، وكان الطبيب يرتدى بنطلونا وقميصا صيفيا خفيفا ، وكذلك كان كل منا ، وبهذه الملابس عشنا الصيف والشتاء ، بلا غطاء فى زنزانة كانت تعوى بها الريح فى الليالى الباردة كأنها الذئاب الجائعة .

وفى لحظات نسينا التحقيق والاعتقال والتعذيب وكل شىء ، وانطلقنا فى حديث طويل تناولنا فيه كل شىء ، كان حديثنا مضحكا مليئا بالفكاهة والطرافة ، وصرنا نضحك على كثير مما مر بنا من أحداث ، وأصبح كل واحد كأنه يعرف الآخر لسنوات طويلة ، مضت ، رغم أن معرفتنا وشيكة الحدوث ، كنا كراكبى سفينة تحطمت على صخرة ونجا

منها أربعة سباحة إلى شاطىء قريب ، وفى السفينة ترك كل واحد منا هويته وشخصه ، وذهب إلى الشاطىء المهجور إلا بقلبه وعقله ولاشىء آخر ، فقد الماضى ولاأمل له بالمستقبل ، هكذا كان حالنا ، وظل كذلك لفترة طويلة نعيش مجردين من أية أشياء أو متعلقات ، كل واحد يواجه الآخرين بذاته فقط مجردا من أى شىء آخر ، كان الأمر على هذه الصورة ببساطة تامة .

وقد يكون مفيدا أن أقول شيئا عن سكان الزنزانة (٢١٠).

الطبيب (فاروق عباس) شاب فى الخامسة والعشرين ، نشأ فى بيئة متوسطة الحال أبوه أحد رجال التعليم الابتدائى يعتنق كل أفكار البيئة العصرية المتوسطة من حرص على الحياة ، واحترام الحكومة أيا كان لونها واتجاهها وعدم مناوأة السلطة على أى حال من الأحوال ومحاولة ادخار قدر من المال يكفى لليالى السوداء التى لابد وأن تأتى فى المستقبل البعيد الملىء بالمخاوف والتكهنات .

وباختصار وصل (فاروق) إلى كلية الطب وكان ذلك مطمحا اجتماعيا ذا أهمية خاصة لأسرته ، وتضافرت جهود الأب حتى أتم الابن دراسته فى الكلية بنجاح ، ثم عمل فاروق طبيبا بالامتياز فى مستشفى الدمرداش ، وفى آخر يوم له بالمستشفى وعندما كان يستعد لأن يكون نائبا تم القبض عليه ، وتعرف وهو طالب بيحيى حسين فى أحد معسكرات الجامعة التى كانت تقام بالمصايف فى رأس البر أيام كان يحيى حسين طالبا بكلية الزراعة ، وتصادقا وفرقت بينهما الأيام ، ثم التقيا على قدر بعد ذلك ، وكان يحيى قد صار طيارا بشركة مصر للطيران و فاروق فى السنوات الأخيرة من دراسته الطب ، وبطريقة غامضة عرض يحيى حسين عليه

الاشتراك فى نشاط دينى وسياسى ورفض صاحبنا لأن معنى ذلك مناوأة السلطة ومناصبتها العداء وهو الأمر الذى جهد أبوه فى تخويفه منه وإبعاده عنه .

وفى يوم قائظ من أيام أغسطس سنة (١٩٦٥) ذهب إليه يحيى حسين فى ساعة متأخرة وطلب منه خدمة خاصة جدا ، وبطريقة غامضة أفهمه المهمة التى عليه أن يؤديها ، فقد أعطاه رقما تلفونيا وأوصاه أن يتصل بصاحبه وأن يخبره عبارة واحدة (الجماعة اتمسكت) .

وعندما حاول أن يفهم منه طبيعة هذه المهمة ومعنى هذه العبارة وعده يحيى أن يخبره فى مرة أخرى بالتفاصيل لأنه منشغل تماما ، وذهب يحيى ولم يعد ، ففى هذه الليلة كان على موعد مع الهرب من البلاد ، وفى الطائرة المتجهة إلى (أديس أبابا) نزل يحيى بمطار الخرطوم ولم يعد ثانية .

وكان هناك زميل ليحيى يعمل طيارا معه فى نفس الشركة وكان شريكه فى أفكاره ونشاطه السياسى ، وكان هذا الزميل واسمه (ضياء) صديقا أيضا لصاحبنا (فاروق) ويعرف الكثير عنه ، ويعرف أن يحيى حسين كان يحاول ضمه إلى جماعتهم ولكنه أيضا كان يعرف أن هذه المجهودات باءت بالفشل ، وتحت الضغوط النفسية العنيفة التى تعرض لها ضياء صار يتكلم .

وفجأة وجد فاروق عباس نفسه فى بدروم المباحث العامة بميدان لاظوغلى بالقاهرة حيث الزنزانة المخيفة المبطنة بالمطاط وهو يسأل عن علاقته بالإخوان ، وعلى المسكين أن يتحمل العذاب وما كان له أن يقول شيئا ، فهو لايعرف شيئا بطبيعة الحال .

وانتقل من المباحث العامة إلى أبى زعبل ، وهناك تلقى

صنوفا عديدة من العذاب والجلد بالسياط ، ولعلكم أصبحتم تعلمون أن العذاب شيء والجلد والسياط شيء آخر ، وعليه أن ينقذ نفسه من جهنم كما فعل الآخرون ، والطريق الوحيد المنبسط لهذه النجاة أن يكذب وأن يخترع أقصوصة تجعلهم ينفضون عنه حتى يلتقط أنفاسه ، وادعى أنه عضو بالإخوان ، وأنه يصنع القنابل لهم ، وعندما سئل عن طريقة صناعتها أجاب بأنه يخلط مقدارا من الأثير ومقدارا من الكيروسين مثله ثم جزءاً ثالثا من الكلور .

وطيرت أسلاك التلفونات خبر القبض على الإرهابى فاروق ، ونشرت اعترافاته بالعناوين الكبيرة فى الصفحات الأولى من الصحف اليومية ، وضحك خبراء المفرقعات كثيرا عندما بلغهم هذا الكلام .

وفى جريدة الجمهورية العدد (٤٢٨٢) بتاريخ ١١ سبتمبر سنة (١٩٦٥) كان العنوان فى الصفحة الأولى :

أسرار الجهاز السرى للإخوان

كشف أحد الإرهابيين أسرار الجهاز السرى للإخوان ، أعلن أن سيد قطب كان يرأس الجهاز ومعه لجنة خماسية تضم إسماعيل الهضيبى وإحدى السيدات تدعى (الحاجة) قال إن أحدا من الإخوان لايعرف شيئا عن (الحاجة) .

اعترف الإرهابى بجرائم الإخوان ومؤامراتهم لقلب نظام الحكم وأساليبهم لتضليل الشباب ومحاولتهم ضم عناصر جديدة لتنظيماتهم الإرهابية، أدلى بهذه الاعترافات طبيب شاب ضللت به جماعة الإرهاب ، قال إن خطة الإرهابيين كانت تتضمن نسف محطات الكهرباء حتى يعيش الناس فى

ظلام ، اعترف بأن الإخوان كانوا يستغلون الدين لتجنيد الشباب وتضليلهم ، قال إن العملية التى وضع نفسه فيها لم يفهمها إلا بعد فوات الأوان ولكنه لم يستطع الخروج منها ، كشف الطبيب فى اعترافاته المثيرة خطط الإخوان لحظة بلحظة عام (١٩٥٩) .

هذا ماقالته الصحيفة فى صدر صفحتها الأولى ، والرأى أن كاتب هذه السطور التى قدمت اعترافات الطبيب كان يضلل الناس ويخدعهم ويجب أن يحاسب الآن فى عهد الحرية الذى تعيشه مصر .

ماعلينا نعود إلى نص الإعترافات الذى نشرته الصحيفة :

(فى صيف عام ١٩٥٩) كنت فى رحلة فى مصيف البر

وتقابلت مع يحيى أحمد حسين وكان وقتها طالبا فى كلية الزراعة فى جامعة عين شمس وكنت طالبا فى جامعة عين شمس أيضا ، واتفقنا على الصلاة وعلى جمع الكلمة على الصلاة جماعة ، ثم انتهى المعسكر وتفرقنا وكان معنا طالب اسمه مصطفى الرشيدى زميل يحيى بالكلية وقتها ، وبعد عام ونصف تقريبا قابلت مصطفى صدفة فى العتبة فسألته عن يحيى فذكر أنه انتهى من دراسته فى كلية الزراعة والتحق بمعهد للطيران وسيصبح طيارا قريبا فطلبت منه أن يعطينى رقم تليفون يحيى حسين لأنى فى حاجة إلى سماعة طبية غير موجودة بمصر وهو يستطيع أن يحصل عليها من الخارج فأعطانى الرقم (٦٥٠٥٠) فاتصلت بيحيى وكانت أول مرة بعد افتراقنا فى المعسكر ، وتقابلنا أمام سينما روكسى بمصر الجديدة وكانت أول مرة أتقابل معه فيها بعد المعسكر ليلة العيد الصغير عام ٦١ وسرنا من روكسى حتى العباسية وشرح لى أثناء ذلك كيف يكون الإنسان مسلما حقيقة يجب أن يقرأ

تفصيلات القرآن ولم يذكر لى أسماء كتب فى وقتها ولكنه قال لى ذلك : سأذكر لك كتبا تنمى ثقافتك الدينية فى الكتب وغير ذلك ثم ذكرت له أننى بحاجة إلى سماعة فأمهلنى بعض الوقت لعدم وجود النقود الأجنبية لكى يشترى بها ، وطلب منى أن أكون على علاقة دائمة معه بالتلفون وتكررت الاتصالات التليفونية بينى وبينه .

وفى يوم جمعة ذهبت إليه ، وبعد الصلاة ذهبنا إلى شقة قال لى : إنها شقة أحد الأصدقاء اسمه محمد الغنام وكان يصلى معنا وكان هناك محمد الغنام وشخص اسمه أحمد رائف والدكتور محمد أمين (صيدلى) مندوب دعاية شركة سيد للأدوية وكنت قد رأيته قبل ذلك فى الشركة عند ترددى عليها من أجل الدعاية ورأيته مرة أخرى عند يحيى فى المنزل وقال لى عنوانه وأذكر أنه فى حارة لاأذكر اسمها عند مدرسة السبتية منزل رقم (٥) الدور الثانى .

ثم ذهبت إلى يحيى مرة فأخذ يناقشنى فى الدين وذكر لى اسم الدكتور (علاء) فقلت له لاأتذكره فقال يحيى بأنه شقيق زميل له اسمه ضياء ، فقلت له : لاأذكر هذا الطبيب قال لى : إن أخاه رجل طيب جدا ويعرف ربنا ويقرأ فى التفسيرات القرآنية على مستوى كبير ، وقال لى إن شاء الله ستقابله يوما ما ، وذات يوم قال لى يحيى : ما رأيك فى القراءة لتفسير القرآن فى كتاب (فى ظلال القرآن) فقلت له : ليس لدى مانع ، قال لى اشتر الكتاب من مكتبة وهبة واقرأ منه وسأخبرك الخطوة الثانية للقراءة والتثقيف الدينى .

وبعد ذلك طلب منى يحيى أن نقرأ سويا وأن أبحث عن أفراد معى فى المستشفى متدينين يمكن الاعتماد عليهم فى القراءة بجد فى هذه الكتب فذكرت له بعد بحث اسم الدكتور مجدى ، قال لى : هل يمكن أن يصمد فى القراءة

كثيرا؟ قلت له : نعم فهو كثير المعلومات فى ناحية الدين ، فقال : إذن على بركة الله ، وفى يوم جاءنى يحيى فى المنزل وقال لى : إن هناك شخصا يدعى على يسكن فى شارع طوسون بشبرا وهو متدين هو الآخر ، ويعرف ربه جيدا ويريد أن يعرفك ، فهل عندك مانع قلت له : لا ، قال : إنه مريض الآن فى المنزل فهل عندك مانع من زيارته ، قلت : لا ، قال إذن هيا بنا .

وذهبت إلى منزله ، وقالوا لنا : انتظروه فقد ذهب إلى الطبيب برهة وسيعود حالا وانتظرناه ساعة تقريبا ولم يحضر . ثم ترك له يحيى كيسا به (أبو فروة) وانصرفنا .

وفى مرة أخرى قابلت يحيى وقال لى : مارأيك فى أن تنضم إلينا أنا وضياء وعلى الذى حدثتك عنه واسماعيل الهضيبى فى أشياء أكثر من القراءة التى كنت مكلفا بها . قلت له : وماهى الخطوة التالية ، قال : أن نثبت الإسلام على الأرض ، فقلت كيف ؟ قال : لايمكن إلا بالقوة لنغير النظام الحالى ، وجاء ضياء وتكلمنا عن بعض المعلومات فى الكتب التى قرأها وفى نفس الموضوع الذى ينتهى إلى الانقلاب .

وقلت له : ولكن هذا قد يعرضنا للاعتقال والتعذيب . قال : هل إيمانك ليس بالقوة الكافية بأن تبيع نفسك فى سبيل الله ؟ قلت له : لا . قال : لابد أن تقوى إيمانك وحتى نفهم الآية (**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة**) . وعندها ستصبح قادرا على تحمل أعباء الجهاد فى سبيل الله . قلت له : وإذا لم أستطع ، قال : أنت تعمل كطبيب تداوى بعض الجرحى إذا حصل اشتباك ، قلت له : قد يؤدى هذا إلى اشتباك وتعذيب وأنا لاأتحمل ذلك ، قال : اذن أطلب من الجماعة أن تبحث عن طبيب من الأرياف ، قلت له : نعم .

وبعدها بأسبوع حضر إلى يحيى وأخذنى إلى على لكى أتعرف عليه فإذا به يقول لى إن يحيى قد أبلغك بالترتيب قلت له : نعم . قال : إذن اذا كنت تريد أن تعمل على رفعة الإسلام وثباته فى الأرض فعليك بالجهاد فى سبيل الله ولاسبيل إلا سبيل الجهاد ، قلت له : ولكن الجهاد قد يعرض الإنسان للتعذيب والسجن فى حين أننا نسير على مبادىء الإسلام ، قال لى : لا فالبنوك ربا ، والسيدات العاريات فى الطرقات زنا ، قلت له : أبدا فأنا وأنت نكون رأسمال البنك فلا يوجد ربا فى الموضوع والسيدات العاريات هى أختى وأختك فيمكن أن نصلح من شأن أسرتنا ، قال : لا .

لا يمكن إلا من الرأس فلا بد أن نكون الرأس ، قال لى : هذا لن يكون بانقلاب عسكرى كما نتوقع ولكن سيكون عن طريق أن نشل حركة المطارات والسكك الحديدية لا غير

وبهذا نكون لم نقتل أحدا ، وأن لنا سواعد قوية فى كل مكان ، فلا تخف من شىء وستكون مهمتك أن تحضر لنا بعض الزجاجات الناسفة المكونة من مادة الأثير والكلور والكيروسين الموجودة بالمستشفى ولن نحتاج إلى أكثر منها والنسب تستطيع أن تأخذها من الدكتور عزمى زميلك بالمستشفى أو منى .

ملحوظة : كان يحيى قد أخبرنى قبل ذلك أن هناك دكتورا اسمه عزمى بالمستشفى وهو على علم بكل شىء وقال لى اتصل به وكلمه ، فاتصلت به وقلت له : يحيى يسلم عليك فقال لى : أولا أنا لاأعلم شخصا اسمه يحيى حسين ، وعندما قلت له الذى سيحضر لك سماعة من الخارج عن طريق خالتك قال لى : سلم عليه وأنا أعرفه ، ثم قال لى على : إن أسرتك ستضم أنت ومجدى الذى تقرأ معه وأنا ذكرت له أن مجدى حديث بالمستشفى وهذا يأخذ كل وقته

وأن له أما مريضة وهو يعودها ، قال إذن فليجعل اللقاء بينى وبينك أنت ولاداعى لمعرفة مجدى بى وكفى أن نبلغه ببعض المعلومات البسيطة أولا ثم نتدرج معه فى المعلومات إلى أن يعلم ، فلت له : إذن أسرتنا ستكون مكونة منى ومنك ومجدى عن بعد ، قال : نعم ، قلت له : وكيف سيعلم مجدى بالتكوين ؟ قال عن طريق يحيى وطلبت من يحيى بطارية تشحن بالكهرباء ولما علم مجدى بأنه سيحضرها لى طلب منى أن أطلب له واحدة وبعد إحضارها قال مجدى : يجب أن نذهب لنشكره على البطارية ، وأن نقرأ فى الكتب سويا ، فذهبنا إليه فى المنزل وشرح له يحيى طريقة الدراسة وهدفها ، ثم طلب منى أن يتصل بى لكى نقرأ أكثر وأخبره بأشياء أخرى .

ثم قال لى مجدى : أنا عندى إجازة وفاروق عنده إجازة وسنذهب إلى بلطيم لكى نقضى بعض الأيام هناك فقال : أنا أستطيع أن آخذ إجازة وأحضر معكم ثم اتفقنا وسافرنا فى اليوم التالى وبعد ثلاثة أيام عدنا وفى الطريق نزل مجدى إلى بلدتهم وواصلنا أنا ويحيى إلى القاهرة وفى السيارة طلب منى يحيى أن نحدد مواعيد اللقاء بيننا لكى نواصل التعليمات فقلت له : فى أى مكان مثلا عندى لأننى متزوج وأنتم لستم متزوجين وإذا لم تتوافر اللقاءات عندى فلتكن فى مسجد السيدة زينب بعد صلاة المغرب من يوم الجمعة ، ولكن هذه المواعيد لم تتوافق ومواعيد سفر يحيى ومواعيد المستشفى فلم نتقابل .

وفى يوم جاءنى يحيى الساعة (٩) مساء ومعه ضياء وقال لى إنهما اتفقا على رحلة من حلوان إلى القاهرة مشيا على الأقدام فقلت له : هل هذه رياضة ؟ فقال : إنها تعليمات من الرياسة فسألته ومن هذه الرياسة ؟ قال سيد قطب رئيس ومعه

لجنة خماسية من أفراد لانعلمهم قد تسمع عنهم فى يوم من الأيام ، وستتبع هذه الرحلة رحلة أخرى من القاهرة إلى بنها على الأقدام أيضا . وقال يحيى إنه سيسكن فى منزل الحاجة هو وضياء وهى عاملة جمعية الشابات المسلمات ، وزوجته عضو بها وزوجة على وبنت أخت سيد قطب وهؤلاء الزوجات سيكن حلقة اتصال مع الأسر حتى إذا أمسكت إحدى الأسر تكون الزوجات هن المسئولات عن الاتصال بالأسر الباقية .

وذات يوم ذهبت مع يحيى إلى منزل قال لى إنه منزل محمود الغنام ورأيت فيه يحيى وضياء ومحمد الغنام وأحد الأشخاص قالوا إنه مدرب المصارعة اليابانية وكان يعلمهم وهم ممسكون بخناجر وكيفية تفاديها والوقوع من الوضع واقفا بدون أن تحدث إصابات ، ولكنه قال لى إنك لاتصلح لمثل هذه الرياضة .

ثم جاء إلى يحيى منذ خمسة عشر يوما الساعة الحادية عشرة مساء وقال لى : زوجتى فى (تاكس) تحت تنتظرنى . ونفذ ماأقوله لك بدقة ، اطلب الرقم (٨٩٦٤٦٠) واطلب شخص اسمه فاروق وإذا رد عليك قل له : أنا عبيد الجماعة اتمسكت ، نفذ وإذا لم يرد عليك فلا تقل شيئا ، ففعلت ذلك ، وفى صباح اليوم التالى لم أجد فاروق هذا ، وقيل لى إنه ذهب إلى بور سعيد فسألت عن موعد عودته فقالوا لا نعلم ، وقال لى شخص أخبرنى أنه زوج أخته إذا كنت تعلم مكانه أخبره أن والدته فى حالة خطرة فأخبرته أنى لاأعلم مكانه .

ويوم الأربعاء الماضى جاءنى ضياء فى المستشفى وقال لى إن يحيى اتصل بالرقم (٨٩٦٤٦٠) وقال لهم : إذا حضر

فاروق يتصل بى فى الرقم (٦٥٠٥٠) فإذا بضابط مباحث يطلبه بالمنزل ولم يجد غير حماه ولم يجد يحيى وفى هذه الأثناء كان يحيى قد مر على ضياء وأخذ دولارات كانت لديه ، وقال إنه سيذهب إلى الخرطوم ثم السعودية ، ثم قابلت مجدى يوم الاثنين الماضى وذكرت له أن جماعة كانت ستعمل انقلاب اتمسكت عن آخرها وأنه أحد أفراد هذه الجماعة التى طلبت منى فى يوم أن أكون مشتركا فرفضت ، ثم طلبوا منى أن أكون طبيبا أعالج الجرحى إذا حدث اشتباك ولكنى خشيت ولم أوافق .

وقد أخذت (تركيبه) من الزجاجات من عزمى ، قال لى ثلث كلور وثلث اثير وثلث جاز ، وتوضع فى زجاجات حمراء اللون صغيرة (١) وقد أخذها من (على) ولا أعلم إلى أين ذهب بها كما أننى سمعت بعض الأسماء من يحيى مثل الحاجة وابن أخيها وكابتن سعد رئيسه بالعمل وكيف أنه أقنعه بفكرة البيع لله ، وأحمد رائف الذى رأيته مرة ، وقد أخبرنى يحيى أنه ضمن أعضاء اللجنة الخماسية واسماعيل الهضيبى والحاجة التى لاأعرف بيانات عنها ، وأعرف أن يحيى كان سيسكن عندها .

ف . ع
١٩٦٥/٩/٢

(١) ولماذا لاتوضع فى زجاجات خضراء أو صفراء أو زجاجات برتقالية اللون ؟ « المؤلف »

انتهت اعترافات صاحبنا الطبيب فاروق عباس .

سوف أدع هذه الاعترافات بين يدى القارىء الكريم ليقرأها مرة بعد مرة ولن أعلق عليها بشىء ، سأدع القارىء يستنبط منها كل ماأريد أن أقول ، ولكنى أريد أن أقول له شيئا بالغ الأهمية ، هذا الكلام المكتوب والذى قرأته منذ لحظات قدم بموجبه أناس إلى محكمة أمن الدولة العليا وصدرت ضدهم أحكام بالغة القسوة ، فمثلا هذه القصة الركيكة التى قرأناها فى الاعترافات ، هل تدرى ماذا حدث لأبطالها ؟ أتدرى ماهو مصير الأسماء التى ذكرت فيها ؟ أنا أخبرك :

١ - نفذ حكم الإعدام فى واحد .

٢ - خفف حكم الإعدام عن واحد إلى الأشغال الشاقة المؤبدة .

٣ - حكم على واحد بالأشغال الشاقة المؤبدة .

٤ - حكم على واحد بالأشغال الشاقة لمدة خمسة عشر عاما .

٥ - حكم على سيدة بالأشغال الشاقة المؤبدة .

٦ - حكم على آنسة أخرى بالأشغال الشاقة لمدة عشر سنوات .

٧ - حكم على واحد بالأشغال الشاقة المؤبدة ثم اغتيل وهو ينفذ الحكم .

٨ - ثم حكم على واحد بالأشغال الشاقة لمدة ثلاث سنوات .

وقضى الباقون سنوات بلغت السبع فى المعتقل .

أرجو أن تعيد قراءة الاعترافات ثم تتأمل فى الأحكام ، وبعد أن تنتهى من تأملك تعيد التأمل من جديد .

استطراد لامندوحة عنه .

بينما أقلب صفحات الصحيفة لأنقل منها هذه الاعترافات طالعنى عنوان جانبى بها يقول :

(رأى الإسلام فى مؤامرة الإجرام)

أذاع شيخ الأزهر أمس بيانا أوضح فيه رأى الإسلام فى مؤامرات الإجرام أعلن أن أعداء الإسلام حاولوا – حين عز عليهم الوقوف أمامه – حرب الإسلام باسم الإسلام فاصطنعوا الأغرار وأمدوهم بإمكانيات الفتك وأدوات التدمير ، ولكن الله كشف أمرهم ليظل الإسلام أكرم من أن يتجر به .

وقال شيخ الأزهر فى بيانه :

أيها المسلمون ، إن الأزهر الذى عاش عمره الطويل لفقه الإسلام والتعريف به ودراسة القرآن والاستمداد منه ، وورود الحديث الشريف والصدور عنه قد شرفه الله بثقة المسلمين جميعا فيه فائتمنوه على عقائدهم وحكموه فى كل مايعن لهم من أقضية الحياة ومحدثات العصور ، ولقد كرم المسلمون شرف مهمته وإخلاص نيته فضموه إلى مقدسات الإسلام .

وإن الله الذى يعلم ماتضطلع به مصر من مسئوليات ومايتحمله قادتها من تبعات قد شاء أن يدلها على أوكار الخيانة وكهوف الغدر ومنظمات الدمار حيث تواجه مرحلة انطلاقها بعروبة موحدة الهدف إسلامية شريفة السلوك وإنسانية نبيلة المثل .

وإذا كان القائمون على أمر هذه المنظمات قد استطاعوا أن يشوهوا تعاليم الإسلام فى أفهام الناشئة واستطاعوا أن يحملوهم بالمغريات على تغيير حقائق الإسلام تغييرا ينقلها

إلى الضد منه ، وإلى النقيض من تعاليمه ، فإن الأزهر لايسعه إلا أن يصوب ضلالهم ويردهم إلى الحق من مبادىء القرآن الكريم والسنة المشرفة ، فالإسلام كما قال عنه الرسول - ﷺ - حين سأله جبريل عليه السلام - فقال يامحمد : أخبرنى عن الإسلام ، قال ﷺ ، الإسلام أن تشهد أن لاإله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا ، قال جبريل : صدقت . ثم قال : فأخبرنى عن الإيمان ، قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال جبريل : صدقت ، ثم قال : فأخبرنى عن الإحسان ، فقال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

هذا هو الإسلام كما بينه رسول الله فحين يشترط المتآمرون على الإسلام أن يكون المسلم منضما لجماعة خاصة تستهدف البغى وتدعو إلى التمرد فإنهم بذلك يدخلون على الإسلام ما ليس منه ويحاولون أن يجعلوا لمنظماتهم قداسة حتى يستولوا على صغار العقول وهواة التحكم والسلطة .

وإن الإسلام الذى يتجرون باسمه يصون حرمة المسلم فى دمه وماله وعرضه فقد قال رسول الله ﷺ : لايحل دم مسلم يشهد أن لاإله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزانى والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة ، وصح عنه أيضا أنه قال فى حجة الوداع:أى يوم هذا ؟،قلنا: الله ورسوله أعلم فسكت ثم قال:أليس يوم النحر ؟ قلنا:بلى يارسول الله ، قال:فإن دماءكم وأعراضكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا ، ستلقون ربكم فيسألكم أعمالكم فلا ترجعن بعدى كفارا

يضرب بعضكم رقاب البعض ، ألا فليبلغ الشاهد الغائب ، فلعل بعض ما يبلغه يكون أوعى له من بعض من يسمعه ، ثم قال ألا هل بلغت ؟

وصح عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال من حمل علينا السلاح فليس منا ، وإذا ثبت فى اغتيال النفس الواحدة فما بالك باغتيال الجماعات البريئة وترويع الآمنين ؛ وإذا كان مال المسلم على المسلم حرام فما بالك بالاعتداء على المال العام والمصالح المشتركة والمرافق الحيوية التى يحيا بها المواطن وتعيش عليها الأمة .

وإنى لأعجب أشد العجب ممن يدعى الإسلام والغيرة عليه ، كيف يسوغ له أن يوالى أعداء الإسلام وأن يأخذ منهم مقومات الفتك بالمسلمين ويستعين بمالهم على إخوة له فى الدين ألا ساء مايدعون وبئس مايفترون ، ألم يقرأوا قول الله تعالى : - « **ومن يتولهم منكم فإنه منهم** - » . ألم يقرع سمعهم قول الله تعالى - « **لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم** - »

أيها المسلمون - إن الاستعمار قد يئس أن يعيش بينكم وأن يتحكم فى أموركم وأن يمتص خيراتكم ولكنه دفع منكم نفرا ليهدموا مكاسبكم ويضعوا العراقيل فى سبيل نهضتكم فتنبهوا جيدا إلى كيد هؤلاء وتآمر هؤلاء حتى لاتنتكس ثورتكم وتعودوا إلى عهود التبعية والإقطاع والرأسمالية .

وإن الأزهر الشريف كلياته ومعاهده ووسائل إعلامه يلقنكم عقائد الدين كما أرادها الله صافية من تعكير الضالين

مستقيمة من التواء المبطلين تأخذ بيدكم إلى خير مجمع عليه وتنجيكم من شر غير مختلف فيه ، فسيروا على بركة الله راشدين مهديين وماتوفيقنا إلا بالله وهو يتولى الصالحين .»

تعقيب على بيان كبير المشايخ :

في الحقيقة ليس من السهل أن أناقش بيان ذلك المخلوق في سطور قليلة فالأمر قد يحتاج إلى كتاب كبير لنعطى الأزهر مايستحقه من شرح وإطناب للحالة المزرية التى وصل إليها في السنين الأخيرة .

ولكننا نترحم على شوقي وعلى محمد عبده ثم نقول :

كان حريا بحسن مأمون أن يحترم سنه وأن يحفظ مقامه ولايتردى فيصير بوقا في يد عصابة مثل مافعل الجهال من الناس ، وكان عليه أن ينتظر دورة الزمن أو يراها بعين بصيرته — إن كانت له بصيرة — فيرى كيف يقضى في مصر على النفاق والمنافقين ويحاسب قطاع الطرق عما اقترفوه ويودعون السجون على مافعلوه في حق الوادعين الأبرياء من قتل وتشريد .

وهو قد اتهم الإخوان في بيانه بعمالتهم للاستعمار ، أى استعمار هذا الذى تعنيه ياشيخ حسن مأمون ؟ الاستعمار الأمريكي أم الاستعمار السوفيتي ؟ أم تراك تقصد الاستعمار اليهودي ؟

ولن أقول أكثر من هذا في هذه النقطة .

يا لضيعة شيخ الأزهر وشيوخه !

أين كانت نخوتك ياشيخ الأزهر عندما كانت طائراتنا المغيرة تدك قرى اليمن وتقتل الشيوخ والأطفال والنساء ؟ لاأظنك لم تسمع بهذا وإذا ادعيت فلن أصدقك ، فالشعب كله كان يعرف هذه الفظائع ولايملك غير السكوت وإلا ضرب بالنعال وألقى فى غياهب السجن ومنع عنه القوت وشردت أسرته .. و .. و ..

ولاأظنك لم تسمع بما فعلته مراكز القوى بالإخوان فى السجون والمعتقلات ، أما كان أجدر بك أن تقول كلمة الله ، وأنت تعلم أكثر من غيرك أن الساكت عن الحق شيطان أخرس ، أم تراك نسيت هذا الحديث الشريف ؟

كان يجب على شيخ الأزهر أن يتحرى الدقة فى ذلك البيان الذى أذاعه وألقاه على الصحف وطيرته وكالات الأنباء .

كان عليه أن يخشى الله أولا وقبل كل شىء وأن يعرف أن الرازق هو الله وهو المحيى والمميت وليس آخر .

كان عليه أن يعمل حسابا للأزهر الذى بسببه يقبض راتبه الكبير ويركب سيارته الفارهة ويقبل الناس يده ، فلو ضاع الأزهر لضاعت من شيخه هذه المخصصات ، وكفى سببا لضياع الأزهر أن يبقى شيخه فى مكتبه ينتظر أوامر الضابط من المباحث العسكرية أو العامة بأن يلقى بيانا ما .

كان عليك أن تدافع عن المسلمين وتحرك الرأى العالمى وتطلب لهؤلاء المظلومين الفرصة فى محاكمة عادلة ، وترفع صوتك ولاتخشى فى الله لومة لائم ، وإن لم تستطع الوقوف فى هذا المقام الرفيع فلا أقل من السكوت عن الحق ياشيخ الأزهر ، أما أن تحرض وتعضد الطغيان وتنفخ فى صورة المفسدين وتشجعهم على قتل الناس وتشريدهم وتخمد

صيحة الحق إذا انطلقت فلعمرى ذلك هو الضلال البعيد .

طبعا أنت تعرف حقيقة مؤداها أن الشيوعيين قد تربعوا على عرش الفكر والصحافة وكل شيء فى مصر فترة من الزمن ، على أقل تقدير فى الفترة التى ألقى فيها الإخوان فى غياهب السجون .

ويوم صدور بيانك فى نفس الصحيفة فى الصفحة الرابعة تحت عنوان : « إعتقال بدون مبرر فى جنوب أفريقيا بلغ استهتار حكومة جنوب أفريقيا بالحريات العامة إلى درجة أنها اعتقلت أمس ايزال هايمان أول شخص يطبق عليه القانون الجديد »(تصور شيخ الأزهر ،شخص واحد فقط) الخاص بجواز اعتقال أى شخص لمدة ١٨ يوما لأى سبب تدعيه الحكومة (تأمل ياشيخ الأزهر ١٨ يوما وليس ١٨ سنة) تقول : إنه ماس بالأمن الداخلى ، وقد اعتقل فور الإفراج بعد وفاء مدة السجن وكانت التهمة الموجهة إليه هى أنه شيوعى (انظر ياشيخ الأزهر كيف يتضافر الشيوعيون فى أنحاء العالم) .

ولايهمنا بقية الخبر ، كل مايعنينا أنه نشر فى نفس الصحيفة وفى نفس اليوم الذى صدر فيه بيانك ، وماكان يليق بك أن تفعل ، فالخاسر والأحمق هو الذى يبيع آخرته بدنياه ، وأكثر منه خسارة وحمقا الذى يبيع آخرته بدنيا غيره ، كانت الدنيا تعج بالنفاق والمنافقين عام (١٩٦٥) وكان على الأزهر وشيخه أن يبتعدا عن هذه الحلبة ، ولو دفع الشيخ حياته فى سبيل ذلك فهو أكرم وأتقى وأقرب للتقوى .

* * *

كانت تلك قصة صديقنا الطبيب واستطردنا منها إلى حديث طويل أرجو المعذرة من القارئ،ولكنى لم أبعد كثيرا عن القصة .

بجانب قصة صديقنا هذا هناك قصة صديقنا الآخر (ع) صاحبنا فى الزنزانة وهى تبين لنا الوجه الآخر من الفساد .

لقد كنت فى التحقيق مع فاروق عباس عندما مزقت السياط جسده ، وعندما أكلت الكلاب قطعا من لحمه وظل آثارها باقيا حتى الآن ، وكان صوته يتعالى مع نباح الكلاب وعويل السياط وضحكات الضباط ، وفى النهاية اعترف بما لم يفعل .

أما (ع) فقد قص علينا قصته وعرفنا أنه قد أتى نتيجة لاعتراف على عشماوى عليه أنه كان عضوا فى تنظيم

الإخوان ، وكان على عشماوى يكاد يكون (شاهد الملك) فى القضية فقد روى كل مايعرف حول التنظيم والاتصالات التى قام بها فقد كان أحد أعضاء اللجنة الخماسية لقيادة التنظيم .

وذهب (ع) إلى التحقيق واعترف اعترافا مفصلا بكل مايعرفه عن هذه الاتصالات ، وكان من المنتظر أن يحكم عليه بخمسة عشر عاما على الأقل فهذا كان يساوى اعترافه . ولكننا فوجئنا بالإفراج عنه بعد حوالى شهر من اعتقاله ، وعرفنا السر ، فقد كان له شقيق يعمل بالمخابرات وعلى علاقة وطيدة بشمس بدران .

وكان الشخص الرابع شابا فقيرا فى العقد الرابع من العمر وكان عضوا بجماعة الإخوان قبل حلها الأول ، عام (١٩٥٤)

وقدم للمحاكمة فى ذلك الوقت وصدر ضده حكم مع إيقاف التنفيذ ، ثم انقطعت صلته بعد أن أخرج من المعتقل (١٩٥٦) بكل أنواع النشاطات الدينية والسياسية ، وكان يعمل جاهدا أن يحسن أمور معيشته بأى وسيلة معقولة ، أو غير معقولة ، فرغم أنه لاعلاقة له بالفن إلا أنه حاول أن يكون ممثلا ، وجاهد كثيرا من أجل ذلك إلا أنه فشل فشلا ذريعا بدا لى من كلامه ، فقد كانت تنقصه الموهبة . ولم يستطع سوى الحصول على أدوار ثانوية لاتستغرق دقيقة أو أكثر قليلا على المسرح ، وكان فى معظم المسرحيات لايفتح فمه ، ببنت شفة .

وعاش بعد خروجه من المعتقل مايقرب من عشر سنوات من الكد الدائب والكفاح المستمر بلا نتيجة ، فكأنما كان يحرث فى بحر ، ونسى كل ماله صلة بالدين أو السياسة ، اللهم إلا صلاة الجمعة بين حين وآخر .

ورغم هذا فقد أفاق ذات يوم فوجد نفسه فى فم (التنين) محشورا فى زنزانة معنا ، وكان عليه أن يثبت انقطاع صلته بكل هذا ، كانت هذه هى مشكلته كما كانت مشكلة الكثيرين الذين ألقت بهم الحظوظ ليروا الحياة من وجهها الآخر ، وجهها الكئيب الكريه فى ضيافة سيادة اللواء حمزة البسيونى وغيره من أقرانه .

كان جمعا عجيبا متناثرا متباين الطباع والمزاج وكان عليه أن يتعايش فى سلام داخل عالمه الصغير الذى تمثله الزنزانة التى تهب عليها الريح ، ريح العذاب العبقرى فى كل لحظة من لحظات الليل والنهار .

كنا على اختلاف فى الثقافة والميول ونوع التربية والاهتمامات .

فالأول كانت لذته الكبرى فى الصلاة واستعادة ما يحفظه من آيات القرآن الكريم وكنا نشاركه هذا فى كثير من الوقت .

والثانى كان يعيش على ذكرياته الغرامية يقصها علينا ليلا ونهارا ولايمل تكرار هذه الأقاصيص .

والثالث كان يلذ له أن يقص علينا أقاصيص كاذبة عن صداقته بعلية القوم والنابهين من الناس .

أما أنا فقد كانت تؤلمنى المأساة التى نعيشها ويعيشها الإسلام فى واقع المسلمين وكنت مشغولا طوال الوقت فى محاولة فهم الموقف ، وكنت أتذكر شخصية رجل قرأت عنها كان عنده من الأفكار مايكفيه أن يظل صامتا عشرة آلاف سنة يجتر فيها ذكرياته الفكرية إن جاز التعبير .

الفصل الحادى عشر

الاستجواب
على الطريقة الروسية

مكثت فى انتظار التحقيق حوالى أربعين يوما ، ننام على أسفلت الزنزانة وتدخل إلينا فئران كبيرة فى حجم القطط لتداعب أرجلنا ووجوهنا ، ولم نكن نعبأ بها عدا شخصا جديدا قدم إلينا وكان يخاف الفئران خوفه من السياط ، وكان يستيقظ فى الليل ويوقظنا ويتوسل إلينا أن نبقى معه ساهرين لنذب الفئران عنه ، فكنا نخلع ملابسنا نحاول أن نسد فتحة من الأرض والباب تنفذ منها الفئران ، فكانت تقرض الملابس وتدخل إلينا رغم هذا كله .

كان فى الزنزانة قروانة واحدة يوضع فيها الطعام القليل الذى تسمح نفوسهم به ، وكان الإفطار عبارة عن شاى وطعمية وأحيانا جبن مستورد وحلاوة وعسل أسود وطحينة .

طبعا لانأخذ هذه الأشياء كلها فى الإفطار ، ولكن كل يوم شىء ، عدا الشاى الذى كنا نأخذ نصيبا منه فى كل إفطار .

ثم نأتى للكميات التى توزع ، ففى يوم الطعمية يأخذ أربعتنا قرصا واحدا من الطعمية ، وإذا كانت جبنا فلنا جميعا منها ربع قرص ، لايكفى لإفطار طفل صغير ، وإذا كان عسلا فهو ملعقة واحدة منه يصب عليها ملعقة أخرى من الشاى .

أما الخبز فهو يقذف لنا عند الظهيرة من تحت عقب الباب ، وهو رغيف ونصف للأربعة طوال اليوم ، ويأتى وقت الغذاء فيوزع علينا قدر ضئيل من طعام مطبوخ يتغير كل يوم ، ولم نكن نعرف منه غير الفاصوليا البيضاء التى كنا نغرم بها لقلتها وندرتها وجوعنا الشديد .

أما ماء الشرب فكان يمر بنا جندى بعد الغداء بفترة طويلة ويفتح باب الزنزانة فننتفض وقوفا فيناولنا ربع كوب صغير من الماء للأربعة وكانت هذه المسألة قاسية جدا أيام الحر ، ولكننا اعتدناها مع مرور الأيام .

وكانوا يأتون لنا ببعض الفاكهة بين حين وآخر ، وكانت الكمية ضئيلة جدا ، وكنا ننزل إلى دورة المياه مرة كل صباح ، وكنا نعانى من هذا النزول أمر العناء ونبيت نفكر فى هوله طوال الليل ، وعندما يقترب الجندى المكلف بإنزالنا يرتفع وجيب القلوب وتلهج الألسنة بالدعاء إلى الله أن تمر هذه اللحظات على خير ، ففيها خلاصة الضرب فى اليوم والليلة .

وكنا نعانى معاناة شديدة من الجوع والعطش ، وعند نزولنا إلى دورة المياه ، كان غاية مايتمنى الواحد فينا أن يقضى حاجته بأسرع مايمكن ، شىء كلمع البرق إن جاز التعبير ، وإلا فلا يلومن إلا نفسه ، ثم مسألة محاولة الشرب ، ويا سعادة من يستطيع أن يعب ولو أقل قدر من الماء ليحتمى به من ظمأ النهار ، وكان البعض يصوم والبعض الآخر يغافل الحرس ثم ينطلق كالقذيفة ناحية الصنابير الموجودة على مقربة ويضع فمه على الصنبور ويفتحه فى فمه ويمسك به بكلتا يديه فى تشنج ولا يأبه لما يحدث له وهو يملأ بطنه بالماء مثل الجمل ، وكانوا فى بعض الأحيان يكتفون بضرب من يفعل هذا ضربا يوشك أن يفضى إلى الموت ، وفى أحيان أخرى يصر الحرس على أن يتقيأ صاحبنا الماء الذى شربه ، ولايزالون به حتى يفعل ، ثم يعود خائبا إلى الزنزانة قد شج وجهه وكسرت رباعيته ولم يظفر من الماء بأقل نصيب .

ويأتى يوم الاستحمام وهو يوم كالح شديد الكآبة تكثر فيه الإصابات ويسقط عدد غير قليل من الجرحى ، فعلى الواحد منا أن يستحم فى أقل من أربعين ثانية ، أو خمسين على الأكثر .

وكنا فى أول عهدنا بالسجن الحربى ، ننزل يوم (الاستحمام) بملابسنا ، ونبدأ داخل الحمامات بخلعها وماأن نفعل حتى يدخلوا علينا بالسياط ونعود وقد غطتنا الدماء ، وكنا نزهد فى هذا الحمام فيوسعونا ضربا ولكما أيضا وبعد هذا كنا نخاطر وننزل وقد تخلصنا من معظم مانرتدى من ملابس ، ويكون الضرب فى هذا اليوم كالمهرجان .

وكانت الحمامات فى معظم الأحيان لاتوجد بها مياه ، وكان علينا أن ننقل المياه من البئر القائمة فى فناء السجن الكبير فى أوعية المطاط المستعملة للبول ، وكان الأمر شاقا وبه خطر عظيم ، ونظل طوال ليلة الاستحمام نخطط لوقائع الصباح القريب لينتهى اليوم بأقل الخسائر ، ففلان عليه أن يعود بأقصى سرعته إلى البئر فيملأ وعاء المطاط ويأتى به ليقابله فلان فيأخذ منه الوعاء فيقدمه لفلان آخر ، الواقف عاريا داخل الحمام ، وهذا يستحم بأقصى سرعته ويرتدى ملابسه ويخرج بسرعة ليأتى للآخرين بالماء ، ونظل نحفظ أدوارنا قسطا طويلا من الليل .

وكان كثير منا لايستطيعون قضاء حاجتهم عند الذهاب إلى الدورة ، فالأمر يحتاج إلى تدريب من نوع خاص ، وقد أتقنا هذا بعد انقضاء وقت يسير .

وكان السؤال الذى يسأله كل واحد لصاحبه عند العودة للزنزانة ، هل قضيت حاجتك ؟ وكم تكون سعادتنا كبيرة عندما نتمكن جميعا من قضاء هذه الحاجة ، أما إذا حالت ظروف واحد عن ذلك ، وكثيرا مايحدث وكما قلت — فهو يدخل الزنزانة كئيبا مكفهر الوجه ونقوم على مواساته حتى تشرق شمس يوم آخر ، وقد يصبر حتى اليوم التالى وقد لايصبر .

وكان الكلام ممنوعا خارج الزنزانة والويل لمن يضبط يتحدث مع زميله،كانت العقوبة مائة سوط ، وهم لايعدون فتصل فى أحيان كثيرة إلى خمسمائة ، فكانت التحية لمن يعرفون بعضهم بتحريك الحواجب إلى أعلى وإلى أسفل ، الأمر الذى يثير ضحكنا عند عودتنا إلى الزنزانة آمن مكان بمصر فى تلك الأيام .

وكان الخروج من الزنزانة معناه الضرب ، وقد يفقد الإنسان عضوا فيه من هذا الضرب ، وقد حدث هذا للكثيرين ، فهناك من فقد عينا وهناك من فقد إصبعا من قدمه بضربة فأس من حارس لايفترق عن الحيوان الأعجم .

والشيء الغريب أننا لم نكن نضرب وحدنا ، كان الذين يضربوننا فى النهار يقضون ليلهم فى عذاب وضرب هم الآخرون ، وكنا نرى ذلك خلال فتحة فى باب الزنزانة فيبدأ عذابهم فى أول الليل ولايزالون يضربون حتى يقترب الفجر ، وعندها يرسلون جنديا واحدا ليذهب بأهل ثلاثمائة زنزانة إلى دورة المياه ، وعليه أن ينتهى من هذا كله خلال ساعة واحدة ، فينطلق هذا الحارس كالوحش المسعور ويعمل فينا ضربا وفتكا لينتهى من مهمته فى الوقت الذى حدد له وغالبا مايفشل وهو لايستطيع أن يدعى كذبا بذهاب الجميع إلى دورة المياه فهناك من يراقبه وبفشله يقيد اسمه فى (طابور الذنب) الذى يقع فى المساء .

وكذلك الذى يوزع طعام الإفطار ، عليه أن ينتهى من هذا فى ساعة ويفشل ويقيد اسمه فى طابور الذنب فى المساء .

وكانوا ينتقمون منا أبشع الانتقام لظنهم أننا سبب شقائهم .

وكم لمعت أسماء الجلادين ، زغلول ، سامبو ، الروبى ، النوبى ، وكان هناك من أطلقنا عليه اسم محمدى (المطرقة) تشبيها (بشارل المطرقة) فقد كانت يداه صماء خرساء والويل كل الويل لمن سقطت هذه اليد على وجهه ، وهناك الكثير ممن فقدوا حاسة السمع فى ذلك المعترك الرهيب .

وكانوا يأتون للسجن الحربى بالجند المتخلفين عقليا ، الذين رسبوا بالاختبارات النفسية التى أجريت لهم فى الجيش كالعادة ، فهؤلاء يصعب التفاهم معهم بل يستحيل .

وكان البعض منهم يأتى طيب القلب به فطرة الريف ونقاء خضرة مصر ، وسرعان مايحوله العذاب إلى وحش .

(أحمد أبو ودان) ذلك الجندى الطيب الذى كان يؤدى صلاة الفجر ويدعو لنا أن يخلصنا الله من هذا العذاب ، سرعان ماصار شرسا كالذئب ، وأذكر أنه حطم علينا بابا من الخشب ، كسره إلى ألواح وضربنا به حتى تفتتت الألواح كلها .

وقد استطعنا مع مرور الأيام ترويض البعض منهم ، فاشتهر فلان بأنه يستطيع أن يسوس زغلول ، وهذا النوبى ، وهذا ، إلا (سامبو) فما استطعنا له رغم براعة البعض وذكائهم وزاد الأمر سوءا عندما منح شريطا على كتفه ، فقد صار يتصرف وكأنه مونتجمرى على مقربة من (سيدى برانى) أيام العلمين .

والحقيقة أن أيام الحربى على قسوتها ومرارتها كانت أجمل الأيام وأعذبها ، كنا نقضى وقتنا فى العبادة والاستغفار وقراءة القرآن .

وكان كل منا يقدم خلاصة خبرته وثقافته إلى الآخرين .

فمثلا زنزانتنا (٢١٠) كان الطبيب الذى معنا يقدم لنا درسا يوميا فى علوم الطب ويدرسه لنا كما درسه بالكلية ، وكنت أقول لهم محاضرة فى التاريخ يوميا ، وكان ذاك يحدثنا عن القانون وتاريخ القانون وهكذا .

وأذكر أن زنزانة من الزنازين كان بها صانع أحذية فكان يقدم خبرته لمن معه فى أنواع الجلود والحذاء الجيد وكيف تعرفه وتميزه عن قرينه الأقل جودة .

وكنا نتذكر وقائع النهار ونضحك عليها شطرا كبيرا من الليل ، وأذكر أننا كنا نضحك فى بعض الأحيان حتى تكاد جنوبنا أن تنفجر من الضحك ، ونهزأ من كل شيء من أقوال المحققين وطرائفهم فى التحقيق والمحاكم التى يزمعون إنشاءها ، ونحسب نصيب كل منا فى الحبس ، ونحمل بعضنا لينظر من نافذة الزنزانة ، فيرى الشارع والمترو وضاحية مصر الجديدة . وينزل وقد امتلأ حسرة على ماجرى فى هذا البلد العجيب .

وكنا لانعلم شيئا عما يدور فى العالم ، لاصحف ولا إذاعة ولازيارات ، ولاشيء على الإطلاق ، ونتسقط الأخبار من أوراق الصحف القديمة ، التي قد نجد منها قصاصات بجوار دورة المياه ، وتروج الإشاعات وكان معظمها غريبا عجيبا لايمثل إلا أمانى ذلك الجمع الذى فصل عن الحياة أو فصلت الحياة عنه .

كنت أناقش جميع الاحتمالات عن التحقيق مع زملاء الزنزانة وأعصر ذهنى لأتصور مايمكن أن أسأل فيه .

وكان دخول جندى بيده ورقة يصيب السجن كله بالذعر فهذه الورقة فيها أسماء أشخاص مطلوبين للتحقيق ونظل

مشدودين على تلك الكوة التى فى الباب خلف الذى ينظر منها وهو يذيع علينا ما رآه ، وكلنا آذان صاغية وحواسنا فى كامل انتباهها ، لقد دخل وهو ينظر ناحية اليمين فنفهم أننا لسنا المقصودين .

وفى يوم من الأيام كان فاروق عباس هو الذى ينظر من الكوة وصار يذيع علينا مايراه ، لقد نظر ناحيتنا ، إنه ينظر إلى الزنزانة إنه يصعد السلم ، يبدو أن أحدا منا سوف يذهب إلى التحقيق .

وأدركت أن ساعتى قد دنت ، ووقفت منتبها حتى اقترب الجندى وفتح باب الزنزانة ونادى على ، وفى لحظات كنت أهرول على السلم كما تقضى التعليمات ووقفت بجانب المخزن رقم (٦) ووجهى إلى الحائط حتى يستكملوا نداء من يريدونهم للتحقيق .

وأثناء هذا الانتظار كان بعض الجند يمر ويصفعنى كيفما اتفق ، واكتمل العدد ، وساقونا بعدها بالسياط إلى مكان التحقيق ، وكان منظرا طبيعيا ليس فيه غرابة .

وفى المكاتب حيث يدور التحقيق تسمع الصراخ والصياح وصوت السياط يصم الآذان ، وأجلسونا على الأرض فى مواجهة السور بحيث نسمع ولا نرى حتى يأتى موعد التحقيق .

وكنا نجلس هكذا حتى يمر علينا نهار وليل ، وبعدها تكون أعصابنا قد وصلت إلى منتهاها من التلف والتوتر وعندها ندخل إلى المحقق .

وضباط المباحث الجنائية العسكرية أكثر استهانة وعبثا بأرواح الناس ، وقد قتلوا فى تحقيقهم أكثر من ضعف من

قتلتهم المباحث العامة ، وفى تحقيقهم يعتمدون على التخويف أولا ثم الضرب بالسياط حتى يفضى إلى الموت فى أحيان كثيرة ، وهم فى تحقيقهم يستخدمون الكى بالنار بواسطة أسياخ مثل التى تشوى عليها اللحوم ويحمونها إلى درجة الاحمرار ثم يطفئونها فى أجساد الشهداء .

وكانوا يستخدمون التعذيب بالكهرباء بواسطة سلك عارى موضوع أمام مكتب كل ضابط وهو يأمر من يقف أمامه أن يتقدم ويمسك السلك بيده ويرغمه بواسطة كلاب البشر وكلاب أخرى مدربة ، وكانوا يستخدمون الكلاب وندر الذى لم تنهش جسده ، ويضعون الذى يحققون معه عاريا فى المجارى ويرغمونه على الشرب من مائها ثم يخرجونه عاريا إلى الكلاب ، وكانوا يعلقون الذى يضربونه بحيث يكون رأسه الى الأرض وقدماه إلى السماء ثم تنزل فرقة الضرب بالسياط وهم أربعة من شياطين الإنس ، وسرعان مايتلف جلد القدم ويتم هذا تحت إشراف ثلاثة من الأبالسة اللواء سعد زغلول عبد الكريم رئيس المباحث الجنائية العسكرية واللواء حمزة البسيونى مدير السجون الحربية . جلاد مصر الأول ، ورئيسهم العقيد شمس بدران مدير مكتب المشير رجل الحرب المغوار عبد الحكيم عامر .

ومن مكانى فى انتظار التحقيق رأيت الكثير وسمعت الكثير ، رأيت زميلا لى لاأعرفه يدخل إلى مكتب التحقيق ويسأله الضابط :

– لماذا اعتقلت ؟

ويجيبه الزميل :

– لست أدرى .

فيعلق ويضرب بالسياط ثم يعيدونه ويسألونه ، وهو

لايدرى ومازالوا به حتى المساء وكادت روحه تزهق . وفى النهاية قال الضابط له :

– لقد اعتقلت لأنك عضو فى الإخوان .

كان على من يذهب إلى هناك (تحقيق المباحث الجنائية العسكرية) أن يعترف بادىءالأمر أنه عضو فى تنظيم الإخوان السرى فيوفر على نفسه علقة الافتتاح .

ومن مكانى رأيت عربة جيش فارهة تدخل الفناء ويضرب البروجى (نوبة سلام) وينزل منها ضابط عظيم لاأدرى أهو عميد أم لواء ، وإذا برقيب السجن صفوت يقابل هذا الضابط العظيم بالصفع على وجهه والرجل ينتحب كالطفل فقد فوجىء بما حدث ، ثم ينزعون الرتب من فوق كتفيه ويعلقونه ويجلدونه على قدميه ، ويبدو أنه عاد إلى الجيش مرة أخرى فلم أره بعد هذه العلقة .

ومن مكانى رأيت وسمعت الحاجة زينب الغزالى وهم يجلدونها بالسياط على قدميها وهى ترسل صراخا حادا فى الفضاء .

ومن مكانى رأيت أعجب منظر مر بى فى تلك الرحلة .

الضجة تملأ فناء السجن وتدخل شاحنات قد حملت بالبشر وينزل راكبوها فإذا بهم نساء ورجال ، أناس من فلاحى مصر ، وإذا بالرجال يأخذون على الأرض وضعا على أربع مثل ماتفعل البهائم ثم تركب النساء على الرجال ويهرول

الرجال بهن بين فرقعة السياط والعويل والصراخ . كانوا أكثر من خمسمائة رجل على ظهورهم خمسمائة امرأة .

كان مشهدا بالغ الإثارة لايتصوره أحد وقد لايصدقه أحد ولكنى رأيته بنفسى .

لقد كانوا أهل كرداسة ولهذا قصة.

في الساعات الأولى للتحقيق استدعى الأمر القبض على واحد من الإخوان من بلدة كرداسة من أعمال الجيزة ، وشاءت الأقدار أن يكون هذا المطلوب اعتقاله متزوجا من سيدة أراد أحد ضباط المباحث الجنائية العسكرية أن يتزوجها ولكنها فضلت صاحبنا من أهل كرداسة ، وأضمر الضابط الحقد في نفسه ، وسنحت الفرصة عندما أرادوا القبض على صاحبنا ، وسعى الضابط لدى رؤسائه ليذهب هو في هذه المهمة .

وذهب الضابط ومعه من المخبرين اثنان وطرقا باب من يريدون اعتقاله ، فلم يجدوه ، وهنا أمر الضابط بأن يقبض على زوجته رهينة حتى يسلم زوجها نفسه ، وثار الأهالى ورفضوا هذا المنطق ، وتجمع الناس وحدثت فتنة ، كل هذا والضابط على نفس الدرجة من الإصرار في أخذ تلك السيدة ، ولم يكتف بهذا بل أطلق عيارا ناريا أصاب أحد الفلاحين ، وثار الناس وفتكوا بالضابط وهرب المخبران (١) .

---

(١) هذه الحادثة شبيهة بحادثة دنشواى التى حدثت عام (١٩٠٦) أيام الاستعمار الإنجليزى ولكن الإنجليز كانوا أكثر رحمة من سيادة الفريق أول محمد فوزى أحد أبطال النكسة .

وبلغ الأمر إلى المسئولين وتحركت فرقة من الجيش المصرى بقيادة الفريق أول محمد فوزى وحاصرت الدبابات كرداسة وأحالوا نهارها الى ليل ، ستة عشر ألف جندى من الجيش يحاصرون القرية ، وأبيحت القرية للجند ثلاثة أيام ، هتكت فيها الأعراض وقتلت الماشية وبعض الناس ، وفى المدرسة الإعدادية جلد كل أفراد القرية تحت إشراف الفريق أول محمد فوزى وكان عمدة القرية آخر من جلد ، ثم جىء بالمشتبه فيهم وكانوا خمسمائة بزوجاتهم وأطفالهم .

هذه القصة سمعتها من أهالى كرداسة الذين قابلتهم فى السجن الحربى وأبى زعبل وطره .

قال لى أحد الضباط مرة وهو يحقق معى ، وكان قد كف عن ضربى لمدة ساعة من الزمن :

— هاأنت ترى أن التحقيق أمريكانى ، بينما كل المكاتب تعمل بالطريقة الروسية !

كانوا يدعون أن التحقيق أمريكانى عندما يكفون عن ضربنا فترة يسيرة من الزمن وقد وصفوا طريقتهم بأنها روسية ، والحقيقة أن طريقتهم فريدة فى نوعها وتعتبر لا شرقية ولا غربية فى فظاعتها وعنفها وقسوتها .

جرى معى التحقيق مثل ماجرى مع سائر الناس على النحو الذى وصفت آنفا ، ولافائدة من تكراره ، واعترفت بما لم أفعل مثل غيرى ، ولكن صدقونى فى أن الكثير قد خفى عليهم وماكان لهم أن يعرفوه لامنى ولا من غيرى ، وعدنا إلى الزنازين أنا ومن كان يحقق معهم مثلى . ومكثنا ننتظر العرض على النيابة ، وقد أخبرنا أهل العلم أن النيابة تحمى المتهم من بطش رجال المباحث والشرطة ، وكنا نظن أنهم

سوف ينقلوننا إلى مكان النيابة العامة . وهناك سوف نخبرهم بالهول الذى تعرضنا له فى التحقيق . وكنا نظن أنهم سوف ينصفوننا من كل أنواع البطش الذى تعرضنا له .

وكان يسكن فى الزنزانة التى بجوارى رجل من الشرقية كنا نطلق عليه عم (أحمد بتاع الكلاب) وذلك لأن الكلاب قد شبعت من لحمه الطيب الطرى .

وفى يوم من الأيام رأيت عم أحمد وقد اصطبغ لونا أرجوانيا جديدا من الدم وهمست له متسائلا فى غفلة عن الحرس :

– ماذا جرى ياعم أحمد ؟ ظننت أنك قد انتهيت من التحقيق منذ مدة .

– نعم ولكنى عرضت على النيابة بالأمس .

– لاأفهم .

– لقد أنكرنا كل الأقوال التى قلناها تحت الضغط والتعذيب ، وكان الأمل أن يحمينا وكيل النيابة مما نزل بنا .

– وماذا حدث ؟

– لقد أرسل وكيل النيابة إلى المباحث العسكرية فجاءوه بفرقة من الجلادين ، واستمر جلد أهل الشرقية يوما كاملا .

– وكيل النيابة يفعل هذا ؟!

– نعم ، وهل هذا غريب ؟

– ولكن أين مقر وكيل النيابة هذا ؟

– أحقا لاتعرفه ؟

– كلا لاأعرفه .

– عندما ترجع من المكاتب ألا ترى خياما بيضاء بين المطبخ والمستشفى ؟

– نعم .

– فى كل خيمة وكيل نيابة .

– من قال هذا ؟
– أنا الذى أقوله لك وسوف تذهب بنفسك إلى هناك .
– لاأصدق !!! النيابة فى السجن الحربى ؟
– مالك تستنكرها هكذا ؟ كأنك لاتعيش فى مصر ،
لايوجد قانون فى مصر .
لايوجد شىء ، لايوجد عدا الظلم والطغيان .
– وماذا تنصح ياعم أحمد ؟
– فى أى شىء ؟
– عندما أذهب إلى النيابة .
– وافق على كل الاعترافات المزورة ، وإلا...
– وإلا ماذا ؟
وضحك عم أحمد بتاع الكلاب وهو يقول :
– ماتعرف وأعرف ياأخا الكفاح .

وكانت هذه هى المفاجأة التى هبطت على مرة واحدة .
وكان ينبغى أن تكون مفاجأة .

اتخذت معنا بعض الإجراءات ، فمثلا كانوا يأخذوننا على دفعات لكى يأخذوا لنا صورا مختلفة ومعقدة ، يملئوا صحيفة سوابق خاصة بالبيانات المختلفة وكذلك الأقارب من الدرجة الأولى إلى الدرجة العاشرة ، وكان الذى ينتظر دوره يرى الآخرين يغادرون بوابة السجن الكبير فى أول النهار ثم يعودون فى آخره ، وكل واحد حريص أن يعرف شيئا محددا تمثل فى التساؤلات التى نلقيها على بعضنا البعض عندما نلتقى فى دورة المياه .

– أهناك ضرب فى التصوير ؟
وتكون الإجابة بنعم فى العادة .
ثم صاروا ينتخبون بعض الأفراد ممن لاتظهر على

أجسادهم آثار البطش من التحقيق فيمثلون أمام التلفزيون . ولكن من يتوقع ذهابه إلى حيث يقدم برنامج التلفزيون ليعترف أمام الملايين بأنه مجرم ومخرب ويستحق الموت يهتم بشيء واحد :

– أهناك ضرب فى التلفزيون ؟

وتكون الإجابة بنعم فى العادة .

وعاد القوم يتساءلون ويستفسرون :

– أهناك ضرب فى النيابة ؟

وأجاب بعض الظرفاء فى تبرم من كثرة الأسئلة عن الضرب :

– هناك ضرب فى كل شيء ، الضرب هو القاعدة ، ألا تضربون وأنتم تساقون إلى دورات المياه ؟ ألا تضربون وأنتم تستحمون ؟ ألا تضربون وأنتم تأكلون ؟ ، وأراد أن يقول وأنتم تشربون فقال وأنتم لاتشربون ، فقد كنا فى عطش طوال الوقت .

المهم فتحت الزنزانة فى يوم من الأيام ، وتوقعنا الشر كالعادة ، فالزنزانة لاتفتح إلا لشر ، وطالعتنا طلعة جندى جديد ، غريب عن السجن ، وانتفضنا قياما كما تعودنا ، وتقدم الجندى وسأل عنى ، وأخذنى من يدى ومازلت سائرا معه حتى غادرنا السجن ومثلت أمامنا المستشفى وكانوا يطلقون عليه (الشفخانه) ولاحت الخيام حيث يقبع داخلها وكلاء النيابة ، وهم لايقلون ضراوة عن زملائهم ضباط المباحث بنوعيها .

وتوقف الجندى أمام إحدى الخيام ، وفهمت أنه دور النيابة ، وصرت أتلو فى سرى ماأحفظ من آيات القرآن .

وأزاح الجندى ستارا يغطى باب الخيمة وألقى التحية وأعلم الجالس فيها بقدومى .

رجل يجلس على مكتب صغير وبجواره شاب آخر ، وهناك كرسى خشبى فى مواجهة المكتب (مكتب وكيل النيابة) – كما عرفت بعد ذلك – الذى أشار لى بأن أجلس فجلست على الأرض ، هكذا كانت التعليمات ، ولكنه أشار إلى الكرسى فقمت وجلست عليه فى صمت .

ونظرت إلى المكتب فرأيت عليه الاعترافات التى كتبتها قسرا وقهرا وعرفتها فهذا خطى وأنا أعرفه كما أعرف نفسى وعلى الاعترافات التى كانت هناك علبة سجاير (بلمونت) وكنت أدخن قبل اعتقالى ، أما الآن فأنا لاأحصل على الطعام فكيف أحصل على السجاير لقد نسيتها كما نسيت أى شىء آخر ، ولكنى تذكرتها الآن .

– تحب تدخن سيجارة ؟

هكذا قال لى .

– أنا ؟

– نعم أنت .

– لابأس إن سمحت .

وناولنى الرجل سيجارة وأشعلها فضحكت .

– مم تضحك ؟

– مم أرى .

– وماذا ترى ؟

– أرى التحقيق قد صار أمريكانيا .

– ماذا تقصد ؟

فحكيت له القصة ، فارتفعت حواجبه من الدهشة ثم قال :

– أتقصد أن هناك تعذيبا ؟

وفى هذه اللحظة وصل إلى سمعنا أصوات صراخ

وصياح ، فانفجرت ضاحكا فى سخرية بالغة ، وابتسم الرجل وقال لى :

– تحب تشرب شاى ؟

– ماالمسألة ؟ سيجارة ، ثم شاى ، ماذا جرى ؟

– ماقلت ، صار التحقيق أمريكانيا .

ثم أمر الجندى أن يأتى لى بكوب من الشاى ، وأدى التحية وانصرف ، ثم قال لى :

– إنت عارف أنا مين ؟

– لم يحدث لى الشرف من قبل .

– أنا محمد حسين لبيب وكيل نيابة أمن الدولة العليا .

وفى هذه اللحظة ارتفعت فرقعة السياط وأصوات الصراخ وكأنها تجرى خارج الخيمة ، كان أحد وكلاء النيابة الأفاضل يشرف على جلد أحد المتهمين ، فوقفت من الدهشة والخوف معا ، ولكنه نظر إلى باسما وأشار لى بالجلوس :

– لماذا وقفت ؟ اتفضل . اجلس .

وجلست ، والتفت هو إلى زميله وقال :

– نفتح المحضر ، باسم الشعب ، إنه فى يوم ..، وصار يملى على سكرتيره الديباجة التى تكتب فى هذه الأحوال ، ثم سألنى عن الاسم والسن والصنعة والعنوان . وأمسك اعترافاتى وقربها من عينى ثم قال :

– تتذكر هذه الأوراق ؟

– نعم .

– خذها وقلبها جيدا ، أهذا توقيعك ؟

– نعم .

– أتذكر ماكتبته بها ؟

– أذكر بعضه ، ولاأذكر البعض الآخر .

– تقصد أنك الذى كتبت هذا الاعتراف ؟

– نعم ، ولكن .

وقاطعنى وقد ظهر الشر فى عينيه :

– ماذا تقصد بلكن ؟

– أقصد ، أريد أن أقول ، لقد كتبت هذا الاعتراف تحت ضغط ماتسمع وتعرف .

وكان صوت السياط يقرقع ، ونظر إلى ساخرا ومنذرا :

– إذن فأنت لاتخافها ؟

– ياسيادة وكيل النيابة دعنا نتحدث بصراحة .

– هذا ماأريده منك .

– لايوجد فى هذا الكون من لايخشى الضرب بالسياط ، حتى أنت .

– حتى أنا ؟!!

– نعم فلو لم تكن تخشى هذه السياط لما رضيت أن تقف منى هذا الموقف .

– ماذا تعنى ؟

أنت أداة فى يد المباحث العسكرية ، أنت تغطى إجرامهم بثوب قانونى مهلهل .

وكان الجندى قد دخل بالشاى وقدمه لى وأدى التحية وخرج ، وانبريت أقول له :

– لعلك لن تسمح لى بشرب الشاى بعد ماسمعت منى ؟

– أبدا على الإطلاق تستطيع أن تشربه .

وكأنما الرجل أحس بوخز يسير فى ضميره ، وشجعنى صمته فصرت أقول له :

– ماضرورة ماتفعلون ، وكلاء نيابة يحققون وأجور إضافية وورق وحبر ، لم يكن داع لكل هذا ، كان يكفى أن يكتب كل ضابط مباحث عسكرية أو عامة العقوبة التى

يقترحها على اعترافات كل معتقل وترسل إلى رئيس الجمهورية أو لا ترسل،لا أهمية لهذه الشكليات ، وفروا المال للدولة ولاتعطونا أملا كاذبا بلا معنى له .

– أتراك تهزأ بنا ؟
– أبدا والله لا أهزأ ، ماضرورة هذا المال الضائع والجهد الذى يجب أن يوفر لشىء آخر ؟

–هذا حتى تعلم اهتمام الدولة بأن يكون الأمر للقانون أولا وأخيرا ، وكان من السهل أن ، أسمع ، قل لى :
– نعم .
– ماعددكم ؟

– لاأعرف .
– ستة آلاف ، سبعة آلاف ، عشرة آلاف . ماذا يحدث لو قتلتم جميعا عن آخركم ؟
– سوف يذكر التاريخ ذلك .
فقال هازئا :

– وماأهمية التاريخ ؟
– ولن يغفر الله لكم أبدا .
– يجب أن تعرف أنه رغم استطاعتنا إبادتكم فنحن لانقبل ذلك ، عندنا قانون ، ونيابة ، ومحاكمة عادلة .

وصرت أضحك وأشهد أن الرجل كان حليما معى .
– ماالذى يضحكك ؟
– ذكرتنى بالمحاكمات العادلة ، وبالمناسبة متى سنمثل أمام المحاكم العادلة ؟ قل لى ، أهناك ضرب فى المحاكم ؟
– ألا ترى حلمى معك ؟
– أرى ياسيدى ، وهل أنكرت شيئا من ذلك ، ولكن إلى متى يدوم هذا الحلم ؟

– سوف نرى .

واستمر التحقيق قرابة العشرين ساعة ، والحقيقة أن الرجل لم يمد يده على أثناءه ولكنه تجاهل اعتراضى على قيمة الاعتراف ولما أردت أن أثبت بعض الإصابات التى فى جسدى بمحضر التحقيق قال لى :

– صدقنى ، لاأهمية لشىء من هذا بالمرة .

ثم همس فى أذنى على مرأى ومسمع من سكرتير التحقيق :

– سوف يجر عليك هذا الكثير من المتاعب ، ولن يفيدك أدنى فائدة ، ولحظتها أحسست أن وكيل النيابة مثلى تماما ولافرق بين مركزه القانونى ومركزى من حيث أنه مواطن مصرى ، من المسئول عن هذا الفساد ؟ من الذى يدير عجلة الإجرام فى مصر ؟ آلة ضخمة تصنع الفساد والإجرام والطغيان ولها مفتاح واحد ، وهذا المفتاح تحت سيطرة واحد الكل يعرفه ويبجله ولا يستطيع أن يمسه بكلمة سوء .

كان وكيل النيابة يؤدى عملا يتنافى مع ضميره كإنسان ومع وظيفته كمحام عن المجتمع ، وماأظنه راضيا عما فعل الآن ، بعد أن مرت السنون وتضاءل الذين كانوا يصنعون الشر ، وأودعوا مكانا مظلما بعيدا عن الحياة والمجتمع .

كان وكيل النيابة يضفى ثوبا قانونيا مهلهلا على الجريمة التى ارتكبت ضد الشعب فى شخص الإخوان المسلمين بالسجن الحربى ، وقد أدى عمله ببراعة ونجاح .

وعدت آخر النهار إلى الزنزانة ألعن النيابة وألعن القانون وألعن كل شيء فى هذا البلد ، وكان ما يحدث فى السجن الحربى عام (١٩٦٥) هو مقدمة طبيعيةَ لهزيمة يونيو حزيران (١٩٦٧) الأمر الذى ذكرنا بقول الشاعر :

أسد على وفى الحروب نعامة ...

الفصل الثانى عشر

ما بعد التحقيق

انتهى التحقيق وكان كالقدر علينا أن نؤمن به ونرضى بما قسمه الله لنا فيه واستقر كل واحد فينا فى زنزانته ينتظر ادعاء النيابة ليمثل بعدها إلى المحكمة ولم نكن نعلم كيف تكون هذه المحكمة ، أو أين تعقد .

ولكن ذكريات محكمة الشعب التى عقدت عام (١٩٥٤) برئاسة قائد الجناح جمال سالم كانت تطاردنا وتؤرق مضجعنا ، وكان عزاؤنا أنهم لن يستطيعوا الحصول على رجل مثل جمال سالم الذى كان يطلب من المتهمين أن يقرأوا الفاتحة بالمقلوب ، وكنا نتمرن على مثل تلك القراءة فى الزنزانة .

ومن أهم الأشياء التى كانت تشغلنا هو محاولة تفهم وضعنا من ناحية القانون ، هل سنحاكم بتهمة العيب فى ذات رئيس الجمهورية ؟ أم سنحاكم بتهمة إحداث انقلاب فى شكل الحكومة بالبلاد ؟ وكنا نفكر فلا نجد أن واحدا فينا قد تعرض لشخص رئيس الجمهورية ومن يشاركه الحكم فى مصر .

وبينما نحن على هذا الحال نضرب أخماسا فى أسداس كعادتنا إذ فتح باب الزنزانة وكان الوقت ليلا ونحن فى نوم عميق ، وانتفضنا مذعورين كعادتنا عندما يفتح هذا الباب ، وزاد عندما علمنا أن الوقت متأخر .

ومن خلال النور الضئيل الذى ملأ الزنزانة لمحنا شبح جندى يملأ الباب بجسده وسأل عنى ، وهنا شمل الزنزانة اضطراب رهيب ، فكونى أطلب للتحقيق فى هذا الوقت المتأخر من الليل معناه عدم العودة فى أغلب الظن ، وصار كل واحد يخلع ماعليه من ملابس ويلبسنى إياه بسرعة ، الوقت شتاء والبرد شديد فى الخارج ، وأنا أعترض وأحاول أن أرد لكل واحدماأعطانى ، فكل واحد محتاج لما عليه

ليواجه برد الشتاء القارس ، أما أنا ، فما نفع الجثة بالدفء وماضرها بالبرد ؟

ونزلت مع الحارس إلى ساحة السجن الكبير ، الكلاب تعوى ، والحرس يضحكون ، وطبعا لم أعدم نصيبا من الإهانة والضرب والتحقير ، كان التحقيق قد انتهى ، والكل فى انتظار الادعاء الذى تعده نيابة أمن الدولة ، ترى هل فتح باب التحقيق من جديد ؟ أم ماذا جرى ؟

أخذونى إلى مكاتب التحقيق وأفزعنى ماسمعت ، كانت السياط تفرقع ، والصرخات تملأ المكان ، والكلاب تنهش الأجساد ، لقد استبانت الحقيقة المخيفة التى تأكدت لى مع مرور الأيام ، التحقيق فى السجن الحربى لاينقطع يوما واحدا ، كل يوم هناك متآمرون ضد نظام الحكم ، وكل يوم هناك من يعذبون ويضربون وتنهش أجسادهم ، وكان هناك شىء آخر ، لقد كانوا يأتون ببعض كبار الضباط ويؤدبونهم بالضرب ثم يرجعونهم إلى وحداتهم ، وكذلك كانوا يفعلون ببعض كبار الموظفين ، لقد اتخذ شمس بدران مدير مكتب المشير عبد الحكيم عامر من السجن الحربى مكانا ليؤدب فيه الشعب ممثلا فى طوائفه المختلفة .

فى هذا اليوم أجلسونى فى مكان مظلم بجوار حجرة من حجرات التحقيق وعلى مقربة منى كان يقف شمس بدران يحدث الرائد محمد عبد الفتاح السيسى الذى كان متهما بالسرقة والتهريب باسم المشير ، فقد كان يعمل فى مكتبه ، وكم كان فى مكتبه من اللصوص والجلادين الذين أساءوا إلى مصر .

- اسمع يامحمد .
- أفندم .
- بكره عندك مجلس عسكرى ، سوف تحاكم .

– حاضر ياافندم .
– لاتضايق المحكمة كثيرا ، أتفهم ؟
– حاضر ياافندم .
– سوف يحكم عليك بخمسة وعشرين عاما .
– ولكن .
– لاتخف ، سوف تبقى بالسجن مدة يسيرة ثم أفرج عنك .
– أمرك ، ياافندم .
– أتحب أن تشعل سيجارة ؟
– ياريت ياافندم .

وقدم له سيجارة وأنا منصت لهذا الحوار العجيب فى دهشة بالغة ، ماهذا الذى يحدث ؟

واقترب منى شمس بدران وسأل أحد الضباط ، فقد كان الظلام شديدا فى ذلك الركن الذى أجلس فيه :

– من هذا ؟

وأجاب الضابط فى احترام شديد وسرعة بالغة :

– هذا فلان ياافندم .

وذكر اسمى ، واقترب شمس بدران ، وكدت أرى بسمته الساخرة على جانب فمه رغم تعذر الرؤية .

– كيف حالك ؟
– الحمد لله .
– مبسوط .
– الحمد لله .
– هل لك رغبة فى شىء ؟
– الحمد لله .

والتفت شمس بدران إلى الضابط الواقف وقال له ، أدخله على مكتبى بعد ربع ساعة .

– حاضر ياأفندم .

وابتعدت الأشباح ، وصرت أرنو إلى السماء ، وقلبى يهفو إلى جلال الله سبحانه وتعالى ، فالأمر أكبر من الدعاء والابتهال ، الله يرى مايفعل بنا فى هذا المكان الغريب ، مامن تهمة يمكن أن توجه أكثر من أنى أحاول أن أعبد الله وحده على الوجه الذى يرتضيه ، نحن نحاول أن نضع المستقبل لبلادنا خيرا من واقعها النكد الذى نعيشه ، ونحاول أيضا أن نمد لها الدواء الذى أصلح أول هذه الأمة ، أمن الصواب أن نكفر بالله لترضى الحكومة عنا ؟ فليفعلوا بنا مايستطيعون ، ولكنى لن أترك عبادة الله ، وأفقت من أفكارى الصاخبة فى صدرى على يد تمس كتفى .

– هيا قم ، لقد أتاك الموت .

وعلمت أن شمس بدران قد أذن لى بالدخول عليه ، ترى ماذا حدث ؟ هل جاءتهم معلومات جديدة ؟ سوف نرى بعد قليل ، ودخلت حجرة شمس بدران لاهثا ، وإذا به يطالعنى بابتسامة مرحبة :

– أهلا ، أهلا اتفضل بالجلوس .

وجلست على الأرض .

– كلا . لاتجلس هكذا ، تفضل على الكرسى .

وأشار إلى مقعد خشبى فى مواجهة مكتبه الفاخر القابع فى تلك الحجرة المتوسطة الواسعة وظننت أن هناك خطأ ما ، ولكنه أكد لى بيده المشيرة إلى المقعد أنه ليس هناك ثمة خطأ ما ، أأجلس على كرسى فى مواجهة شمس بدران ؟ ماحدث للدنيا ، وجلست وقد خلا ذهنى من أى تصور ، وجاءنى صوته من جديد :

– ماذا تريد أن تشرب ؟

ترى ماالذى يرمى إليه هذا الرجل ؟ أيقدم إلى شيئا أشربه ؟ ولم أستطع الرد عليه .

– أتيك بكوب من الشاى الدافئ ؟
ياإله السماوات !!! شاى دافىء!!! وتشجعت .
– لابأس .
وأمر شمس أحد الضباط أن يأتى بكوب من الشاى على وجه السرعة ، وهرول الضابط ليصدع بالأمر ، وعاودتنى نظرة شمس من جديد .
– هل تعرفنى ؟
– وهل هناك من لايعرفك ياسيادة العقيد ؟
وجلجلت ضحكته وغطت على صوت التعذيب القادم من بعيد .
– اسمع ، أحب أن أتحدث معك حديثا جادا بعيدا عن التحقيق فأنت تعلم أن التحقيق قد انتهى .
– تفضل .
– هل تستطيع الكلام معى بصراحة متناسيا وظيفتى والمكان الذى نجلس فيه الآن ؟
– هذا أمر بالغ الصعوبة ، ولكنى سوف أحاول .
وهنا قدم الضابط كوب الشاى ، وقال له شمس :
– قدمه للأستاذ فلان .

وقدم الضابط الشاى لى فى تودد وبشاشة وهو يكاد ينسكب على ملابسى من فرط عجبى ودهشتى ، وصرت أرشف منه فى لذة وسعادة فقد كان الوقت شتاء وماكنا نحصل على شىء ساخن مثل هذا ، وانبرى شمس :
– قل لى ماالسبب فى لجوئكم إلى العمل السرى ؟
– من تقصد ؟
– أقصد الإخوان المسلمين .
– ولكنى لست عضوا فى جماعة الإخوان .
– والتحقيقات ؟
– ألم تقل لى نتكلم بصراحة ؟

– نعم .

– هذه هى الصراحة إذن ، لست عضوا فى جماعة الإخوان .

– هذا الحديث ليس له صلة بالتحقيق ، ونحن نريد أن نعالج هذه الظاهرة .

– أى ظاهرة ؟

– ظاهرة العمل السرى .

– أنا أقول لك .

– وأنا أستمع .

– أليس من الغرابة بمكان أن أتحدث معك بصراحة ، أو أن تطلب منى ذلك فى مثل هذا المكان ؟ ألا تسمع إلى أصوات الصرخات أليس هذا بأمرك ؟

– ليسوا من الإخوان ، إنهم من الجيش .

– أنا أتكلم من ناحية المبدأ .

– لقد كنت مضطرا إلى كل هذا ، تصور نفسك مسئولا عن الأمن والنظام فى بلد مثل مصر ، ثم جاءت الأخبار بأن الإخوان قد أعدوا خطة لقلب نظام الحكم ، حتى أعرف الحقيقة ماذا أفعل ، لابد لى من الضغط حتى يعرف الجميع ونفهم أبعاد المؤامرة .

– هذا يجرنا إلى الحديث عن التنظيم السرى .

– وهذا ماأريدك أن تحدثنى عنه .

– أتدرى لماذا يلجأ بعض الناس إلى أسلوب العمل السرى ؟

– فى انتظار إجابتك .

– أنتم تكممون الأفواه وتفرضون على الناس نظاما واحدا أنتم سدنته وأصحابه ، وقد تخطئون ، والنفوس قد جبلت على الحرية ومن الصعب قهرها إلى أمد بعيد .

- وضح كلامك .
- لو كنت تريد اختفاء لظاهرة التنظيم السرى فعليك أن تقنع الناس بأن يقولوا فى العلانية مايريدون عمله فى الخفاء .
- ماذا تقصد ؟

- ألا تتصور أن هناك من لايرضى حكمكم ولايقبل سيادتكم ؟
- هذه هى طبيعة الأشياء ، الناس لايتفقون على شىء واحد .
- إن كانت هذه هى طبيعة الأشياء فلماذا تقفون ضدها ؟ وهل تنجحون ؟
- أريد أن أفهم ماتعنيه بالضبط .
- أعنى أنكم لو سمحتم للناس أن تقول ماتريد وحميتم حريتهم فى ذلك لن يكون هناك داع للتنظيم السرى .
- نسمح بقيام الأحزاب ؟
- هذه هى الوسيلة الوحيدة للقضاء على التنظيم السرى .
- أتظن أن من اعتادوا على التنظيم السرى يرضون بالإعلان عن أغراضهم للناس ؟
- ولماذا لايرضون إن كان القانون سوف يحميهم ، والشىء الصالح هو الذى يبقى ويسود .
- لقد ذهبت بعيدا ، تريدنا أن نعيد الأحزاب ؟

وجلجلت ضحكته الساخرة فى فضاء الحجرة التى شهدت موت عدد غير قليل من الناس .
- هذا هو رأيى .

والتمعت عيناه وهو يقول :
- كيف نرضى عاطفة الناس الدينية ثم نحافظ فى الوقت نفسه على شكل النظام ؟
- لو كوّنتم شعبة للنشاط الدينى تابعة للاتحاد الاشتراكى لكانت هناك فرص لتحقيق هذا الإشباع للجماهير .

– ولكن ألا تنفصل هذه الشعبة عن الاتحاد الاشتراكى ؟
– هذا هو بعض الحل ، أما انفصال الشعبة فقد تكون نواة لحزب جديد .
– حتى ينسى الإخوان ؟
ولم يكمل عبارته بل تشاغل فى بعض الاوراق ، ثم عاد يرنو إلى من جديد وهو يقول :
– إذن فلا فائدة ؟ لن نسمح بعودة الأحزاب ولن ننشئ مثل هذه الشعبة التى تقول عنها .
– ولن تقدروا على منع الأحزاب والمنظمات السرية من الظهور ، سوف تظهر التنظيمات ، تنظيما يتبعه آخر ولن تفلح وسائل القمع والإرهاب ، صدقنى ، لن يفلح شيء .
– مع من ؟
– مع الناس .
وعدت هذه الليلة إلى الزنزانة أقص على إخوانى ما جرى وأنا دهش مما سمعت ، وكانوا أكثر دهشة منى .

* * *

مرت بنا فترة عصيبة أثناء التحقيق فى الأيام التى تلته فقد كنا لانخرج من الزنزانة إلا لحظات فى الصباح لنذهب إلى دورة المياه ثم نبقى بقية اليوم ، وكان أقصى مايتمناه الواحد فينا أن ينزل إلى فناء السجن فى الصباح ويسترخى فى أشعة الشمس الدافئة بعيدا عن برد الزنزانة الذى ينفذ إلى العظام .

وفى يوم من الأيام شاهدنا حركة غير عادية فى فناء السجن ، دخل حرس كثير وصاروا يفتحون أبواب الزنازين ويخرجون الناس منها ويصفونهم صفوفا ، وكان عجبنا شديدا ، وسرعان ماجاء إلى زنزانتنا واحد من الحرس وفتح علينا وأمرنا بالنزول ، ونزلنا ونحن فى فرحة بالغة ، فلأول مرة يجتمع المعتقلون فى صعيد واحد ، وصرنا نتبادل

التحيات بوجوه باشة سعيدة ، دون أن ينطق أحدنا بكلمة واحدة .

وصار كل واحد يحاول أن يلقى زملاءه فى القضية ليعرف منهم ماذا قالوا عنه ويخبرهم بالذى قال عنهم ، وصار كل يوصى صاحبه بتغيير الكلام فى المحكمة عندما تنعقد ، وعرفنا كثيرا من أخبار البلد ، فقد أقال عبد الناصر على صبرى وعين بدلا منه زكريا محى الدين ، رئيسا للحكومة ، وسمعنا شائعات عن اعتقال الجماعة الاسلامية فى باكستان ، وسمعنا عن مجموعة الانقلابات العسكرية التى فجرتها المخابرات الأمريكية فى آسيا وأفريقيا .

وكان يوما رائعا تمتعنا فيه بحرارة الشمس الدافئة واستطعنا أن ندخل دورات المياه مددا كاملة ، وشربنا حاجتنا من الماء ، وأعلنوا لنا فى آخر اليوم عندما اقتربت الشمس من المغيب أننا سنخرج كل يوم فى النهار ولانعود إلى الزنزانة إلا فى آخره ، وكانت فرصة ليست بعدها فرصة ، فقد كان هذا غاية ماانتمناه ، وماكنا ندرى ما يراد بنا ، دخلنا الزنزانة وكل واحد فينا يحكى لأصحابه عن الذكريات ذكريات اليوم البهيج .

وأذكر أننا قضينا وقتا طويلا من الليل فى سمر وضحك فى انتظار مطلع الشمس لنخرج من الزنزانة إلى الفناء الفسيح ، حيث الأصدقاء والشمس ودورة المياه . وفى الصباح ، وقبل أن تطلع الشمس بكثير فتحوا علينا باب الزنازين وأنزلونا إلى دورات المياه ، فقد كان علينا أن نقضى هذه المهمة قبل بدء الطابور ، وانتهينا منها قبل أن تشرق الشمس وعدنا إلى الزنازين ووزع علينا الإفطار الهزيل وبهجتنا أكبر فى نفوسنا من الجوع .

وفى تمام الساعة السادسة والنصف توسط العريف (على أبو زومه) فناء السجن ونفخ فى صفارته ومعناها أن نقف منتبهين داخل الزنازين – هكذا علمونا – ثم نفخ فيها أخرى فنغادر الزنازين فى لمح البصر ونقف ووجوهنا إلى الحائط فى كل أدوار السجن ، ثم ينفخ أخرى فننطلق مسرعين إلى فناء السجن لنقف بالعلامات التى حددوها لنا بالأمس ، كنا نظن أن هذا الأمر سوف يخفف عنا العذاب ، أو أن النزهة وتغير المنظر سوف يجعلنا أكثر احتمالا ، ولكن خاب ظننا كما ستعرفون بعد قليل .

وقفنا فى فناء السجن وقد قسم المعتقلون إلى سرايا بكل سرية حوالى مائة أو أكثر ، وكان أول ماعلينا أن نفعله أن نعدو فيما يسمونه (بالعدو الصباحى) .

وبدأ العدو وخرجنا من ساحة السجن الكبير إلى الفناء الخارجى حيث المستشفى والمطبخ وسائر البنايات الملحقة بالسجن ، ومسار العدو فى مستطيل كبير أمام هذه الأبنية .

وفى هذا اليوم رأيت سيد قطب وهو يتمشى على مقربة من المستشفى رابط الجأش حديد النظرة يسير فى خطوات متئدة ويرقبنا بين حين وآخر ، عندما بدأنا العدو ظننا أنه لن يأخذ سوى دقائق ، ولكننا فوجئنا بأننا لا نستطيع العدو لطول الفترة التى قضيناها فى الزنازين .

وظننا أنه فى وسع أى واحد منا أن يستأذن ويخرج من الصف ، ولكن كان هذا الطابور طريقة جديدة للعذاب .

فعندما سقط البعض هرع إليهم الحرس بالسياط وأوجعوهم بها ليقوموا فقام البعض ولم يستطع البعض الآخر ، ثم انتقلت فرقة الحرس إلى الصفوف تسوق الناس بسياطها ، والويل لمن يتوقف واستمر الحال على هذا المنوال ساعتين من الزمن عدنا

بعدها إلى السجن الكبير وصرفونا إلى الزنازين ، فقد قدر لنا بعد هذا اليوم أن نتناول طعام الإفطار عقب طابور العدو .

وكنا نسقط على أرض الزنزانة ولايستطيع واحد منا أن يمد يده إلى الطعام من شدة التعب وكان العرق ينضح على أجسادنا رغم برودة الشتاء وفى الساعة العاشرة يتكرر ماحدث فى الصباح وننزل إلى الفناء وكان من المقرر أن تسير هذه السرايا الطويلة طوال النهار فى فناء السجن الكبير ، وما كان يحدث هذا فى أغلب الأحيان .

كان حمزة البسيونى يدخل السجن الكبير على جواد أبيض وبروح جماعية يحاول الجميع منافقته فنضج بتصفيق حاد ، ويمتلىء ذلك المخلوق غرورا ويأمر الجند بأن تعدو هذه السرايا ، ويستمر العدو ويسقط الناس ، ويحاول الجند تملق ضابطهم الكبير على طريقتهم فيوسعوننا ضربا بالسياط والبسيونى على حصانه وقد ركبه الغرور ونفخ الشيطان فى روحه .

وكانت هناك سرايا خصصت للمرضى وكبار السن وكانت معفاة من العدو والرياضة العنيفة التى كان على غيرهم أن يؤدوها ، وكان يطلق عليها سرية (العواجيز) ، وكانوا يرسلون إليها من يصاب أثناء الطوابير ، ويختارون الذين منوا بإصابات جسيمة .

ويشاء حظ هذه السرية العاثر أن يوكل بها رجل أبله كان شهيرا فى تلك الأيام اسمه (رشاد مفراج) وكنت قد التحقت بهذه السرية عقب إصابتى فى قدمى بإصابة بالغة تمنعنى حتى من السير ، ولكن ليتنى ماأصبت وليتنى لم ألتحق بها .

كان (مفراج) يجعل هذه السرية تعدو وقتا أطول من بقية السرايا التى بها أصحاء وكان يضرب من يرفض العدو ضربا مبرحا قاتلا وكان يصرخ فينا – ياعواجيز يا أبناء العاهرات – سوف أقتلكم جميعا ، وكاد يفعل والله .

وكنا نعود إلى الزنزانة فى المساء وقد أضنانا التعب وهدتنا آلام مبرحة ، ويصير اليوم التالى كابوسا لا نحب أن يأتى ، ويدخل الواحد منا ولايكلم أحدا من زملائه من هول مابه ، وإن ضبط واحد يتحدث مع آخر فيمسكون بهماويجعلونهما أمثولة ، ورغم هذا كنا نتكلم ومامنعنا الضرب من فعل أى شيء .

كانت الإبرة محرمة وكذلك الخيط ، فكنا نحتال لنخيط ملابسنا الممزقة ، فنسحب خيطا من نسيج الثوب وشوكة من أشواك السمك الذى كانوا يأتوننا به أحيانا ونخيط مانريد .

ويمر العريف فى طابور الصباح فيكتشف ثوبا مخيطا فيخرج صاحبه ويسأله كيف فعل ذلك فيحكى له القصة فلا يصدق فينهال عليه ضربا موجعا قاتلا ، كانت الطوابير وبالا ونقمة علينا ولولا أننا استطعنا فيها أن نسترد طعامنا الذى يسرقه الجند لما قدر لنا أن نظل أحياء على النظام الذى أجروه معنا فى صور التعذيب الجديدة من خلال الطوابير . كانوا يسرقون الجبن فنسترده منهم كذلك اللحم والخبز والحلاوة الطحينية والعسل الأسود ويتخصص أفراد معينون فى أصناف الطعام المختلفة فهذا اختصاصى فى استرداد الجبن ، وذلك الخبز ، وآخر اللحم وهكذا ، ويحاول كل واحد أن يوزع أكبر قدر من المواد التى استردها على إخوانه ويختص المرضى والشيوخ بأكبر نصيب ، وكانت روح الجماعة ظاهرة فى نفوس الإخوان فى السجن الحربى .

كل واحد يحب من معه ويحرص عليهم ويفديهم بنفسه إذا اقتضى الأمر ، مر أحد الجند على السرايا فسمع همهمة فيها فأمر من تكلم بالخروج فلم يخرج أحد ، وكان الذى تكلم شيخا كبيرا طرد قريبا من سرية العواجيز وخاف أن يخرج فيبطش به الجندى وهو رجل ضعيف فسكت ولم يخبر عن نفسه .

وهدد الجندى بأنه سوف يمثل بالسرية إذا لم ندله على الذى تكلم وكان معظم من بالسرية يعرف ذلك الذى تكلم ولم يش به أحد ، واستمر الجندى يمثل بنا فى هذا اليوم ، من الظهر حتى غربت الشمس ، ولم ينطق أحد باسم الذى يبحث عنه الجندى .

فى أثناء الطوابير التقينا بكل من كانت له صلة بالتنظيم وعرفنا الكثير من الأشياء التى خفيت علينا ، التقينا بعبد الفتاح اسماعيل عليه رحمة الله وأحمد عبد المجيد عبد السميع وغيرهم وغيرهم .

الفصل الثالث عشر

القانون والقضاء في إجازة

من الأشياء الطريفة التى تتعلق بقضية الإخوان أن قرار الحاكم العسكرى الذى صدر عام (١٩٥٤) بحل جماعة الإخوان المسلمين لم ينص على عقوبة معينة لمن يخالف هذا القرار ، وعلى هذا لايعد مخالفا للقانون من عمل على إحياء جماعة الإخوان بعد عام (١٩٥٤) فلا جريمة إلا بنص كما يقول جملة الفقهاء والمشرعين ، ولم يكن هذا بالأمر المعجز ، فكل الإجراءات بربرية منذ لحظة اختطاف المواطن من بيته حتى تقديمه لمحاكمة هازلة مرورا بسلخه قبل ذبحه ، إن جاز التعبير .

وقد شكلت المحكمة (محكمة أمن الدولة العليا) برئاسة الفريق محمد فؤاد الدجوى ، وهو رجل سكير كما قال من عرفوه ، جاهل مغرور وقح كما بدا فى جلسته على منصة القضاء الزائفة ، والقاضى كما عرفه الناس رجل عادل متجرد هادى النفس يزن الوقائع بصدق ويحرص كل الحرص على عدم الخطأ فى العقوبة ، وهو ملاذ الناس عند الشدة وهو الحائل بينهم وبين العنت والقهر ، أما هذا فكان قميئا يحاول تقليد سلفه جمال سالم والمهداوى فى العراق ، ولما كانت تنقصه القدرة والاستطاعة فقد بدا مقززا يثير الغثيان ، حتى النكات السمجة التى كان يطلقها أثناء نظر القضية لم تكن تلقى اهتماما ومجاملة من الحاضرين وجملتهم من جماعة (المصفقين) .

ولست أدرى لماذا تحضرنى ذكرى اغتيال عمر بن الخطاب العظيم فى الزمن القديم ، فرغم ثبوت التدخل من بعض الأشخاص والتواطؤ مع أبى لؤلؤة فيروز المجوسى قاتل أعظم الناس بعد وفاة صاحبيه إلا أنه لم يكن هناك مايمكن عمله معهم ، فقد كان يمكن للخليفة الجديد آن يصدر قراره باعتقال المجوس الموجودين بالمدينة وقد أسلم بعضهم نفاقا

إلا أن هذا لم يكن فى ميزان الدين والشرع وفى ضمير الحضارة والقانون .

وفى الزمن الحديث كانت هناك قصة اغتيال جون كندى أكبر رؤساء الجمهوريات فى العالم فما كان هناك غير اعتقال أزوالد الذى أطلق الرصاص على الرئيس ، وقالوا ليس هناك نص يخص رئيس الجمهورية ، فهو رجل عادى من الناس بالنسبة لهذه النقطة من القانون .

بدأ الدجوى إجراءات المحاكمة بتأنيب المتهمين على ماااقترفوه فى حق سيده من آثام ، الأمر الذى أثار دهشة المحامين ، فكأنه بهذا قد وافق النيابة المتهرئة على دعواها . حيال هؤلاء الناس ، وكان كل مايدور لاقيمة له ، فالقاضى يؤنب المتهمين ، والمفروض أنهم أبرياء حتى تثبت التهمة من إجراءات المحاكمة ، أو لاتثبت .

وقد يكون من التكرار أن نعيد ماجاء فى المحاكمات فقد حفلت بها أوراق الصحف فى ذلك الحين ولكن هناك أمورا لم يقدر لها النشر فلعله يكون مفيدا ان نعرض لبعضها فهى خواطر وظلال ، حول المحاكمات التى جرت والقوانين التى سادت ، قضية خطاب من أشهر القضايا التى قدمت آنذاك ، فقد اتفق خطاب – وهو من إخوان الإسكندرية – على اغتيال عبد الناصر ، انتقاما لما حدث سنة (١٩٥٤) وأعد العدة لاغتيال عبد الناصر هو وبعض زملائه ، وبعد مناقشات عديدة استقر الأمر بينهم على استبعاد فكرة الاغتيال هذه ، والانصراف إلى العمل الجاد ، من أجل خير الوطن ورفعة شأنه فى تكريس الأخلاق والقيم الإسلامية فى صفوف الشعب ، كل مع من يعرفهم من زملائه فى العمل وجيرانه فى السكن وأقاربه وكل من يمت له بمعرفة ما ، دونما احتياج إلى تنظيم .

وعلى هذا الأساس فقد خرجت زوجة خطاب ومعها شقيقتها فى ليلة من ليالى الشتاء عام (١٩٥٦) ومعها المعدات الخاصة بنسف قطار عبد الناصر ، وألقت هذه المعدات فى البحر الأبيض المتوسط ، وأسدلوا على القصة ستائر النسيان .
ففى منطق القانون العادى يسمى هذا عدولا اختياريا عن الجريمة ، فقد اتفقت مجموعة من الناس على قتل واحد بعينه ، وتم هذا الاتفاق ، ثم عدلوا عن هذا ، وانتهوا إلى إلغاء هذا الاتفاق ولكن خطاب وزملاءه قدموا إلى المحاكمة بتهمة الشروع فى قتل عبد الناصر ، وحكم عليه وعلى مجموعته بالأشغال الشاقة المؤبدة ، رغم أنهم عدلوا عدولا اختياريا كما قلت ، وكانت شقيقة زوجة خطاب فتاة لم تتزوج بعد فى ذلك اليوم الذى صحبت فيه أختها لإلقاء المعدات فى المتوسط . ومرت الأيام بعد ذلك ، وعندما أتى أوان القضية عام (١٩٦٥) جاءوا بها ، وجاءوا بزوجها المذهول ، الذى فهم القصة بالتفاصيل فى عنابر التحقيق المخيفة ، ثم فهم الأمور كلها على مدى السنين التى قضاها فى المعتقل دون محاكمة ، بطبيعة الحال .

أما قضية محاولة اغتيال عبد الناصر فى حد ذاتها فمن سير التحقيق بصحيحه وكذبه لم يثبت أن هناك من ذهب ليقتله ، فغاية مايفهم أن هناك شخصا فكر فى قتل زيد من الناس ، فصدر الحكم ضده بالإعدام ونفذ ، فهو قانون غريب وقضاء أغرب ، يحكم على الناس حكما قاسيا مدمرا بخلجات نفوسهم وبما يدور فى عقولهم من أفكار ، وقد عبر عن هذا حسين توفيق أثناء محاكمته بقوله لرئيس المحكمة :

– لو كنا فكرنا فى انقلاب ضد السماء لما فعلوا بنا مافعلتموه ، وقد ذهب ضحية التحقيق الوحشى الذى أجرته أجهزة الأمن تمهيدا للمحاكمة أكثر من خمسين رجلا من

خيرة الناس أعرف منهم شخصيا : المرحوم زكريا المشتولى ، المرحوم بدر القصبى ، المرحوم أحمد شعلان ، المرحوم محمد عواد ، المرحوم إسماعيل الفيومى ، من هؤلاء من قدر لى أن أشهد استشهادهم كما حدث مع المشتولى والقصبى وشعلان أو أحضر جانبا من هذا الاستشهاد كما حدث مع عواد والفيومى عليهم رحمة الله جميعا . أما ضحايا المحكمة الذين استشهدوا على مرأى ومسمع من الناس فقد كانوا ثلاثة فقط ، سيد قطب ، العالم الشهيد ، والشيخ عبد الفتاح إسماعيل ، والأستاذ محمد يوسف هواش .

كانت المحاكمات أشبه ماتكون بتمثيلية صاخبة هزيلة فى نصها ، سخيفة فى إخراجها يشاهدها جمهور فقد كرامته وعزته ، سلبها منه نظام خانق مقتدر على الإفساد داخل الأرض ، ضعيف أمام العدو (أسد على وفى الحروب نعامة) كما يقول الشاعر ، وقد مثل الشبان الشجعان المؤمنون وفى قلوبهم صلابة ورباطة جأش ، وكانوا يعرفون مايخاله بهم ومايراد منهم . وقد ضربوا أمثلة صادقة وفية ، ورضوا بالقضاء وصبروا عليه وواجهوا المهزلة .

تكلم سيد قطب أمام الدجوى الممثل الهزلى الضعيف الأداء ، وقد أرادوا له القيام بدور القاضى العادل الحكيم وهذا يستدعى قدرا من الحكمة يساعده على أداء الدور ، ولكنه كان خلوا من هذا القدر الضئيل ، تكلم أمامه سيد قطب ، رغم مرضه وسنه إلا أنه قال للدجوى مايعتقد – أمام صحافة أقل مايقال عنها إنها صحافة حقيرة مرتزقة – تكلم عن التعذيب الوحشى الذى تعرض له المتهمون ، فكان رد الفعل فى القاعة نظرات التشفى وقهقهات السخرية من القاضى والجلادين والهتافين ، وكان يعرف مصيره .

وفى مرة من المرات أخذونى مع بعض من الزملاء لنحضر الطعام من المطبخ . وفى الطريق سنحت فرصة للتحدث مع سيد قطب قلت له فيما قلت :

– ماذا تنتظر ؟

فقال الرجل لى بابتسامة واثقة نابعة من صدر هادئ مطمئن .

– أنتظر الوفود على ربى .

هذا كل ماكان ينتظره ، أما ماقاله فى المحكمة فكان يريد به ذكر شيءللتاريخ الذى مسخه الأقزام ، والذى يأبى إلا أن يشرئب بعنقه مهما تباعدت الأزمان .

* * *

كان للدجوى رئيس المحكمة تاريخ لايشرفه ، وليس فى تاريخه مايشرفه ، كان حاكما لقطاع غزة المحتل أيام الاحتلال اليهودى لها عام (١٩٥٦) وكان غرض اليهود آنذاك هو تهجير المصريين والفلسطينيين من القطاع ليسهل لهم تهويده ، وساعدهم الفريق الهمام فى ذلك ، وصار يحث المصريين والفلسطينيين على مغادرة القطاع ، ثم صار يخطب فى الإذاعة الإسرائيلية ويبين عورات الحكم فى مصر . وقد وصف نفسه بأوصاف قبيحة يندى لها الجبين ، وقد وقف أمامه وتصدى له محمد المأمون الهضيبى قاضى محكمة غزة فى ذلك الوقت واستطاع مع بعض المخلصين أن يفسد خطته وأن يحول بين اليهود وبين تحقيق مايريدون .

وتمضى الأيام ويمثل القاضى الحقيقى متهما أمام قاض مزيف وقح العبارة أمى التفكير ، وأثناء الحوار الهازل الذى أرغم عليه المتهمون ، ضرب القاضى المزيف بيده على المنصة وهو يواجه القاضى الحقيقى الشجاع متهما فى قفص الاتهام :

– هكذا يقول القانون .

وفى هدوء رد عليه المأمون الهضيبى المستشار :

– من قال لك هذا الكلام ؟

– أنا قاضى وعارف كويس مايقوله القانون .

وابتسم المأمون ابتسامة مريرة ساخرة وهو يقول :

– ياسيادة القاضى . ليس فى كلامك هذا شىء من القانون ، وأخفى المحامون ابتساماتهم فى أكمامهم وهم يرون النقط تحت الحروف .

كانوا يهتمون بمظهر الذين يحاكمون ، فيأتون لهم بالملابس النظيفة من بيوتهم ، فيأمرونهم فيلمعون أحذيتهم . وكنا نتفرج على منظرهم خلال الزنازين ونعجب من أناقتهم ومن نظافة ملبسهم ، وكنا نغبطهم أيضا على نزهتهم فى الرواح والغدو مرورا بشوارع القاهرة التى لاتدرى شيئا عما يدور .

ومن طريف مايروى أن أحد المتهمين وهو منصور عبد الظاهر ، وقف أمام القاضى المزيف وخلع ملابسه وأراهم – هيئة المحكمة الموقرة – مانزل به فى ساحة العذاب ، وبطبيعة الحال لم يلتفت القاضى المزيف لما يقوله منصور ومضت الإجراءات إلى نهايتها وعادوا إلى السجن الحربى حيث يقيم الجميع ، وعلى بوابة السجن أمروا بخلع ملابسهم وحملوها على أيديهم ، وفرقعت السياط وعوت الكلاب وساقتهم إلى السجن الكبير ، على النحو الذى شرحت فى مبدأ الكلام ، وانتبهنا فى الزنازين على تلك الضجة العظمى فنظرنا ورأينا ، ويالهول مارأينا ، كان يمثل بهم أشنع تمثيل ، أما ذلك الذى تجرأ فى المحكمة فقد ناله من العذاب الكثير أعظم نصيب ، فقد ازرقت عيناه وانتفختا من هول اللكمات وشج رأسه وناله جزاء الصابرين المعاندين .

وفى اليوم التالى ذهبوا إلى المحكمة كالعادة ، ورآهم كل الناس على الحال التى وصفت وشرحت ، وإمعانا فى الاستهزاء والسخرية قال القاضى المزيف :

- فين منصور عبد الظاهر ؟

ووقف منصور فى القفص بين إخوانه ، ووقف وفى وجهه ماقلت لكم ولكل من يراه بوضوح :

- أفندم .
- ماذا بعينك ؟

فتحير منصور . القاضى الجلاد يسأله عما فى عينه ! . وحملق منصور فرأى عينيه تلمعان بالسخرية والتحدى ، والصحافة جالسة والله العظيم ، فقال له بهدوء :

- لا شىء .

وازدادت الروح الشيطانية فى نفس القاضى وكان يمكن أن ينتهى الحوار عند هذا ، إلا أنه أضاف :

- ماذا تعنى بلا شىء ؟ وجهك مصاب ، وعينك منتفخة ، هل ضربوك ؟

وارتعد منصور فقد تذكر ماحل به البارحة فى ساحة السجن الكبير . فأسرع قائلا :

- لا لم يضربنى أحد .
- فكيف تفسر مابوجهك من سجحات وكدمات ؟
- فى الحقيقة لست أدرى ؟
- ألا تعرف ماحل بوجهك ؟

وازدرد منصور ريقه وهو يقول :

- نعم .
- استيقظت من النوم فوجدته هكذا ؟
- نعم .

– أم لعلك سقطت على السلم وأنت تصعد أو تهبط ؟
– ربما ، لاأذكر .

كل هذا والحاضرون الجبناء من صحفيين ومحامين يضحكون ويهمهمون فى سعادة كمجتمع رومانى يشاهد الأسود وهى تلتهم النصارى فى الزمن القديم .

كان رئيس الدائرة الثانية الفريق على جمال الدين محمود ، وكان رجلا صالحا طيب النفس ولاأدرى كيف اختاروه لهذه المهمة القذرة ، أما الرجل فقد كان صادقا مع نفسه ، وآلى على نفسه أن يحق الحق ويفعل مايراه منسجما مع ضميره وخلقه ، فكان يفسح صدره للمتهمين ويسمع منهم ويسألهم :

– هل عذبوك ؟ قل الحقيقة لاتخف .

لكن بعد حادثة منصور ماكان لأحد أن يقول الحقيقة ، وكان إذا مارأى علامة فى وجه واحد من الإخوان يسأله عنها وكيف أصيب بها ، ويصر على أن هذه من التعذيب ، ويصر المتهم أنه عومل أحسن معاملة ، واستقر رأى الرجل على تبرئة كل المتهمين ، وكانوا يأتون من المحكمة ويقصون علينا الأنباء فلا نصدق ونقول لهم أنتم مبالغون .

وقبل الجلسة التى عزم الرجل فيها أن يعلن براءة الناس ، جاء نعى الفريق على جمال الدين محمود فى الصحف الثلاث ، وقيل إن صلاح نصر مدير المخابرات قد دس له السم فى الطعام ، وأعيد تشكيل المحاكمة وجاءوا برجل اسمه اللواء حسن التميمى أستاذه الدجوى ، وانسجمت القضية الثانية مع باقى قضايا الإخوان .

كان معى فى الزنزانة طبيب شاب ، جلس يناقش مع إخواننا ليلة ذهابه إلى المحكمة ما ينبغى عليه أن يقوله فى الصباح ، وصاروا يناقشون معه وقائع الأحداث وتفاصيل الأقوال وهذا يقول له قل كذا وكذا ، وذاك يقول : عليك بإنكار هذه النقطة ، وأنا صامت لاأتكلم .

واقترب أخونا الطبيب الشاب وقال لى :

– لم تقل لى ماينبغى على أن أفعل فى الغد .

– لاتفعل شيئا .

– ماذا تعنى ؟

– رفعت الأقلام وجفت الصحف . أرح نفسك فى الغد واجلس صامتا فى القفص ومتع نفسك برؤية هذه المسرحية الهازلة .

– والله هذا هو القول .

وأخلد صاحبنا ليلتها فى سبات عميق .

دخل الأخ حافظ أيوب إلى قاعة المحكمة وافترش عباءته على الأرض وصلى ركعتين ولم يأبه بصوت الحاجب وهو يعلن بأعلى صوته منبها الموجودين :

– محكمة .

وعندما سئل السؤال التقليدى :

– هل لك اعتراض على شكل المحكمة ؟

أجاب الرجل بصوت جهورى سمعه كل من كان فى القاعة .

– إنى أعترض على شكل المحكمة وموضوعها ، فليس لى أن أحاكم بقانون وضعه البشر ، فالحكم لله تعالى ، والفيصل بين الناس هو شرع الله ، وعندما سئل عن رأيه فى الحكومة أجاب ببساطة :

– هى حكومة كافرة .

وكذلك كان حال معظم أفراد القضية الثالثة ، أعلن كل واحد اعتراضه على شكل المحكمة وموضوع القانون الذى يحاكم به ، واعترف أنه ضد النظام ، ويقاومه بكل ما يستطيع ، وكانوا يعودون من المحكمة إلى السجن حيث العذاب والضرب والإرهاب البالغ وكانوا على أشجع مايكون الناس فقد رأوا ماكان من أمر إخوانهم الذين لم يحسنوا القول فى ساحة القضاء وتبين لهم كيف فعل بهم وضربت لهم الأمثال .

وقف المحامى الشاب يدافع عن صديقنا الصيدلى الشاب :

ياحضرات القضاة . هذا الوجه الذى ترونه الآن – ويشير إلى صاحبنا الذى يدافع عنه – وجه قد تمرس بالإجرام . صحيح أنه لم يولد كذلك ، ويعارضه القاضى ليبدى شيئا من النزاهة :

– ياأستاذ دع هذا الكلام للنيابة .

ويمضى المحامى فى مرافعته ناعتا صاحبنا بالإجرام والتآمر ، ولست أدرى كيف ظن المحامى أن هذا دفاع ؟ ويصفر وجه الصيدلى الشاب ثم يهدأ ، ويبتسم وتتسع ابتسامته حتى تملأ وجهه ثم ينفجر فى ضحكة ساخرة مجلجلة مريرة ، بينما يد القاضى غير النزيه تدق بعنف على المنصة ، وعندما انتهت الجلسة همس الصيدلى لوالده من القفص :

– كم أعطيت هذا الرجل ؟

فقال له الأب المكلوم :

– ثلاثمائة من الجنيهات .

وابتسم الصيدلى وهو يقول لأبيه :
– كان يمكن لوكيل النيابة أن يقول هذا دون نقود .

كان الشيخ عبد الحليم سعفان أعمى العينين بصير القلب ، وكانت تهمته أنه يساعد أسر الإخوان الفقراء بقليل مما تسمح له ظروفه ، وكانت المحكمة فى حالة تسامح شديد ، وقد عبرت عن ذلك بأنها عرضت العفو عن المتهم إذا ما أعلن عن ندمه وخطئه وطلب العفو من المحكمة ، ولكن الرجل قال لهم فى عزة الواثق وصدق المؤمن :

كيف تطلب منى أن أعتذر عن عمل قمت به من صميم الدين ، الزكاة من أركان الإسلام ولايعتذر عنها ، وإذا فعلت فكأننى أخرج من الإسلام ، وحاشا لى أن أفعل ، وصدر الحكم عليه بثلاث سنوات جاء بعدها إلى المعتقل ومكث به ماشاء الله أن يمكث .

كانت المحاكمات صورية بالشكل والمضمون كما بينا ، وكانت غطاء للجرائم التى ترتكب وصورة للعالم الخارجى ليظن العدل بطرائق الحكم فى مصر ، أما الحقيقة فقد كانت الأحكام تصدر عن مكاتب المباحث الجنائية العسكرية تحت إشراف العقيد شمس بدران واللواء سعد زغلول عبد الكريم ، ولم يتوفر لأحد أمان فى أى شىء ، حتى لم يستطع أن يقابل أهله ويجلس معهم ويتناول شيئا من طعامهم الذى يحملونه كل يوم ويأخذه الحرس بحجة أنهم سوف يوصلونه لأبنائهم .

ولم يكن هناك قانون اللهم الا نصوص عرجاء عليها مسحة من صياغة القانون ومن الطريف أن هناك واحدا من المتهمين قد حكم عليه بثلاث عشرة سنة ، كأنه قد أخذ عقوبته بدقة وعدل ووضوح ، وكان أجدر بالقاضى ألا يحضر مثل هذا الهراء ، وعلى النيابة ألا تكتب مثل هذا الإدعاء . وكان خليقا بالصحفى الصادق أن يحطم قلمه ويرفض الجلوس فى مقاعد السفهاء .

وكان على عصام الدين حسونه وزير العدل آنذاك أن ينأى بنفسه عن مثل هذا بدلا مما قاله فى زمن أتى [1] بعد ذلك . فقد كانت كل القرارات تصدر موقعا عليها باسمه ولو وضعنا النقط فوق الحروف لسمى الرجل وزير الظلم بدلا من صفة العدل التى أطلقت عليه بغير حق .

انتهت المحاكمات وبقى الجميع فى انتظار الحكم ، وكان الكل يعيش فى طاحونة الطوابير القاتلة تحت حرارة الشمس المحرقة لصيف أتى غاضبا مزمجرا لايفرق بين الظالم والمظلوم .

وفى يوم من الأيام دخل المساعد صفوت وأطلق صفارته فتوقفت الآلة عن الدوران . وتليت قوائم . لقد تكرر نقل المعتقلين الذين لم يقدموا للمحاكمة إلى معتقل آخر وأخذونا صفوفا إلى (الشفخانة) لتوقيع الكشف علينا .

(١) تقدمت مجموعة من أعضاء مجلس قيادة الثورة القديم وبعض الوزراء منهم عصام الدين حسونة هذا بمذكرة إلى الرئيس السادات بتاريخ ٤ أبريل سنة ١٩٧٢ ، يعرضون فيها بالظلم الذى وقع على الشعب وكبت الحريات وضياع القانون أيام عبد الناصر ويقولون له فيها : إن هذه هى أسباب نكسة يونيو (١٩٦٧) ويطالبون بتحقيق العدل والديمقراطية وأشياء أخرى منها الاشتراك معه فى الحكم وإعادة مجلس الثورة من جديد .

وأشاعوا أن من يجدونه مريضا أو به أذى من التعذيب فسيبقى بالسجن حتى يشفى ، فكان كل واحد يبدى قوة من نفسه أمام الطبيب الجبان الذى رأى كل شىء دون أن يتذكر قسم (أبو قراط) أو تتحرك فى نفسه خلجة من الشعور يعترض فيها على مايرى من عذاب .

إنى أذكر أيام التحقيق يوم أتوا بذلك الطبيب ليفحص شابا فقد رشده من شدة الجلد بالسوط . لقد وضع الطبيب السماعة على قلبه ثم التفت إلى المحقق وقال له :

– قلبه سليم . يحتمل (علقة) أخرى .

خرجنا من السجن الحربى لنواجه الحياة فى معتقلات المباحث العامة ، القلعة فأبى زعبل ، حيث حدث هناك ماحدث ، ثم المستقر والمستودع بمعتقل طره السياسى .

الفصل الرابع عشر

قصة تنظيم الإخوان عـــــام ١٩٦٥

لعل من المناسب قبل أن نترك السجن الحربى إلى معتقل أبى زعبل أن نحكى حقيقة ماحدث من جانب الإخوان ، وهو ماعرفته من أحداث كنت طرفا فيها ، وأحداث أخرى سمعتها من أصحابها خلسة ، أو نمت إلى علمى أثناء التحقيق المميت الذى تم فى القلعة وأبى زعبل والسجن الحربى فى خريف الموت عام ١٩٦٥ ، وإنى أروى حسب مااستقر فى وجدانى وعقلى من أحداث صحيحة .

عرفت المرحوم عبد الفتاح إسماعيل منذ عام ١٩٥٨ حيث كنت أسكن مع إبراهيم يوسف فى رقم ٩ شارع دكرنس مصر الجديدة ، ولاأذكر كيف جاءنا ، المهم أننا وجدناه فجأة معنا ، ويجتمع معنا كل يوم لبحث أحوال المسلمين وسبيل النهوض بهم ، وفى هذا المنزل اجتمع كثير ممن قدر لهم أن يشتركوا فى رسم تاريخ الحركة الإسلامية فى العصر الحديث ، ومنه خرج قادة لها فى العالم أجمع ، مصر والشام والهند والجزائر وغيرها .

وكانت وجهة نظرنا ولاتزال هى تنوير القلوب والعقول بنور الإيمان وفهم الإسلام ، وكنا نرى أن يتم هذا من خلال جمعية أو حزب أو رابطة ، وحتى يأذن القانون بهذا فعلينا أن نتجمع على شكل ما ، لاهو بالسرى ولا هو بالعلنى ، ولا ينبغى أن نتناقض مع القانون والنظام ، وإن كان التفكير نفسه يتناقض معهما . وكانت أفكارنا فى ذلك الوقت هى مزيج من حسن البنا وسيد قطب والمودودى ومالك بن نبى ، فالمسألة فى حقيقتها ذات بعد عقائدى وثقافى وحضارى .

وكانت وجهة نظر المرحوم عبد الفتاح إسماعيل تزيد على ذلك بإنشاء تنظيم حركى سرى ، وكانت فى الرجل طاقة كبيرة وروح عظيمة ويحمل فى جنبيه رسالة يرى أن لامندوحة عن أدائها فهى تؤرقه بالليل وتشغل وقته بالنهار .

ثم اختلفت السبل وصار كل يعمل بطريقته ، ولم تبق إلا روح الأخوة والتزاور .

استقر رأى الشيخ عبد الفتاح إسماعيل – رحمة الله – على إنشاء تنظيم حركى سرى من خلال تجميع الإخوان من جديد ، وكانت دوافعه واضحة ويعلنها للجميع ، وهى تغلغل الشيوعيين فى المجتمع المصرى ، وأصبحوا هم أصحاب الحظوة لدى السلطان ، وصاروا هم عمد الصحافة وسائر أجهزة الإعلام ، والمهيمنون والمسيطرون على الجامعات والمعاهد ، ومن أراد الوصول اتبع طريقهم ونهج نهجهم ، وانزوى المسلمون بعيدا ، وصارت كلمة الإسلام لاتذكر فى سائر هذه الوسائل ، وأصبح كل مسلم غيور يشعر أن الإسلام والمسلمون فى خطر ، وأن السلطان يلعب لعبة خطرة يعتقل البعض منهم ويدين الآخرين ، ويرفع لواء أحمر يلتف حوله فلول التنظيمات التى كان يظن أنها تتلاشى رغم أنها تتكاثر وتزداد فى الظلام وتحت الأرض ، والمهم هو سيادة المفاهيم (الماركسية) وغلبتها على المثقفين الجدد ، ومن يريد أن يأخذ مكانه فى المركبة الجديدة التى تجرها خيول السلطة ، وكان الشيوعيون الذين أودعوا سجن المحاريق مع الإخوان فى تلك الفترة هم غطاء الخداع الذى موهوا به على الشعب المصرى .

واستطاع الشيخ عبد الفتاح أن يجمع إليه بعض المجموعات الإخوانية التى كانت منتشره فى كل أرجاء مصر ، وتعمل بطريقة فردية متفرقة ، واعترض على أسلوبه الكثير ووافقه القليل .

وفى منتصف عام ١٩٥٩ بدأ التنظيم نشاطه بلجنة خماسية تقود العمل ، وكانت اللجنة مكونة من الشيخ عبد الفتاح إسماعيل ، وصبرى عرفة الكومى ، وأحمد عبد المجيد عبد السميع ، ومجدى عبد العزيز ، وعلى عشماوى وصار كل واحد من هؤلاء مسئولا عن قطاع موضوعى أو مكانى ، واستقرت أوضاع التنظيم وكان عدده صغيرا جدا .

أراد الشيخ عبد الفتاح إسماعيل أن يضفى على نشاطه ثوب الشرعية فذهب إلى لقاء الأستاذ محمد فريد عبد الخالق ، وعرض عليه فكرة تجميع الإخوان من جديد .

اعترض الأستاذ محمد فريد عبد الخالق على هذه الفكرة فقد كان أحد من يعلمون جمال عبد الناصر جيدا من أيام ماقبل الثورة ، وذهب إلى (المرحوم) منير دلة وقص عليه القصة وانزعج الرجل خوفا وحرصا على جماعة الإخوان من بطش عبد الناصر ، وكان الاثنان يعرفان طبيعة عبد الناصر منذ زمن بعيد .

وذهب كل من الأستاذ محمد فريد عبد الخالق والمرحوم منير دلة إلى مقابلة المرشد العام ، وعرضا عليه رأيهما وخوفهما من الضرر الذى سيلحق بأفراد الجماعة وبطش الحكومة القوى ، وأنها لن تتسامح فى معاملة أعدائها ، وتجميع الإخوان لن يفيدهم بأى حال . وفى مجتمع تحكمه الشرطة - مثل مصر - لابد أن تتسرب أنباء هذا التنظيم ، ولن يبطشوا بأفراده فقط ، بل سيشمل البطش كل من له صلة بجماعة الإخوان ، حتى الذين فى السجون سوف يلحقهم ضرر بالغ من نشأة هذا التنظيم .

وترافع كل من فريد عبد الخالق ومنير دلة بحرارة أمام المرشد العام المحددة إقامته وهما يقابلانه بصعوبة شديدة خوفا من رقابة الحكومة وطلبا منه فى إلحاح أن يستدعى عبد الفتاح إسماعيل وينهاه عن هذا .

وطمأنهما الأستاذ الهضيبى ووعدهما خيرا فانصرفا شاكرين واثقين من سلطان المرشد العام على كافة أفراد جماعة الإخوان .

وفى هذه الأثناء كان الشيخ عبد الفتاح إسماعيل يرتب لقاء مع المرشد العام عبر الحاجة زينب الغزالى التى دفعت ثمن هذا غاليا من التعذيب فى السجن الحربى فيما بعد .

وتم اللقاء وعرض فيه الشيخ عبد الفتاح وجهة نظره بحرارة بين يدى المرشد العام للإخوان المسلمين الأستاذ حسن الهضيبى ، وتكلم وقال : كيف إن البلاد تسير خطوات مسرعة نحو الإباحية

والتحلل وفساد الأخلاق وانتشار الرشوة ، ولم يعد أحد يهتم بشأن الدين أو الدنيا والحكومة تشجع على هذا ، وفقد الشباب صلتهم بدينهم ، وصاروا يتخذون المفسدين قدوة لهم ، وانعدم المثل الأعلى ، الأمر الذى يهدد دعوة الإسلام بالضياع من مصر بشكل نهائى ، وهذا أمر يدفع كل مسلم غيور على دينه على تحقيق بعض التماسك وصبغ الشباب بصبغة دينية ، وربطهم بالإسلام على نحو ما ، من خلال برامج الثقافة والتربية الإسلامية ، ولن نتعرض لنقد الحكومة ولن نعاديها ، ولن تكون هى مشكلتنا .

وكان المرشد العام صامتا طول الوقت يستمع فى هدوء إلى كلام الشيخ عبد الفتاح .

ولما رأى المرشد ينصت إليه بإمعان ألقى له بقنبلته الأخيرة :

– يافضيلة المرشد إن الشيوعيين لن يسكتوا حتى يستقيم لهم حكم مصر ، وهم يهادنون عبد الناصر تمهيدا لخلعه ، ويتولى سكرتير الحزب الشيوعى مكانه فى حكم مصر بعد تكوين جبهة من كافة الأحزاب والتجمعات الشيوعية ، وهم يسرعون الخطا فى تحقيق ذلك والطريق أمامهم ممهد ومفتوح .

وسكت قليلا ليرى تأثير كلامه على المرشد العام ، وكان الرجل صامتا جامد التعبير فقد جلس على كرسى القضاء مايقارب أربعين عاما ، فهو معتاد على سماع المرافعات ووزن الأمور بدقة ، ولما رآه الشيخ عبد الفتاح صامتا استمر فى حديثه :

– فى هذه الحالة ، لو أمسك الشيوعيون بالحكم فسوف يقومون بتصفية دموية ، ولن يكون أمام الإخوان وغيرهم من المسلمين غير الاستسلام لسكين الشيوعيين الحمراء ، وعندها لن نستطيع شيئا ، الرأى يافضيلة المرشد أن نتحد ونتجمع ونكون على استعداد لموجهة كافة الظروف التى يمكن أن تكون ، ولايجب أن نفاجأ بهذا الخطر ونحن نعرفه ونتوقعه .

ماقولك يافضيلة المرشد ؟

وسكت الرجل طويلا هذه المرة ، وكان قليل الكلام فإن نطق فكلماته توزن بميزان الذهب ، وكأنه يقارن بين ماقاله له فريد عبد الخالق ومنير دله وبين كلام الشيخ عبد الفتاح الثائر المتوهج الممتلىء حماسة وإيمانا ، وأخيرا رفع الأستاذ الهضيبى رأسه إليه ووجه له عبارة واحدة انصرف على أثرها بعد أن قبل يده :

– اسمع ياشيخ عبد الفتاح : تصرف على ضوء قرار حل جماعة الإخوان الذى أصدرته الحكومة فى يوم ما .

اعتبر الشيخ عبد الفتاح هذه العبارة التى نطق بها المرشد العام إذنا له بالعمل على المضى قدما فى التنظيم الذى يريد ، ولم يرد أن يناقشه أو أن يسأله التفسير ، أو أن يدخل معه فى تفاصيل ، فهو لايريد أن يحرجه أولا ، ويخشى أن يفسر الرجل العبارة على غير مافهمها عبد الفتاح اسماعيل .

وكان سعيدا فرحا بهذا الإذن الذى يمكن أن يستخدمه فى تجميع الإخوان .

وهو يستطيع أن يقول فى ثقة لمن يعترض :

– عندى تفويض من المرشد العام لتجميع الإخوان .

وبالتأكيد لن يلقى معارضة كبيرة فالجماعة تثق بمرشدها ، وتراه مثلا فى الصمود ، وهو حكيم صابر بعيد النظر لايرضى لجماعته أن تتقاذفها الأهواء والمحن والأنواء ، كان الشيخ عبد الفتاح عضوا فى اللجنة الخماسية ، وهو الأمير الفعلى وإن لم ينص على ذلك صراحة ، وهو الطاقة المحركة التى تجوب البلاد شرقا وغربا فى غير كلل أو ملل وهو الفقير الغنى ، التاجر الذى يهمل تجارة الدنيا من أجل تجارة تنجيه من عذاب أليم يرتدى ثوب المبشرين ، ويحمل روح الثوار ويضع على كتفيه عباءة الأنبياء . وكان لايبخل بوقته فهو كله

للتنظيم ، ولابمال فماله كله من أجل تحقيق الغاية ، وهو يسافر خارج مصر يبحث عن فلول الإخوان الهاربة يطلب منهم النصرة والمؤازرة . وكانت روحه هى التى تبعث الدماء حارة فى شرايين التنظيم ، وكان الرجل على إصرار كامل أن يصل الأمر مداه وغايته ، ويستوى فى نظره الموت والحياة ، والشهادة أحب إليه من النصر وكان يردد هذا دائما .

كان غاية ما يمكن أن يقدمه المرشد العام هى تلك العبارة التى قالها له ، والرجل شيخ فانٍ مريض محاط بالأرصاد والعيون والاتصال به يكاد أن يكون ضربا من المحال فى دولة قد جعلت التجسس هو شعارها ودينها ، وكان الشيخ عبد الفتاح حريصا على عدم إشراك المرشد فى أكثر مما قاله له ، وهناك الحرس القديم من أعضاء مكتب الإرشاد الذين أفرجوا عنهم وخرجوا من السجون وهم لايعتمدون هذه الخطة ، ولايمكنهم مراجعة المرشد فى كافة التفاصيل ، وكانت قضية التنظيم تشغل بال الشيخ فى ليله ونهاره .

– وفكر فى أن يضع اسما لامعا وشخصية كبيرة على رأس التنظيم ، شخصية جديدة لم تجرب السوط أو نهش الكلاب فى ساحة السجن الحربى ، شخصية تبعث الدماء حارة مرة أخرى حتى يأذن الله بفرج ، ويتسلم الأمر أصحابه .

وطرحت عليه الحاجة زينب الغزالى : اسم عبد العزيز على .

وعبد العزيز على أحد أبطال ثورة ١٩١٩ ، وكان عضوا فى الحزب الوطنى القديم واختير وزيرا فى أول وزارة فى عهد الثورة ، ثم أرسلوه إلى البيت مع من أرسلوهم .

وفى منزل الحاجة زينب : التقى عبد الفتاح إسماعيل الشاب المتدفق قوة وحماسة بعبد العزيز على فى سنه الكبيرة وتؤدته البالغة ، وتكلما وتفاهما ، وانتقلت حماسة الشاب إلى الشيخ ، وأعلن موافقته الكاملة

على كافة أفكار عبد الفتاح إسماعيل المدرب الحذر الذى وهب من الله حاسة تنظيم الجماعات وتدريبها وقيادتها .

وطلب عبد العزيز على كشفا بأفراد التنظيم ، واستيقظت حاسة الحذر فى نفس عبد الفتاح اسماعيل وقال :

– هم مجرد مجموعة لاتتخطى أصابع اليدين ، نحن فى دور التكوين ، ولكنى أعرض طائفة منهم إن شاء الله .

وجاءه ببعض أفراد اللجنة الخماسية فى بيت زينب الغزالى . وهو أمر جعلها محور كل سؤال فى التحقيقات بعد ذلك .

وتكلموا بعد أن تعارفوا ، وقدمه الشيخ عبد الفتاح على أنه رئيس التنظيم الجديد ، وسوف نناقش طريقة الاتصال به ، وعلينا عرض كل شىء عليه وأن ننفذ أوامره دون إبطاء ، وأمن الجالسون على كلامه .

كانت فكرة عبد الفتاح إسماعيل أن يكون عبد العزيز على فى مقام من يملك ولا يحكم ، يصير رئيسا شرفيا للتنظيم ، واجهة عاقلة ، وربما يوحى للناس أن هذا قد تم برأى المرشد ومشورته .

وفى اجتماع بعد ذلك ألقى عليهم عبد العزيز على محاضرة طويلة عن فساد الحكومة وبين أن سر فسادها يكمن فى رئيسها عبد الناصر ، وأن الرأى هو التخلص منه بالقتل ، وتلفت أعضاء اللجنة إلى بعضهم ، وأيد وجهة نظره واحد فى حماسة شديدة هو على عشماوى .

وسأله عبد الفتاح اسماعيل :

– وكيف يتم قتل عبد الناصر ؟

وأجاب عبد العزيز على :

– بالسم !

وتعجب الحاضرون وواصل عبد الفتاح إسماعيل حديثه :

– وكيف يتم قتله بالسم ؟

– لابد من تدبير لهذا .
– وكيف يكون هذا التدبير ؟ وكيف نوصل السم إلى طعامه ؟
– هذا أمر يحتاج إلى تدبير وتفكير .
– وبعد قتله ؟
– قتله هو غاية فى حد ذاتها .

وانصرفوا إلى اجتماع آخر فى نفس المكان ، منزل الحاجة زينب الغزالى .

وفى هذا الاجتماع أشار عبد العزيز على أن عنده من المعلومات مايدل على أن هناك تنظيما كبيرا وهو يصر على معرفة كافة أفراده ، وأكد عبد الفتاح اسماعيل أن هذا غير صحيح ، واستسخفوا فكرة قتله والطريقة التى اقترحها ، وكان قد اقترح سبعة من معاونى عبد الناصر . وسأله عبد الفتاح إسماعيل عن هؤلاء السبعة من يكونون ، فقال عبد العزيز على :

سوف نحددهم بعناية فائقة .

وكان هذا الاجتماع هو آخر اجتماع بينه وبينهم .

واستقر رأى اللجنة الخماسية على تفويض عبد الفتاح اسماعيل على اختيار رجل له مايؤهله أن يكون على رأس التنظيم .

وصارت هذه الحكاية هى قضية الرجل .

وكان رحمة الله متوقد الذهن عظيم الحماس ، وهداه تفكيره إلى صاحب (فى ظلال القرآن) الشهيد سيد قطب ، ولكنه فى السجن يقضى فترة العقوبة ، واستطاع ببراعته الفائقة أن يصل إليه ، وكان هذا وقتها يعد ضربا من المحال .

وكان العلامة سيد قطب قد وهب نفسه لتفسير القرآن والحياة فى جوه وصوره وأخيلته وإيحاءاته وقد زادته مرارة السجن حرارة ،

وألهبت روحه أشواق الآخرة فهو رجل مريض زكى القلب ثاقب النظرة إلى مافى القرآن من معان خفية وإشارات لطيفة ، وليس أمامه غير ماوضعوه فيه يتعلم ويعلم فى صبر وأناة وثقة من صحة الطريق الذى يسير فيه ، ليس عنده مايخفيه فهو بين أنياب الأسد حقيقة لامجازا . وهو فى قبضة حاكم شرس لايقبل غيره على الساحة .

وطلب منه الشيخ عبد الفتاح أن يكون أبا روحيا لجماعة من الإخوان فى خارج السجن تريد مايصحح مفاهيمها ، ويهديها إلى الصراط المستقيم ، وأنهم يتوسمون فيه هذه القدرة . ورحب الرجل بما قاله عبد الفتاح إسماعيل ، وصارت كتاباته تأخذ طريقها إلى التنظيم تهريبا من السجن قبل أن تذهب إلى المطبعة ، وأخذت أفكار (الشهيد) سيد قطب طريقها إلى تنظيم الإخوان الرسمى لأول مرة ، حتى صارت بعد ذلك الطابع الأساسى لفكر الإخوان المسلمين .

وأفرج عن (الشهيد) سيد قطب هو وزميل الزنزانة الشهيد محمد يوسف هواش بتدخل من الرئيس عبد السلام عارف لدى عبد الناصر ، وكانت نواة التنظيم قد تكونت وهى لاتعدو مجموعات صغيرة تعكف على قراءة كتب سيد قطب ، وأبى الأعلى المودودى ، ومنهجا بسيطا فى الفقه الإسلامى .

وكانت مهمة عبد الفتاح إسماعيل كبيرة وشاقة ، فهو أمام تيار يحاول تجنبه وحماية التنظيم منه وهو يتمثل فى حرس الإخوان القديم فريد عبد الخالق ، ومنير دلة ، وصالح أبو رقيق ، وعبد القادر حلمى المستشار ، وهم الذين يعملون كل حساب للعواقب ، ويريدون تجنب المشكلات ، ولهم فى نفس الوقت النفوذ العظيم على نفوس الإخوان ليس فى مصر وحدها ، بل فى كل مكان ترتفع فيه عبارة « الله اكبر ولله الحمد » . وعليه فى نفس الوقت أن

يجذب أكبر عدد من شباب الإخوان إلى التنظيم ، ذلك دون أن يعرفوا شيئا عن طبيعة القيادة ومدى الاختلاف حول جدواه من عدمه ، وهى مهمة ليست باليسيرة ، وعليه أيضا أن يضم أفرادا جددا إلى التنظيم لم تكن لهم علاقة بجماعة الإخوان من قبل ، وجماعة الإخوان جماعة غريبة عجيبة فى تقاليدها غير المعلنة والتى أملتها عليها الظروف والحوادث ، فلا ينضم إليها جدد إلا فى الحوادث والملمات ، ثم تبقى بعد ذلك مغلقة على نفسها لاتقبل جديدا فى صفوفها ولايتم هذا إلا مع تغير الأزمنة وعلاماتها .

ويجب على عبد الفتاح اسماعيل أن يصنع نظام أمن محكم لحماية الأفراد من أعين الشرطة الساهرة على أمن الدولة وشخص الزعيم ، وتحمل الرجل كل هذه المهام صابرا دءوبا . وفى سفريات عبد الفتاح إسماعيل إلى خارج مصر التقى بكثير من الإخوان الهاربين من مصر ، وهؤلاء كانت لهم آراؤهم المختلفة وكانت آفاقهم أوسع وأكثر رحابة ، وأكدوا عليه ضرورة المال والسلاح ليتمكنوا يوما من الدفاع عن أنفسهم ، فالروس قادمون لامحالة ، وسوف يأتى اليوم الذى ينبغى عليهم الحرب والقتال من أجل الحفاظ على استقلال مصر وعروبتها وإسلامها ، ولكنها خطوة سابقة لأوانها ، وربما يأتى وقتها يوما .

ولم تكن فكرة الانقلاب وتغيير نظام الحكم بالقوة تداعب خيال أحد ، وكانت غاية مايرجونه هو إعداد المسلم الإعداد الصحيح ليتحمل أعباء سوف يتعين عليه حملها يوما .

وبحكم طبيعة المجتمع المصرى فالمراقب يجد أن حيازة السلاح أمر طبيعى وعادى وعلى الأخص فى القرى والكفور والنجوع ، وكان من الطبيعى أن تتواجد بعض قطع السلاح فى حيازة بعض الأفراد ، وعلى وجه التحديد من أولئك الذين يسكنون الأماكن البعيدة عن القاهرة ، والذين يعملون فى بعض المهن

الخاصة مثل التجارة والزراعة ، أما طبقة المثقفين وكبار المتعلمين الحاصلين على الشهادات العلمية العالية ، فلم يثبت أن أحداً قد فكر في هذا ، ولايمكن اعتبار أفكار بعض المغامرين الحالمين فى الإعداد العسكرى لعدد أقل من الخمسين معياراً أو أساساً للحكم على السياسة العامة للتنظيم .

وليس دفاعا عن تنظيم عبد الفتاح إسماعيل ، ولكنه تحليل للوقائع من منظور رؤيا واضحة ، بعد أن شاهدنا وعاينا كل شيء وكل ماضبط من سلاح فى حوزة أعضاء التنظيم أقل مما هو موجود فى حيازة إقطاعى صغير لاتتجاوز أرضه الخمسين فدانا من الأرض المزروعة .

وكانت هناك عروض جدية من بعض المغامرين المقيمين فى السعودية فى توريد سلاح لم تعرف طبيعته أو كميته عن طريق بلدة « دراو » فى الصعيد ، وطلب تأجيل هذا لأن الاستفادة منه غير واردة فى تلك الأيام على الأقل ، وربما يكون ذا فائدة عندما يحدث غزو سوفيتى أو يتقلد الشيوعيون مقاليد الحكم ففى هذه الحالة فقط يكون للإخوان وسائر أفراد الشعب الحق الشرعى للدفاعى عن النفس .

وسارت الأمور فى منوال واحد ، أسر إخوانية ، يجتمعون ، يقرءون القرآن والمأثورات ، يحفظون بعض الأحاديث النبوية ، وكتب سيد قطب التى تأتى من المطبعة أو قبل أن تذهب إليها .

أتى عام ١٩٦٥ بعد نكسات عسكرية وسياسية مريرة منيت بها حكومة عبد الناصر وتردد أن هؤلاء الناس لايصلحون للحكم ، وزادت سخرية الشعب منهم ، وأطلقوا النكات عليهم فى كل مكان ، فحرب اليمن قد ألبت العالم جميعه ضد مصر ، هذا عوض عن الهزيمة العسكرية النكراء هناك ، ولم ينجحوا إلا فى حرق

القرى وحصد الأهالى بالرشاشات من الطائرات ، ولاتقدم يذكر على الجبهة هناك ، وهناك من المصريين من رفض القتال ، وسمعت الشيخ عبد الفتاح إسماعيل يفتى مرة بأن الذى لا يمتنع عند تنفيذ الأوامر الصادرة إليه فى قتل المسلمين ، وينفذها فإنه يموت على الكفر ، ومن يمتنع عن تنفيذها ويحاكم ويعدم فإنه يموت على الإيمان وإعدامه شهادة ، وكان هناك من يمتنع ، وكان هناك من يقدم إلى المحاكمة ، وكان هناك من أعدم .

وخسرت مصر فى هذه الحرب الكثير من الأموال ، ولعلها قد خسرت جميع الاحتياطى الذى صنعته أسرة محمد على ، وكانت تكاليف الحرب فى اليوم الواحد تزيد عن مليون جنيه استرلينى ، وباعوا رصيد الذهب ، وبدأ طبع النقود ربما للمرة الأولى فى تاريخ مصر دون غطاء ذهبى ، هذا عدا الخسائر الكبيرة فى الأرواح وقد حاولوا كتمانها فى أول الأمر ، ثم طفح الكيل وزاد عدد القتلى ، وعرفت مصر كلها بحجم الهزيمة النكراء فى تلك الحرب التى ليس لأحد فيها « ناقة ولاجمل » .

وزاد الطين بلة أن الحكومة كانت تدفع مبالغ مالية كبيرة للضابط كمكافآت ومرتبات للضباط والجنود ، وكانت طائرات التموين تصنع جسرا جويا بين مطار القاهرة ومدن اليمن تحمل الخضروات والفواكه والبقول وحتى الخبز ، وزاد الطلب على السلع بعد ازدياد النقود فى أيدى الناس ، وارتفعت الأسعار ارتفاعا جنونيا ، وجاءت أزمة الأرز وهو غذاء يعتمد عليه المصريون اعتمادا أساسيا ، واستغل عبد الناصر الأزمة فى الإطاحة بحكومة زكريا محيى الدين .

وكانت حكومة مصر آنذاك تعتمد اعتمادا كبيرا على سمعتها بين شعب يخشاها ويهابها ويعمل لها ألف حساب ، فهى حكومة تكره مواطنيها ، ومواطنوها يلعنونها فى صباحهم ومسائهم . وكانت النكت تسير بين الإسكندرية وأسوان ربما فى أقل من نهار واحد .

وكان لابد من عمل مايرد الناس إلى صوابها بعد أن صاروا يرددون (النكت) على رئيس الدولة والنظام بشكل عام ، وعن قائد الجيش الذى يجتمع بقواده لاليتدارسوا الخطط العسكرية ولكن ليدخنوا الحشيش فى جو من (السلطنة) والانسجام ، وربما يأتون بأحد النجامين والعرافين ليقرأ لهم الطالع ويخبرهم عن الحرب الدائرة فى جبال اليمن وأى القوات يحركون .

وتأديب الشعب يأتى من خلال تأديب الإخوان .

ووزعت المنشورات فى البلاد ، كتبها وطبعها الشيوعيون ومهروها بتوقيع الإخوان المسلمين ، وظهرت فى الأفق نذر الشر والخطر .

هل تم اتفاق بين الحكومة وبين الشيوعيين على هذا ، أم أن الشيوعيين أرادوا أن ينبهوا إلى الثارات القديمة ، وكأنهم يقولون هؤلاء هم كبش الفداء الذى أعدته الطبيعة الرحيمة لكم .

فى تلك الأثناء كان الإخوان المسلمون يأخذون مآخذ شتى فى النشاط ، وخرج جماعة من الإخوان القدامى ، لم يعجبهم موقف الحرس القديم ، ولم يوافقوا أيضا على خطة الحرس الجديد ، وقالوا نخرج فى سبيل الله مثل ماتفعل جماعة التبليغ فى الهند .

وظهر زعيم جديد هو الحاج فريد العراقى زعيم جماعة التبليغ المصرية ، والإخوانى السابق ، وسار على طريقة حسن البنا من خلال جماعة التبليغ ، فهو يجوب البلاد شرقا وغربا ومعه التلاميذ وكانت أكثرية من انضموا إليه من أفراد الجماعة الذين يريدون النجاة بأنفسهم من تلك المدلهمة .

واكتظت جماعة التبليغ بأفراد الإخوان القدامى ، وذهب الحرس القديم إلى الحاج فريد عراقى يثنونه عن هذا النشاط فقال لهم :

– أنا لا أفعل شيئا على الإطلاق فى الخفاء ، ولاأستطيع النكوص ، فأنا رجل صاحب تاريخ قديم ولاأستطيع التنصل منه .

وردد الناس فى كل مكان أن جماعة الإخوان قد عادت إلى الظهور من جديد ، وبذل تنظيم الشيخ عبد الفتاح جهده لجذب شباب التبليغ إلى صفوفه . وكان العكس يحدث ، وصار شد وجذب بين الفريقين ، مع تصاعد الشائعات .

وكان هناك رجل اسمه زغلول عبد الرحمن يعمل ملحقا عسكريا بسفارة مصر فى لبنان ، وعندما عرضت سوريا شكواها على مجلس الجامعة العربية فى شتورة عام ١٩٦٢ عن جرائم الحكم المصرى التى وقعت فى حق الشعب السورى أيام الوحدة ، تقدم زغلول عبد الرحمن إلى المؤتمر ، وقدم للمؤتمرين كل الوثائق التى تؤيد كلام السوريين ، وتدين النظام المصرى فى جرائم تجسس وتخريب واغتيال ضد جميع دول المنطقة ، ومن المناسب أن نذكر أن زغلول عبد الرحمن هذا من رجال الصف الأول للثورة ، ولاأطيل فقصة الرجل معروفة ، فقد طلب حق اللجوء السياسى إلى سوريا (وتلطم) فى بلاد الدنيا ، ثم جاءوا به فى صندوق كما سمعنا وكان ذلك فى عام ١٩٦٥ وقدم إلى المحاكمة ، بعد تحقيق تخلله تعذيب نعرفه ، وتكلم عن نشاط الإخوان المسلمين فى أوروبا وأنها جماعة كبيرة ينبغى أن يعمل لها ألف حساب .

لفقت المخابرات المصرية قضية تخابر لمصطفى أمين ، واعتمدت فى هذا التلفيق على أحاديث دارت بين الملحق الدبلوماسى الأمريكى وبين الكاتب الكبير وسجلت هذه الأحاديث ، ومما دار فى هذه الأحاديث سؤال من الدبلوماسى الأمريكى حول وضع جماعة الإخوان المسلمين فى مصر ، الأمر الذى يبرر أهمية هذه الجماعة واهتمام الساسة بأخبارها ونشاطها .

وسمعنا أن الكاتب الكبير مصطفى أمين قال مامعناه إن الإخوان المسلمين يتطلعون للتعاون مع كمال الدين حسين الذى كان من رجالهم يوما ، وهو أحد أعضاء حكومة الثورة والذى أخرجه عبد الناصر من الحكم لاعتراضه على اشتراك مصر بقواتها فى قتل الشعب اليمنى على نحو ماقيل فى تلك الأيام .

وسمعنا أن المخابرات السوفيتية التى تقدم النصح دائما للحكومة المصرية والأجهزة التابعة لها ، أنها قد تقدمت بنصيحة ، تقترح فيها النظر بعين الاعتبار إلى نشاط الإخوان المتزايد فى سائر أنحاء البلاد .

كان قد زارنى أحد الأصدقاء فى شهر ابريل أو مايو من عام ١٩٦٥ وله قريب يعمل فى المخابرات المصرية ، وقال لى :

– إن الحكومة قد قررت أن تؤدب الشعب .

وقلت له :

– أكثر من هذا الأدب ؟

فقال :

– لقد كثر اللغط وضاعت هيبة الحكومة ، فهى تريد أن تؤدبه أدبا لا ينساه ، وسيتم هذا فى شخص جماعة الإخوان المسلمين ، وسوف يتم هذا فى خلال شهرين أو ثلاثة .

قصة طريفة مسرحها قرية (سنفا) مركز ميت غمر دقهلية .

كان يعيش فيها شاب طيب متوسط الحال يعمل مدرسا فى إحدى المدارس الابتدائية هناك اسمه (سالم شاهين) ، ولهذا الشاب شقيق يعمل صولا بالقوات المسلحة ، وخدم فى الحملة التى جردتها الحكومة لتأديب شعب اليمن الشقيق ، ومن هناك كان يأتى بالهدايا والطرائف والعجائب ، فيتحف أخاه سالما بها ، وكان سالم يفرح كثيرا بهذه الهدايا ، ويريها لإصداقائه وكل من يلقاه ممن

يعرفهم ، ويراها أشياء عجيبة جدا مهما كانت ، لأنه لم يغادر القرية على الإطلاق بعد أن تخرج من مدرسة المعلمين ونال كفاءة التعليم من المركز ، وعاد إلى القرية ليخلد فيها حتى يأتيه الموت .

وكان مما جاء به شقيقه من العجائب واللطائف « قنبلتين » للصوت ، أوصى شقيقه أن يحتفظ بهما حتى يأتى يوم زفاف فيطلقهما ، ومن ثم يدخل البهجة على النفوس من أهله وأصحابه .

واحتفظ سالم بالقنبلتين فى زاوية من زوايا المنزل ، وعاد أخوه عبد اللطيف إلى اليمن ليأتى منها بالمزيد .

وكان سالم شغوفا بالتدخين ، ولايساعده راتبه الصغير فى تحقيق هذه المتعة بشكل يرضيه ، فكان يستدين حتى يحققها ، وهكذا ظل عليه دين مكسور دائما ، فهو يؤجله كل شهر .

وكان يشترى الدخان من محل بقالة صاحبه رجل طيب مسلم اسمه : (يوسف القرش) وتراكمت الديون على سالم ، وصار يحاول سدادها فى أقساط حتى تبقى عليه سبعة وتسعون قرشا ونصف (حسب ماجاء فى المحاضر الرسمية) .

وصار سالم يماطل يوسف ، وكل يوم يقول له فى الغد أعطيك ، ويأتى الغد ولايعطيه شيئا ، وامتنع يوسف عن بيع الدخان له بالأجل ، وسالم لا يستطيع الاستغناء عن التدخين ،وراودته فكرة رأى أنها ربما تخلصه من الدين ، وربما يحصل من خلالها على مزيد من الدخان .

واسرع سالم شاهين إلى محل يوسف القرش ودار بينهما الحديث التالى :

– اسمع يايوسف . هل تريد أن أبيعك شيئا بدلا من الدين الذى علىَّ ؟

– وماهو ؟

– قنبلتين .

- وتوتر يوسف القرش وانتبه :

- ماذا تقول : قنبلتين ؟ !

- نعم . قد أتى بهما أخى عبد اللطيف من اليمن ، ويقول إنهما تحدثان صوتا عظيما ولاتقتلان أحدا ولاتجرحانه ، هه ، ماذا قلت ؟ .

- أراهما أولا .

- أعطنى إذن سيجارة حتى أعود .

- لو أعجبتنى القنابل أعطيتك السجائر .

وأسرع سالم شاهين إلى منزله وجاء بالقنبلتين ، وفى طريق العودة إلى محل يوسف القرش صار يشرح لكل من يقابله مزايا القنبلتين ، وماذا تصنعان عندما يفجرهما ، وأنه ذاهب ليوسف القرش ليعطيهما له بدلا من الدين ويعلق ساخرا لمن يتفرج على القنابل :

- أهبل وعبيط ، ماذا سيفعل بهما ؟

وقبل أن يصل إلى محل يوسف القرش كانت القرية كلها قد علمت بالقصة . وكان نجل العمدة فى القرية على خلاف مع يوسف القرش ، ورغم هذا فهو لايقدر على مقاطعته لأنه البقال الوحيد فى القرية ، وأرسل خادمه ليشترى له أربع ورقات « معسل » وتأخر الخادم ولما عاد عنفه سيده ، فاعتذر له بأن سبب التأخير أنه وقف يتفرج على القنابل عند الدكان ، وحكى له كيف ساهم يوسف فى ثمنها وأخذها بدلا من السبعة والتسعين قرشا ونصف وزاد عليها سيجارة واحدة .

ووجد نجل العمدة الفرصة قد سنحت للانتقام من يوسف القرش فأسرع إلى كاتب عمومى متخصص ليكتب بلاغا باسم رئيس المدينة نكاية فى يوسف .

ومن عجيب الصدف أن هذا البلاغ وصل إلى رئيس المدينة فى اللحظة التى كان يزوره فيها واحد من أساطين المباحث الجنائية

العسكرية وكانا صديقين فكل رؤساء المدن فى تلك الأيام ، ولعل هذا حتى الآن ، من حرس الثورة إما اشتركوا فيها ، أو يقومون على أمنها .

وقرأ رئيس المدينة البلاغ وضحك عاليا ، وقال له صديقه من المباحث الجنائية العسكرية :

- ماذا يضحكك ؟

ورد عليه رئيس المدينة وهو مايزال يضحك :

- واحد كاتب بلاغ يقول فيه : إن فيه بقال بقرية سنفا بيتاجر فى قنابل ، تصور ، زى ماتكون قوطة .

وضحك الاثنان ، بينما أخذ القصة ضابط المباحث الجنائية العسكرية مأخذاً جاداً .

وفى هذه الليلة السوداء كان يوسف القرش معلقا والسياط تنوشه من كل جانب يسألونه عن الإخوان والسلاح والتمويل والتنظيم ، وجاءوا بسالم شاهين ، ومن اليمن طيروا عبد اللطيف شاهين ، ودارت رحا العذاب هائلة قاسية مروعة وكان ذلك فى قصر عابدين ، حيث مبنى المباحث الجنائية العسكرية .

وأشرف يوسف القرش على الموت من الضرب بالسياط .

وقد قدر لى أن أراه بعد ذلك بشهور فكأنه قد ضرب منذ ساعة فقط ، كانت جروحه رطبة طازجة مازالت على حالها الأول .

فى الحقيقة قد بدأت مأساة الإخوان بضرب يوسف القرش فى قصر عابدين حيث كان يقيم الخديو إسماعيل رحمة الله وطيب ثراه هو وآباؤه وأبناؤه الكرام البررة ، إذا قارنا طغيانهم وطغيان من جاءوا بعدهم .

وعندما يجتاز المضروب حاجز الألم فهو يقول مايفهم ومالا يفهم ، كانوا يسألونه عن الإخوان وصلته بهم ، ومن يعرفه منهم ، والرجل لايعرف كيف يجيب ولايدرك الطريقة التى يخرج بها سالما من هذا الجحيم ، وأثناء الضرب ذكر اسما كان الخيط لكل شىء .

حبيب عثمان صاحب ورشة ميكانيكية بالقاهرة .

وماكان يوسف القرش يعلم شيئا عن حبيب عثمان ووضعه فى التنظيم الجديد ، وماكان يعرف أن هناك تنظيما جديدا ، ولكنها الأقدار تجرى على الناس بما تشاء .

كان حبيب عثمان عضوا فى أسرة يرأسها مصطفى الخضيرى الذى يتبع مباشرة لعلى عشماوى عضو اللجنة الخماسية ، ومسئوليته الموضوعية والمكانية كانت السلاح والقاهرة ، وكان قد تم تقليده المنصب منذ أيام بناء على اقتراحه .

فى صيف عام ١٩٦٥ كان الشهيد سيد قطب يجتاز خطواته الأولى نحو الحرية ، بعد أن أفرجوا عنه بوساطة عبد السلام عارف رئيس العراق ، فهو حديث عهد بكل شىء فى مصر ، بدءاً من الحكومة وانتهاء إلى التنظيم الذى أعده عبد الفتاح إسماعيل الشهيد ، وكان قد بدأ يعرفه على التنظيم وأعضائه ، والرجل محاط بالعيون وبالجواسيس واللقاء معه صعب جدا ، فهو يحتاج إلى تدبير دقيق .

وابتداء من يوم ٢١ / ٧ / ١٩٦٥ بدأت الاعتقالات الفردية تنفيذا للخطة التى تقضى بتأديب الشعب فى شخص الإخوان ، ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى تفعل فيها الحكومة ذلك ، فقد قبضت على عينات من الإخوان عدة مرات للتأديب والزجر فى مناسبات الهزائم والنكسات مثل ماحدث عقب انفصال سوريا .

ولم يكن تنظيم الشهيد عبد الفتاح إسماعيل معدا لشىء من القتال والحرب ، ولم يفكروا تفكيرا جديا فى الإعداد لذلك ، كل ماكان يشغلهم هو التربية والتعليم وتصحيح العقيدة فى رءوس المندرجين فيه .

وتزايدت أرقام المعتقلين ، وشعرت اللجنة الخماسية بالذعر ، كان أمرهم قد كشف .

وأسرع على عشماوى وهو شخصية عجيبة غريبة عليها مائة علامة استفهام إلى مقابلة سيد قطب وكان فى رأس البر ، وحكى له فى ذعر كيف أن الحكومة تقبض على الإخوان المسلمين وقد قبضوا على بعض أفراد التنظيم فما العمل ؟

– سوف يأتى دور كل واحد من أعضاء التنظيم ويجب أن تعطينا الإذن فى المقاومة والتصدى فأنت تعرف ماذا ينتظرنا فى المعتقل .

وقال له الشهيد سيد قطب :

– وهل لديكم القوة اللازمة لهذا ؟

وفى تأكيد وفخر وتيه قال على عشماوى :

– عندنا قوات وأسلحة تصمد أمام الجيش .

ولعل الرجل قد امتلأ دهشة مما سمع ، فهو حديث عهد ولايعرف التفاصيل .

وانبرى على عشماوى فى حماسة :

– لايجب أن نستسلم كالدجاج لهؤلاء الكفرة المفسدين فى الوقت الذى نستطيع فيه التغلب عليهم ، ولعلها فرصة ساقها الله إلينا للانتقام لمصر والمسلمين ولكل الشهداء ، استطيع تأمين عملية اغتيال جمال عبد الناصر ، وعبد الحكيم عامر ، وعلى صبرى ، وزكريا محيى الدين ، وستهدأ الأمور بعد قتل هؤلاء الكلاب هذه

هى الطريقة الوحيدة للخلاص من وحشيتهم ، فأنت لاتدرى ماذا يفعلون بالمعتقلين الآن .

ولعل الشهيد سيد قطب قد تذكر فى هذه اللحظة التعذيب الوحشى الذى وقع على الإخوان عام ١٩٥٤ ، وكيف حدث له شخصيا عندما مثل أمام محكمة جمال سالم وقميصه قد التصق بجسده من كثرة الدماء التى نزفت منه وهو المريض ، وكانت تهمته أنه رفض أن يكون وزيرا فى وزارة عبد الناصر ، وأذن الرجل مستسلما لعلى عشماوى بالتصرف لحقن دماء كثيرة .

كانت هذه المقابلة فى ١٩ / ٨ / ١٩٦٥ .

وكان التعذيب قد أتى على أسماء الهيكل الرئيسى للتنظيم على وجه التقريب .

وخرج على عشماوى من عند الشهيد سيد قطب ، وصار يمر على عجلة من أمره بمجموعة من شباب التنظيم كلهم من المهندسين والأطباء ، وكانت هذه هى النسبة الغالبة ، وكان فى يده مسدس صغير ليس به طلقات ، وكل من مر عليه وأراه هذا المسدس النادر فى نوعه ، اعتبر وقد درب على السلاح ، وكان التدريب كما سمعت ممن دربوا لايعدو أن يمسكوا بالمسدس بأيديهم ويقلبوه أمام أعينهم .

واعتبرت النيابة كل من فعل هذا أنه قد تدرب على سلاح تمهيدا لقلب نظام الحكم ، وأيدت ذلك المحكمة ومنحت كل حالة من هذه عددا من السنين يتراوح بين الخمس عشرة والخمس والعشرين مع الشغل الشاق ، وكان ذلك بعد انتهاء العذاب .

ومن طرائف مايروى أن على عشماوى قد زار ثلاثة من أفراد التنظيم وذهب واحد لصنع الشاى ، ولم يبصر المسدس ، وقد شهد بهذا على عشماوى وكان كلامه مصدقا لايشك فيه ، وحكم على

الاثنين بالأشغال الشاقة المؤبدة ، ومن ذهب ليصنع الشاى كان نصيبه سبع سنوات فقط لأنه لم ير المسدس ولم يقلبه بين يديه !

فى ذلك الوقت سألوا الشهيد سيد قطب عمن يحب أن يخلفه فى رئاسة التنظيم فى حالة أن يصيبه مكروه فاقترح عليهم الشهيد محمد يوسف هواش ، وذهب الشهيد رفعت بكر شافع[1] مع خالته المجاهدة حميدة قطب إلى لقاء هواش أمام كازينو الحمام فى الجيزة ، وطلبا منه أن يأتى للقاء سيد قطب ، واعتذر الرجل لأنه مراقب من رجال المباحث ، ودفع يوسف هواش حياته على حبل المشنقة ، وقيل إن طبيب السجن قد ذبحه بعد الشنق لأنه ظل حيا وكان يمكن أن يعيش ، فعلوا به هذا ثمنا لاختياره خليفة للشهيد سيد قطب فى رئاسة تنظيم لايعرف عنه شيئا ، ولم يلتق بأحد من أفراده إلا فى التحقيق أثناء التعذيب !

لم يأت يوم ٢٣ / ٨ / ١٩٦٥ حتى تم القبض على معظم أعضاء التنظيم على وجه الحصر باستثناء يحيى حسين الذى تمكن من الهرب فى نفس اليوم ، واعتقلوا زوجته بدلا منه ، وقد تمت هذه الاعتقالات نتيجة لاعترافات على عشماوى صاحب الذاكرة القوية الخارقة والخيال البديع ، وهو يعلم كل شىء ، واعترف والويل لمن ذكر اسمه على لسان صاحبنا هذا ، فهو فى هذه الحالة لا يفيده إنكار ، وعليه أن يعترف اعترافات تتطابق مع ماقاله على عشماوى .

وإن أمسكت بأوراق الادعاء التى تقدمت بها النيابة ضد المتهمين ورفعت منها ماذكره على عشماوى عن المتهم ، أى واحد منهم ، فلن تجد اعتراف المتهم نفسه يرقى إلى مستوى الجريمة ، حتى بمقاييس المباحث العامة والمباحث الجنائية العسكرية .

---

(١) مات من التعذيب فى السجن الحربى فى الأيام الأولى من سبتمبر سنة ١٩٦٥ (ربما يوم سبعة) .

تكفل على عشماوى - على حسب زعمه وشطحات خياله - بقتل جمال عبد الناصر والقائمة التى ذكرها للشهيد سيد قطب ولكنه أضاف إليها اسماء بعد ذلك منها العقيد شمس بدران ، وكان ينوى أن يقوم بهذه الاغتيالات بذلك المسدس الذى درب عليه أعضاء التنظيم وطاقته ست رصاصات ، يعنى لكل واحد رصاصة بشريطة أن يصوب على بعد عشرة أمتار على الأكثر ويقف عبد الناصر ، وزكريا ، وعلى صبرى والمشير ، وشمس بدران ، وظهورهم مسندة إلى الحائط وهناك علامة كبيرة تبين موضع القلب وأن يجيد على عشماوى التصويب ، وقال إنه اختار الشهيد فاروق المنشاوى ليساعده فى هذه المهمة ، وقد ذبحوا فاروق بعدها فى السجن بمعرفة مسجون محترف القتل والإجرام .

وكانت هذه هى قصة تنظيم الإخوان عام ١٩٦٥ باختصار شديد .

الفصل الخامس عشر

صحافة تلك الأيام

كنا هذه الأيام الثقيلة نعيش خلف العالم ، وكانت ثقة المعتقلين فى الله سبحانه وتعالى كبيرة ، وأملهم فى رحمته غير محدود ، وكانت هناك تساؤلات بين الحين والآخر تدور همسا أو علنا .

ترى ماذا يقول الناس عنا خارج الأسوار ؟

ماهو موقف الصحافة ورجال القانون والنقابات المختلفة ؟

ترى ماهو موقف مجلس الأمة ؟

وماذا يقول الوزراء والكبراء لرئيس الدولة حول هؤلاء الذين يقتلون فى السجون بلا رحمة ، ولا يوجد لهم شفيع يطاع ، أو يخفف عنهم شيئا ؟ .

وكانت التساؤلات بيننا عن « **الصحافة والصحفيين** » أكبر ، فقد كان الظن أنهم يستطيعون شيئا ، يؤلبون الرأى العام ، يطرحون تساؤلات عن حقيقة التهم المنسوبة لهؤلاء ، يكتبون ، يتكلمون ، يفعلون شيئا .

وقلت لمن دار بينى وبينه حديث حول (**الصحافة والصحفيين**) وعن واجبهم حيالنا :

– لعلك لم تنس ما حدث لكبير الصحفيين فى الأمس القريب .

– تقصد **مصطفى أمين** ؟

– بالضبط . هو من أقصد .

وكأنما تذكر صديقى شيئا غاب عنه ، وغرق فى أفكاره يائسا حزينا وقال :

- إن كان الصحفيون لم يتحركوا لاعتقال كبيرهم وإهانته وسجنه وفضحه على رءوس الأشهاد ، فهم بلا ريب لن يفكروا فى أمثالنا أبدا .

وتذكرت كيف غضب عظيم الدولة على الصحفى الكبير ، وكيف أودعوه السجن ، وقالوا هو جاسوس ، ثم جمعوا الصحفيين فى قاعة محكمة الغلق ، وجاءهم أحد (الصولات) من المخابرات ومعه جهاز تسجيل ، وأداره ، فسمع كل من بالقاعة أحاديث غير واضحة المدلول ، غريبة الصوت والنبرة ، وأرغموهم على الجلوس لساعات طويلة ، يسمعون ولا يفهمون ، وفى آخر الجلسة بدت على وجوههم الحيرة الممتزجة بالرعب والخوف .

وقال حضرة الصول :

- واضح من التسجيلات التى سمعتموها الآن أنه جاسوس كبير .

ولم ينطق واحد ببنت شفة ، فقد صدرت التعليمات أن الصحفى الكبير جاسوس وانبرى حضرة الصول مكملا :

- ها قد رأيتم بأعينكم ، وسمعتم بآذانكم ، والويل كل الويل لمن يتحدث مع نفسه حول هذا الموضوع . انصراف .

وخرج الصحفيون كبارهم وصغارهم من القاعة سراعا ، كأنهم إلى نصب يوفضون .

خرج الصحفيون وكل واحد يفكر فى نفسه .

ماذا يفعل حتى يتجنب هذا المصير السيىء .

وعلى حد تعبير واحد منهم كبير :

– يجب على العاقل أن يمشى بجوار الحائط كالكلب .

والسجن فى الجريدة أو البيت خير ألف مرة من السجن الحربى أو سجن القلعة .

نفس هذا الصحفى الكبير وأمثاله فى عهد ما قبل سنة ١٩٥٢ ، كانوا يعتبرونهم حجة ومرجعا فى الأمور التى تهم الشارع المصرى . فأثناء تلك المظاهرة التى قام بها الطلبة عام ١٩٤٦ بزعامة **مصطفى مؤمن**، والتى خرجت من الجامعة فى طريقها إلى سراى عابدين تهاجم الملك ، وجد الطلبة كوبرى عباس مفتوحا ، ونزل طلبة من كلية الهندسة وأغلقوا الكوبرى حتى يمر الطلبة . وما أن توسط المتظاهرون فى الكوبرى حتى وجدوا حصارا فى نهايته ، قوات الهجانة على الجمال ، ومن خلفهم قوات (**بلوكات النظام**) ، وأخذ الطلبة فى ذلك اليوم (**علقة**) وصفت بأنها حامية ، ولعلها مفاهيم ذلك الزمن ، فلم تكن أجهزة الأمن العظيمة قد ظهرت بعد ، والتى كان لها شرف حماية النظام العسكرى الأسود الذى عشناه .

وهاجت الدنيا وماجت ، وفسد الحفل الذى أقيم فى اليوم التالى للملك ، وكان بمناسبة عيد ميلاده ، وكان المكان الذى ينبغى عليه زيارته بحرم الجامعة قد غرق بالماء، قد أغرقته خراطيم المطافىء التى كانوا يفرقون بها الطلبة فى اليوم السابق .

وهنا تبرز أهمية الصحافة ويظهر دورها فى بلد هو أقرب للحرية والديمقراطية رغم كافة الظروف الصعبة التى يعيش فيها ، من ملكية فاسدة كما كانوا يقولون ، ونحن معهم فى فسادها ، ولكن لعلها لم تكن أكثر فسادا مما حدث بعد ذلك ، ومن قوات إحتلال إنجليزية ، قد جثمت على صدر الوطن ، حيث للسفير الانجليزى الرأى الأهم ، وحيث وحيث من الكثير الذى حفلت به الكتب ، وتناقله الناس فى مجالسهم ، وقال عنه المحاضرون فى محاضراتهم .

تحركت الدولة ممثلة فى الملك وحاشيته ، فهم السلطة الأعلى فى مصر واتصلوا بالصحافة والصحفيين للنجاة من هذه الثورة التى أحدثها الطلبة والتى جعلت كل شعب مصر متحفزا للمزيد .

وكان الرأى عند ذلك الصحفى الكبير الذى اتهم بعد ذلك بالعمالة والتجسس .

وفى فيلا **أحمد حسنين باشا** ، وهو بمكانته المعروفة من الملك ، كان الاجتماع بزعامة الطلبة منهم **أحمد عادل كمال ، حسان حتحوت ، مسعد سلام ، محمود الشربينى ، وآخرين** ، وحضر الإجتماع الصحفى الكبير ، وهو الذى رتب له ودعا إليه ، ونصح الرأى بالموافقة على كل طلبات زعماء الطلبة ، وكانت طلباتهم تتركز فى استقالة الوزارة .

واستقال النقراشى ، وجاء إسماعيل صدقى خضوعا لمطالب الطلبة .

كانت المظاهرات تدعو الأمة للوقوف صفا واحدا لمواجهة المشاكل التى كانت تبدو مستعصية فى ذلك الوقت ، وهى التفاوض مع الإنجليز للجلاء عن مصر والسودان ووحدة وادى النيل . وكان الخلاف عظيما وكبيرا

بين الوفد والسعديين ، وكان الطلبة يطالبون الزعماء بتناسى الخلافات والتآزر والوحدة فيقوى أمرهم فى المفاوضات .

مانريد قوله أن الصحافة الحرة كان لها دور عظيم فى توجيه سياسة الدولة وكانت لاتسكت على فساد ، ويمكن لها أن تتدخل لعمل مصالحة وطنية بين طائفة ما وبين الدولة ، وكان يؤخذ رأيها ويعمل لها كل حساب .

ولا شك أن الصحافة هى مرآة الأمة بما فيها من خير وشر ، وهى الميزان ، ومن خلالها يمكن أن تستقيم أمور مجتمع أو تسوء ، وهى انعكاس للأحوال العامة الإقتصادية ، ومدى حضور الحرية أو غيبتها ، وجدية الحكام وعبثهم بمقدرات البلاد .

وكانت الصحافة قبل يوليو سنة ١٩٥٢ تستطيع بالنقد المكتوب على صفحاتها أن تسقط حكومة ، أيا ما كانت تلك الحكومة . ولم يكن هناك شئٌ يخفى على الناس ، فكل ما يجرى فى الدهاليز الخلفية يكون فى متناول المندوبين المهرة المدربين على التقاط الأخبار ، وعلى بثها فى الصفحات ، فيعلمه الناس ، ويتكون رأى عام قوى يؤثر ويفعل ويحرك الجميع .

وكانت الحكومات التى وصفوها بأنها فاسدة تضج بقدرة هذه الصحافة على الإزعاج وعلى صنع الرأى العام ، وعلى كشف الأسرار ، وكانت الحكومات لاتستطيع إلا القليل فى مواجهة هذه الصحافة فى حدود الدستور والقانون . وغاية قدرتها أن تدفع بعض المصروفات السرية لبعض الصحف والصحفيين تتقى بذلك شر ألسنتهم ، وهو أمر لم يحدث إلا مع القلة ، والأغلبية يرفضون ، ويعتبرونه شيئا مخلا بالكرامة والشرف ، ويضعف المروءة ، ويظهر من يفعل ذلك صغيرا

فى أعين الناس ، وقد قاطع الشعب تلك الصحف التى اشتهرت بأنها تقبض من الحكومة ، ومن ثم لم تعد تؤثر أو يكون لها دور فى مجريات الأحداث .

وكان للصحفيين قيمة كبيرة فى ذلك الوقت كما رأينا ، فكل رجال الحكومة يتودد إليهم ، ويطلب صداقتهم ، ويأخذون رأيهم فى بعض المشاكل الكبرى السياسية ، ويطلبون وساطتهم في بعض الأمور . وكان فى استطاعة بعض الصحفيين أن يغير رأى الحكومة فى قرار ما قبل أن يصدر ، أو يضغط عليها فى إصدار قرار آخر ، فقد كان لهم وزنهم وقيمتهم ودورهم فى المجتمع .

واستمدت الصحافة قوتها فى ذلك العهد من قدرتها على كشف مايدور وإعلام الناس به ، وأخذ الصحفيون مكانهم من صدقهم فيما يكتبون ، وتحملهم لأية ضغوط قد تقع عليهم فى سبيل كشف الحقائق للناس .

كان الدستور عظيما في نفوس الناس ، والقانون سيداً لا يجرؤ أحد مهما علت مكانته أن يعبث به أو يمنحه إجازة كما فعل البعض فى زمن لاحق ، فلم يكن من السهل التجاوز فى أمور الحكم والسياسة ، وكانت حرية الفرد غاية كبرى يسعى إليها الجميع ويحرصون عليها ولا يسمحون بالنيل منها ، وإن حدث تآمر على ذلك فمن خلف جدر وأسوار وأستار ، وإن تم ففى أضيق النطاق ، وإن كشف أمره ، وهو عادة ما ينكشف ، تسقط الحكومة ، ويحاسب المتآمرون .

كانت الصحافة فى ذلك الزمن تمثل رقابة قوية ذات فعالية عالية على أعمال الحكومة وعلى السلطة التنفيذية بشكل عام ، وكان المناخ يسمح بكشف كل جريمة حدثت فى الخفاء ، فيتدخل البرلمان ، وتسطع نجوم فى سمائه ، ويستجوب المسئول ، ويذهب ، وربما يذهب الجميع ويأتى غيرهم .

ولعلهم خير من مهدوا وهيئوا الناس لمستقبل أفضل ، وجعلوا البلاغ رقم واحد الذى أذيع صباح ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ يلقى أذنا صاغية من جميع الناس ، فقد تحقق الحلم ، ولم يكن أحد فى ذلك الوقت يعلم الغيب أو يظنه على حقيقته كابوسا رهيبا ثقيلا لما تفق الأمة منه بعد .

ولعلنا لاننسى مقالات المرحوم المجاهد **أحمد حسين** ومجلة مصر الفتاة ، ومقاله الشهير « **رعاياك يا مولاى** » حيث وبخ الملك والنظام بالكلمة وبالصورة وفى شجاعة نادرة .

كان بعض الصحفيين يمالئون الحكومة ، أية حكومة ، يتحدثون عن محاسنها المفقودة ويبررون تصرفاتها نظير مايقبضون . ولكن بعد أزمة مارس سنة ١٩٥٤ ، حيث انفرد عبد الناصر بالسلطة ، وضرب الكل بالحذاء ماذا حدث ؟

حدثونى عن صحفى واحد ، واحد فقط ، لم يطبل ويزمر فى السيرك الذى أقامه عبد الناصر . ولعلنا لاننسى ذلك الصحفى الذى ليس من طبعه النقد ، وظن خطأ أن الكلام عن مذيعة تليفزيون ، فى طريقة تقديمها للبرامج أمر مباح ، فجاءه خطاب الفصل من عمله فى الصباح .

ورضى الصحفى وسكت ، وقبل أن يعيش كما أرادوا له ، ورضى جميع الصحفيين وسكتوا ، وكان أجدربهم ألا يفعلوا .

ولعل العجيب الغريب المثير للدهشة والتأمل أن يتحول جميع الكتاب والمفكرين والصحفيين إلى جوقة من المهرجين

والأراجوزات ، ألا يشذ واحد فيهم ، ويشعر بأمانة القلم ، لم يحدث .

أين العيب ؟ ومن الذى فعل هذا ؟ الخوف والإعتقال والسجن ؟ .

هذه أمور ليست كافية لتحويل الجميع ، لابد أن يشذ شخص ما .

ولعلنا فى حاجة إلى علماء الإجتماع لتفسير هذه الظاهرة وظواهر أخرى كثيرة حدثت فى ذلك الزمن النكد .

كان الصحفيون فى الماضى يتجاوزون عن أخطاء الموتى ، وربما يكرمونهم ويذكرون محاسنهم ، فجاءت حكومات يوليو وعلمت الصحفيين أن المسموح بسبهم ولعنهم هم الموتى فقط ، أما الأحياء فلا يخطئون ، ولا ينبغى أن تمسهم كلمة بسوء .

وبعد أن إنفرد عبد الناصر بالسلطة عقب أزمة مارس ومحاولة اغتياله فى المنشية ، والتى لم يكشف عن أسرارها النقاب بعد وبعد القضاء على تشكيل الإخوان المسلمين ، عاش الصحفيون فى الظل ، وصاروا يكتبون مايمليه عليهم الصولات وصف الضباط من أخبار وبيانات ، وعاشت الحكومة والصحافة فى التبات والنبات .

وسارت مسيرة الثورة المباركة بقيادة الزعيم الملهم ، وطحنت فى طريقها كل القوى التى يتشكل منها المجتمع ، وتحول الجميع إلى قابضى مرتبات من الصغير إلى الكبير ، إن قطع عن أحدهم المرتب شهرا مات هو وأولاده من الجوع .

وكما يفعل أى زعيم محترف ألقت المقادير بين قدميه دولة وشعبا ، كون مجموعة من « **الفتوات** » الذين يحترفون

الضرب بالنبابيت لحمايته ونظامه من التهاوى والسقوط . وأعطى هذه المجموعة من «**الفتوات** » الحق فى كل شىء ، ومن ثم صاروا يمنحون حق الحياة والموت لمن يشاءون . وأعطاهم حق السلب والنهب ، وأباح لهم البلاد والعباد على طريقة الغزاة فى سالف الأزمان .

كانوا مجموعة من « **العصبجية** » و « **البلطجية** » استطاعوا بالأموال المنهوبة أن يسكنوا القصور العالية ، وأن يرتدوا الملابس الغالية الثمن ، والروائح الطيبة يضمخون بها وجوههم وأيديهم ، وظل البون شاسعا بين حقيقتهم وبين ما يظهرون به أمام الناس ، فيتكلمون من أنوفهم وهم فى حقيقتهم أذلاء ، يصطنعون التلطف ، وهم أوغاد ، ولعل المعتقلين الذين كانوا فى معتقل القلعة فى عام ١٩٦٨ يذكرون المواقف الطريفة التى تؤكد هذا المعنى ، ولعلهم لاينسون كيف خلع « **على شفيق** » حذاءه وضرب « **حمزة البسيونى** » على أم رأسه ، وكيف تبادلا الشتائم اللاذعة التى يترفع عنها أقل الناس شأنا وثقافة ، ولا يفعلها أصحاب « **اللاسات** » الذين ظلموهم وهم أصحاب مروءه وشرف ودين ، والحديث عن هذه العصابة يطول ، وهو ليس موضوعنا فى هذا المقام ، ولو أن إلاستطراد يدفعنا إلى ذكر حكايتين .

الأولى عن « محمود نصر » وهو شقيق « **صلاح نصر** » أحد الذين كانوا يجيدون الضرب بالهراوات لحماية مايسمى بالنظام ، أتوا به إلى معتقل طره السياسى عندما دالت دولة شقيقه وعاش معنا فترة ليست بالقصيرة ، يعمل مديرا عاما بجهاز المخابرات ، هكذا كان يقول ، ويأتى أول الشهر فيأخذنى خلسة إلى زنزانته لأكتب له شيكا من دفتره يرسله

إلى أهله ، وبعد أن أكتبه له يوقع عليه بعلامة لايفهمها إلا هو والبنك ، فقد كان لايعرف الكتابة ، ويقرأ بعض الحروف الكبيرة بصعوبة .

حيكى لنا « **محمود نصر** » عن فساد النظام حكايات كنا نستمع إليها مشدوهين ، ولولا مانحن فيه ماصدقنا منها حرفا .
وحكاياته كثيرة متعددة طريفة اذكر منها أنه قال لنا :

– « كنا إذا أردنا شراء أشياء من أوروبا ، جمعنا أسماء من يريدون الشراء وكلهم من علية القوم ، وكتبنا مايريدونه ، وأعددنا ميزانية بالمبالغ المطلوبة وكانت لاتقل المرة عن مليونين من الجنيهات الإسترلينية أو الدولارات ، ثم نعد مذكرة عن مهمة وهمية ، نطلق عليها اسما رمزيا ، ونؤكد أهمية القيام بها لحماية الدولة والنظام ، ومن ثم لاتظهر لها طبيعة واضحة فى دفاتر أو وثائق فالحقيقة هى رحلة للشراء ، ومن يوافق على هذه المذكرة له من المشتريات النصيب الكبير ، واعتدنا هذه العملية ، ونسافر إلى أوروبا ونشترى مايشاؤه الكبار حسب الكشوف التى معنا ، ونعود وتحمل البضائع من الطائرة إلى البيوت ، فهى صناديق سرية لا ينبغى لرجال الجمارك مشاهدتها ، ثم نكتب تقريرا عن المهمة أكثر غموضا من المذكرة التي كتبت عن سببها ، ويحفظ التقرير فى أضابير الطلاسم والأسرار حتى يتجدد سبب الشراء من جديد » .

انتهى كلامه .

ليس هناك من يحاسب ، وليس هناك من يتقدم بكلمة نقد لهذا الفساد ، وليس هناك من الأصل من يعرف شيئا عنه ، فقدس الأقداس فى عهد عبد الناصر هو أمن الدولة وعظمة الزعيم ، ولايدخله إلا كهنة مدربون على أحط الأعمال

وأصغرها شأنا ، قد تجردوا من المبادىء والقيم ، ونسوا الله فأنساهم أنفسهم .

والقصة الثانية عن قوم من العظماء ، جاءوا إلينا ونحن فى معتقل طره السياسى بعد الهزيمة فى يونيو ١٩٦٧ ، وهزيمة يونيو غنية عن التعريف ، فقد بطل السحر فى ساعة من نهار يوم قائظ ، وتحطمت الأوثان الكاذبة ، ولما يعل بعد صوت بلال بالآذان من فوق الكعبة . جاء هؤلاء العظماء بالملابس الغالية والوجوه الحليقة ، ونظرة التأفف مما يرون ، وعطورهم الغالية تملأ بأريجها سماء المعتقل . وعرفنا سبب إعتقالهم ، وكان أجدر بهم لو يخجلون ، بدلا من العظمة الكاذبة والكبرياء الزائف .

لقد اتفقوا وزوروا مستندات تفيد بأنهم قد قاموا بإنشاءات فى سيناء المحتلة ، وأنهم قد صرفوا عشرات الملايين من الجنيهات المصرية ، على أعمال لم تنفذ إلا على الورق ، وأخذوا ما أرادوا ، لولا حكمة الله البالغة ، فقد كانت هزيمة يونيو سببا لإختلاف جميع اللصوص ، وتغلب فريق على آخر .

وأودع المغلوب معنا إلى حين .

والأمثلة قطرة من بحار السلب والنهب والقهر والجبروت ، فى عهد كان الفساد والإفساد هو الشعار والأساس والمبدأ .

ونعود إلى موضوع الصحافة والصحفيين .

قضى عبد الناصر على كل القوى التى يتكون منها المجتمع قضاء مبرما ، وكان للصحافة دور كبير فى نجاح حركته ، فمقالاتهم وكتاباتهم مهدت للتغيير وهيأت الناس له ، وكانت بعض الدور الصحفية تحضن بعض الضباط ممن

يعرفون الكتابة مثل أنور السادات الذى عمل بعض الوقت فى روز اليوسف ، وكانوا يتشاورون معهم فيما يعملون ، ويشيرون عليهم أحيانا بما يكتبون ، وكان بعضهم على صلة وثيقة بالضباط ، ومن العناصر الوطنية الصحفية التى كانت على صلة طيبة بهم أحمد أبو الفتح وآل أبى الفتح جميعا ، وكانت « المصرى » ناديا للضباط قبل الحركة وبعدها ، وكان آل أبى الفتح على علم بالتفاصيل . وجاء دور الصحفيين والصحافة بعد أزمة مارس سنة ١٩٥٤ وانتصرت الديكتاتورية وهتف من جمعهم الضباط بسقوط الحرية والديمقراطية والعلم والمتعلمين ، وضرب رئيس مجلس الدولة **الدكتور السنهورى** عليه رحمة الله (بالحذاء) ، من جمهور قد استؤجر خيمت عليه الجهالة والغفلة ، ولم يدر ماذا فعل بمصر والمصريين . وسجن من الصحفيين من سجن ، وهرب من هرب ، وأغلقت بعض الدور الصحفية ، واستحدثت أخرى ، وكسر الجميع أقلامهم وانضموا إلى جوقة المطبلين والمزمرين والمهرجين ، وضاعت الفكرة ، وارتفعت الشعارات الكاذبة الجوفاء ، وعاش الناس على الكلام ، يقتاتونه ويمضغونه كالنعاج ، فى عالم توارت فيه الأسود .

ومضى عبد الناصر بمصر من نكبة إلى نكبة ، فى حلقات متوالية ، كمسلسل تليفزيونى ردىء ، حتى أوحى إليه بعضهم بتأميم الصحافة . وقيل إن الذى تولى كبر هذا التأميم هو

محمد حسنين هيكل ، وقيل إن السبب فى ذلك أن لحساب دار المعارف فى بنوك لبنان مبلغ يزيد عن مليون دولار ، فى دولة تسير بالكاد ، وأنه أراد الإستيلاء على هذا المال ليضمه إلى الأهرام ، وهى الجريدة التى أقطعها له عبد الناصر وهو يستفيد منها فائدة عظيمة عن طريق الضيافة لكبار الصحفيين

فى العالم والمنح السخية ، الأمر الذى ردوه إليه بعد أن طرد من الأهرام ، واستضافوه فى بلادهم ، واستكتبوه ووجد حصاد مازرعه من المال الحرام فى زمن فات . هكذا أخبرت .

واستعذب عبد الناصر الفكرة ، فلم يكن يدرى عندما أخذ الدور الصحفية أن هناك قوماً لايزالون يعيشون فى إستقلال ، على الأقل فى لقمة العيش ، أما الكتابة فلم تكن هى النقطة التى يتخوف منها الزعيم ، فقد كان الحذاء مرفوعا ليهوى بقسوة وصرامة على رأس من يكتب كلاما يحتمل أكثر من معنى ، وكم هوى هذا الحذاء بدون سبب على رءوس قد أفرغت من محتواها ، ربما لعداوة محتملة مع أحد الصولات أو رجال « الإنكشارية » .

كان أصحاب الدور الصحفية فى مصر هم من بقوا ولهم شىء يمتلكونه ، ويعيشون منه ، وتحولوا بعد تأميم الصحافة إلى موظفين ، وطرد بعضهم من داره التى أنشأها وأهله فى قصة كفاح فريدة وعجيبة ، جميعهم بلا استثناء كافحوا وجاهدوا حتى صاروا شيئا ، وأقاموا أشياء ، ثم سلبت منهم فى لحظة وبقرار من الزعيم . لم يتغير شىء بعد تأميم الصحافة غير أن الذين يملكون صاروا لايملكون ، وأصبحت الدور الصحفية الكبرى التى تحقق أرباحا سنوية مثل أية مؤسسات فاشلة من مؤسسات القطاع العام . وفى هذا الدرك الأسفل من الضياع حدثت نكبة عام ١٩٦٥ .

بدأت الصحافة عهدها مع حكومة الضباط أثناء إضراب العمال فى كفر الدوار بعد أسابيع من قيام حركة الضباط واختاروا ضحيتين ليمثلوا بهما ، ويكونا عظة وعبرة لمن تسول له نفسه الوقوف أمام قطار الضباط غير المنضبط ،

وكان الناس حديثي عهد بالفوضى وضياع القانون والإستهانة بقيمة الفرد والمقدسات ، وأراد القاضى أن يستكمل الشكل ، فقال لا يمكن لنا أن نشنق البقرى وخميس دون محاكمة ، وهانحن نحاكمهم ، ولابد للمتهم من محام يقوم بالدفاع عنه ، وسألوا الموجودين من النظارة هل فيكم من درس القانون ، وكان بين الصحفيين موسى صبرى الشهير ، فقال إنه خريج كلية الحقوق ، وطلبوا منه الدفاع عن المحكموم عليهم بالإعدام ، وهو الذى جاء ليغطى الأخبار ويعرف القصة ومن ثم ينشرها للناس ، وشارك الصحفى فى مهزلة إعدام البقرى وخميس .

ثم تعود الصحفيون ألا يقولوا الحقائق للناس ، فما يدور شيء ، وما يكذبون به على الناس شيء آخر ، العالم كله يعرف أن اسرائيل انسحبت من سيناء بعد حرب ١٩٥٦ بعد أن أخذت الحق فى المرور من مضايق تيران إلى خليج العقبة ، وهلل الصحفيون بالنصر العظيم . العالم كله يعرف أن آيزنهادر هو الذى أجبر حلفاءه من الإنجليز والفرنسيين على ضرورة الإنسحاب ، ويكفى أن تعطى إسرائيل ميزة أو ميزتين ، وكان ماكان ، وهلل الصحفيون بأن « بولجانين » رئيس روسيا هو الذى أجبر الإنجليز والفرنسيين واليهود على الإنسحاب ، وأنه هدد بضرب لندن وباريس بالصواريخ عابرة القارات وعاش الناس على الأكاذيب ، واعتادوها مع الأيام .

صحافة هذه حالها ماذا ينتظر منها أن تقول فى نكبة الأمة الممثلة فى اعتقال أكبر عدد من المثقفين والعلماء والطلبة والعمال من المسلمين ، ثم يلقى بهم فى وغى الظلم ويُنَكلَ بهم أخس تنكيل ؟

لعل من المناسب لهم وأكرم أن يقفوا موقفا مختلفا ، إذا عرفنا أن هناك عدداً منهم ، أو من أقربائهم ومعارفهم ، وهم أصحاب الأقلام وهم الذين يدركون قبل غيرهم أن هذا انحدار وانهيار ، وكانوا يستطيعون شيئا لو أرادوا .

فقدت الصحافة هيبتها ، وفقد الصحفيون كرامتهم .

ونقلب فى صحافة تلك الأيام السوداء الكالحة .

جريدة اسمها « الجمهورية » ، يومية ، مازالت تصدر حتى الآن ، رئيس تحريرها إسمه مصطفى بهجت بدوى ، فى العدد ٤٢٧٩ بتاريخ الأربعاء ٨ سبتمبر سنة ١٩٦٥ ، وهو الذى أنقل منه بعض المقتطفات .

العناوين الرئيسية كالتالى فى الصفحة الأولى :

حقائق خطيرة عن مؤامرة الإخوان .
قوائم الاغتيالات
أعدها الإخوان للتنفيذ فى أعياد الثورة بالقاهرة
والاسكندرية
مؤامرة لنسف موكب الرئيس جمال عبد الناصر
سيد قطب يرأس التنظيم بالداخل وسعيد رمضان يتولى عمليات التمويل من الخارج
أوامر إلى الإرهابيين بالانتحار فورا بعد ارتكاب جرائمهم

ثم على اليمين صور لأربعة من الشباب المعذبين .

صورة لممدوح الديرى وتحت الصورة كتب:صاحب مخزن أسلحة غمرة .

صورة لحمدى حسن صالح وتحت الصورة كتب:رسم مراكز الشرطة .

صورة لمحمود فخرى وتحتها عضو فى التنظيم السرى .

صورة لمحمد عبد المعطى ابراهيم وتحتها صاحب مخزن أسلحة المطرية .

وعلى اليسار صور غامضة ، ومن يشاء يستطيع الرجوع إلى الجريدة .

صورة ليد ممسكة بمسدس ، شبيه بمسدسات الأطفال التى يلعبون بها ، ونظارة مكبرة ، وعلبة مفكات وأدوات ميكانيكية مثل تلك التى تستخدم فى فك الصواميل .

كتب تحت هذه الصورة الآتى :

كميات من المسدسات ونظارات مكبرة ضبطت لدى المتهمين .

الصورة التى تحتها أكثر غموضا كأنها لموتور سيارة ، قد ظهر منه البوجيهات وبعض الأسلاك .

كتب تحت هذه الصورة الآتى :

أجهزة لتفجير الديناميت كانت معدة لتدمير الأحياء الشعبية .

هكذا ! لتدمير الأحياء الشعبية ! ولماذا الأحياء الشعبية ؟

الصورة الثالثة لحزام مما يلبسه الأطفال يوم العيد ويلعبون به .

كتب تحتها الآتى :

أحزمة لطلقات الرصاص والمدافع الرشاشة .

الصورة الرابعة ليد ممسكة بزجاجتين « جولوكوز » مما يقدم فى المستشفيات .

كتب تحتها الآتى :

مواد شديدة الانفجار أعدها المتآمرون لـنسف المنشآت .

إى والله ! زجاجتا جولوكوز ، ، وماذكرت قد كتب تحت الصورة .

الصورة الخامسة غامضة غير ظاهرة لبعض اللعب ، ويد ممسكة بمطواة .

كتب تحتها الآتى :

مئات من الخناجر ضبطت لدى المتآمرين قبل أن يقتلوا بها المواطنين .

فى أسفل الصفحة على اليمين إعلان عن أحذية باتا شعارِ العصر .

وفى أسفل الصورة على اليسار إعلان عن المكتبة الإشتراكية .

الثقافة والإرشاد القومى تقدم مائة كتاب عن الإشتراكية .

هكذا وارجعوا إلى عدد « الجمهورية » .

فلسفة الثورة .. التحول العظيم .. الميثاق .. الخ هكذا مكتوب .

وبالخط الأحمر الكبير كتب فى سطر مستقل :

للرئيس جمال عبد الناصر .
وبعد ذلك فى الإعلان نفسه :
التطبيق الإشتراكى فى مصر .. للسيد على صبرى
مشاكل التطبيق الإشتراكى فى الخطة الخمسية الأولى

ثم بعد ذلك أسماء هزيلة لكتب لامعنى لها ، لاتسمن ولاتغنى من جوع بطبيعة الحال جميع الناس تعلم أن جمال عبد الناصر لم يكتب حرفا مما نسب إليه ، أو لعلهم عرفوا وتأكدوا بعد ذلك .

ثم التقرير الرئيسى عن مؤامرة الإخوان المزعومة ، بالصور الخادعة لأسلحة هزيلة ، لم يخجلوا من نشرها وتزويدها .

وتحت عنوان قتل المواطنين كتب المحرر قليل الحياء ما يأتى :

« وكان هؤلاء المتآمرون مكلفين بالحصول على السلاح بأية وسيلة ، وهى قتل أى مواطن للحصول منه على سلاح إن كان معه سلاح ، بالإضافة إلى الإستيلاء على مراكز الشرطة والهجوم عليها أثناء عمليات التخريب والإستيلاء على مابها من أسلحة » .

قوم متآمرون ، ليس معهم سلاح ، يبحثون عنه بأية طريقة ، ومنها قتل من يحمل سلاحاً لأخذ سلاحه .

أليس هذا استخفاف بعقول الناس ؟

أما كان أجدر بالمحرر أن يناقش « الصول » الذى أملاه التقرير ليكتبه ؟

ماعلينا .

بعد ذلك بعدة سطور يكتب التالى :

« وعلم المحرر القضائى للجمهورية » ،

وكلمة المحرر القضائى للجمهورية توحى بالاحترام ، ولكن نكمل الكلام المنشور !

« أنه كان هناك تنظيمان أحدهما هو تنظيم حسين توفيق الذى نوى ارتكاب عمليات الإغتيال بأى وسيلة دون أن يحدد الوقت والطريقة التى ينفذ بها خطته الإجرامية بسبب عدم وجود السلاح فى يده » ،

ثم بعد ذلك كلام فارغ أكثر غثاثة مما قرأنا .

مؤامرة لقلب نظام الحكم وقتل السيد الرئيس جمال عبد الناصر وتابعه المشير عبد الحكيم عامر ، وغيرهم وغيرهم فقد حفلت القوائم بالكثير .

كل هذا يتم بغير سلاح و
لابد من الحصول على السلاح .
كيف ؟

نقتل كل من يحمل سلاحاً .
وهل يحمل الناس فى مصر سلاحاً ؟
وإن كانوا يحملون . كيف نقتلهم بدون سلاح ؟

وننتقل إلى الصفحة رقم ٢ من جريدة الجمهورية المذكورة نفس العدد ، فنجد إعلاناً عن برامج الاذاعة والتليفزيون .

وعنواناً نظرات فى صحف العالم .
جولدووتر هل يساوى ٧٠ ألف جنيه ؟
الدماء لاتزال تسيل بغزارة فى وديان كشمير .
مسرح الريحانى كيف ندعمه ؟

أين تسهر هذا المساء .

سينمات .

شفيقة القبطية فى سينما ريتس ، حكاية العمر كله فريد الأطرش .

ثم عمود نقد فنى بتوقيع أحمد عبد الحميد .

وننتقل إلى الصحفة الثالثة من نفس العدد من جريدة الجمهورية .

ونجد فيها تفاصيل مضحكة وصور هازلة لمؤامرة الإخوان المزعومة .

وأكتفى من الكلام الذى ملأ الصحفة الثالثة بالعناوين :

« تشكيل جهاز سرى للاغتيالات والنسف والتدمير والتخريب » .

« وضع مواد متفجرة فى الأماكن العامة والإستيلاء على مراكز السلطة والإذاعة ونسف مطار القاهرة ومحطات الكهرباء » .

« تدريب عناصر جديدة على استخدام السلاح والقتل والنسف واستخدام الديناميت والمتفجرات والقنابل » .

سبحان الله !

كيف يتم كل هذا ؟

هذه أمور تحتاج إلى جيش نظامى مدرب ومنظم فى عملية غزو محكمة للبلاد ، ولايستطيع القيام بها هؤلاء الأطباء والمهندسون وعلماء الطاقة الذرية والمدرسون والعمال والطلبة الذين قبض عليهم .

ولم تجد الجريدة غضاضة فى الخروج على الناس بهذه الأكاذيب .

الصحفة الرابعة بها أخبار دولية لاتستحق الذكر .

الصفحة الخامسة تحت عنوان :

« مشروعات جديدة للإنتاج والخدمات
٦١٦٩ فدانا يتم استصلاحها في وادى النطرون » .

ثم تصريح لواحد اسمه اللواء **حسن صبيح** عن ذلك .

وهاهى عشرون عاما تمضى وأخبرونى كم فدانا تزرع الآن فى وادى النطرون وفى أعلى الصفحة على اليمين :

« مكاسب ضخمة يحققها التعاون الزراعى للفلاح » .

وعلى اليمين صورة لواحد اسمه **عبد المحسن أبو النور** وواحد آخر اسمه د. حامد النشرتى وريبورتاج عن الإصلاح الزراعى ومكاسب الفلاحين . يبدو أنها الصفحة الزراعية !

نحن نكتب هذا بعد عشرين عاما ، بعد أن انقرض مايسمى بالفلاح فى مصر أو يكاد .

الصفحة السادسة كلها عبارة عن إعلان كبير والعناوين :

القاعدة الشعبية بمحافظة الاسكندرية تستنكر مؤامرة الغدر والخيانة .

السيد الرئيس جمال عبد الناصر – القاهرة

« الأمناء والأمناء المساعدون للجان الإتحاد الإشتراكى العربى بجميع مستوياته المجتمعون اليوم فى هيئة مؤتمر يستنكرون المؤامرة الغادرة لعصابة الإخوان والرجعية ويطالبون بالضرب بشدة علي أيدى من تسول له نفسه الغدر بهذا الوطن والحاق الضرر بأبنائه والنيل من مكاسبه التى حققتها ثورة يوليو المجيدة ويقررون أنهم فى حالة تعبئة كاملة ضد أى مؤامرة يدبرها الإستعمار وأعوانه وأى انحراف يحاول أن يعرقل سير الوطن نحو أهدافه الكبرى – وأنهم يعاهدون الله باسم القواعد

الشعبية التى يمثلونها أن يقفوا صفا واحدا وراء سيادتكم وأن يتصدوا بكل قواهم وإمكاناتهم لضرب أعداء الوطن وسحق كافة المحاولات التخريبية – حفظكم الله حاميا للوطن وذخرا للعروبة . »

ثم توقيع ملأ الصفحة بأسماء كل المصالح والهيئات الحكومية بالاسكندرية . . وقد استجاب الله دعاءهم ، وحمى الوطن وكان ذخراً للعروبة حتى صباح الاثنين ٥ يونيو ١٩٦٧ .

هذا الإعلان ثمنه حوالى ثلاثة وعشرون ألفا من الجنيهات المصرية ، وكان ينشر فى جميع الصحف وكل يوم .

وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكاء .

الصفحة السابعة من الجريدة الغراء .

عناوين كبيرة .

« روسيا تقبل اقتراح الجمهورية العربية المتحدة بوقف التجارب الذرية تحت الأرض فورا » .

وتحت ذلك كلام كثير كله كذب .

« وقف المساعدات الأمريكية للهند والباكستان »

« باكستان تستنجد بدول الحلف المركزى »

« بومدين يجتمع بأمين الحافظ »

« السلال يجتمع بكبار الضباط بالقيادة العربية »

ثم إعلان على نصف صفحة .

إدكو تهنىء بعودة رائد السلام .

صورة الرئيس جمال عبد الناصر .

صيغة برقية موقع عليها من أحمد عطية العدل مراسل جريدة الجمهورية فى إدكو تقطر نفاقا وكذبا وجهلا .

ثم التوقيعات .

الصفحة الثامنة من الجريدة المنكودة .

عناوين :
« المشير عامر يستقبل سفير باكستان » .
« الرئيس عارف يزور الجزائر »
« عبد الناصر سعى للسلام فى جدة وموسكو »
« عالم صواريخ أمريكى يزور إسرائيل »
صورة لأحمد الشقيرى وتحتها :
« وفد منظمة التحرير الفلسطينية فى مؤتمر الدار البيضاء »
« آثار النوبة يتم إنقاذها فى العالم القادم » .
« على عامر وصل الجزائر » .
« عبد الخالق حسونة وصل المغرب » .

وعمود على شمال الصفحة تحت عنوان « رأى الجمهورية » .
ولاضرورة لنقل الهراء المكتوب ، ولكن صاحب العمود الذى لم يوقع باسمه يتهم الإستعمار بتمويل الإخوان للقضاء على زعماء الشعوب الحقيقين من هذا الإستعمار ؟ لم يذكر الكاتب عنه شيئا .

الصفحة التاسعة .
نصف الصفحة على الشمال استنكار من الشعب لمؤامرة الإخوان .

النصف على اليمين أخبار متفرقة .
« الكوبرى المعلق ينتهى إعداده بعد ثلاثة أشهر » .
الاسكندرية – مكتب الجمهورية .
« يتم فى الأشهر الثلاثة القادمة إعداد الكوبرى المعلق الذى يربط بين محطة الركاب وباب الجمارك بحيث ينزل السائح من المركب ويخرج من طريق الكوبرى بعد تفتيش مايحمله من أمتعة » .

ملحوظة : بعد عشرين عاما لم يتم هذا .
أخبار عن **محمد عبد القادر حاتم** .
أخبار عن د . **نزيه ضيف** .
أخبار عن **محمد كمال عبد الحميد** .
« وزير العدل يجتمع برئيس النقض والنائب العام »
« وافقت دكتورة **حكمت أبو زيد** وزيرة الشئون الاجتماعية على إنشاء معهد لربات البيوت لتخريج قائدات مدربات يقمن بتوجيه الأسر فى الريف وتعليمها مختلف الصناعات اليدوية . »

ملحوظة : لم يتم هذا حتى الآن .
« تقام بمنطقة حلوان محطة كبرى لمياه الشرب ضمن المشروعات التى ينتظر تنفيذها للنهوض بهذه المنطقة ، بحيث تتوافر فيها مشروعات كاملة للخدمات كالكهرباء والمجارى والمساكن » .
ملحوظة : لم يتم هذا حتى الآن .
ونكتفى بهذا القدر من الصفحة التاسعة ، ومن أراد أن يطلع على أخبار كاذبة أخرى لم أوردها فليرجع إليها ، إلى جريدة الجمهورية العدد المشار إليه .

الصفحة العاشرة رياضة .
الصفحة الحادية عشر رياضة .
وبها عنوان :
الرئيس جمال والملك فيصل يشاهدان ختام الدورة .
الصفحة ١٢ هى صفحة الحوادث .
« ضبط حادثتى تهريب بمطار القاهرة » .
واحد يحاول تهريب ٢٥٠ جنيه (مائتان وخمسون جنيها)، والآخر (٤٠٠ جنيه أربعمائة)
وفى النصف الشمال من نفس الصفحة :

عيد الفلاحين وعودة الروح ، وتحتها كلام كثير .
قصيدة فى مدح جمال عبد الناصر عنوانها عودة المنتصر بقلم نجاتى عبد الرحمن .

الصفحة ١٤ أموات وأختام مفقودة وإعلانات وظائف .
آخر صفحة .
الصفحة ١٥
اليوميات بقلم **إبراهيم نوار** تحت عنوان « **الجريمة والعقاب** »
يشتم الإخوان ويطالب بقتلهم جميعا فى نصف صفحة .
ثلاث صور خليعة منقولة من مجلة أجنبية .
حديث المدينة به أخبار تستخف بعقول الناس .
« مجلس الجمارك الأعلى بلبنان قرر شراء ١٢ غواصة لإكتشاف التهريب »
ترى كم يشترى جيش لبنان للدفاع عن أرضه ؟
« أسد يبكى تأثرا من المعاملة الحسنة التى لقيها من سلطات الجمهورية العربية المتحدة أمام جمع غفير من الناس » .
أسد يبكى ياأوغاد ؟
« أم كلثوم تودع محمد فوزى فى المطار »
عمود لعبد العظيم أنيس ، عمود صغير متواضع .
إعلان عن فيلم « **وكر الشيطان** » فى آخر الصفحة إلى اليسار .
انتهى عرض هذا العدد من جريدة الجمهورية .

جريدة الأهرام فى ٢٢ أغسطس ١٩٦٦ العدد ٢٩١٠٩
رئيس التحرير محمد حسنين هيكل .
العناوين الرئيسية :
٧ أحكام بالإعدام

الحكم بالإعدام على ٧ : هم الذين ألفوا التنظيم السرى « للإخوان » وقادوا تدريبه وتسليحه ورسموا الخطط الإرهابية للاغتيال والتخريب .

الحكم على ٢٥ : هم الذين قادوا تشكيلات التنظيم وتحركوا لتنفيذ الخطط المدبرة .

أحكام أخرى لمحكمة أمن الدولة أمس فى قضية التنظيم السرى : أشغال شاقة ١٥ سنة (٧ متهمين) – أشغال شاقة ١٠ سنوات (٤ متهمين)

وتحت هذه العناوين مايلى :

قضت محكمة أمن الدولة العليا أمس بإعدام السبعة الأول فى قضية التنظيم السرى للإخوان .. هم رئيس وأعضاء مجلس القيادة .

* **سيد قطب ابراهيم** : رئيس التنظيم

* **محمد يوسف هواش** : نائب رئيس التنظيم

* **على عشماوى** : مسئول التدريب والتسليح وقائد القاهرة .

* **عبد الفتاح إسماعيل** : مسئول التمويل والاتصال الخارجى وقائد المنطقة الشرقية .

* **أحمد عبد المجيد عبد السميع** : مسئول الأمن والمعلومات وقائد الصعيد .

* **مجدى عبد العزيز متولى** : مسئول التنظيم العسكرى وقائد الإسكندرية والبحيرة .

* **صبرى عرفة الكومى** : قائد الدقهلية والغربية ودمياط .

أعلنت المحكمة قرارها بعد التصديق عليه استنادا إلى ماثبت خلال المحاكمة من أن :

١ – كل المتهمين فى القضية « حاولوا تغيير دستور الدولة وشكل الحكومة فيها بالقوة بأن ألفوا من بينهم – وآخرون معهم – تجمعا حركيا وتنظيما سريا مسلحا لحزب الإخوان المسلمين المنحل يهدف إلى تغيير نظام الحكم القائم بالقوة بإغتيال رئيس الجمهورية والقائمين على الحكم ، وتخريب المنشآت العامة ، وإثارة الفتنة .. وتزودوا فى سبيل ذلك بالمال اللازم ، وأحرزوا مفرقعات وأسلحة وذخائر ، وقاموا بتدريب أعضاء التنظيم على استعمال تلك الأسلحة والمفرقعات ، وحددوا أشخاص المسئولين الذين كان سيجرى إغتيالهم وعاينوا محطات توليد الكهرباء والمنشآت العامة التى كان سيتم تخريبها ورسموا طريقة التنفيذ وتهيئوا للتنفيذ فعلا وعينوا الأفراد الذين كانوا سيقومون به .. وأن عملية الضبط هى فقط التى حالت دون إتمام المؤامرة .

٢ – السبعة المتهمون الأول هم الذين كانوا يتزعمون التنظيم كله ويقودون حركته .

□ ولهذا فقد حكمت المحكمة عليهم – طبقا لنص المادة ٨٧ عقوبات التى تقضى بالإعدام على من ألف عصابة مسلحة لقلب نظام الحكم بالقوة أو تزعمها أو تولى فيها القيادة .

□ وحكمت على ٢٥ – منهم ثلاثة هاربون فى السعودية صدرت الأحكام عليهم غيابيا – بالأشغال الشاقة المؤبدة طبقا لأدوارهم الفرعية فى قيادة التنظيم التى تلى دور مجلس القيادة مجتمعا .. وهم : عبد المجيد الشاذلى ، مبارك عبد العظيم ، فاروق المنشاوى ، فايز اسماعيل ، ممدوح الديرى ، محمد أحمد عبد الرحمن ، محمد عبد المعطى إبراهيم ، محمد المأمون زكريا ، أحمد عبد العزيز سلام ، السيد سعد الدين الشريف ، إمام عبد اللطيف غيث ، كمال عبد العزيز سلام ،

فؤاد حسن على ، محمد أحمد البحيرى ، حمدى حسن صالح ، مصطفى الخضيرى ، السيد نزيلى عوضين ، مرسى مصطفى مرسى ، حلمى صادق حتحوت ، عبد المنعم عرفات ، محمد عبد الفتاح الشريف . السيدة : زينب الغزالى الجبيلى التى دعت إلى التنظيم وعملت على تجميعه وأمنت له اجتماعاته حتى تم تشكيله .

الهاربون : محيى الدين هلال ، عشماوى سليمان ، مصطفى العالم .

☐ وحكمت على الباقين كل طبقا لدوره فى قيادة التنظيم الذى يجىء فى الترتيب بعد دور مجلس القيادة ودور القواد الفرعيين :

محمد عبد المنعم شاهين : أشغال شاقة ١٥ سنة .
عباس السيسى : أشغال شاقة ١٥ سنة .
محمد بديع سامى : أشغال شاقة ١٥ سنة .
جلال بكر الديساوى : أشغال شاقة ١٥ سنة .
صلاح محمد خليفة : أشغال شاقة ١٥ سنة .
إلهام عبد المجيد بدوى : أشغال شاقة ١٥ سنة .
محمد عبد المعطى عبد الرحيم : أشغال شاقة ١٥ سنة .
محمود أحمد فخرى : أشغال شاقة ١٠ سنوات .
محمود عزت إبراهيم : أشغال شاقة ١٠ سنوات .
صلاح محمد عبد الحق : أشغال شاقة ١٠ سنوات .

والأشغال الشاقة لمدة ١٠ سنوات على **حميدة قطب شقيقة سيد قطب** ورسوله إلى التنظيم ورسول التنظيم إليه طوال فترة الإتصال التى تمت به وهو فى السجن ، وحاملة الأوامر بتعيين نائبه وبدء الضربة الشاملة عند ماأعطى إشارة تنفيذ المؤامرة ثم سافر إلى رأس البر .

كذلك قضت المحكمة بمصادرة كل المضبوطات المتعلقة بالجريمة .

كل متهم يسمع الحكم على انفراد (عنوان جانبى).

وكانت المحكمة - المشكله من اللواء أحمد وحيد الدين حلمى عضو اليسار فى الدائرة الأولى نائبا عن رئيسها د . الرائد عز الدين رياض نائب الأحكام والأستاذ حسن جمعة رئيس النيابة المنتدب - قد دخلت غرفة الإجتماعات بجناح نيابة أمن الدولة العليا فى مبنى مجلس قيادة الثورة القديم فى الساعة العاشرة والربع صباحا حيث أعلن اللواء أحمد وحيد « فتح الجلسة لإعلان الأحكام » وبعد ذلك نودى على المتهمين الذين كانوا فى القفص داخل قاعة الجلسات - ماعدا زينب وحميدة فكانتا فى غرفة المتهمين - فجاء المتهم الأول وتلا عليه الرائد عز الدين رياض الحكم وانصرف .. وهكذا تم إعلان جميع المتهمين كل على حدة . وكان نائب الأحكام يقرأ من دوسيه فى يده يضم الأحكام والتوقيع عليها بالتصديق وفى الساعة العاشرة و ٤٥ دقيقة انتهى إعلان الأحكام فأعلن اللواء حلمى « قفل الجلسة » وفى نفس الوقت الذى كانت تعلن فيه الأحكام .. كان أمناء سر النيابة يحررون الخطابات الخاصة لكل متهم والتى تتضمن الحكم عليه .. ثم يسلمونها لرجال الأمن المرافقين له فيصحبونه إلى السيارة الخاصة به .

ولقد كانت هناك سيارة خاصة بالسبعة المحكوم عليهم بالإعدام .. توجهت بهم إلى سجن الإستئناف فى باب الخلق ووضعوا كل منهم فى زنزانة خاصة - وفقا لنظام السجون .

كذلك كانت هناك سيارة تقل المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة اتجهت بهم إلى أبو زعبل وطرة .

وكانت هناك سيارة تقل زينب الغزالى وحميدة قطب .
وتوجهت بهما إلى سجن النساء فى القناطر .

وفى أعلى منتصف الصفحة الأولى من جريدة الأهرام العدد المشار إليه كانت صورة لسيد قطب ومن معه وهم فى لحظة الإستماع إلى الأحكام كما كتب تحت الصورة ، ومن شاء فليرجع إلى الصورة ، هدوء وثقة وبشاشة . وسلطان الظلمة يخيم على سماء مصر ، حتى يأخذ الشهداء طريقهم إلى الجنة .

تم هذا تحت عين وبصر رجال الفكر والقانون والكتاب والصحفيين والمدرسين والأطباء وكل أفراد الشعب ، ولم يفتح واحد فمه احتجاجا . ونتصفح الجريدة فنجدها مليئة بالتفاهة والركاكة والسخافات وفى الصفحة رقم ٩ نجدهم يذكرون الناس بالأكاذيب التى رَدَّدُوها عن الإخوان من قبل ، المتفجرات المزعومة ، ونسف الكبارى ، وهدم مطار القاهرة ، وأشياء كثيرة مضحكة ، وزجاجات الكولونيا ٥٥٥ التى قالوا عنها متفجرات وصوروها.

ولايوجد اسم كاتب واحد فى هذا العدد إذا استثنينا محمد حسنين هيكل فى أول صفحة ، واسم كمال الملاخ فى آخر صفحة .

مولد وصاحبه قد مات .
ومافات فات وكل ماهو آت آت .

عملية إغتيال غير إنسانية ، وتعذيب بشع ، وإجرام تعدى كل الحدود تمارسه الدولة على مجموعة من الناس العزل من السلاح ، تحت نظر الدنيا جميعها وبصرها ، وبإشراف صحافتها ، ولايرتفع صوت ، ولايتحرك قلم .

أما أخبار اليوم ففى عددها الخاص بتاريخ ١٩٦٥/٩/٢٥ فكانت عناوينها كالتالى :

قنابل تحت الأرض

تعليمات سرية للإرهابين : انسفوا شوارع القاهرة .
وحكمة اليوم على يمين الصفحة :

« لاإكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » صدق الله العظيم

وتحت خبر اليوم على يسار الصفحة :
« قال الخبراء إن المفرقعات التى ضبطت مع الجماعة الإرهابية تعتبر الأولى من نوعها فى علم الجريمة ، يقوم الخبراء فى الوقت الحاضر بدراسة تركيب هذه المفرقعات » .

وتحت هذا كله :

تفاصيل الخطة الرهيبة لتفجير مفرقعات داخل مواسير المجارى . (عنوان على سطرين).
« أعدت جماعة الإرهابيين خطة كاملة لنسف شوارع القاهرة . تم ضبط كميات ضخمة من القنابل شديدة الإنفجار والمفرقعات كان الإرهابيون ينوون وضعها فى مواسير المجارى التى تمتد تحت شوارع القاهرة . وضعوا خططا لتفجير مقاطع الطرق الرئيسية والميادين الكبرى .

صدرت التعليمات السرية للإرهابين بنسف الشوارع عند بداية المؤامرة . قالوا لهم إن عملية نسف الشوارع بالقنابل والمفرقعات ستؤدى إلى قطع المواصلات . وبذلك يصبح فى وسعهم السيطرة على الموقف والتسلل إلى الحكم » .
ثم مزيد من هذا الهراء .
وعمود على يمين الصفحة الأولى تحت عنوان « هذا العدد » غير موقع ، ولايوجد توقيع واحد فى هذا العدد :

« لأول مرة فى تاريخ الصحافة العربية يشترك أكثر من ١٠٠ محرر فى تغطية قصة صحفية واحدة كبيرة ، إنها قصة الظلام والإرهاب والرجعية والخيانة والإستعمار ، قصة جماعة الإخوان كانت البداية بسيطة .. إجماع رائع من محررى صحف ومجلات أخبار اليوم على ضرورة مساهمتهم فى كشف الخيانة كاملة للرأى العام .. وتبلور هذا الإجماع الحماسى الرائع فى ضرورة إعداد ملحق خاص كبير يكون سجلا يقدمونه للشعب .. ويرسمون به الصورة الحقيقية لهذه الجماعة الخائنة بلا إنفعال .

ومضت أيام طويلة من العمل المرهق قبل أن يعودوا ومعهم الفصول الأخيرة من القصة الطويلة الدموية .

إن الصحفيين فى أخبار اليوم وهم يقدمون للشعب هذا الجهد المتواضع يؤكدون فى نفس الوقت الدور الحقيقى الذى تقوم به الصحافة الإشتراكية نحو الشعب .. مالكها وصاحبها ومعلمها الكبير . »

هكذا .. ولأحد يعرف من الخادع ومن المخدوع . دار صحفية كاملة بجرائدها ومجلاتها ومائة من المحررين النابهين يعدون عددا خاصا ليس فيه كذب فحسب ولكن احتقار واستهانة بعقل كل من يقرؤه .

وعنوان كبير فى الصفحة الأولى :

قرروا إغتيال أم كلثوم لأن لها معجبين من الرجال .

« كانت جماعة الإرهابين والسفاكين تزمع اغتيال محمد عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ والسيدة أم كلثوم . ولما سئل سيد قطب عن السبب قال :

– حكم القرآن .

ولما قيل له :

– وهل يوجد فى القرآن مايوحى باغتيال واحدة مثلا كالسيدة أم كلثوم ؟

قال :

– طبعا لأن لها معجبين من الرجال .

هكذا كان الحوار – كما زعمت الجريدة ومحررها الذى لم يوقع اسمه ولعله موسى صبرى – مع العلامة الشهيد سيد قطب صاحب ظلال القرآن والعدالة الاجتماعية فى الإسلام ، وخصائص التصور الإسلامى ومقوماته وحياته التى أفناها فى العلم والتعليم والجهاد فى سبيل الله ، ولكنهم يكتبون ولايوجد من يرد عليهم ، فى زمن غاب فيه الرجال .

وصورة فى منتصف الصفحة للعالم الشهيد سيد قطب وتحتها :

« كان سيد قطب قد سافر إلى أمريكا بدعوة شخصية . وعاد الإرهابى إلى القاهرة بعد أن أمضى سنة كاملة هناك .. وفى القاهرة نشر الإرهابى الإخوانى بعد عودته كتابا يهاجم فيه الإشتراكية العربية بدعوى أنها تتعارض مع الإسلام ».

هكذا .

والمعروف أن الشهيد سيد قطب اعتقل وسجن فى مطلع عام ١٩٥٤ وظل مسجونا حتى غادر السجن قبل اعتقاله مرة ثانية وإعدامه فى عام ١٩٦٦ .

والمعروف أن الاشتراكية العربية ولدت أثناء سجنه . والذى أعرفه أن له كتابا يهاجم فيه الرأسمالية نشر قبل حركة الضباط عام ١٩٥٢ .

ولكن لايوجد من يرد .

ونصف العدد صور للإخوان وسب فيهم .

والنصف الآخر صور للزعيم الملهم وشكر لله على نجاته .

هكذا كانت الصحافة فى تلك الأيام الصعبة .

ونعاقب من أو نلقى باللوم على من ؟

أمر بالغ الصعوبة شديد التعقيد .

وقبل أن أترك هذا الفصل أود أن أنقل جزءاً من مقال الأستاذ **محمود عبد المنعم مراد** فى مجلة أكتوبر العدد ٤٤٩ الصادر فى ٢ يونيو ١٩٨٥ تحت عنوان « **للتاريخ فقط** » :

« هذه قصة جريدة ، أروى بعض فصولها للتاريخ فقط دون مجاملة لأحد ، ولاتجن على آخر . فى يوم السبت الماضى ، أصدرت المحكمة الإدارية العليا حكمها النهائى فى القضية التى رفعها ورثة المرحوم الأستاذ **محمود أبو الفتح** ، صاحب جريدة المصرى ، والتى طالبوا فيها برد ممتلكات مورثهم ، من أراض وعقارات ومجوهرات وأموال ، كما طالبوا فيها بإلغاء القرار الذى صدر بسحب ترخيص جريدة المصرى . والشق الأول من المطالب ، لايعنينا هنا كثيرا ، إلا أن نقول إن المحكمة قضت برد بعض الأموال والممتلكات ، والتحف التى لم يعرف حتى الآن مصيرها ، ومنها لوحات فنية أصلية موقعة من كبار الفنانيين العالميين الذين رسموها ، وسجاجيد غالية الثمن ، وأطقم للمائدة مصنوعة من الذهب الخالص تقدر قيمتها الآن بملايين الجنيهات ، ولكن الذى نريد الحديث عنه هو الصحيفة . وقد بنى الورثة مطالبتهم بإلغاء قرار سحب الترخيص بناء على مانشرته الصحافة المصرية عقب إغلاق الجريدة بأنه صدر قرار بسحبه ، ولكن المحكمة التى أصدرت الحكم بعد منازعات قضائية استمرت أكثر من ثلاثة عشر عاما ، انتهت إلى انه لم يثبت صدور قرار بسحب ترخيص المصرى ، ومن ثم فهى لا تستطيع أن تحكم بالغاء قرار لم يثبت صدوره .

وقد كنت شاهدا على الأحداث التى أدت وانتهت إلى

إغلاق الجريدة . التى كانت فى ذلك الوقت أوسع الصحف العربية انتشارا فى العالم كله . ففى مساء الثالث من مايو سنة ١٩٥٤ ، فوجئنا بعدد كبير من ضباط وجنود الجيش والشرطة يقتحمون مبنى الجريدة وأمرونا جميعا بمغادرته ، وكان مقرها مكونا من مبنيين أحدهما للإدارة والآخر للتحرير ، وبينهما حديقة صغيرة كنا نوقف فيها سياراتنا الخاصة . وعندما أردت الخروج بسيارتى استوقفنى أحد الضباط ، وأراد أن يحجز السيارة ليتم التحفظ عليها ، مع كل مافى الجريدة من أدوات وآلات ومكاتب ... الخ ، وبعد مناقشات طويلة ، وبمقتضى ترخيص السيارة الدال على أنها ملك خاص لى ، وليست ملكا للجريدة ، خرجت بها ، وأوقفتها على بعد أمتار من المبنى ، ولم أعرف إلى أين أذهب ، كنت قد قضيت فى هذه الصحيفة ثمانى سنوات كاملة ، لم آخذ فيها إجازة ، ولم أعد إلى بيتى خلالها قبل الفجر ، أو قبل الصباح بعد شروق الشمس .

وفى تلك الليلة لم أستطع أن أعود إلى البيت بحكم العادة ، فجلست على الرصيف ساعات ، لاأدرى ماذا أفعل ، وكان لابد من الجلوس على الرصيف ، حتى يكون التعبير حقيقة لامجازا .

ولم يكن لأحد فى ذلك الوقت أن يتساءل عن السند القانونى لإغلاق الجريدة ، ولاعن الأسباب التى أدت إلى إغلاقها . فقد كان إغلاقها أمرا متوقعا . وكانت الأحوال فى ذلك الوقت لاتقتضى مبررا قانونيا ، ولاحتى مجرد صدور قرار بالإغلاق . يكفى أن يصدر الأمر الشفوى فتتحرك القوات ، وتطرد المحررين والعمال ، وتضع الأختام بالشمع الأحمر على الباب . وينتهى الأمر عند ذلك .

وكانت جريدة المصرى هى أول جريدة أيدت الثورة ، من أول لحظة ، ومازلت أذكر أننى كنت فى الإسكندرية ليلة ٢٣ يوليو ، أجلس مع الأستاذ أحمد أبو الفتح رئيس التحرير فى مكتب الصحيفة مع بعض الزملاء الآخرين ، وعند ماهممت بالإنصراف طلب منى أن أبقى لأنه ينتظر أحداثا هامة ، وبالفعل بقيت معه جزءا من الليل بمكتب الجريدة ، والباقى بمسكنه بسيدى جابر ، حتى سمعنا أول بيان للثورة يلقيه أنور السادات ، وبمجرد انتهاء البيان ركبنا السيارة ، وبعد ساعتين وصلنا إلى مقر الجريدة فى القاهرة ، وحاولنا إصدار ملحق نعلن فيه النبأ .

وفى الفترة من ٢٣ يوليو إلى أول مارس ١٩٥٤ ، كان الخط الأساسى للجريدة ، هو تأييد الثورة تأييدا مطلقا ،

ولكن هذا لم يمنعنا من التعبير عن بعض آراء تخالف ما رأته القيادة فى ذلك الوقت . وفى مارس حدثت الأزمة المعروفة بين الرئيس السابق اللواء **محمد نجيب** وبقية أعضاء مجلس قيادة الثورة ، وأدى الخلاف إلى التظاهر بالرضوح لما طلبه محمد نجيب من إلغاء الرقابة على الصحف ، والعودة إلى الديموقراطية والحياة الحزبية ، فأيدت الجريدة موقف محمد نجيب ، وفتحت صدرها لكل من يريد أن يكتب كما يشاء أن يكتب ، ويدعو إلى عودة الجيش إلى ثكناته ، وتولى المدنيين السلطة ، والسماح بتكوين أحزاب ، ووضع دستور جديد ، وانتخاب مجلس برلمانى ، إلى آخر ماطلبته الجماهير الشعبية .

وبالرغم من أن القرار المعلن كان فى جانب تلبية مطالب الشعب فإن جريدة الجمهورية التى كان قد أنشأها جمال عبد الناصر منذ فترة ، وكان يشرف عليها أنور السادات فى ذلك الوقت ، كانت تعبر عن وجهة نظر أخرى مخالفة

للقرارات المعلنة فى مجلس قيادة الثورة . **وفى ٩ مارس ١٩٥٤** نشرت جريدة الجمهورية مقالا طويلا ، قرأته فكتبت ردا عليه ، نشر بالمصرى فى **١٠ مارس ١٩٥٤** بعنوان (دفاع من الشعب) قلت فيه : وهل الشعب فى حاجة إلى دفاع ؟ أجل إن الشعب المصرى المفترى عليه ، فى حاجة إلى دفاع طويل ، وبخاصة فى هذه الأيام ، ففى المقال الافتتاحى لصحيفة الجمهورية الصادرة أمس ، عبارات تستوقف النظر وتستحق التعليق جاء فى هذا المقال :(كان الشعب كله عبيدا لملك طائش ماجن ، وقد طردت الثورة الملك وحررت الشعب .. وكان الشعب أكثر عبودية لسادة الإقطاع وضياع المظالم ، وقد حددت الثورة الملكية وسوت بين الإقطاعيين وغيرهم وقضت على أسباب الظلم . وكان الشعب مسخرا لخدمة حفنة من عبيد الإقطاع ومستغلى الجاه باسم الأحزاب ، وقد ألغت الثورة الأحزاب وقضت على المهرجين السياسيين والوصوليين والإنتهازيين والمحاسيب والأصهار .. كان الشعب تحت حكومة فاسدة ، وقد طهرت الثورة الأداة الحكومية ، وطردت المرتشين والمستغلين ، وتركت الثورة الشعب حرا طليقا ، من كل قيد ، إلا ضميره ومصلحته وحقوق بلاده .)

ذلك بعض ماكتبته الجمهورية فى مقالها الافتتاحى أمس ، وقد يكون بعض هذا الكلام صحيحا لاخلاف عليه ، فالثورة طردت الملك ، وحددت الملكية ، وألغت الاحزاب ، ولكن هل كان الشعب كله عبيدا لملك طائش ماجن ، أو كان هذا الشعب يكافح طغيان الملك ومجونه ، فيصوب الرصاص إلى صدره ويلقى بأفراده فى غياهب السجون ؟ هل كان الشعب عبيدا وهو الذى هتف بسقوط الملك وهو جالس على عرشه يحميه الحرس والبنادق والمدافع السريعة الطلقات ..

لم يكن الشعب كله عبيدا ، فالعبيد هم الذين يرون الظلم ويرضون به ، ويتعرضون للطغيان ويحمونه ، ويشاهدون الفساد ويتسترون عليه ، ولم يكن الشعب راضيا بالظلم ولاصامتا للطغيان ، أو متسترا على الفساد . بل كان الشعب فى كل آونة أبيا يكافح وهو أعزل ، حرا يكافح الطغيان بالروح ، كريما يهاجم الفساد بالقول والعمل .. إلى آخر ماجاء بهذا المقال الطويل الذى لايتسع المجال هنا لنشره ، والذى كان بداية لمعركة حامية ، حتى انتهت الأزمة بما يعرفه الكثيرون ، من اعتقاله محمد نجيب ، وإعادة فرض الأحكام العرفية ، والرقابة المشددة على الصحف وتلا ذلك تقديم صاحب جريدة المصرى إلى محكمة الثورة ، وصدور حكم المحكمة عليه وفقا لما أملاه عبد الناصر نفسه ، كما شهد بذلك عبد اللطيف البغدادى فى مذكراته .

وتم إغلاق الجريدة ، ثم اعتقلت مع الآلاف ، وبقيت فى المعتقل من عام ١٩٥٤ إلى عام ١٩٥٦ ولاأريد أن استطرد فيما نالنى أثناء ذلك وبعد ذلك من ضروب القهر المادى والنفسى والحرمان من العمل والمنع من السفر فليس هذا وقته ولامكانه ، ولكنها مجرد ذكريات خاطفة أثارها حكم المحكمة الإدارية العليا ، بعد ٣١ عاما من إغلاق الجريدة التى كانت تهاجم حكومات الوفد قبل الثورة فى كثير من المناسبات ، رغم آنها كانت تحمل شعاره ».
انتهى .

صحافة تركها الأحرار وبقى فيها العبيد ماذا ننتظر منها ؟
ليس غير ماحدث بالضبط .
الطبل والزمر وإقامة السيرك وملاهيه ليلحقوا الهوان بالفكرة وأصحابها والكذب والغش والنفاق والدجل ، وكل يحاول أن يخدم السلطان وأن يلعق حذاء أقل خادم عنده .

والسلطان عظيما مهابا يدوس الجميع بالأقدام ، ويمشى على تاريخهم مستهزئا ، ولو استطاع مشى على الأهرام .

الفصل السادس عشر

الخروج من الحربى إلى أبى زعبل

نادوا علينا فى صباح يوم حار من أيام شهر مايو عام ١٩٦٦ ، وعرضونا على الطبيب للكشف الطبى ، وكان يسألنا :

ـ هل هناك إصابات بالغة من التعذيب ؟

وكان الجميع يجيب بـ « لا »، رغم شدة الإصابات وكثرة الجروح ، فقد سرت شائعة مؤداها أن المصاب لن يفرج عنه قبل أن تلتئم جراحاته ، وأغلب المعتقلين مصاب بجروح تحتاج إلى سنوات للالتئام . وقال واحد ساخرا :

ـ إن أخذوا بهذه الحكمة فلن يفرجوا عنا فى هذا القرن .

وانتهى الكشف الطبى وعدنا إلى الزنازين نتقلب مع الظنون . فقد انتهت المحاكمات ، وصدرت الأحكام ، وبقى من لم يحاكم ، فتساءلنا ترى ماذا سيفعلون ؟ هل ينفذون الأحكام فيمن صدرت ضدهم ويفرجون عن الباقين أم يفرجون عن الجميع ؟ وكان الناس يميلون إلى الفرض الأخير ، فهى قضية سياسية ملفقة ، وقد أدت الغرض منها ، والشعور العام داخل مصر ملىء بالغضب والسخط ، فقد كانت النذر والسحب السوداء تتجمع ، فماذا لو أحدثوا شيئا من المصالحة الوطنية ، وضمدوا الجراح وواسوا الناس ، وجميعهم مصاب ، فهناك من قتل فى اليمن ، وهناك من قتل فى السجن ، وهناك من بقى رهن الاعتقال ؟

وكان حكماء الإخوان يقولون بغير هذا ، ويؤكدون أن إرادة الحكومة المصرية غير مستقلة ، وأنها تنفذ دورها فى مخطط مرسوم متفق عليه بين قوى متضادة متصارعة ، قد

اتفقت جميعها على إنهاك الشرق الإسلامى والقضاء على أى بذرة للإصلاح ، وأدواتهم فى هذا حكومات عميلة ، لايمكنها البقاء في مناخ حُر ، فالقمع والضرب والقهر والاعتقال هى الأدوات الوحيدة للحياة ، وهم يقومون بدورهم فى المخطط ليس تنفيذا لما يراد منهم فحسب ، ولكن لأن فى هذا بقاءهم ووجودهم .

وكان حكماء الإخوان يبشرون بمحنة قاسية واعتقال طويل ، ويتوجسون من تحرك لإسرائيل ويقول لهم قائل :

ـــ وهل تتحرك إسرائيل ؟

ويجيب الحكماء :

ـــ كل ما يحدث فى الشرق الإسلامى وفى مصر بصفة خاصة ترتيبات محددة مدروسة حتى تصبح إسرائيل أعظم دولة فى المنطقة .

ـــ وهل يدرك حكام مصر هذا ؟

ـــ ولماذا لايدركون ؟ هم يعلمون جيدا ماذا يفعلون .

ونعود إلى أفكارنا نجترها فى صمت هو أبلغ من الكلام .

وفى صباح يوم آخر كان وداعٌ قصيرٌ حارٌ مؤثرٌ بين من نادوا عليهم للخروج وبين من بقى لتنفيذ الأحكام .

وغادرنا السجن الحربى وكنا خمسة أشخاص أذكرُ منهم أحمد جبريل ، وأحمد جاد وأحمد توفيق وكاتب هذه السطور وأحمد(خامس)لا أذكره، فقد كانوا يقومون بترحيلنا حسب الحروف الأبجدية .

وأخذتنا سيارة الترحيلات إلى معتقل القلعة السياسى ، وكنا نظن أننا ذاهبون إلى البيوت . وقالوا لنا:أيام تتهيئون فيها ثم تذهبون إلى بيوتكم .

وكان خمستنا فى سعادة وسرور لم تنغصه غير ذكريات حزينة عن الذين تركناهم فى معترك العذاب بالسجن الحربى . وكان عزاؤنا أنهم سيذهبون بهم إلى الليمانات لتكسير الأحجار فى وهج الشمس بعيدا عن الحربى .

وجلس خمستنا فى تلك الزنزانة الواقعة فى مدخل البوابة نترقب ونتحدث . ويدور الحديث عن المحكوم عليهم بالموت ، أولئك المجتمعون فى الحربى . ويدور الحديث عن الذين ماتوا أمام أعيننا ضربا بالسياط. ويقول واحد :

ــ لقد رأيت بعينى الشهيد محمد عواد وهم يقتلونه عند الفسقية .

وتذكرت المرحوم عبد الفتاح اسماعيل وكنت قد التقيت به خلسة فى دورة المياه بالحربى . وقال لى :

ــ لقد أستشهد أمامى أحمد اسماعيل الفيومى دون أن ينطق بكلمة واحدة السجن هو مدرسة المسلمين ، واختبار المؤمنين ، وشهادة الصّادقين .

ويقول قائل :

ــ ولكن الأمور استبانت وعرفوا أن ليس هناك مؤامرة ، وأن الجميع أبرياء وكوننا نجتمع فى عرس أو عزاء ليس معناه مناهضة الدولة .

ويرد عليه الآخر ساخرا :

ــ وهل نحن حقا لا نناهض الدولة .

ويرد عليه معتذرا :

ــ ليس هناك من الأعمال ما يمكن أن نحاسب عليه .

ويقول أكبرنا سنا مستسلما :

ــ هى حسابات دولية يقوم على تخطيطها اليهود والشيوعيون ، ويأمرون هؤلاء الأقزام بتنفيذها .

ويطرق باب الزنزانة ويدخل عسكرى شرطة بشوشا لايسب ولا يلعن ويقدم لنا شيئا من الجبن والعسل الأسود والخبز المعجون بالتراب .

مكثنا ثلاثة أيام فى معتقل القلعة ، استبطأنا فيها الإفراج ، وكنا نسأل المخبرين ، فيوصوننا بالصبر ، ويؤكدون أن كشف الإفراج قد ذهب للسيد وزير الداخلية لاعتماده وهو معروض عليه فى البريد ، وقد ذهب الكثير ولم يبق إلا القليل ، فنجد الكلام مقنعا ومعقولا فنعود إلى الصلاة والأحاديث المختلفة ، ويكفى أن ليس هناك ضرب أو عذاب .

وفى نهاية الأيام الثلاثة دخل علينا مخبر سمين كريه الوجه ونادى على أسمائنا وطلب منا تسليم العهدة التى أخذناها يوم جئنا ، البطانية والملعقة والقروانة وطبق العسل الصغير وبدلة الخيش التى لازمتنا ، حيث نتركها فى مكان ونتسلمها فى آخر .

وسأل واحد منا عظيم المخبرين :

ــ ما القصة ؟ هل هو الإفراج حقا ؟

وأجاب الرجل بوجهه الثعبانى وسحنته الكريهة التى بدت جميلة فى أعيننا :

ـــ وهل تشكون فى هذا ؟ إلى لاظوغلى فتكتبون إقرارا بعدم العمل فى السياسة ، ثم تأخذون درسا من سيادة المدير ، وتذهبون إلى بيوتكم معززين مكرمين بسيارات المباحث كما جاءت بكم .

* * *

وعلى باب معتقل أبى زعبل السياسى أنزلونا ، وخيبة الأمل تملأ وجوهنا المتعبة .

وقال مخبر فى عدم اهتمام :

ـــ لم يوقع سيادة الوزير بالاعتماد على كشف الإفراج .

وتسلمونا فى المعتقل بنفس الاجراءات التى نسلم بها في كل معتقل نذهب إليه ، وسعدنا بوجوه حبيبة قد تركناها منذ زمن ، عندما كان الجميع يعذبون فى (المحمصة) فى صيف عام ١٩٦٥ تحت إشراف العميد أحمد رشدى أثناء المباراة الساخنة التى كانت بينه وبين العقيد شمس بدران .

قد ذهب العذاب والتأمت الجراح ، وارتدى الجميع ثيابا بيضاء من خيش المعتقل ، وعلت رءوسهم « طاقية » كريهة المنظر قد وصفتها من قبل .

سلمونا العهدة كالعادة ووزعونا على العنابر .

وقبل أن أذهب إلى العنبر أريد أن أذكركم بالمكان .

سور له باب ، يفضى إلى فناء يقبع فيه مبنى المعتقل ، حيث باب آخر من الحديد لا يفتح إلا بإذن وحساب وتحت إشراف مسئول . وتدخل فتجد غرفة على اليمين ، وأخرى على اليسار قد أعدت لقائد المعتقل وسلم إلى اليمين وآخر

إلى اليسار ، يفضيان إلى أدوار المعتقل الثلاثة وفى الدور الأول تقوم زنازين يمين وزنازين شمال ، وموقعهما مشتق من اسمهما ، وتتناثر غرف الإدارة والمستشفى والمخازن على الجانبين . والقفص الحديدى يشمل القاعة الداخلية ، حيث تبدو كقفص القرود .

وفى الدور الثانى ستة عنابر على اليمين ، من عنبر واحد إلى عنبر ستة . وعلى اليسار من عنبر سبعة إلى عنبر رقم ١٢.

والدور الثالث كذلك .

والعنبر يتسع لعشرة ، وكان فيه عندما دخلته ستون .

وصنفوا المعتقلين فى أبى زعبل إلى قسمين ، الذين تناولتهم التحقيقات وهؤلاء يقيمون فى الدور الثانى ، والدور الثالث يقيم فيه الإخوان الذين لم تشملهم التحقيقات ، وتم جمعهم حسب قرار رئيس الجمهورية فى ١٩٦٥/٩/٦ باعتقال كل من سبق اعتقاله من الإخوان المسلمين .

وأودعونى عنبر خمسة فى الدور الثانى .

ودخلت العنبر مذعورا فما زالت أصداء التعذيب تطن فى أذنى ، وتضغط على مخيلتى . ولكنى وجدت المكان مختلفا .

والتف أهل العنبر حولى ، وقدموا لى كوبا من الشاى فى علبة (سالمون) وقد نظفت وأعدت لهذا الغرض ، وكانت دهشتى بالشاى عظيمة ، وفرحتى به أكبر ، وبعد أن شربته سألت :

ـــ هل يمكن كوبا آخر ؟

وأتوا إلى بكوب آخر ، ورأيت الحلاوة الطحينية كثيرة فى الأفواه ، وفى أيديهم ، ولاتكاد تساوى شيئا ، وجاءونى بها وأكلت منها حتى شبعت . حياة تختلف تماما عن تلك التى كنا نحياها فى الحربى .

وانهالت الأسئلة من كل جانب . وصرت أقص عليهم ما جرى ويجرى فى السجن الحربى ، والكل صامت كأن على رأسه الطير ، فقد كنا أول من يدخل إلى أبى زعبل من السجن الحربى .

وجاء دورى فى السؤال :

ــ ما الأحوال هنا ؟

ودارت عيناى فى الوجوه التى فاجأها سؤالى وأجاب واحد :

ــ سوف ترى بنفسك كل شىء على مر الشهور والأعوام .

وذهلت أيمكن أن تكون هناك شهور وأعوام ؟ ليس من إفراج إذن . وهؤلاء المخضرمون يعلمون كل شىء فقد مروا بمحن عديدة من قبل .

وكانت المعاملة دون سب أو ضرب تحتاج إلى تدريب ، فقد صار المعتقل للغرض الذى أعد له ، اعتقال صارم قاس محكوم بلوائح شديدة ، دون تعذيب بالضرب أو الكى أو التعليق .

وعندما أقول تدربت فهى كلمة دقيقة ، فالمعاملة الخالية من التعذيب والسب تحتاج إلى مران وممارسة ، فردود أفعالنا تنتمى إلى عالم السجن الحربى ، حيث كان العذاب سلوكا

يوميا لحظيا نشعره ونعيشه فى كل لحظة من لحظات صحونا ، أول شيء نفتح عليه أعيننا فى الصباح ، وآخر شيء نهرب منه عندما ننام .

وكانت تجربة الحربى فريدة من نوعها ، فقد اجتمع هناك طوائف من جهات شتى ، قد جمع بينهم خطر الموت المتربص فى كل زاوية ، والجوع والخوف ، فهم يتماسكون ويتآزرون رغم اختلاف أفكارهم ورؤاهم ، لأنهم فى نسيج واحد وفى عروة لا تنفصم .

كانت المجموعات التى يتشكل منها سكان الدور الثانى فى المعتقل خليطاً من الإخوان المسلمين الذين أمضوا عشر سنوات فى السجون دون أن يؤيدوا عبد الناصر ، ومن بعض الذين أيدوه ، والجميع كما قلت قد ذُكرت أسماؤهم فى التحقيقات ، ومع هؤلاء عدد من الذين اعتقلوا عام ١٩٥٤ ولم يقدموا إلى المحاكمة آنذاك ، ثم الجيل الجديد فى قضايا الإخوان وعلى رأسهم الذين يفدون من السجن الحربى تباعا .

وكان قدامى المعتقلين والمسجونون المقيمون فى أبى زعبل أصحاب التجارب السابقة المريرة ينظرون فى توجس وقلق إلى المعتقلين القادمين تباعا من الحربى ، فهم يناورون الحكومة مناورة محكمة ، مدارها أن جماعة الإخوان المسلمين قد انتهت ، والموجودون أفراد عاديون لا يتميزون إلا بتاريخ قديم يريدون من الحكومة أن تنساه ، وفى سبيل هذا يتظاهرون بأشياء كثيرة لا يعتقدونها ، وبخبرتهم الطويلة استطاعوا أن يقدموا أداء رائعا فى هذا المضمار باتفاق لم تكتب شروطه ولم يحدث بشأنه اتفاق .

وكانوا يسلكون وفق هذا وبالنفوس ما بها من فكر راسخ مستقر لا يتغير ولا يتبدل ، ومع توالى الأيام والأحداث أكدت لهم الظروف مدى صحة نظريتهم ، وحكمتهم فى هذه التصرفات ، وكان تخوفهم شديدا من المعتقلين الجدد ، فهم لن يمكنوهم من خداع الحكومة بالقدر المناسب الذى يسمح بالإفراج عنهم .

خبرة طويلة فى عالم السجون والمعتقلات ، وعلم بأساليب الحكومة ، ووعى بالإعصار العاتى المدمر ، وانحناء الرءوس قليلا سوف يجعل كل شىء يمر بسلام ، ولاشك أن خوفهم كان شديدا من هؤلاء الجدد فقد يفسدون المخطط الإخوانى الذى بدأ بغير إعلان ، ولم يكن من السهل أن تنقل خبرة سياسية لها عراقة وتجربة إلى شباب حديثى عهد بمثل هذه المناورات فى وقت يسير . ويبدو أن الإخوان قد أملت عليهم الظروف استخدام « التقية » فى التعامل مع القوى العاتية المناوئة لهم ، ولعلهم كانوا مجبورين على هذا ، فهناك عدو شرس لايقبل منهم بغير التنازل عن أفكارهم وأهدافهم ، ولم يكن هذا فى وسعهم ، فليس أمامهم غير التظاهر بالاستجابة ، وبنفوسهم مابها من اعتقاد .

هذه هى ملاحظاتى فى تلك الأيام بمعتقل أبى زعبل السياسى .

وقد أكدت الأحداث التى توالت صحة هذه الملاحظات .

وبعثرت المباحث الوافدين الجدد فى العنابر المكتظة بالإخوان ، وبدأت فى تنفيذ برامجها الخاصة بغسيل المخ والتخلى عن الأفكار ، ومن الخطوات المطلوبة أن يعيش الستون أو السبعون المجتمعون فى العنبر حياة انفرادية ، تحت ضغط التخويف بعدم الإفراج ، أو الإرسال إلى معتقل القلعة

للتعذيب من جديد . فعلى كل واحد فى العنبر أن يعيش وحده ، يأكل وحده ، ويصلى وحده ، ويفكر وحده ، ولا يتعامل مع أحد ، وإن أراد أن ينسجم مع إرادة الحكومة فعليه أن يثير المشاحنات والمشاكل والمشاجرات مع من فى العنبر من معتقلين ، وكان هذا أمراً بالغ الصعوبة ، بل هو فى حكم المستحيل .

كان العنبر مغلقا على من فيه طول اليوم والليلة ، ومن فيه يجلسون متلاصقين بالنهار، وينامون كذلك ، فكيف يتأتى أن يعيش كل فرد وحده ؟

الصلاة فى جماعة أمر لا مفر منه .

الأكل فى مجموعات شكل تمليه الظروف .

وبعد ذلك ، ليس غير المصحف الذى دخل للناس خلسة من رواء القضبان . لاكتب لا صحف لا أى شىء .

ليس هناك غير حفظ القرآن ، واحد يقرأ ، والآخر يراجع عليه ، وينبهه إلى الخطأ إن وجد .

حياة جماعية يصعب حلها ، فالآخرون يحيطون بالآخرين ، ولا يتركون لفرد فرصة للوحدة أو الانفراد ،فالكل يعيشون معا ولا يفترقون إلا ساعة النوم ، ولا تتحقق عزلة إلا فى دورة المياه أو بالغيبوبة ، ويبدأ الاندماج مع الصحو واليقظة ، ومع أذان الفجر يبدأ المعتقلون يومهم الجماعى الطويل .

* * *

وعنبر خمسة شأنه كسائر عنابر الدور الثانى من الإخوان بتصنيفاتهم المختلفة ، والجميع يتظاهرون بالانسجام مع مخططات الحكومة المعلنة والتى تهدف إلى القضاء على

روح الجماعة بين هذا الجمع من الناس . وجميع الأحاديث السرية الخفية التى تدور همسا بين الأفراد وفى غفلة عن الرقباء، تؤكد أن هذه الجماعة لن تموت ، وكان من العبث محاولة نزع أفكار قد استقرت فى رءوس أصحابها عشرات السنين ، وصارت تمثل جهادهم وكيانهم ، مهما كانت بشاعة الاعتقال والتعذيب الوحشى ، ربما يتظاهرون بالموافقة والاستجابة ، ولكن ليس أكثر من التظاهر فقط .

كانت الحكومة تعمل غسيلا لمخ المعتقلين فى مخطط لم ينجح ، فهم لم يكونوا يستخدمون ذلك المنهج بالدقة والعلمية المطلوبة لتحقيق الأهداف ، ويرجع ذلك لأسباب كثيرة منها جهل القائمين عليه ، الجهل بصفة عامة ، وعدم الإخلاص ، وعدم الأمانة للنظام ، وهى صفات غرسها فيهم النظام الموجود ، وكان إخلاصهم مرتبطاً بالرواتب التى يقبضونها ، وبالمزايا التى يسرقونها ، وهى قليل فى نظرهم إلى جانب ما يتصورون أنه مطلوب منهم ، فهم « الفتوات » الذين يحملون الهراوات لحماية « المعلم » ، وهم الذين يلفقون القضايا لأعدائه ، وبغيرهم لايستطيع الحياة ، وفى سبيل الوجود فقدوا المروءة والشرف والمثل الأعلى ، ويفرح « الزعيم » عندما تصله الأخبار عن سفالاتهم وسرقاتهم فهى السبيل الوحيد للارتباط به والمحافظة عليه .

حتى الأفراد الأكثر تقدما فى المنهج ، والذين يعاونون الحكومة فى تحقيق أهدافها ، كانوا يفيضون غلا وغيظا ، ويصرخون فى كثير من الأحيان أن الله سوف ينتقم منها إنتقاما مروعا فى يوم ما .

وإذا كانت الجريمة محرمة على الأفراد لحماية المجتمع فهى محرمة من باب أولى على الحكومة ، ولكن المتأمل يراها قد إرتكبت كافة الجرائم التى يعاقب عليها قانون العقوبات ، الاغتصاب، القتل ، السرقة ، التعذيب ، التجويع ، السجن والاعتقال بدون ذنب .

سرق الحكام وضباطهم الأحرار الأموال المصادرة والجواهر الكريمة والتحف النادرة ، وملئوا بها بيوتهم ، وتزينت بالمال الحرام نساؤهم ، وسكنوا مساكن السابقين وقصورهم من الذين ظلموا فى زعمهم . وكان السيد على صبرى يسكن قصرا مصادرا قيمته الإيجارية — هو الذى حددها — ستة جنيهات ، ويقدم فواتيرا شهرية للإصلاحات قيمتها مائة ضعف ، والله يضاعف لمن يشاء ، ثم يركب سيارته التى لم يخلق مثلها فى البلاد إلى معهد « إعداد القياديين فى حلوان » حتى يحاضر عن الاشتراكية ، ويتكلم عن الكفاية والعدل .

و« الزعيم الملهم » يسر من الرخاء الذى تعيشه البلاد عندما تقوم شركة مقاولات ببناء «فيلات» لكريماته ، وتخبره أن تكلفة الفيلا لا تزيد عن ثلاثة آلاف جنيه ، رغم أنها مقامة فى مساحة فدان من أرض مصر الجديدة ، ويدفع الزعيم ثمنها بالتقسيط المريح من مرتبه .

ولصوص صغار يخفون الجواهر فى ثيابهم أثناء الجرد .

كانت هذه هى المثل العليا السائدة فى المجتمع ، مجموعة ساعدتها القوة والقدرة على سرقة بلد بأكمله ، ألا يدفع هذا حراسهم وفتواتهم أن يمارسوا جميع الجرائم ، وأن يملئوا بيوتهم وجيوبهم من المال الحرام ؟

وكل يسرق على قدر قيمته ، ولم يكن المعتقلون يجهلون حقيقة جلاديهم ، وكانوا يضمرون لهم احتقارا وازدراء وفهما لطبيعتهم الإجرامية ، فيسايرونهم فيما يريدون ويدركون أن فرج الله قريب .

ورغم كل ما جرى في المعتقل من أمور غريبة ومثيرة إلا أنه ظل مدرسة للترابط والوحدة والتفكير في الأخطاء ، وتعديل الخطط وكيفية تحقيق الأهداف .

واستمرت اللعبة قدما ، ببراعة من جانب المعتقلين ، وبجهل وغشم من ناحية المستبدين .

والقرآن الكريم يتلى في كل ركن وزاوية من زوايا المعتقل العالي الجدران .

* * *

كان الأستاذ محمد ماضي إماما للعنبر ، يستيقظ للتهجد في جوف الليل حتى يحين موعد الفجر فيؤذن للصلاة ، وتقف الصفوف خلفه ويصلي بالناس .

وكان يصر على القنوت والدعاء على الظالمين دعاء حارا من قلب مرهف ووجدان ملتهب ، يستشعر الظلم ويفهم معناه ، ويرد عليه المعتقلون في حرارة عقب كل دعاء ، آمين .

وجلس أحد العقلاء إلى الأستاذ ماضي يوما وقال له :

ـــ يا أستاذ ماضي ، مالك والظالمين ، ألا ندعهم في حالهم ماداموا قد تركونا في حالنا .

ويرد عليه الأستاذ ماضى محتدا :

ـــ وهل تركونا فى حالنا ؟

ويتطور الحوار حتى يكاد أن يفصح عن هوية الظالمين ومن يكونون .

وهنا يتوقف الحوار ليعود بعد شهر أو شهر ونصف على الأكثر .

وتقضى الصلاة وينصرف الناس للنوم إلا عددا قليلا يقرءون القرآن فى دوى خافت الصوت يطوف بأركان العنبر فى غاشية من ترديد كأنه الحلم أو أمل بعيد .

ثم يمتلىء العنبر بالضياء مع إشراقة الشمس وينهض الجميع ، ويبدءون فى خلع ملابسهم الخارجية للتخلص مما بها من « قمل » .

وكنت تسمع الأرقام تتردد من هنا وهناك ، خمسة ، سبعة ، عشرة ومن آخر العنبر ينطلق صوت :

ـــ رقم قياسى .. خمسة عشر .

ثم تبدأ المجموعات فى الاستعداد لطعام الإفطار .

والإفطار مكون من الجبن القريش ومن العسل الأسود يوزع مرة كل عشرة أيام أو أكثر ، ويوذع فى دورة المياه حيث يكون فى متناول المعتقلين عبر « مسئول » قد تم اختياره بشكل لا يتذكره أحد ، فهو لم ينتخب ، ولم يعين ، بل وجده الجميع هكذا .

وكان « المسئول » عن العنبر إداريا هو الأستاذ محمد أحمد ، فهو المتصرف فى شئون المعيشة بوجه عام ، يحدد علب الحلاوة الطحينية المطلوب شراؤها عندما يعلنون عن

ذلك ، وهو الذى يحاسب على عدد أكواب الشاى التى تصرف مرة كل صباح وأخرى بعد العصر ، وتلك الثانية قد سمحوا بها بعد جهاد مرير استمر شهورا . وهو الذى يفض منازعات الحدود ، فيقوم بقياس العنبر لتحديد السنتيمترات المتنازع عليها ، فقد كان من حق كل معتقل سبعة وثلاثون سنتيمترا عرضا فى طول لايزيد عن مائة وخمسين سنتيمترا ، فالطويل يضع رجليه بين رءوس جيرانه عندما ينام .

وكان محمد أحمد حكيما عاقلا فى تصريفه للأمور بالعنبر .

وينقسم الناس فى الطعام إلى مجموعات حسب المشارب والمعرفة وطبيعة العلاقات بينهم ، فمجموعة مكونة من خمسة وأخرى من ثلاثة أو أربعة ، ونادرا ما تجد واحدا يأكل وحده .

ويتولى واحد من المجموعة إعداد وجبة الإفطار من مدخرات الأفراد من الجبن القريش والعسل الأسود وأحيانا بعض الفول الأسود ، وهو ليس بالمدمس ، وأحيانا عسل أبيض أو جبن « نستو » أو أى شىء يأتينا عن طريق « الكانتين » وندفع ثمنه .

وتتحلق الحلقات للإفطار ، ويفرغون منه وينتظرون الشاى .

ووقت توزيع الشاى من الأوقات المبهجة فى ذلك الزمن ، وكان عبد العظيم دوح هو الذى يقوم على توزيعه عبر العنابر ، وبعد أن أفرج عنه خلفه محمد عليوه ، وكانت رؤيته وهو قادم وفى يده إبريق الشاى الكبير تجعل المزاج يعتدل وينبسط ، والكل واقف فى طابور طويل وفى يده الكوب الصفيحى الفارغ المصنوع من علب (السلمون) المحفوظ ليملأه له محمد عليوه بالشاى ، ثم الذى يليه وهكذا .

وكان بعض الأثرياء يشتركون فى أكثر من كوب فيملئون (الترموس) بالشاى ويتناولونه جلسة أثناء النهار .

وقد يتأخر الشاى بعض الوقت لأسباب فنية ، فتجد جمعاً من المعتقلين وقد وقفوا على الأبواب الحديدية ينقرون عليها بالأكواب الصفيحية ، وتنبعث الضجة من أركان المعتقل معلنة عن « القريفة » وقلة المزاج .

وينتهى شرب الشاى ، ويعكف الناس على ما ينهضون إليه من نشاط وأهم هذا النشاط هو غسيل الملابس فى الساعات القليلة التى يسمحون فيها بالمياه ، وذلك بعد أن يأخذ المسئول الحكومى الرشوة اللازمة وهى غالبا ما تتغير زيادة بين اليوم والآخر .

ويقف أهل العنبر فى صف وكل ممسك بدلو من البلاستك مختلفا ألوانه ، وقد نقع ملابسه الخيشية فى المنظف ، وينتظر دوره فى الدخول إلى دورة المياه الصغيرة ، وتنقطع المياه بعد ساعة ، وينقطع الصف ليتصل بعد ساعة أخرى ، وربما فى اليوم التالى .

وكنت أغسل ملابسى فى الليل ، ففيه أملك المكان لساعات طويلة ، وبعد فترة من الوقت صار طابور الليل أطول من طابور النهار ، واحتج زعماء العنبر وشيوخه الذين ينامون عقب صلاة العشاء ، فهم يريدون الراحة تمهيدا لعبادة الليل .

وعند الظهر يأتون بوعائين اسم الواحد منهما (كانتين) ، قد امتلأ أحدهما بالفول وبالسوس والحصى والتراب وبعض الحشرات ، والآخر أرزا مطبوخا بدود رفيع ، فكنا نملأ

« القروانة » به ثم نغمرها بالماء إن وجد فيسبح الدود ، ومن ثم يمكن التخلص من معظمة ، أو تتعذر المياه فيأتى حكم الاضطرار .

ويأتون (بالحمبلوط) مرتين فى الأسبوع وهو نوع من الخضروات لم يعرفه أحد منا فأطلقوا عليه هذا الاسم ، ويأتون به مرة أسود وأخرى أحمر . ومن كان معه مال ، وهو يأتى من الأهل عن طريق المباحث ، فيمكنه شراء حصة مما يباع فى « كانتين» المعتقل .

وكان مايباع فيه يتوقف على الصفقات التى يمكن أن تعقدها الإدارة مع التجار والموردين ، فقد جاءوا مرة بكمية من البسكوت تكفى لإطعام جيش وظل الناس يشترون بسكوتا حتى ينتهى ، ومن ثم يعقدون صفقة أخرى لصنف آخر ، فهكذا كانت السياسة .

ولايجوز أن يقدم شخص طعاما هدية لآخر ، فالتكافل ممنوع والويل لمن يضبط ، ولكنه كان يتم فى الخفاء وفى تكتم شديد .

وكانت المباحث تحظر أن يشارك أحد آخرين فى طعامه الخاص ، ولم ينجحوا فى هذا لطبيعة المكان والزمان .

وكان نادرا ما يأكل إنسان وحده ، وإن حدث فيأتى ذلك من الفقر الشديد أو الثراء الشديد أيضا .

ولله فى خلقه شئون .

وكان كل شخص يعيش داخل العنبر على بطانية من الصوف قد طويت بعرض سبعة وثلاثين سنتيمترا ، وهو كما وضحنا العرض الذى يسمح للمكان باستيعاب ذلك العدد الكبير الذى حشر فيه ، وينام الناس فى ثلاثة صفوف تعترض

طول العنبر ، وعلى الحوائط قد علقت أقفاص الجريد التى تستعمل فى نقل الفاكهة ، ولكل مجموعة قفصين أو ثلاثة حسب عددها ، وفى هذه الأقفاص تحتفظ المجموعة بكافة مقتنياتها الحياتية ، فالحلاوة الطحينية ، والعجوة والبسكوت وربما علبة من عسل النحل ، وبعض الجبن حسب ما يأتى ويسمح بالشراء .

وكان البعض يمزق جزءا من الملابس ليستر ما بالأقفاص فلا يرى ما بها من مظاهر الغنى والثراء الممثلة فى عدد علب الحلوى وعدد باكوات العجوة ، وتقاس مكانة المجموعة وعظمة أفرادها بعدد الأقفاص التى تقتنيها .

وليست هناك ملاحظة ذات بال على العشاء فهو شبيه بالغداء ، المجموعات تأكل مع بعضها حسب النظام الذى يضعه رئيس المجموعة . وكان مسئولا عن دوام هذه المواد الطعامية حتى تأتى الكانتين بضاعة جديدة .

وكانت فترات الشراء تتباعد ، ولا يعلم موعد الإعلان عن أطعمة جديدة ، ويبدأ تقتير رئيس المجموعة على زملائه فى العجوة والحلاوة الطحينية وغيرهما ، ويزداد التقتير مع طول المدة ، وقد تنفد هذه المواد قبل أن يأتى غيرها ، ويكون الطعام هو الرسمى الردىء الضار بالصحة الملىء بالحشرات والقذارة والميكروبات .

وأحيانا تأتى البضائع فى منتصف فترة التقتير ، ويعلن أن البيع سيكون من الغد ، وفى هذه الليلة يتحول الطعام إلى مهرجان ، فيسرف فى توزيع الحلوى والعجوة والعسل الأبيض ، ويكون الطعام فى هذه الليلة بلا حساب .

وكانت بضائع « الكانتين » تقتصر على المعلبات أو ما

يعبأ ، وقد جاهد الناس جهادا كبيرا وتكلموا مع المسئولين كثيرا من أجل السماح لهم بالخضروات الطازجة مثل الطماطم والجرجير والجزر والفلفل الأخضر ، واستعانوا بالأطباء ، واستشهدوا بحالات المرض التى انتشرت نتيجة لنقص الفيتامينات ، ولعلهم لم يسمحوا لنا بشرائها على حسابنا إلا فى الأسابيع الأخيرة قبل مغادرتنا لمعتقل أبى زعبل السياسى .

* * *

كان فى عنبر خمسة فى ذلك الوقت حوالى سبعون أذكر منهم :

الأستاذ محمد ماضى ، الأستاذ أحمد عادل كمال ، الشيخ محمد المطراوى ، المرحوم ابراهيم عزت ، المرحوم عبد القادر هلال ، الأستاذ سمير الهضيبى ، الدكتور فتحى عجوة ، المرحوم أحمد قتة ، الاستاذ عبد الفتاح ضرغام ، الأستاذ عثمان محمد ابراهيم ، الأستاذ حسن مراد ، الأستاذ محمد أحمد ، وكان يلقب بالمدير فهو همزة الوصل بين العنبر وبين الإدارة الذاتية من المعتقلين ، وكانت تقوم على تنظيم شئون الحياة فى هذا المكان العجيب . فلم نكن نرى أحدا من إدارة المعتقل الرسمية والقائمون على الإدارة والخدمة من قدامى المعتقلين .

وكان معنا فى عنبر خمسة الأستاذ عبد الرحمن حسب الله ، وهو أحد ستة أشخاص تكونت منهم جماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٢٨ .

ونحاول أن نتذكر الآخرين :

محمد السودانى ، عبد الرحمن عبد التواب ، حسين

الحنفى ، عبد الختّان الفلاح الذى كان يطربنا بغنائه أحيانا بصوته الجميل القادم من الجنة ، عندما كان يغنى أشعار المرحوم ابراهيم عزت .

وكان معنا أيضا الأستاذ جمال فوزى شاعر الإخوان بأدبه الجم وخلقه الرفيع وحديثه العذب الدمث ، وصبره على الأذى والسجن فى وداعة وهدوء . والحاج حسن حافظ الفقى الذى كان يملأ العنبر بجو من البهجة والمرح ، فقد كان عصبيا شديد التوتر طول الوقت ، على طيبة قلبه وسلامة صدره ، وكان كثيرا ما يتشاجر مع المرحوم ابراهيم عزت حول الماء.

فقد كان احتياطى الماء صفيحتين مكشوفتين فى دورة المياه ، وكان هذا الرصيد صيفا وشتاء للسبعين فى قضاء حوائجهم من طهارة وطعام وغسل للثياب والوضوء والاستحمام وكل شىء عندما تنقطع المياه.

وكان المرحوم ابراهيم عزت يحب أن يسبغ الوضوء على المكاره ، وكان يبالغ فى التطهر ، فينتظره الحاج حسن حافظ على باب الدورة ويشاجره عندما يخرج :

– ليس من المعقول أن تتطهر وحدك بنصف صفيحة ، والباقى لهذا الجمع الغفير ، هذا ليس من الإسلام فى شىء واسأل الحاج فريد عراق.

والحاج فريد عراق هو زعيم جماعة التبليغ فى مصر ، والتى انبثقت عن جماعة الإخوان المسلمين فى أيام القهر قبل الاعتقال ، وكان المرحوم ابراهيم عزت من أقطابها البارزين،

ويضج العنبر بالضحك ، ويتدخلون لفض المشاجرة ، وكانت دائما من طرف واحد ، فقد كان المرحوم ابراهيم عزت شديد الحياء لا يسمع له صوت ، ويكتفى بابتسامته العذبة

المتسامحة ، ويستنجد بالشيخ المطراوى ليخلصه من حسن حافظ . وكان معنا حامد ابراهيم شكل ، وهو اختصاصى فى الأخبار السيئة ، ويسرف فى التشاؤم ، وكان يضفى على المكان جوا كئيبا من التوتر والضيق ، فأطلق عليه حسن مراد اسم (البلاكوس) ، وهو اسم لحانوتى شهير فى العباسية فى ذلك الوقت .

وكان معنا الأستاذ حسن اسماعيل وسليم عفيفى والمرحوم جمعة وعم سيد وفا الذى كان يقطر سخرية ومرارة مما كان يجرى حوله ، ويتندر عن حياته والسجون الكثيرة التى يخرج منها ليدخل فيها مرة ثانية فى دوامة لا تنتهى .

وكان معنا الحاج محمد المخ من عرب جهينة ، وكان رجلا طيب القلب ، نقى الوجدان ، لم يفقد لهجته التى قدم بها قبل أكثر من خمسة عشر عاما متنقلا بين السجون وبين المعتقلات .

ومن طرائفه أن المباحث عبر الإدارة أخبرتنا على ضرورة أن يقف كل واحد منا ويقارن بين الحياة قبل الثورة وبعد الثورة من خلال عمله الذى كان يقوم به ، وقد حدث هذا فى مرحلة ما من مراحل إقامتنا فى أبى زعبل ، فيقف المعتقل الذى كان يعمل مثلا فى مصلحة الطب البيطرى ، ويقارن بين « البيطرة » فى العهدين ، وكانت تخصص ساعة يوميا لهذا الهراء بعد صلاة العشاء .

وعندما جاء دور الحاج محمد المخ وقف الرجل فى حيرة بعد الصلاة وقال :

– يا جماعة اعذرونى لا أستطيع أن أفضى لكم بشىء .

– لماذ ؟

– لأننى سجنت عندما قامت الثورة ، ولم أخرج من سجونها ومعتقلاتها حتى اللحظة التى أقف فيها أمامكم .

ويقول له أحد الخبثاء بصوت عال :

– احك لنا إذن عن الفرق بين السجون والمعتقلات أيام الملك وفى عهد الثورة المباركة .

ويجيب الرجل فى عفوية وبساطة وظرف بالغ :

– ولكنى لم أسجن و لم أعتقل إلا فى عهد الثورة المباركة .

وكان معنا عبقرى الكيمياء الدكتور عصمت بدوى ، والأستاذ يوسف كمال محمد صاحب نظريات الاقتصاد الإسلامى . والدكتور أمجد صديق والأستاذ محمد أبو العلا ، الهادىء الطبع صاحب الحديث الرقيق .

كان معنا سيد القشاط خبير الشطرنج الدولى ، يستطيع أن يلعب وعلى عينيه عصابة ، فهو لا يرى الرقعة ، ورغم هذا لا يهزمه أحد فى هذه اللعبة .

وكان الشطرنج يصنع من لباب الخبز الردىء الذى يقدم لنا ، وتكون للشطرنج ناد فى العنبر ، من أبرز لاعبيه أو أعضائه الأستاذ حسين عبد العال المحامى والأستاذ حمدى اسماعيل والأستاذ سمير الهضيبى وكاتب هذه السطور وأحمد عادل كمال الذى لم يهزمه أحد فى هذه اللعبة حسب ما أذكر .

والتحق الحاج محمد المخ بالنادى وكان يرى الشطرنج لعبة صعبة لا يمكن تعلمها ، ثم رأيته فى معتقل طره بعد سنوات وقد أجادها .

كان معنا أيضا سعد السيد وحامد موسى والدكتور أحمد دَعَادِرْ الأستاذ بكلية الزراعة جامعة الزقازيق ، ومحمود شكرى ويحى عبد الحليم أحد المجاهدين فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ .

وكان معنا صلاح ممتاز وعبد الغنى عوض مدرس اللغة العربية وخبير السلاح فى زعم المباحث العسكرية ، فهو الذى يفرق بين أنواع القنابل ، جيدها من خبيثها بمجرد النظر ، شأنها عنده شأن الجوافة والمانجو .

وكان معنا المرحوم الكابتن أمين شداد ، وقد احترقت طائرته فى « بانجكوك » بعد خروجه من المعتقل ، فى حادث مروع هز العالم ، وكانت تصحبه زوجته فى تلك الرحلة .

مختلف التخصصات ، والمهن ودرجات التعليم المختلفة ، والكل شاء أم أبى قد انضم إلى جماعة الإخوان المسلمين بإرادته أو بإرادة المباحث العامة ، وهو فى الكشوف إلى أن تقوم الساعة .

وكان هناك معنا الكثير ممن لم أستطع تذكرهم ، وكانوا جميعا من خيرة الناس ، وأحمل لهم أطيب الذكرى بعد مرور هذا الوقت الطويل .

* * *

شغل البعض نفسه بالصلاة معظم اليوم وجزءا كبيرا من الليل ، وشغل البعض نفسه بالأحاديث مع الآخرين ، أحاديث تبدأ من أية نقطة وتنتهى حتما إلى السياسة فى أغلب الأحوال .

وكان باب العنبر ذو القضبان الحديدية هو نافذتنا على العالم ، وأمامه من الداخل أقل من نصف متر مربع ليس به فراش لأحد ، فيسرع البعض بالاستيقاظ نشيطا مبكرا ليمسك بقضبانه ساعات ليبصر لا شىء فى فناء المعتقل ، ويتكاثر هؤلاء المشاهدون الممسكون بالقضبان ، بينما تقف مجموعة خلفهم لا ترى شيئا على أمل أن يمل واحد من هؤلاء ، فيندفع أقربهم مكانا ليقف بدلا منه ، وكان بعض المرضى يميزون فيقدمون ليحصلوا على هذه المتعة دون دور .

ويفضل البعض الآخر أن يترك صلاة الجماعة على ما فيها من حسنات حتى يتمتع بالمشاهدة وحده فى الدقائق التى تتم فيها الصلاة .

والمكان نظيف جدا ، رغم ندرة المياه ، وذلك العدد الضخم الذى يعيش فيه . وكانت النظافة من العمليات الدقيقة التى يقوم بها كل فرد أكثر من مرة فى اليوم ، وتتم بصعوبة شديدة لكثرة الساكنين فى العنبر ، فيجلس كل فرد على بطانيته مربعا ساقيه ويكنس البطانية بيده بصبر وأناه ، ثم يطويها ويكنس ما تحتها ، ثم يمسح البلاط بخرقة مبللة بالماء ، ويتكرر هذا مرات فى اليوم .
ويقوم « الدورى » بالنظافة العامة لدورة المياه ، والأماكن المشتركة مثل الباب والجزء الذى يقع أمامه ، وهما شخصان يتغيران كل يوم فى ترتيب ، ويعفى من ذلك المرضى وكبار السن .

وكان الورق والأقلام جريمة كبرى لا يقوى أحد عليها ولا يستطيعها ، والقراءة ممنوعة شكلا وموضوعا ، ومن ثم استطاع عدد كبير أن يتم حفظ القرآن الكريم فى تلك الأيام التى قضيناها فى أبى زعبل بعد انتهاء التحقيقات .

ومع مرور الأيام استطعنا أن نتحايل على النظام والقانون الذى يقضى بالتآكل الذهنى ، وتم الاتفاق على أن يقدم كل واحد محاضرة من واقع تخصصه .

وأتذكر فى هذا المجال محاضرات الأستاذ أحمد عادل كمال عن استراتيجية الفتوح الإسلامية ، التى كنا نستمع فيها وكأن على رءوسنا الطير من روعة العرض وعظيم المنطق ، رغم عدم وجود المراجع ، فقد كان الرجل حاضر الذهن منظم التفكير

فى عرض موضوعاته فى محاضرات عديدة حتى جاء أمر الإدارة بالتوقف عن هذا .

ثم اقترحوا علينا أشياء أخرى ، وكانت اقتراحاتهم أوامر لا تقبل العصيان ، وعلى الجميع تنفيذها دون تردد ، بل علينا أن نشيد بهذه الاقتراحات وروعتها وعظيم فائدتها .

* * *

اقترحوا علينا ما يسمى بالنقد الذاتى ، وعلينا جميعا أن ننقد أنفسنا نقدا ذاتيا ، واصطلاح « النقد الذاتى » اصطلاح وارد من البلاد الشيوعية ، وكان رئيس الوزراء آنذاك ما يطلقون عليه بالسيد على صبرى ، وكان هو صاحب الفكرة التى انتشرت فى المجتمع المصرى آنذاك . وكان على كل واحد أن يقف على رءوس الأشهاد لا ليلقى محاضرة فى التاريخ أو الكيمياء أو اللغة العربية كما كنا نفعل ، بل عليه أن يقف وينقد نفسه نقدا ذاتيا ، يعنى يسب نفسه ويذكر عوراته ومثالبه ودوره السلبى فى الحياه وأثناء نشاطه فى جماعة الإخوان المسلمين .

ولم تنجح دورة « النقد الذاتى » فقد كانت فكاهية تثير الضحك والسخرية من الجميع ، واعتبرناها حفلات ترفيهية فى ذلك الجو الكئيب .

* * *

وكانت الأيام تسير بطيئة ثقيلة أثناء إقامتنا فى عنبر خمسة ، وكانت النفوس ممتلئة بالتوجس والرهبة والخوف من مجهول غامض لا نعرف كنهه ، ولا ندرى متى يهجم علينا ، ولا ندرك ماذا يريد منا .

وكانوا لا يسمحون لنا بمغادرة العنبر على الإطلاق إلا مرة واحدة كل شهرين حيث نتجمع فى ساحة « المحمصة » – تلك التى شهدت عذابنا قبل ذلك – من أجل الحلاقة حيث يقوم بعض المعتقلين بالحلاقة لزملائهم ، بأدوات تم شراؤها من نقود جمعناها لهذا الغرض . وتتم الحلاقة لهذا العدد فى أكثر من ثلاثة ساعات حيث ننعم بمكان أكثر اتساعا من العنبر الضيق الذى نعيش فيه .

وكان إخواننا من الأسطوات لا يبخلون بخبرتهم على من يريد تعلمها ، وممن أتقن فن الحلاقة فى تلك الأيام الدكتور حامد صفراطه الأستاذ بكلية الهندسة ، وقد أتقنها لدرجة عجيبة تدعو إلى الدهشة ، حتى جاء اليوم الذى كان يظل طوال الليل يحلق للإخوان فى ليلة من ليالى أحد الأعياد ، فالكل حريص أن يحلق له الدكتور حامد صفراطه ، وصارت له شهرة فى هذا الباب ، حتى الضباط أنفسهم كانوا يتوددون إليه ليقوم بحلاقة شعرهم بذلك الفن الذى تفرد فيه .

وكان يقوم بعمله تطوعا وحسبة لله سبحانه وتعالى بصبر يحسد عليه وبأناة شديدة رغم الجهد والإرهاق .

وأصيب عبد الفتاح ضرغام بحساسية فى وجهه ، فأوصى الطبيب أن يحلق ذقنه كل يوم ، فيفتح عليه الشاويش بعد توزيع الشاى ، وينزل إلى المحمصة ويحلق ذقنه ويعود لنلتف حوله نسأله عن أخبار لا وجود لها إلا فى مخيلتنا المترقبة المتحفزة لأى جديد قد يكون .

ويمر طبيب من المعتقلين على العنابر حيث يفحص المرضى فى العنابر ، ومن بينهما حجاب هو باب العنبر ذو القضبان الحديدية ، ويمد السماعة من خلال القضبان ليسمع القلب

ويكشف العلة ، ثم يصف له الدواء ، ويأتى به أحدهم بعد ساعة أو ساعتين .

وكان أغلب مايوصف من دواء علاج لكل داء مايسمى « ببزموت طباشير » وهو سائل أبيض طباشيرى القوام يوصف للكحة والروماتيزم والمغص بكافة أنواعه ، والسبب أنه الدواء الوحيد الذى جاءوا به من مستشفى الليمان القريب فهو علاج مقرر لكل مريض ، مع عدم الأخذ فى الاعتبار بنوع المرض ودرجة خطورته .

وكانوا ينقلون إلى مستشفى المعتقل ذلك الذى يبقى فى مكانه طريحا لأيام لاتقل عن خمسة أو ستة ، وذلك الذى تشتعل جبهته من شدة الحرارة ، ويوشك على الموت ، وهناك فى تلك المستشفى وهى عنبر من عنابر المعتقل قد شحن بالأسرة ، ربما يقدمون له دواء أفضل مستوردا من الخارج ، من خارج المعتقل .

ومن تستدعى حالته الجراحة قد يموت قبل أن ينقل إلى عنبر المعتقلين الموجود بمستشفى القصر العينى ، ولابد لنقله من التأكد من قرب وفاته ، فالوفاة فى القصر العينى أيسر وأسهل فى تسليم الجثة إلى الأهل .

* * *

وانقطعت صلتنا بالعالم الخارجى تماما ، فنحن لا نرى أحدا من أهل الإدارة والضباط ، والمكان يديره بعض المعتقلين ، فكأنه معتقل قطاع خاص ، فنحن لا نرى إلا أصحاب الملابس البيضاء الخيشية مثلنا ، نراهم وهم يروحون ويجيئون قياما على خدمة الناس وتصريف سائر الشئون .

ومع الأيام افترضنا فى هؤلاء الزملاء القدرة والعلم والمعرفة بالأسرار التى تلف المكان ، فهم يعرفون سبب اعتقالنا ، وهم يعرفون متى يفرج عنا ونخرج إلى بيوتنا ، وهم ربما يتوسطون وتنجح وساطتهم فى خروجنا من هذا السجن ، ونسينا أنهم مثلنا ويجرى عليهم ما يجرى علينا من شئون .

وتخيل بعضهم فى نفسه هذه القدرة ، فهو يتحدث بلغة الخبير الواثق العارف ويؤكد أن الإفراج سيكون فى الأسبوع الأول من شهر سبتمبر أو اكتوبر أو أى شهر قادم فى الطريق ، يتصادف قدومه عند الحديث .

وتمضى الأيام ولا يُفرج عن أحد .

ومازلنا نجتر آلامنا وأحزاننا وحيرتنا حتى جاءت توعية أبى زعبل الشهيرة .

الفصل السابع عشر

التوعية في أبى زعبل

مازلنا فى نوفمبر (١٩٦٦) م :

ضجر المعتقلون وملوا ، ولايزال الجو كئيبا مكفهرا ، وهم تحت رحمة التجارب وعمليات التخويف والرعب ، باعتقال طويل لاينتهى أمده . والتبشير بالراحة والهناء لكل من يوافق على أعمال الحكومة وأهدافها البعيدة والقريبة ، وينادون أن الحكومة كانت تريد الإصلاح ، وإعادة تشكيل المجتمع على أسس سليمة جديدة ، وأن الإخوان المسلمين هم حجر العثرة فى طريق هذا الإصلاح ، وأنه لن يكتب لهذه البلاد الخير ، إلا بنزع هذه المفاهيم الدينية البالية من الرءوس ، ورغم فساد الإخوان وإجرامهم — هذا الذى فى زعمهم — إلا أن الحكومة طيبة القلب وزعيمها عالى الهمة ، بالناس رءوف رحيم ، فهو لا يأمر بقتلهم جميعا ضربا بالسياط ، بل يكفى البعض ، وعلى البعض الآخر أن يفيق قبل أن تدهمه الكارثة ، أو يأتيه الطوفان . وكان الناس يعيشون فى جو من البلبلة والترقب الحذر ، ولا يدرى أحد ماذا يراد منه فكل شىء بادى الغموض ، والزعيم فى أوجه وفى غاية اكتماله وتمامه ، وهو ينوى أن يبطش بهم بطشة هائلة ، لعلها أعظم وأعتى مما حدث لهم منذ عهد قريب فى السجن الحربى .

وبدأ أصحاب الدور الثالث يرسلون الشكاوى والعرائض إلى الإدارة ، حتى تقوم بتوصيلها إلى الحكومة ، يعلنون فيها عن ولائهم ، وتخليهم عن سائر ما كانوا يؤمنون به من قبل ، ويطلبون فى إلحاح الإفراج عنهم ، فيكون الجميع صفا واحدا خلف الزعيم لتحقيق أهدافه العظيمة ، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور . وكان هؤلاء الناس على صلة قديمة بقيادات المباحث أيام المحن الأولى فى أول الخمسينيات ، وكم من مباحثات دارت أيام سجن أسيوط ، وسجن جناح فى الواحات وليمان طره .

ووصل صوتهم إلى المباحث .

وكانت المباحث لا ترى خطرا فى هؤلاء ، فهم أوراق قد احترقت ولم يعد لها أى دور سياسى فى رأيهم ، ولكن الخطر كل الخطر فى أولئك الجدد ، الذين لم تكن لهم سابقة جهاد ، ولم يكونوا من أصحاب « الملفات » ، وفجأة وعلى غير انتظار كانت راياتهم تخفق ، وأصواتهم تنادى بنفس المبادىء والشعارات من جديد . لهذا كان غاية همهم أن يقضوا على هذه العناصر ، ويقوموا على تحطيمها نفسيا بعد أن تم تحطيمها بدنياً فى التحقيقات تحت إشراف المباحث فى أبى زعبل والحربى ، العامة منها والجنائية العسكرية .

واستيقظ الناس يوما على شائعة ملأت القلوب خوفا ، ولو أننا معشر الجدد لم ندرك يومها مغزاها ومعناها ، بل كنا نرى الخوف فقط فى وجوه الحرس القديم .

قالوا : إن هناك قائدا جديدا للمعتقل .

وهزَّ الناس رءوسهم استخفافا ، وماذا يعنى أن يكون قائد جديد للمعتقل ؟ .

فقالوا : إنه عبد العال سلومة البرى .

قلنا : وماذا يعنى هذا الاسم ؟

قالوا : سوف ترون بأنفسكم ، إنه الذى فعل الأفاعيل بالإخوان فى السجون ، وكان سببا فى قتل بضع وعشرين شهيدا فى مذبحة طره عام (١٩٥٧) .

إذن فقد كشرت الحكومة عن أنيابها ! .

وأنياب الحكومة فاتكة قاتلة ، ووقعها أليم شديد .

ومضت أيام قبل أن يأتى عبد العال سلومة ، كان المعتقلون يستعدون فيها لاستقباله ، هناك من يعرفه ، وهناك من لا يعرفه ، وكان الجدد جميعا ممن لا يعرفونه ، فهم لا يكترثون كثيرا بمقدم عبد العال سلومه أو عدمه . وجاء يوم مكفهر أقفلت فيه العنابر والزنازين ، وأعلن التشدد فى النظام ومنع خروج أحد من المكان الذى يأويه .

وقالوا : هذا يوم يتسلم فيه القائد الجديد قيادة المعتقل ، بكل ما فى ضميره من خبرة فى معاملة الأسرى والسجناء ، وهو بهم عليم خبير .

ووقفت على الباب أنتظر الساعات لأبصر شيئا .

ورأيت شابا أميل إلى الامتلاء ، أحمر الوجه ، قد أمسك بغطاء رأسه العسكرى فى يده ، وملابسه الكاكية ، وقد علا كتفيه نسر كالح أغبر مفترس ، وحول شفتيه بسمة ساخرة مريضة ، وتومض عيناه الخضراوان بالوعيد وبالنوايا السيئة ، ومن حوله بعض الضباط الصغار ، وبعض « كبار » المعتقلين ، والمقام هنا بالقدرة على الخروج من العنبر ، وكان يسير فى عظمة واقتدار كأنه آدولف هتلر ، ولمحنى عبد العال بك فى لحظاته الأولى من وصوله إلى المعتقل ، وماتت البسمة على شفتيه ، وزمجر وزوى حاجبيه وصاح :

ـــ أنت يامعتقل . ادخل .

وعدت إلى مكانى داخل العنبر ، وقد سرقت ابتسامته الساخرة ، وجلست بها بين رعدة الموجودين من هذه

الزمجرة ، التى تنبىء بشر عظيم وعهد جديد ، لاندرى مايكون فيه .

وبدأ عصر عبد العال سلومة .

واجتمع الناس فى المساء ، يقلبون الأمر فيما بينهم ، وانتهى الاجتماع على سائر أمور حياتنا ، ولكن الجميع تواصوا بالحق وبالصبر ،وبالصمت أيضا ، والحذر البالغ من شرور ، لاندرى من أين تأتى .

وكان النداء : عليكم أن تستسلموا أو تموتوا .

على كل المعتقلين أن يخرجوا من العنابر رافعى الأيدى فكريا مستسلمين للجنرال المظفر عبد العال بك .

وازدرد الناس ابتساماتهم الساخرة ، وقد انطوت الصدور على تحدٍ عميق .

ونادى مناد فى الليل .

« اسْمَعَ كل المعتقلين » .

واستيقظ النائم ، وانتبه الجالس ، وصار الجميع آذانا صاغية .

وكان ذلك بعد وصول عبد العال سلومة بأيام .

« كل من يسمع اسمه يجهز عهدته ويقف على باب العنبر » .

وامتلأ المعتقل بالضجيج .

هذا كشف إفراج !

يا أفراح السماء !! .

ونادى المنادى من مكان قريب ، صار يقرأ الأسماء ، ويكرر الاسم مرتين ، والكل قد ذاب مع الصوت ، واشرأبت الأعناق ، واحمرت الحَدَق ، وكل واحد يدعو الله دعاء حارا أن ينطق المنادى باسمه ، فيخرج مع الخارجين .

وانتهى المنادى من النداء .

وقد قرأ بضعا وثلاثين اسما وسكت .

ولم ينم أفراد المعتقل طول الليل ، البعض يعد حاجياته وعهدته استعدادا للخروج ، والبعض الآخر ينتظر أن يُنادَى على كشف جديد .

وهكذا بدأ عصر عبد العال سلومة بالإفراج عن بضع وثلاثين معتقلا .

نادوا فى العنابر : من يرد أن يحجز سجائر فليقدم اسمه . .

وبيع الدخان فى كانتين المعتقل .

وسُمِح بصنع الفول المدمس .

وجيء بالفواكه والخضروات .

وفتحت جنة « سلومة » لتذكر المعتقلين بحياة البيوت والمشى فى الأسواق .

واستعد الناس لبرنامج حافل وعرض بهيج .

سرت الشائعات أنه سوف يفرج عن المعتقلين ، ليس كل المعتقلين ، ولكن أولئك الذين يستجيبون لأوامر الحكومة ونواهيها ، ولاشك أن الكل يظهر هذه الاستجابة ، فالجميع يريدون رؤية أولادهم وأهلهم .

وظهرت أمارات « التوعية » وهلّت أيامها . .

يخرجون عددا منا كل يوم ، ينظف السلالم ، ويمسح البلاط ، ويلمع القضبان الحديدية ، ليبدو كل شيء براقا ، وهم ينشطون خلف الكواليس لتقديم مسرحية جديدة بممثلين نراهم للمرة الأولى ، وربما رأينا بعضهم قبل ذلك ونصبوا نصبة كبيرة ، عبارة عن منصة تسمح بجلوس ثلاثة ، وعلى مقربة مكتب يجلس عليه أحد ضباط المباحث وأمامه مسجل ، ثم تنزل ثلاث درجات حيث ساحة « المحمصة » فمكتب صغير يجلس عليه أحد المعتقلين ، هو أمين سر « التوعية » ، يسجل ما يدور ولا تفوته شاردة ولا واردة ، إلا أحصاها أمامه فى كتاب قد أعد ، ثم ربما يعيدون صياغتها بطريقتهم بعد ذلك .

وزينت العنابر وملئت باللافتات عليها عبارات التأييد للحكومة والتبرؤ من الإرهاب والضلال ، وسائر ما أوحى من شعارات .

ورتبت الهتافات فلكل عنبر هتافه المتميز ، مقولات رائعة لاتسمن ولا تغنى من جوع ، قد نمقت تنميقا ، وزوقت تزويقا .

واستمر الناس يزعقون بهتافاتهم من خلف القضبان ، ويرن صداها عبر البنيان والكل يظن أنهم سرعان ما يخرجونهم إلى بيوتهم إذا ارتفع الزعيق وجاوز الصراخ عنان السماء .

ويأتى صوت محمد الخنكاوى مهيبا جليلا يشق الضجيج .

« عنبر عشرة » .

فترد الجوقة بصوت أضعف من صوته .

ـــ « إجابيون » . يقصدون إيجابيون ! .

ويتردد الهتاف ، ويأتى من هنا وهناك ، وتختلط المعانى والمفاهيم ، والكل يعزف لحنا واحدا ، قد جرى توزيعه بأكثر من طريقة ، والأمل يملأ النفوس ، وبرجاء القيامة من بين أموات السجن ! .

واقترب الموعد ، وموعدهم يوم الزينة ، وأن يحشر الناس ضحى فى « المحمصة » ، وكل عنبر يبدى من نفسه قوة وحماسة وإخلاصا ، ولماذا لا يكون ؟ ، فالنتيجة هى الخروج من ذلك السجن الطويل الذى لايُدْرَى له آخر .

وفى اليوم الذى سبق موعد التوعية ، مكثنا طوال النهار نهتف من خلف القضبان ، وشطرا كبيرا من الليل ، حتى بح صوتنا ، والكل يخشى أن تلتقطه كاميرا تليفزيونية خفية ، وهو متكاسل أو غير متحمس ، وكأن هناك دائرة مغلقة ترسل الصورة إلى جهاز فى مكتب جمال عبد الناصر يرى فيه كل شىء .

وطلعت شمس يوم التوعية ، وكان الحماس قد بلغ مداه ، فما هى إلا أيام ويخرج من السجن ، وتكاليف هذا الخروج ما نقوم به من هرج ومرج ، وهتاف للاشتراكية والديموقراطية والوحدة ، وعظمة رئيس الجمهورية وتطاوله فوق الناس .

وخرج كل عنبر فى جَمْعِهِ ، يحمل وارده الذى يهتف هتافا عاليا ، والناس يردون عليه ، حتى يأخذ العنبر مكانه فى ساحة « المحمصة » ، ويأتى العنبر الذى يليه بهتافاته وحماسته ، التى تنتقل إلى الصفوف الجالسة ، فيردون عليهم ، وضابط المباحث السمين أحمر الوجه ، يعد جهاز تسجيله ، وعبد العال سلومة فى نشوة من السعادة والحبور ، فقد صنع مهرجانا عظيما ، وسوف ينقل مندوب المباحث ما رآه إلى السادة والكبراء ، ولاشك أنه كان يطمع هو الآخر فى منصب عظيم ، ربما يتذكرونه به .

وخرج عنبر خمسة فى جمْعِهِ وكنت منهم ، وكنا متحمسين ولكننا لا ندرى ماذا نقول ، ووقف واحد ورفعناه ، وقال هتافات بلهاء وصرنا نرددها خلفه ، ونحن نداری وجوهنا من الخجل ، وكان الواحد منا يشعر بالعار الشديد ، إذا ما التقت عينه بعين واحد من إخوانه .

وكان عم « أحمد قتة » سمينا بالغ السمنة ، صالحا تقيا ، بالغ الظرف ، وارتفع صوته عاليا :

— ارفعونى .. ارفعونى .

ورفعناه بصعوبة شديدة ، وكان علينا أن نسير به فى ممر طويل ، حتى نصل إلى السلالم وننزل عليها ، وهو يهتف ونحن نرد عليه ، فلهذا رفعناه ، وكنت ممن اشترك فى حمله عليه رحمة الله ، وكنا نئن من وزنه ، فقد كان يساوى أربعة رجال وزنا .

وارتفع صوت عم أحمد قتة بهتافه عاليا .

— « عنبر خمسة ، عنبر خمسة » .

فى تنغيم وترخيم كمقدمة لشىء .

وصرنا نرد عليه فى حماسة وقوة ، فإن كان عم « أحمد قتة » ، وهو الرجل الصالح القارىء للقرآن ، لا يستنكف أن يفعل هذا لينجو وننجو مما نزل بنا ، فلا بأس إذن على الآخرين .

وارتفع صوت رجال العنبر يرددون .

ـــ « عنبر خمسة ، عنبر خمسة » .

وعاد الأستاذ « أحمد قتة » يهتف بالعبارة نفسها . ونرد عليه بالجملة نفسها ، وننتظر أن يقول شيئا بلا فائدة ، ومازلنا نئن تحت وطأة وزنه نزولا على السلالم وأخذا لمكاننا بين العنابر فى مهرجان الزيف والخداع والهرج ، وهو لايقول غير :

ـــ عنبر خمسة ، عنبر خمسة .

ونحن وراءه :

ـــ عنبر خمسة ، عنبر خمسة .

ثم يغيرها :

خمسة خمسة ، عنبر خمسة .

واستقر المقام وجلست جميع العنابر ، وكان عدد المعتقلين الذين شهدوا هذه « التوعية » يتجاوز عددهم ثلاثة آلاف .

ولا يزال على الأعراف رجال !!

وبين الناس قد وقف فتية معلمون ، ومن الشرفات العالية هناك من يرقب الموقف ويعرف متى يهتف ، وعلى الجميع أن يرددوا عليه .

والويل لمن يتكاسل .

وارتفع هتاف من مغمور ربما ضاع اسمه فى التاريخ .

— « لا رجعية ولا إخوان ،
ولا تجارة بالأديان . » .

— « حاسبوا القادة على التضليل ،
وانسوا ماضينا فى الإخوان . » .

— « حسن البنا وحسن الثانى ،
سلكوا طريق ضد الأديان . » .

ويرتفع الضجيج عاليا وتلهث الأنفاس ، ويتفصد الناس بالعرق ، والويل كل الويل لمن يفشل فى هذه التجربة .

وانفض مهرجان الهتاف ، وتكلم عبد العال سلومة فى اختصار موجز ، وبلهجة ركيكة ، وعبارة ضعيفة ، وقال : إن المكان الذى تعيشون فيه هو أقرب للمستشفى منه إلى المعتقل ، وإننا مرضى ، ومن واجب الحكومة أن تقوم بعلاجنا ، وهى تفعل الآن ، وعلاج الأجسام أمر سهل أما علاج العقول ، فهو أمر بالغ الصعوبة ، ونحن — أى الحكومة — سنفعل ما علينا ، ونؤدى واجبنا فى علاجكم ، وعليكم أن تشفوا من أمراضكم وتنصلح أحوالكم ، ومن يفعل فسوف يخرج ، ومن يفشل فسوف يبقى ، سنة ، اثنتين ، ثلاثة ، عشرة ، عشرين ، هكذا حتى يموت ، هذا عصر الزعيم الملهم جمال عبد الناصر ، وهو فى أوج صحته وقوته ، وسوف يحكم هذه البلاد أكثر من خمسين عاما باقية من عمره المديد ، ولن يموت حتى يحكم بلاد العرب ، ويحارب الاستعمار ، ويهزم أمريكا .

وارتفعت الهتافات :

ــ إسرائيل .. إسرائيل .

وجاء صوت عبد العال سلومة :

ــ إسرائيل أقل من أن نتكلم عنها ، هذه ستدوسها أقدام الزعيم عندما يتحرك لحرب أمريكا ، ولا يليق بنا أن ننسب إلى سيادته الانتصار على إسرائيل .

ويرتفع الهتاف حماسيا عاليا .

ويصمت الرجل فى تواضع مصطنع أخاذ ، ثم يواصل خطبته العصماء ، يأمرنا بالمنكر وينهانا عن المعروف .

ويقاطع بالهتاف والتصفيق فى كل جملة يقولها .

عشنا هذا الهراء ما يقرب من الشهر ، وعانينا منه فى المسرح ، وعندما نخلو إلى أنفسنا فى العنبر فى نهاية النهار ، محاضرات تلقى وأسئلة نقدمها ، يجيب عليها المحاضرون فى ترفع شديد ، وهى أسئلة أغلبها أبله سخيف لا معنى له ، وأناس يناقشون الحساب .

سبعة موضوعات عامة إسلامية وسياسية ، ألقيت علينا محاضرة إثر أخرى ، ولم يكن يعنى أحد مايقوله المحاضر ، بل كل ما يعنيه أن يبدو متيقظا متجاوبا مع الكلام ، وأن هناك من يرصد حركته ، ولابد أن يسارع بالهتاف مع الهاتفين ، وبالتصفيق مع المصفقين ، والويل لمن لم يفعل .

وقام بعض الأشخاص المدربين بإلقاء الأسئلة ، وكلها تدور حول معنى واحد تمجيد الثورة ، ولوم الإخوان المسلمين .

وشجع الآخرون على إلقاء الأسئلة ، ومن أراد أن يخرج من هذه المدلهمة ، فعليه أن يوضح نفسه ، وقام الناس على استحياء يلقون الأسئلة البلهاء فى خط التقليد نفسه ، والكل يريد أن يرى أولاده ، ومادام هؤلاء السخفاء يصدقون هذا النفاق ، فلنفعله وما فى القلب فى القلب ، ويبدو أن علماء الشيعة كانوا حكماء عندما أوصوا بالتقية .

وكان البعض يبالغ فى إرضاء الحكومة وتملقها من أولئك المدربين تدريبا عاليا . وقام واحد وطلب أن يناقش الحاج صالح أبو رقيق .

واستدعى الرجل إلى المنصة وجلس وانهارت عليه الأسئلة لإحراجه والنيل منه ، وسُئل عن تفاوض الإخوان مع الإنجليز قبل اتفاقية الجلاء عام (١٩٥٤) ، وأدار الرجل بصره بين الموجودين فى شجاعة نادرة :

ــ فى الحقيقة قد تم اللقاء مع الإنجليز ، بناء على طلب جمال عبد الناصر لتقوية موقفه ، فى المفاوضات على الجلاء من مصر والسودان .

وسأله عبد العال سلومة فى تهكم :

ــ وكيف تقوون موقفه فى المفاوضات ؟

ولم يلتفت إليه (صالح أبو رقيق) بل وجه كلامه للمجتمعين :

ــ كان الإنجليز ينظرون إلى الإخوان كأكبر هيئة شعبية فى مصر ، فإذا تشددنا فى شروط الجلاء ، فيستطيع أن يحصل عبد الناصر على شروط حسنة جدا ، وكان هذا هو الاتفاق بيننا وبينه فى حضور شهود .

وتمطى عبد العال سلومة وهو يسأل :

ـــ وماهو الدليل على صدق كلامك ؟

والتفت إليه صالح أبو رقيق :

ـــ جمال عبد الناصر شخصيا .

وسكت الناس كأن على رءوسهم الطير ، بينما واصل صالح أبو رقيق حديثه :

ـــ أنتم تفتحون موضوعا قد لايعجب الرئيس الخوض فيه ، ومن الخير يا (عبد العال بك) أن نغلق هذا الموضوع .

وانكمش عبد العال سلومة وقال :

ـــ ننتقل إلى موضوع آخر .

ومن الدور الثالث نادى أحد المدربين بصوت عال :

ـــ أيها الثعبان الملتوى .

ورفع (صالح أبو رقيق) رأسه إليه :

ـــ أنتم مساكين لا تدرون ما تفعلون ، ولا تدرون أيضا ما يُفعل بكم .

وتكهرب الجو ، وهاج الناس ، واختلط الحديث ، حتى دق عبد العال سلومة على المنضدة يطلب الصمت :

ـــ فلننتقل إلى موضوع آخر .

كان البرنامج يعتمد على استدعاء بعض الشخصيات وسؤالها وإحراجها ، وإظهارها بمظهر المرتد عن أفكاره القديمة ، أو يحاولون أن يجعلوه فى موقف متناقض مع الحوادث ، التى شارك فى صنعها ، ومع المبادىء العامة ، التى يدين بها هو ومن تبعه ، وكانوا ذوى براعة فى اختيار الناس ، فلا يقعون إلا على المشهورين ، وأصحاب السابقة فى الجهاد والعمل السياسى .

وجلس (محمود زينهم) على المنصة للاستجواب .

وسأله عبد العال سلومة :

ـــ لماذا قتلت الخازندار ؟

وانفعل محمود زينهم :

ـــ لقد اتهمت بقتل الخازندار قبل الثورة وقدمت للمحاكمة وصدر ضدى حكم بالسجن على هذه التهمة ، وقد نفذت هذا الحكم ، ولا أظنكم تحاكموننى من جديد فى قضية نظرت من ربع قرن .

ـــ نحن لا نحاكمك .

ليس فى وسعكم هذا . بلاش لعب عيال .

وحاول عبد العال أن يسترضيه :

ـــ لاتغضب يامحمود . نحن نحاول تبصير هؤلاء الشباب الذين تراهم . هذه توعية بأمور الدين والسياسة .

ويرد عليه محمود زينهم فى قوة :

ـــ هؤلاء الذين أمامك هم أعرف الناس بالدين والسياسة .

ـــ هل كان الخازندار يستحق القتل ؟

– قاض يحكم بالظروف المخففة فى قضية سفاح الإسكندرية ، ويخطب فى المحكمة مشيدا ببريطانيا المستعمرة ، ويقول : إن قواتها قوات لدولة حليفة وليست دولة مستعمرة . ويحكم فى القضايا الوطنية بأشد العقوبات .

ــ هو يستحق القتل . أليس كذلك ؟

ــ أنا لا أحاكمه الآن .

ــ لماذا قتلت أحمد الخازندار ؟

ــ هذا سؤال سخيف ولا معنى له .

ــ لماذا لا تجيب عليه ؟

ــ أنا حر.

ــ أنت قتلت الخازندار .

ــ افهم ما تشاء .

وقام محمود زينهم من المنصة غاضبا ثائرا ولم يستوقفه أحد .

* * *

وجلس الصاغ محمود عبده أحد المجاهدين فى حرب فلسطين عام (١٩٤٨) للمناقشة ، وتلقى الأسئلة السخيفة من هنا وهناك ، وقلب الرجل عينيه فى الشهود ، وهو يحاول أن يخفى إيماءة عاتبة تبدو من تلون وجهه وطريقة نظرته ، وكان يخفى غضبه وتوتره فى ارتعاشة عينيه وهو يتكلم ، ويجتهد أن يرسل حديثه هادئا صافيا خاليا ، فينجح فى أحيان ويفشل فى أحيان كثيرة ، ولكنه فى كافة أحواله كان يجيب على أسئلة السائلين فى صراحة وبساطة ، كأنها حد السيف القاطع .

وسأل السائل بصوت هو إلى فحيح الأفعى أقرب :

ـــ بصفتك أحد قواد الإخوان المسلمين فى حرب فلسطين . .

ويقاطعه محمود عبده فى تحد وشمم :

ـــ نعم ، هذا صحيح .

ويستمر الصوت الأفعاوىّ :

ـــ هل كان الإخوان على حق فى تغريرهم بالشباب الصغير فى حرب خاسرة ؟

واستدار محمود عبده إليه :

ـــ هل تتكلم عن حرب فلسطين عام (١٩٤٨) ؟

ـــ نعم .

وكتم الرجل انفعالاته ما أمكنه ذلك ، ولكنها بدت جلية فى رعشة عينيه ، وفى صوته المتهدج وعروق يده النافرة ، وأصابعه التى تربت على المنضدة فى غير تناسق أو صوت ، وهو يستجمع هدوءا وسكينة من أى مقصد يستطيعه :

ـــ أرجو فى هذا الاحتفال الذى أقيم لتجريم الإخوان المسلمين ، أن لاتفوتنا حقائق هامة ، إن فاتتكم فسوف تضيع الغرض الذى تقصدون إليه ، وهو الإساءة إلى جماعة الإخوان المسلمين .

وقاطعه عبد العال سلومة :

ـــ هل مازال اسمها جماعة الإخوان المسلمين فى نظرك ؟

والتفت إليه محمود عبده فى مرارة وسخرية ؟

ــ سبحان الله ، هذا هو اسمها ، أو ماذا تسميها أنت ؟

وقال عبد العال سلومة :

ــ ماعلينا ، ادخل فى الموضوع .

وتجاهل محمود عبده اللهجة الوقحة التى كلمه بها عبد العال سلومة ، واستمر فى حديثه إلى المجتمعين الذين كانوا يتجاوبون معه فى صمت بليغ :

ــ إن كنتم تريدون الإساءة إلى جماعة الإخوان المسلمين ، فابحثوا عما يسىء إليهم ، وإن كان هناك ما يسىء إليهم فليس منه دورهم العظيم فى حرب فلسطين بالتأكيد .

فقد جندوا الكتائب لمقاومة اليهود فى فلسطين ، عندما تخلت عن هذا الدور كل الحكومات العربية آنذاك ، وكان لجهادهم الفضل فى دخول الجيوش العربية إلى فلسطين ، أو ماذا تنتظرون من جماعة يهتف أفرادها أن الله غايتهم ، والجهاد سبيلهم ، والموت فى سبيل الله أسمى أمانيهم ، ثم يجدون العدو يقتطع أرضا من بلاد المسلمين ويسكتون ؟ هذا يتنافى مع مبادئهم ، وجهاد الإخوان فى فلسطين وشهدائهم الذين سقطوا على أرضها أمر يحسب لهم لا عليهم ، فابحثوا عن نقيصة لهم إن وجدتم ؛ لتدركوا غرضكم الذى ترمون إليه . .

وضج الجمع بالتصفيق بين غضب قائد المعتقل ورجاله ، وكادت المسرحية أن تسقط ، فالكل يرتجل وليس هناك نصّ مكتوب يلتزمون به ، وصعب على رجل مثل محمود عبده أن يقف ليدلى بشهادة أمام التاريخ ويزور فيها .

وأوقفت الضجة بصيحات غاضبة ، جاءت من هنا وهناك ، وهدأ الناس ، واختفى استحسانهم من وجوههم ، وعاد التجهم من جديد ، فقد كادت شجاعة محمود عبده أن تزيل من نفوسهم ما انتووا عليه من خداع الحكومة ، والتظاهر بالاستجابة إلى ما تريده منهم .

ويعاودون سؤال الأستاذ محمود عبده :

ـ لقد كتبت برقية من السجن تؤيد فيها الرئيس جمال عبد الناصر ، وتبارك خطواته بعد تأميم قناة السويس وهناك من خالفك ، لماذا أيدت ؟ ولماذا خالفوك ؟

وفى تؤدة ورزانة ينساب الكلام من بين شفتى الرجل :

ـ أممت قناة السويس ، وهوجمت مصر ، واحتلت بورسعيد ، ومن الطبيعى على رجل مثلى أن يفكر فى الدفاع عن وطنه ، ورئيس الدولة هو الوحيد الذى يستطيع منح هذه الفرصة لمسجونين أمثالنا ، ونص البرقيه كالتالى :

« إن الإخوان المسلمين الذين قاتلوا معكم على أرض فلسطين يطلبون أن تمكنوهم من قتل الإنجليز واليهود على أرض مصر » .

ـ وماذا كانت استجابة الرئيس جمال عبد الناصر ؟

وفى تهكم خفيف عبر كلمات رزينة قال الأستاذ محمود عبده :

ـ لم يرد علينا الرئيس حتى هذا اليوم !

وصاحت الأصوات من هنا وهناك :

ـ لقد رد على البرقية ببرقية شاكرة .

وفى ابتسامة يصعب على أى أحد أن يفهم معناها قال :

ــ لقد كنا فى السجن ولم نمكن من واجب الدفاع عن أرضنا كمسلمين . .

ــ دعنا من هذه النقطة ولنتكلم فى نقطة أخرى .

ــ من الخير للجميع أن يتوقف هذا الاستجواب .

وترتفع الضجة ، شىء غير مفهوم . هل هو استحسان لكلام الرجل ؟ أو هو خوف من سقوط المسرحية لكثرة الارتجال ؟ أم ماذا ؟ ولكن توقفت هذه الضجة عندما قام ضابط المباحث الجالس عند جهاز التسجيل بعد أن أوقفه عن العمل واتجه ناحية عبد العال سلومة ، الذى انتفض واقفا فى اهتمام واحترام وتبادلا الهمس والحديث ، ثم عاد كل واحد إلى مقعده .

وقال عبد العال سلومة :

ــ فلننتقل إلى نقطة أخرى .

كانوا يبحثون عن شهود ليشوهوا صورة الإخوان المسلمين ، وهو أمر صعب فهم يطلبون من الناس أن يتخلوا عن تاريخهم ، وأن يقروا بألسنتهم أن كل ما قاموا به من جهاد فى سبيل الله كان محض هراء ، يريدون منهم أن يلعنوا سادتهم وشيوخهم ومن علموهم ، ومن هدوهم إلى الصراط المستقيم ، وقد يستقيم التمثيل فى الضجة ، حيث ترتفع جميع الأصوات ، ولا يكون هناك غير جوق صاخب ، لايعرف من يسمعها مايقوله كل واحد ، ولكن الأمر يختلف

عندما يتحول هذا الصخب إلى شهادة أمام الناس والتاريخ ، ويختلف أكثر عندما تطلب هذه الشهادة ، من صفوة الناس ، وخيرتهم ، وقادتهم فى المدلهمات العظام .

كان القائمون على هذه المسرحية الهزيلة غير موفقين على الإطلاق ، فرغم شدة الخوف ، وعظم الموقف لم ينجحوا فى إحداث هزيمة روحية حقيقية لهؤلاء الناس ، بل كانت النتيجة على عكس ما أرادوا .

كانوا يريدون منا أن نكره من نحب ، وأن نحب من نكره ، وأن نحتقر فى ازدراء كل قيمة كونتنا وأنشأتنا ، وأن نلعن عظماء الناس ، ونهتف بحماسة للقردة والخنازير ، ولم نستطع سوى الأخيرة ، لوضوح الكذبة ولأنها بلقاء مشهورة يفهمها الجلادون والمجلودون .

وجاءوا بمحمد قطب .

وما أدراك من محمد قطب !

رجل عالم أديب ورع ، صاحب خلق ودين ، فى وداعة وسماحة وطيبة ، يستمع النكتة ويبتكرها ، يكثر من الصلاة وقراءة القرآن ، قابلته مرة فى مكتبة وهبة عام ١٩٥٨ ، قرأت له ولأخيه الشهيد كل ما كتبا ، كنت أراه فى وغى الظلم بالسجن الحربى بين الحين والآخر وهو ذاهب للضرب أو قادم منه أو أثنائه ، لم أتحدث معه إلا فى أبى زعبل ، واكتشفت فيه ما قلته عنه ، وأضيف إليه الشجاعة بعيدا عن الحماقة ، والقوة فى بسمة عطوف طيبة ، يقابل بها أصدقاءه وأعداءه .

وجلس الرجل على المنصة بجسمه النحيل ولون وجهه الباهت ، حتى يخيل لمن يراه لأول مرة أنه خائف من هذا الموقف ويرهب هؤلاء الناس .

ونبح واحد من الرؤساء :

ـــ انقد لنا نفسك نقدا ذاتيا .

وأجابه الرجل فى هدوء وبساطة :

ـــ ماذا تعنى ؟

ـــ أنت رجل تؤلف الكتب ، وتفهم معنى النقد الذاتى ، اذكر لنا سلبياتك وإيجابياتك .

ويشرق وجه عبد العال سلومة من تلك اللهجة الوقحة ، التى يخاطب بها الأستاذ محمد قطب ، ويظن أنه قد أحيط به ، وأنه بعد قليل سوف يطلب النجدة ويلوذ بالهرب ، وصار يتبادل النظر مع ضابط المباحث ، وقد بدا عليهما السرور .

ويعاود الرجل التحدى والاستفزاز :

ـــ أم تظن نفسك بلا سلبيات ؟

ويرد محمد قطب فى هدوء ورزانة :

ـــ كل إنسان يخطىء ويصيب فى قوله وعمله ، وهذا ما قاله رسول الله ﷺ ، وهى طبيعة البشر ، فكل ابن آدم خطاء . ولست على استعداد للحديث عن أخطائى ، إلا إذا كانت تمس أحدا من الموجودين .

ورفع وجهه فى الناس ، وارتفع صوته قليلا يشق الصمت البليغ ، الذى بدا وكأنه لايوجد أحد فى المكان :

ـــ هل فيكم من أخطأت فى حقه ؟

وارتفع هرج الاستحسان والسرور ، ولولا الخوف لضج الناس بالتصفيق .

وزمجر السائل ليمنع الضجة :

ـــ لقد أخطأت فى حق الحكومة ياأستاذ .

وعاد الصمت من جديد ، واشرأبت الوجوه ، وانسابت كلمات محمد قطب خفيفة هذه المرة :

ـــ وهل تتكلم نيابة عن الحكومة ؟

وزمجر السائل ثانية :

ـــ دعنا من هذه المراوغات والمناورات ، لقد بطل سحركم ، وانكشفت ألاعيبكم ، ولن تستطيعوا شيئا بعد ذلك ، ألم تكفر الحكومة أنت وأخوك سيد قطب ؟

ـــ معاذ الله ، هذا شىء لا أملكه ولا أستطيعه .

وظهرت أمارات النصر والفوز فى وجه السائل ، وكل من يجلس على المنصة ، وأحسست ساعتها بخيبة الأمل والحزن لانهزام الرجل ، وربما شاركنى الجميع الشعور نفسه .

وانبرى السائل فى سرور وفى لهجة أخف حدة :

ـــ هذا ما نود سماعه منك ، إذن فأنت تنكر أمام هذا الجمع كل ماجاء فى كتبك وكتب أخيك سيد قطب ؟

ـــ بل مؤمن موقن بكل حرف كتبته أو كتبه أخى حسبة لله تعالى .

وجاوزت الضجة الآفاق ، وتدخل عبد العال بك ليعيد النظام :

ـــ يعنى يامحمد الحكومة كافرة فى رأيك ؟

ـــ الحكومة كافرة باعترافها هى نفسها ، وكافرة بنص القرآن الكريم ، وليست بكلام سيد قطب أو محمد قطب ، وكلكم تعلمون ذلك ، وهذه قضية بسيطة صارت فى حكم البَدَهيّات يعرفها الصغير والكبير والعالم والجاهل ، حكومة قد ارتضت نظاما غير الإسلام ، وشريعة غير القرآن ، ثم زادت في فسادها، وتاجرت فى الخمر ويسرت الزنا للناس ، وفتحت أندية الميسر ، وفعلت كل الموبقات وباركتها ماذا تقول فيها أنت ؟

وكانت الذروة ، وارتفع الصراخ ، واختلطت الأحاديث ، فلم يعد أحد يدرى ماذا يقوله الآخر ، وتضاءلت المنصة وتبادلوا الهمس . وضرب عبد العال سلومة بشدة على المنضدة :

ـــ فلننتقل إلى نقطة أخرى .

وقبل أنه ننتقل إلى نقطة أخرى هطلت السماء مطرا شديدا ، وقامت المنصة لتحتمى من المطر فى المكاتب ، وتركونا فى الفضاء المكشوف بالملابس الخفيفة التى على أجسادنا ، ولم يسمحوا لنا بمغادرة المكان ، ورغم هذا لم يشعر أحد به ، فقد كانت الأنفاس تلهث ، والكل فى شغل شاغل بأفكاره عن المطر وعن أى شىء آخر ، وكنا نرقب محمد قطب وهو يعود إلى مكانه بيننا فى هدوء وسكينة ، ونريد أن نحييه ولكن لا نستطيع .

وعادت الجلسة إلى الانعقاد ، بعد أن ذهب المطر ، وعادت المنصة إلى مكانها ، وقبل أن ينتقلوا بنا إلى نقطة أخرى كما عودونا شق الصمت صوت :

ــ أريد أن أسأل سؤالا .

والتفتت الرءوس ليعرفوا صاحب هذا الصوت ، وكان المرحوم أحمد نصير المحامى ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى أراه فيها ، ثم صحبته بعدها سنين ، كان فيها من أشجع الناس وأجرئهم فى قول الحق ، مهما ترتب على ذلك من تبعات ومتاعب ، ومات رحمه الله فى ظروف غامضة ، فى القصر العينى منقولا من معتقل طره السياسى .

وعرفه واحد من المنصة فقال :

ــ هذا أحمد نصير وخاله سيد قطب وكذلك محمد قطب .

وناداه عبد العال سلومة :

ــ تعال هنا . .

وصعد الرجل إلى المنصة .

ــ نحن الذين نريد أن نسألك سؤالا .

ــ تفضل .

وأجلسوه فى المكان المخصص لأولئك الذين يريدون تجريحهم وتجريمهم :

ــ ماقولك فى سيد قطب ؟

ــ هو خالى ، وهو أمر يجعلنى أختال تيها بين الناس ، وهو أمر يملؤنى بالفخر والعزة ، ولا أظن أن هذا يخفى عليكم .

ـــ إذن فأنت على أفكاره ؟

وانفجر الرجل فيهم كالبركان :

ـــ يامنافقون ياغشاشون . هذا هو عالم الإسلام العظيم ، الذى تشرف مصر به على سائر البلاد ، تتكلمون عن كفر الحكومة ، وهل فى هذا شك ياأوغاد ؟ أنتم أكثر الناس خبرة بها ، وتعرفونها كما تعرفون أبناءكم ، أمن أجل بضع سياط أخذناها على أجسادنا نكفر بالله العظيم وبدينه القويم ، بئس القوم أنتم لنبيكم ولدينكم .

ولم يكونوا بضع سياط كما قال ، بل كانت ساقاه ممزقتين بالسياط وهو يتحدث . عليه رحمة الله .

وهاج الناس كالعادة ، وتدخل سلومة بفض الجلسة والأمر بالعودة إلى العنابر ، وعاد الناس ، وعلى السلم أوكلوا بالمرحوم أحمد نصير من أوسعوه ضربا ولكما ، حتى سال الدم من أنفه وفمه ، ولم يسمع أحد عن السؤال الذى كان يريد أن يسأله .

عدنا إلى العنبر فى هذا اليوم البارد من أيام شهر نوفمبر عام (١٩٦٦) وأقيمت الصلاة وصلى الناس ، وجلس البعض يتناول طعام الغداء وامتنع البعض الآخر عن ذلك ، وظل الجميع سكوتا ، قد شغلتهم أفكارهم ، وأُذّن للمغرب ، وصلى الناس ، وعادوا إلى صمتهم ، ثم أُذّن للعشاء ، وصلوا وانصرف كل واحد إلى مكانه ، لايتحدث إلى أحد ، ولم يتناول أحد عشاءه ، ولا أذكر حديثا تبادله واحد مع آخر فى تلك الليلة .

وأذكر أيضا أنني لم أذق طعم النوم فيها ، وكانت أفكارى تعذبنى ، هل من العدل أن يتحمل بعض الناس هذه المواقف الكبيرة ، بينما نكتفى نحن بالنظر والتأمل ؟ إلى أى مدى يمكن أن يصل هذا الطغيان ؟ كنا أبصر الناس بمصر فى تلك الأيام ، وكل واحد يدرك جيدا ، ماذا يمكن أن يحدث لبلد قد تحكم فيه حاكم جاهل مستبد متغطرس يفعل بالناس مايشاء ؟ وهل حلال سكوتنا وتُقْيَتُنا أم حرام ؟ أسئلة ظلت تمور فى رأسى ولا أجد لها إجابة ، حتى قام واحد من الإخوان وأذن لصلاة الفجر .

أخرجونا كالعادة إلى الساحة .

ومن بين الهتاف والضجيج ، نصب المهرجان من جديد .

وكان نجم المنصة المرحوم منير دلة عضو مكتب الإرشاد .

وكان رحمه الله هادئا جسيما وسيما ، فيه أناقة رغم لبس السجن الذى يرتديه ، أبيض مشربا بحمرة ، كستنائى الشعر خشنه ، على عينيه نظارة طبية ، لبقا ، دبلوماسيا ، حذرا فى حديثه ، يتجنب الخوض فى المتشابه من الوقائع ، يريد أن يؤدى دوره ، دون أن يفقد وقار القائد ، وبغير أن يفسد على الناس حقيقة مايفهمون ، فإن كانوا يريدون مهرجانا فلا بأس منه ، فى حدود عدم الخروج عن المسلّمات العامة الدينية التى حكمت جماعة الإخوان .

ــ أنت الذى جئت بحسن الهضيبى مرشدا عاما للإخوان ؟

ـــ لقد اقترحت هذا فقط ، وليس فى وسعى تعيين مرشد للإخوان .

ـــ كان هناك عبد الرحمن البنا ، والباقورى ، وصالح عشماوى ، وعبد الحكيم عابدين وآخرون ، وكلهم من قدامى الإخوان ، وأعرف بالجماعة من حسن الهضيبى .

ـــ قد جمعت كل هؤلاء ، وطلبت منهم أن يتفقوا على واحد منهم وتعذر هذا ، وبذلت غاية جهدى فى توحيد كلمتهم على واحد منهم ، أى واحد يختارونه بلا فائدة .

ـــ فتأتيهم إذن بواحد من خارج صفوف الجماعة وتجعله مرشدا عاما ؟

ـــ لم يكن حسن الهضيبى من خارج الجماعة ، وكان المرحوم حسن البنا يزوره دائما بقريته عرب الصوالحة ، مركز شبين القناطر ، ويقول عنه : هو شامة بين رجال القضاء ، وكان يثنى عليه فى مجالسه الخاصة والعامة .

ـــ ما رآه أحد فى المركز العام .

ـــ كان حسن الهضيبى حريصا على دروس الثلاثاء ، التى كانت تقام بالمركز العام ، وكان يجلس فى آخر الصفوف حيث ينتهى به المقام . وبحكم منصبه القضائى لم يكن من المناسب أن يظهر بشكل علنى فى تشكيلات الجماعة .

والتفت عبد العال سلومة بوجهه الأحمر وعينيه الخضراوين وبلهجته المثيرة :

ـــ ألم يكن هناك من يصلح لمنصب المرشد العام غير حسن الهضيبى ؟

ـــ بلى ولكنهم لم يتفقوا كما قلت .

وبسخرية واضحة :

ـــ ويتفقوا على حسن الهضيبى عندما ذكرته لهم ؟

وفى ثقة وتأكيد أجاب منير دلة رحمه الله :

ـــ هذا ماحدث بالضبط . لقد فكرنا فى أسماء كثيرة . فكرنا في مصطفى مؤمن ، والدكتور عبد العزيز كامل ، وآخرين أقل شهرة وأصغر مكانة من حسن الهضيبى ، وصوّتنا على الأسماء فى اجتماعات تمت ببيتى ، ولم يحصل أحد من المرشحين على أكثر من صوته هو ، وعرضت اسم حسن الهضيبى على المرشحين الكبار ، وأجمعوا على الموافقة عليه ، ورحبوا بهذا الاقتراح ترحيبا كبيرا .

وكان الناس يتابعون حديث منير دلة في اهتمام كبير ، والشغف باد فى العيون المتطلعة ، والآذان المرهفة ، والصمت الذى يلف المكان ، وكانت المقاطعة الساخرة المتهكمة هى غاية جهد المنصة فى إضعاف صوت منير دلة ، وفى تهكمه الدائم قال عبد العال سلومة :

ـــ وسارع حسن الهضيبى بقبول المنصب أليس كذلك ؟

وأجاب منير دلة فى ثقة وقوة :

ـــ على العكس من هذا تماما .

ـــ لم تخبرنا بهذا .

ـــ أنت لم تعطنى فرصة للحديث .

ـــ تكلم كما تشاء ، نحن لن نغادر المكان حتى يعرف هؤلاء الشباب حقيقة الإخوان المسلمين .

وارتفعت الهتافات من هنا وهناك ولم يسمع الترديد عاليا هذه المرة :

« لارجعية ولا إخوان ولا تجارة بالأديان » .

وواصل منير دلة حديثه ، بعد أن أدار وجهه هنا وهناك منتظرا نهاية الهتاف :

ــ لم تكن فكرة ترشيح حسن الهضيبى تخطر على باله بالمرة ، وفوجىء بها ، ورفضها بشكل قاطع حاسم ، ورفض مجرد مناقشتها فى أول الأمر . وتحدثت إليه وشرحت له ظروف الجماعة ، وكيف أنها حلم المسلمين فى التخلص من الاستعمار والقضاء على الفساد فى مصر ، ثم تحقيق الإسلام فى المجتمع ، وكيف أن هذا الحلم يوشك أن يضيع .

ــ وهل جماعة الإخوان تريد تحقيق الأهداف الوطنية والقومية ؟

ــ أنا أحكى الآن عن ظروف اختيار الأستاذ الهضيبى مرشدا عاما لجماعة الإخوان المسلمين .

وأكمل له عبد العال سلومة وهو يضغط على الحروف :

ــ المنحلة .

والتفت إليه منير دلة وردَّد خلفه موافقا فى هدوء :

ــ المنحلة .

ــ تفضل . أكمل كلامك .

واستطرد منير دلة :

ــ وعندما علم الأستاذ الهضيبى أن موافقته على هذا الترشيح ، قد تحمى جماعة الإخوان من الانهيار وافق على مناقشة الفكرة ، وعرض المشاكل والصعوبات التى تكتنف فكرة كونه مرشدا عاما للإخوان . وكان منها أنه لايعرف شيئا عن تنظيمات الجماعة وتشكيلاتها ، فأفهمناه أننا سنعرض عليه تفاصيل كل شيء ، وباختصار ذللنا له كل العقبات التى أشار إليها ، ووعدناه بالوقوف معه فى كل صغيرة وكبيرة .

ــ أنت إذن الذى عينت المرشد العام للإخوان ؟

ــ عندما رحب المرشحون الكبار باسم حسن الهضيبى ، عرضنا الأمر على مكتب الإرشاد الذى وافق على هذا الترشيح . ومكتب الإرشاد هو الهيئة التنظيمية التى تدير شئون الجماعة ، وترسم السياسات العامة لها . وهو صاحب القرار وأعضاؤه مشهود لهم بالفضل ، ومطاعون فيما يشيرون به ، ثم أخذت له بيعة عامة من كل أعضاء الجماعة فى كافة البلاد .

وارتبك الجمع وبدت الحيرة فى وجوه القائمين على التوعية ، فالرجل يتكلم فى شجاعة ويقين ، ولايبدو عليه الارتباك والتردد ، السلاسة واضحة فى ألفاظه وكلماته ، وقلّب الرجل وجهه فى الموجودين فى تواضع شديد وتأثر بالغ وقال :

ــ هل هناك أسئلة أخرى تطلبون منى الإجابة عليها ؟

وانبرى له واحد من ركن بعيد سأل فالتفتت الأعين إليه :

ــ نريد أن نعرف قصة عبد الحكيم عابدين .

ومرت لحظة تأمل وتردد ، ثم التفت منير دلة إلى السائل :

ــ وأية قصة لعبد الحكيم عابدين ؟

ـــ قد نسبت إليه أفعال وأقوال أنت بها عليم خبير .

ـــ ربما كان هذا صحيحا ، ولكنى لا أذكر تفصيل ذلك على الإطلاق .

ونطق الرجل كلامه بحزم وقوة وسكت الجميع .

وارتفع صوت عبد العال سلومة :

ـــ لننتقل إلى موضوع آخر .

كان أحمد عادل كمال أول من صعد إلى المنصة للاستجواب ، ولعله كان الثانى ، لا أذكر على وجه التحديد ، ولكن كانت المناقشة معه من أكثر المناقشات إثارة وحيوية ، ويعتبر أحمد عادل كمال من أكثر الذين عُذبوا فى السجن الحربى ، وكان يضرب به المثل ، ويعرضونه على المعتقلين الجدد يخوفونهم به ، والتقى به واحد بعد سنوات وقال له :

ـــ لقد كنت السبب فى سجنى ثلاث سنوات .

وأجابه عادلْ كمال :

ـــ لماذا ؟ أنا حتى لم أرك أثناء التحقيق ، ولم يذكر اسمك فيه .

فقال الرجل :

جاءوا بى من البيت وأدخلونى حجرة رأيتك فيها مغشيا عليك مسلوخا تنزف دما وقالوا لى اعترف أو تكون كهذا ، فاعترفت بما لم أفعل ، وأجهدت عقلى فى إثباته ، وكان الحكم ثلاث سنوات .

وكان أحمد عادل كمال ـــ كما قلت ـــ قد خرج لتوه من محنة العذاب الشديد فى السجن الحربى ، بدعوى أن هناك تنظيما هو على رأسه والكل حريص على إثبات هذا ، وكانت المرارة بالغة ، عندما حرص عدد من المتهمين معه على إثبات ذلك أيضا ، مدفوعين من الضابط عصمت الذى يريد الترقية والمكافأة ، وأصر عدد قليل على الرفض وكان إصرارهم مع عادل كمال ، وكان إصرارهم سببا فى انتهاء هذه القضية ، ومن ثم لم يقدم أحد إلى المحاكمة .

وعند خروج عادل كمال من السجن الحربى إلى أبى زعبل استوقفه شمس بدران ، وانتحى به ناحية :

ـــ هل تعرف إلى أين تذهب ؟

ـــ كلا .

ـــ أنت ذاهب إلى المعتقل ، معتقل لاضرب فيه ، ولكن لاخروج منه .

ـــ لماذا ياسيادة العقيد ؟ لقد ثبتت براءتى .

ـــ عندما أتكلم أنا تسكت أنت هل تفهم ؟

وانكمش أحمد عادل كمال وهو يتمتم :

ـأفهم ياسيادة العقيد .

وانبرى شمس بدران يحدثه فى عظمة وخيلاء :

ـــ قد انعقدت لجنة ، وقررت اعتقال مجموعة من الناس أنت منهم ، ولا يفرج عن معتقل واحد إلا باجتماع هذه اللجنة ، وإجماعها على الإفراج عنه ، وهذه اللجنة لن تجتمع مرة أخرى ، فهى قد شكلت لتحديد من يجب اعتقاله إلى الأبد ، والأبد شىء بعيد .

وأنصت أحمد عادل كمال مستسلما هادئا ، ولم تفارقه رزانته رغم بشاعة ماكان يقوله شمس بدران ، وكأنه ينتظر منه إجابة أو كلاما .

ــ مالك لاترد .

ــ لقد أمرت سيادتك بأن أصمت ، وليس هناك ما يمكن قوله .

ــ ألا يجعلك هذا تشعر بالخوف ؟

ــ ليس أكثر مما رأيت ياسيادة العقيد .

ونظر إليه شمس بدران طويلا ، وارتسمت على وجهه ابتسامة شيطانية :

ــ أستطيع أن أنقذك من هذا .

ــ يكون لك الشكر الكثير ياسيادة العقيد .

ــ لهذا ثمن يجب أن تدفعه ، نحن على اقتناع تام من أنك كنت على رأس تنظيم سرى ، الغرض منه قلب نظام الحكم ، ورغم عدم إثبات ذلك فى التحقيق الذى تم ، أنت وغيرك لم يثبت ضدهم شىء ، ولكنهم سيظلون فى المعتقل إلى الأبد ، وكما قلت لك أستطيع أن أستثنيك من هذا .

ــ قلت إن هناك ثمنا لهذا .

ــ بالضبط . أى مسئول فى أى موقع من أرض مصر لابد وأن يكون من رجالنا ، يكتب لنا التقارير ، وينقل لنا أخبار كل شىء ، وينفذ ما نريد منه دون مناقشة ، هكذا الأمر دون مواربة ، أفرج عنك وأمنحك وظيفة كبيرة عظيمة ، وتكون كما قلت ، تكتب لنا التقارير ، وتنقل لنا الأخبار .

— ....

— مالك سكت .

— ليس عندى ما أقوله ياسيادة العقيد .

— إذن فأنت تفضل المعتقل الأبدى .

— لايوجد شيء لانهائى ياسيادة العقيد ، لكل شيء نهاية .

— هيا لتلحق بالصف فقد جاءت العربات ، اعتقال لانهاية له وسوف ترى بنفسك صدق ما أقول .

وفى صمت ركب « أحمد عادل كمال » العربة وأخذت طريقها إلى القلعة ، فأبى زعبل ، حتى مثل أمام لجنة التحقيق فى جمع المعتقلين الغفير ليجيب على الأسئلة التى كانت تأتيه من كل جانب .

— متى انضممت إلى النظام الخاص ؟

— متى أنشىء النظام الخاص ؟

— هل كنتم على حق ؟

— هل أنتم جماعة المسلمين أم جماعة من المسلمين ؟

— ما الذين فعله الرئيس جمال عبد الناصر حتى تحاربوه ؟

— ماذنب الشباب الذين ضللتموهم وخدعتموهم ؟

وكان وجه الرجل ساخرا نبيلا ، تعلوه ابتسامة تشكل تعبيرا لايمكن أن ينسى ، فهى مزيج من أشياء عديدة ، وكأنه تجرد من الخوف ، ولم يبق عنده غير الإشفاق الساخر ، مع روح التحدى المتوثبة ، التى كانت أيام كان يقاوم الإنجليز

فى القاهرة والقنال ، واليهود أيضا فى القاهرة وفلسطين . وفى هدوء ارتفع صوته الهادىء الذى لايكاد يسمع :

لا أستطيع الإجابة على هذه الأسئلة دفعة واحدة .

وارتفع صوت :

ـــ متى انضممت إلى النظام الخاص .

وفى بساطة أجاب :

ـــ لا أذكر على وجه التحديد ، ربما عام (١٩٤٦ أو ١٩٤٧) .

ومن زاوية حسب تدبير المخرج الذى أشرف على العرض انطلق صوت :

ـــ متى أنشىء النظام الخاص ؟

ـــ يقولون إنه أنشىء عام (١٩٤٢) ، وظنى أنه قد انشىء قبل ذلك ربما عام (١٩٣٨) ، بعد ثورة فلسطين ضد اليهود عام (١٩٣٦) ، وبعد توقيع المعاهدة المصرية الإنجليزية فى العام نفسه ، وهناك سؤال فاتكم ، لماذا أنشىء هذا النظام الخاص ؟ والإجابة لتحقيق الأمانى الوطنية والقومية ، لحرب الإنجليز فى مصر ، واليهود فى فلسطين .

وجاء صوت حاد رفيع من أقصى المكان :

ـــ كانت هناك أخطاء فى تصرفات النظام الخاص .

وفى هدوئه الذى لايفارقه أجاب أحمد عادل كمال :

ـــ لايخلو أى عمل فى الدنيا من أخطاء :

وانطلق سؤال كأنه السيف القاطع الصارم :

ـــ أنت قتلت السيد فايز عبد المطلب ، لماذا ؟

ـــ هذا غير صحيح .

ـــ ماهى معلوماتك عن قتل السيد فايز عبد المطلب ؟

ـــ ذكرت الصحف فى تلك الأيام أن الأستاذ إبراهيم هاشم ، وكيل النائب العام فى نيابة شمال القاهرة ، قد واصل التحقيق فى حادث الانفجار ، الذى راح ضحيته المرحوم المهندس « سيد فايز عبد المطلب » وشقيقه وإحدى السيدات ، وكانت إحدى شقيقات المهندس القتيل قد ذكرت فى التحقيق ، أن شخصا حضر إلى المنزل وسلمها ـــ صندوقا من الورق المقوى ، هدية إلى شقيقها من صديق له ، كان متهما معه فى إحدى القضايا .

ـــ أنت المعنى بهذا ؟

ـــ هذا صحيح .

وتدخل عبد العال سلومة :

ـــ أكمل حديثك لوسمحت .

واستمر عادل كمال كأنه لم يعارضه أحد :

ـــ تعرفت شقيقة المرحوم سيد فايز علىَّ أثناء العرض الذى أجرته النيابة ، وقالت إننى الذى أحضرت هذه العلبة التى أدت إلى الانفجار .

ـــ هذا دليل دامغ .

وواصل الحديث دون أن يلتفت إليه :

ـــ أثبت للنيابة أين كنت فى يوم الحادث طوال النهار .

ـــ وكيف أثبت هذا ؟

ـــ كان ذلك اليوم إن لم تخنى الذاكرة من أيام نوفمبر ، وكان شديد الزوابع والعواصف ، وبقينا فى المنزل سويا من أول النهار إلى آخره فى أثناء حدوث الحادث ، كنت أنا وأحد الإخوان المسلمين ، وقد شهد بهذا فى التحقيق .

ـــ كنتم تعملون عملا له صلة بالنظام الخاص ؟

ـــ بالضبط . وعندما ووجهت شقيقة المرحوم بأقوال الشاهد عدلت عن أقوالها ، وقالت إن شخصا أوهمها أننى القاتل ، وطلب منها التعرف علىّ أثناء عرض النيابة . وقد تبين للنيابة أن هذه الواقعة لاسند لها من الحقيقة ، وهذا ما ذكرته الصحف فى تلك الأيام ، وقد حققت معى أجهزة تعرفون كيف كان تحقيقها يدور ، وثبتت براءتى من هذه التهمة الشنيعة ، فكل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه ، وكان المرحوم سيد فايز أخاً عزيزا ، اشتركنا سويا فى أعمال عظيمة لها قيمتها على المستوى الوطنى والقومى والإسلامى .

ـــ من قتل سيد فايز فى رأيك ؟

ـــ الظن أنه كان يجرب بعض العبوات للتفجير ، فانفجرت واحدة وحدث الحادث ، أما الحقيقة فيعلمها الله سبحانه وتعالى .

وانطلق سؤال :

ـــ من كان معك فى البيت طوال النهار الذى قتل فيه سيد فايز ؟

ـــ الأخ إبراهيم صلاح ، وهو حى يرزق ، ومعروف لدى أغلبية الموجودين .

ـــ إذن فأنت لم تقتل سيد فايز ؟

ـــ لقد أنشيء النظام الخاص لقتال الإنجليز واليهود والسراى ، وليس لقتال الإخوان المسلمين ، ولو استطاعت أجهزة التحقيق أن تجد أدنى شبهة ماتركتنى .

ـــ هل كانت جماعة الإخوان المنحلة هى جماعة المسلمين ؟ أم جماعة من المسلمين ؟

ـــ فى رأيى أنها كانت جماعة من المسلمين .

ـــ ومازالت كذلك ؟

ـــ هذا أمر تجيبون أنتم عليه .

ـــ والانفجارات والقنابل التى ألقيت هنا وهناك ؟

ـــ هذه أمور تم التحقيق فيها وقتلت بحثا ، والقضايا السياسية يجب أن ينظر إليها من منظور يختلف عن سائر القضايا الأخرى .

ـــ لو عاد الزمن بك هل تغير أفكارك وآراءك ؟

ـــ لقد كنت أشترك فى مقاومة الإنجليز المحتلين ، وأسهمت فى حرب اليهود الذين اغتصبوا فلسطين ، وكنت شوكة فى حلق السراى والحكومات التى سبقت ثورة ٢٣ يوليو ، وكنت أحد قلائل من خارج الجيش ، يعرفون موعد قيامها الذى أجل يوما كاملا ، وكنت أشارك فى العمل الوطنى ، وقد عرضت حياتى للخطر الدائم من أجل تحقيق غايات نبيلة ، فهل هذه الأفكار التى تودون منى أن أتخلى عنها لو عادت بنا الحياة مرة أخرى ؟

ـــ نحن نتكلم عن نقطة محددة .

ـــ وأنا أتكلم عن نقطة محددة أيضا .

ــ أنت تراوغ وتلعب بالألفاظ ، ولاتريد أن تجاوب بصراحة على الأسئلة .

ــ أنا على استعداد كامل للإجابة على أى سؤال .

ــ بالطريقة التى تريدها ؟

ــ لاتوجد طريقة أخرى أعرفها .

وتدخل عبد العال بك :

ــ فلننتقل إلى نقطة أخرى .

ونزل أحد عادل كمال من فوق المنصة ومشى بين صفوف الجالسين ، حتى وصل إلى مكانه بجانبى قبل أن يصعد وسألنى :

ــ مارأيك فيما قلت ؟ يبدو أننى لم أحسن التعبير .

وهمسا وخوفا من أن يسمعنى أحد :

ــ لقد أجملت وأحسنت وكنت شجاعا .

وجلس الرجل بجانبى مهموما مثقلا بسنين طويلة من الكفاح ، ترقد فوق كتفيه ، وتطل من بين عينيه المتوثبتين ، وظل يشاهد العرض الردىء ، وتعلو وجهه غمامة حزن لضياع تلك الحقبة من التاريخ فى نظر أصحابها .

وكان الذعر والصمت يخيم على الجميع ، ولا يقطعه غير صيحات الهرج والمرج فى الحلبة الرومانية ، حيث الأصوات العالية ، من جمع غفير ، قد خلا من الأسود والشهداء .

كانت هناك بعض الجمعيات الإسلامية فى معتقل أبى زعبل ، ولها بعض الممثلين عنها ، كالجمعية الشرعية والهداية الإسلامية ، ومعها الشيخ حافظ سلامة ، وبعض جمعيات أخرى صغيرة ، منها ما تكون لدفن الموتى من المسلمين الذين لا يجدون نفقة ينفقونها عليهم لدفنهم ، ولا أدرى لماذا أتوا بهم إلى المعتقل ، ولماذا أشركوهم فى هذا المهرجان الصاخب الكبير ، والكل يسب جماعة الإخوان والأوامر تقضى بهذا ، ففى لحظات الصمت ينطلق الهتاف منظما يقوده دعاة منظمون مدربون ، قد أعدوا من قبل ما يصرخون به .

وكانوا كثيرا ما يتركون الناس يهتفون بأنفسهم ، ويرتجلون فى صراخهم .

ورأيت « عبده معروف » وهو يقترب من أعضاء الجمعية الشرعية ، بلحاهم البيضاء الوقورة وعمائمهم الكبيرة ، وكانوا أربعة هالهم مارأوا ، وكان اضطرابهم عظيما ، فهم يهتفون مع الهاتفين ويصرخون مع الصارخين فى نشاز يؤثر على الإيقاع ، ونغمة شاردة تائهة خائفة ، ولكنهم يرددون . وقال لهم « عبده معروف » :

ــ لاتسبوا الإخوان ، بل اهتفوا بسقوط جمعيتكم ، تعليمات الحكومة تقضى بأن يسب كل واحد جماعته ، فالإخوان يشتم الإخوان ، وعضو الجمعية الشرعية يلعن جماعته ، وأصحاب الهداية الإسلامية يسبونها ويتبرءون منها ، ولايجوز لأحد أن يسب غير جماعتهم .

واهتزت العمائم الكبيرة ، واضطربت اللحى البيضاء الخائفة المرتعشة ، وعزفت لحنا جديدا بنشيد مختلف .

ورآنى الشيخ محفوظ كبيرهم ، وكان رجلا طيب القلب صالحا ، تعرفت عليه بعد ذلك ، وجاورته سنين طويلة ، وكنت أنظر إليه متأملا شاردا ، وسكت الرجل عن العزف والإنشاد ، وبدت فى عينيه علامات الاعتذار ، وهمس لى :

ــ فلنتحمل هذه الضجة ، قليل من « الهيصة » والهيجان ثم نذهب إلى بيوتنا .

وابتسمت له مطيبا خاطره ، فالكل شركاء فى هذا المهرجان .

وقد خاب أمل الشيخ محفوظ ، فقد مكثنا فى السجن بضع سنين بعد هذا الحادث .

كانت آثار التوعية بالغة ، فقد كنا نعود إلى العنابر مساء وقد أنهكت قوانا من الهتافات المتكررة التى أجبرنا عليها ، ومن الجلوس على البلاط فى البرد الشديد ، وعدم تقديم الطعام الردىء فى موعده ، بل كانوا يؤجلونه حتى نهاية المهرجان ، والانفعالات التى تملأ القلب بالخوف والوجل والترقب ، ويجلس كل وحد على نمرته خائفا يشغل نفسه بشىء يفعله حتى يتجنب النظر إلى من بجواره خجلا أو خوفا .

وكل يحاول تبرير تصرفه فى النهار ، فى تصرفات يائسة ساذجة ، أو كلام لامعنى له إن أسعفته شفتاه بالكلام ، وكل يحاول أن يتخيل لحظة انتهاء هذا المهرجان ، وكيف يمكن أن يعود بشرا سويا أمام زملائه وقرنائه ، ويغرق الجميع فى شجى عميق وحزن بالغ يملأ النفس ، لايستطيع أحد أن

يظهره ، وإلا فهو يصنف من أعداء الحكومة ، تلك الحكومة القوية القادرة ، المتمكنة من أفواه الناس وتريد التمكن حتى من خلجات نفوسهم ، ثم يأتى النوم ، فلا يستريح أحد ، فخواطر المساء أكثر ازدحاما فى النفوس والرءوس ، أما النهار فكله انشغال بجودة الأداء ، والانتباه إلى أية معلومة ، أو أمر قد يأتى من مكان مجهول ، عبر فم لا يدرى أحد فى أى الوجوه كان ، ومن خلال صوت يأتى من قريب أو بعيد ، لا يمكن لنا استعادته من جديد ، فهو الغيب ، أو قدر كان ويكون ، يسعى إلينا ونسعى إليه ، ونحن معه صنوان فى تنهيدة خافتة ، وآهة تخرج من جوف الليل ، ملتهبة بالكلمات والذكريات العبقة العميقة . ونهار صعب يأتى بعده ليل أكثر صعوبة ، فعودة إلى أحاديث القردة والخنازير من جديد .

عندما يصبح القاضى سفاحا قاتلا ، وعندما ترى نفسك ، وقد اضطررت للوقوف أمام جلاد ترتضى حكمه فيك ، لك أو عليك حسب مايرى ، أو حسب مايكون عليه مزاجه ، فالحسرة عند ذاك عظيمة وألم النفس بالغ ، وهوانها عليك وعليهم أبعد أثرا وأكثر حدة . وهى لحظات تبحث الذات فيها عن الإيمان فى أعماقها ، وهو الملاذ والمعين فى عالم قد فقد شكله ومعناه ، وغاية ما يفعله الإيمان فى لحظة من تلك اللحظات أن يحمى النفس من الدمار والضياع والتمزق .

وكانت الأيام الأولى لتلك التوعية ، تجعلنا لاننام الليل من كثرة التفكير ، وكانوا يحرصون على إيقاظنا فى الصباح المبكر ، وقد ساعدهم على ذلك الذباب الكثير الذى يملأ العنبر مع خيوط الصباح ، وبعد أن توالت الأيام بعد ذلك ، صرنا نشعر بالجهد الحاد من قلة النوم ، والشك والخوف

والتمزق يملأ النفس بالحسرة فسرعان ما نشعر بالتعب الشديد ، ونستغرق فى نوم هو إلى الكوابيس الثقيلة أقرب ، فكأنه عذاب القبر فى عالم البرزخ قبل أن يطلع النهار .

قل المرح فى نفوس الناس ، وغشيت المعتقلين كآبة عميقة ، ومرت أيام على بداية التوعية ، فصار الناس يؤدون فى آلية ورتابة ، وكل شيء مفروض عليهم ، وليس أمامهم حق الاختيار ، وشعورهم أن العيون ترصدهم من كل جانب، وكأن مسجلا كبيرا يلف المكان ، فهم إلى الحذر أقرب ، ورحمة الله وفرجه قريب من المحسنين .

واقتربت التوعية من أيامها الأخيرة ، وتسلل الفرج إلى الصدور فهى علامة لساعة الرحيل عن المعتقل ، هكذا ألقى فى روع الجميع ، وقد آذنت الرحلة على النهاية ، ولم يبق على ذلك إلا ساعات قلائل .

ظهر سادة جدد لمجتمع الإخوان من الإخوان ، وترأست أسماء كثيرة وصارت لها المكانة والسلطات . وكنا نميز هؤلاء السادة بحلاقتهم المتأنقة وملابسهم النظيفة الغالية ، والأمور نسبية بطبيعة الحال ، وكان واحد من هؤلاء السادة الجدد يضمخ وجهه وملابسه ببعض العطور ، فكنا نعرفهم بهذا ، ونعرفهم فى لحن القول .

الجوقة كما هى ، والعازفون فى مكانهم ، ولم يتغير غير النشيد .

وكانت هناك غرفة فى الطابق الأول ، بها مكاتب ومقاعد وأوراق كثيرة ، وآلة للكتابة ، عليها من يدق طول الوقت ، وأوراق تكتب ، وأوراق تخرج ، وأخرى تدخل ، وقوم معلمون يروحون ويجيئون فى جدية وكتمان ، وسرى بين

الناس خبر مؤداه أن المهرجان ماهو إلا امتحان ، وفيه نجاح وفوز ، وفيه أيضا رسوب وفشل ، والكل قائم على المرصد ، يرصد الدرجات ويحصى الخطوات ، ويبصر الأنفاس وهى تهمس لاهثة ، ويقيد النظرة وهى تخون الجميع ، ويكتبون ويكتبون حتى يأتى الموعد . وجاء الموعد وانفض الناس بعد حين قريب بعيد .

انتهت التوعية : ومكث المعتقلون فى العنابر أياما طوالا ثقالا ، لايعرفون ما يراد بهم ، وكانوا يخرجون من كل عنبر واحد أو اثنين ، ولايظهر واحد منهما إلا مع الليل ، ويدخل بعد أن يفتح له الشرطى الباب ، ثم يغلقه مرة أخرى ، ولايكلم أحدا ويسكت جميع الناس ، ولاينطقون إلا مع الصباح وظهرت نتيجة الامتحان .

لا إفراج هناك .

ولكنهم يؤكدون أنه قادم .

نادوا على كل من كان فى الطابق الثالث وأخرجوهم فى جماعات ، وظن الناس أنه قد أفرج عنهم ، ولكنا علمنا بعد ذلك ، أنهم ذهبوا بهم إلى معتقل مزرعة طرة . وأعادوا توزيع كل من بقى فى الدور الثانى من جديد ، بعد أن قل العدد إلى النصف .

وجمعوا ستة وثلاثين شخصا فى عنبر (١٢) ، وقالوا : إنه العنبر الذى لن يفرج منه عن شخص واحد ، حتى تقوم الساعة ، وهكذا كانوا يرددون وسموه عنبر الزعماء ، وكان بالعنبر أغلب من تم استجوابهم فى التوعية . فكان هناك منير دلة ، ومحمد قطب ، وأحمد عادل كمال ، وشكرى

مصطفى ، وحافظ سلامة ، وشمس الدين الشناوى ، وأحمد نصير ، ومحمد المأمون الهضيبى ، ويوسف كمال ، وصلاح الأنور ، وعبد الفتاح المحروقى ، وعزمى بكر ، ومصطفى كامل ، والسيد عيد ، وفريد العراقى .

ولست أدرى لماذا وضعونى فى زمرة هؤلاء الفضلاء الذين وصفوهم بالزعماء .

وماهى إلا أيام فى العنبر الجديد ، حتى شعرت بالنقلة المختلفة التى انتقلناها ، فقد تبدد الخوف أو كاد ، بعد أن تبين الناس وعلم أصحاب عنبر (١٢) ، أن لا خروج منه على الأقل إلى أمد ليس بالقريب .

ارتفعت الأصوات قليلا ، وتنفس الجميع الصعداء ، ورانت على القوم سكينة وهدوء ، فلم يعد هناك أمل فى الخروج ، واليأس أحد الراحتين كما يقول العلماء والحكماء .

وكثر الهرج والمرج فى المعتقل من جديد ، وقالوا : إن التوزيع الذى تم على العنابر قد تم بخطة مدروسة ، وأن كل عنبر له درجة من الدرجات ، وليست هناك قاعدة لتكشف القاعدة التى بنى عليها هذا التقييم ، واتفق الجميع على أن أسوأ العنابر حالا هو عنبرنا عنبر (١٢) وأن هناك ترتيبا آخر للعنابر لايعتمد على الأرقام .

وطالب البعض بإعادة التقييم من جديد .

وحدثت مظالم ومزالق وكان تهافت ، وشغل الناس ، وكان عنبر (١٢) بعيدا إلى حد كبير عن هذا الشغب ، فهو عنبر خارج عن اللعبة كما يقولون .

وسارت الأيام بطيئة ، وعنبرنا قد تهيأ لاعتقال طويل .

وكانت إدارة المعتقل من المعتقلين ، قد تغيرت وشكلت إدارة أخرى ، تختلف عن سابقتها بعد رحيل سكان الدور الثالث .

وكانت أصوات ترتفع بالتعايش السلمى مع الحكومة وقبولها ، وكان هذا أمرا واقعا لايقدر أحد على رفضه إلا عدد قليل .

وارتفعت أصوات أخرى ، تطور الأمر ، وتطالب بالعمالة للحكومة بكل معانيها الرخيصة ، ورفض هذا الصوت أغلب الناس جهارا ، وصمت البعض لا يؤيد ولا يعارض ، وقد تملكته حيرة من أمره وأصبح لايدرى ماذا يفعل .

ثم جاء يوم صعب .

وأعلن عبد الناصر إغلاق مضيق تيران ، وصنافين فى وجه الملاحة الإسرائيلية ، وأخبرنا الضباط أن هذا معناه الحرب مع إسرائيل .

وأحب أن أذكر هنا شيئا لمسته بنفسى ولمسه آخرون .

كان محمد قطب يقول لى ــ وكنت أسكن على مقربة منه فى العنبر : إن رؤى صادقة يراها فى منامه . وكنت أقول له : إن الرؤى الصادقة تكون غير محددة المعالم فى ظنى ، ولكنها تتكلم عن أشياء عامة أو تنبىء عنها .

وكان يقول : إنه يرى رؤى محددة المعالم عن أشياء واضحة لالبس فيها ، وطلبت منه أن يخبرنى ببعض هذه الرؤى عندما يراها وقبل أن تتحقق ، ووافق الرجل على هذا وقدم لى أمثلة كثيرة أدهشتنى ، ولكن الذاكرة لا تسعفنى .

أذكر منها مرة عندما طلع الصبح اقترب منى باسما باشًا :

ـــ سيأتى عبد العال بعد ثلاث .

وكان الأخ عبد العال محمد الأستاذ بكلية الهندسة ـــ جامعة أسيوط ـــ قد رُحِّل إلى سجن القلعة ، منذ أكثر من شهرين ، وكانت الأخبار منقطعة ، ولانعرف ماتأتى به الأيام فى الغد ، بل كنا نعرف الأحداث عندما تكون .

وقلت له :

ـــ ماذا تعنى بثلاث ؟

فقال :

ـــ ثلاثة أيام أو أسابيع أو شهور .

وأكملت له :

ـــ أو سنين ؟

ولكنه قال فى بشاشة وثقة :

ـــ بل ظنى أنه بعد ثلاثة أيام .

ومرت الأيام وجاءوا بعبد العال من القلعة فى منتصف اليوم الثالث .

وكنا فى منتصف شهر مايو من عام (١٩٦٧) .

وجاءنى « محمد قطب » كعادته فى صباح الرؤيا الصالحة :

ـــ ثلاثون يوما تبدأ من الغد فى كل يوم حدث عظيم ، ونسر يتطاول فى الفضاء ، ثم يهوى صريعا من شاهق .

وتعجبت لرؤياه وسألته عن معناها فقال :

ــ أخبار تأتينا من الغد ، كل يوم خبر يرفع اسم عبد الناصر عاليا ، ثم يهوى من شاهق ، فى آخر الأيام الثلاثين ، وتنتهى أسطورته ، ويبطل السحر .

وامتلأت دهشة وأنا أسأله :

ــ هل تظن هذا ؟

وقال الرجل ببشاشته وابتسامته التى لاتفارقه :

ــ أنا واثق من هذا ، الرؤيا الصالحة من الله .

وكان ما قال بالضبط ، ويشهد على هذا من يذكر الأحداث من أهل عنبر (١٢) ، الذين كانوا مقربين من « محمد قطب » ومازالوا أحياء .

وبدأت الأحداث تترى يأخذ بعضها بحطام بعض كما وصف الرجل على وجه التحديد ، والذى يراجع صحافة تلك الأيام ، يلحظ العناوين التى كانت تنزل كل يوم عن حدث جديد وخبر مثير ، وصحافة العالم كلها تهرع إلى مصر لتشهد النزال ، والنسر يعلو إلى أجواز السماء ، ويتكلم فى مؤتمر صحفى عالمى ، أنه على استعداد لنزال الأحمر والأسود ، وأن إسرائيل أقل من أن يلتفت إليها ، وأنا أعاود السؤال على محمد قطب .

ــ هل تظن رؤياك تكون ؟

ويقول الرجل مطمئنا دائما ؟

ــ سوف ترى بنفسك .

وانشغلت بالأحداث عن رؤياه .

وظهرت بشائر تغير فى تاريخ المعتقل ، وفى تاريخ مصر وتاريخ العرب .

فى هذه الأيام سمحوا لنا بالصحف ، وكانت محرمة علينا ، وزعوا على كل عنبر من العنابر صحيفة من الصحف المصرية وكانت كلها متشابهة لاتختلف إلا فى اسم الجريدة ، (الأهرام ، الأخبار ، الجمهورية) أسماء مختلفة والموضوعات واحدة متطابقة ، الاختلاف فى عنوان الجريدة واسمها ، وفى أسماء الموتى المكتوبين فى الصفحة قبل الأخيرة .

وكانت الصحيفة تدخل العنبر فيتزاحم الناس عليها يتخاطفونها ، أو يمزقونها إلى صفحات ، كل مجموعة تمسك بورقة ، ثم أتفقنا أن يقوم واحد فينا جهير الصوت بقراءة الجريدة كلمة كلمة ، حتى الإعلانات المبوبة ، فقد كانت تلك أول مرة نحصل فيها على شىء مثل هذا .

وكنا ننتظر الصباح لنطلع على مافيها ، رغم ما فيها من هراء .

ثم صاروا يفتحون المذياع على نشرة الأخبار ، من خلال مكبر للصوت يسمعه كل من فى المعتقل ، وكانوا يفتحونه أيضا على إذاعة صوت العرب ، حيث يدق أحمد سعيد طبول الحرب .

وخيم الذهول على الناس ، فأكثرهم عقلاء مجربون يفهمون ، ولكنهم لايكادون يدركون .

ولم يكن كل الناس قد سمع برؤيا محمد قطب .

وانتحى بى أحد الأصدقاء القدامى وقال لى :

ـــ لقد خدعنا طويلا وعلينا أن نسلم لعبد الناصر وإلى الأبد ، الرجل يجاوز عنان السماء .

وقلت له :

ـــ أنت واهم الرجل يرتفع إلى عنان السماء ، ثم يهوى من شاهق ، إنها الحرب ، وهو مهزوم فيها لامحالة ، لقد صنع نظاما لايقوى على حرب .

وهذا الصديق مازال حيا حتى الآن .

الفصل الثامن عشر

زنازين شمال

كانوا ينظرون إلى أصحاب عنبر ١٢ نظرة مليئة بالشك والريبة ، ويقولون إن هؤلاء المعتقلين المقيمين فى العنبر هم أهل الرأى، وهم الذين يقيمون الدنيا ويقعدونها إن خرجوا من المعتقل ، فهم أهل البقاء ، وإن طال الزمن وقد تقوم القيامة عليهم فى معتقل أبى زعبل ، وإن أصحاب العنابر الأخرى سوف يخرجون يوما ، أما عنبر « الزعماء » فلن يخرجوا أبدا .

وكان الأمر على مرارته البالغة يثير السخرية الشديدة ، فالواقع يقول إن الستة والثلاثين معتقلاً المجتمعين فى العنبر لايربطهم رباط تنظيمى واحد ، فهم متعددو المشارب والنزعات ، وكل منهم عالم وحده ونسيج متفرد ، هذا إذا استثنينا بطبيعة الحال مجموعة الأستاذ محمد قطب ، وهى

تتشكل فى العنبر منه وابن اخته الدكتور عزمى بكر شافع ومصطفى كامل والمرحوم أحمد نصير المحامى من أسيوط ، وبقية الساكنين فى العنبر يكنون له الود والاحترام ، فقد كان الرجل ودوداً مهذباً جم الأدب ، حلو الحديث عذب النفس رغم مصيبته فى الشهيد سيد قطب ، ولم يكن الناس معه على أكثر من هذا ، وهو نفسه كان يتجنب الحديث فى السياسة ، ولايذكر الرئيس عبد الناصر بخير أو شر ، ولكنه إذا سئل عنه وعن رأيه فيه فهو يجيب بصراحة شديدة ووضوح كامل ، ولايتحرج ولايعرف الخوف طريقه إليه ، وكان عقلاء الناس يتجنبون إحراجه والكلام فى هذه الأمور ، اللهم إلا إذا كان حديثا خاصا بينه وبين بعض من يثق بهم ، وكان هذا الحديث كثيراً مايدور سرا وهمسا بعيدا عن الرقباء ، ليس خوفا عليه ولكنه خوف هؤلاء الذين يثق بهم على أنفسهم ، وكان يقول بصراحة إن الحكومة كافرة ظالمة باغية وإن عبد الناصر هو

الطاغوت الأكبر وهو من عوامل فساد أمة العرب والمسلمين . ولم يكن يرى التنظيم إلا وسيلة سهلة لاصطياد الناس وضرب الشباب ، ولكن على كل من يؤمن بلا إله إلا الله وأن محمد رسول الله أن يكون صادقاً مع نفسه وعلى استعداد كامل للموت في سبيلها ، وأن الشهادة هى السبيل الوحيد ليغير الناس مابأنفسهم فيغير الله سبحانه وتعالى مابهم . وأن الأمة الإسلامية لن ينصلح حالها حتى يبرز فيها قوم يحبون الموت ويتشوقون إلى الجنة ، وأن يكون موتهم صريحاً واضحاً من أجل لا إله إلا الله محمد رسول الله ، بلا تنظيم يمسك به وتنفرط حباته فى ظل نظام بوليسى عتيد ، قد جعل التجسس شعاره ، نظام قد حول الناس جميعاً إلى كتبة تقارير ، كل الناس – هكذا كان يقول – حتى الوزراء والأعيان والكبراء ، وكان قوله ظاهره البساطة فى معانيه ، ولكن مراميه كانت بعيدة الهدف ، بليغة الأثر والمرام ، لم يكن الرجل ينهى عن التنظيم ، بل كان يدعو إلى ثورة إسلامية شاملة ، ممثلة فى حرص الناس على الشهادة ، فهم ليسوا بقادرين على الشرطة والجيش ولكنهم يستطيعون الموت ، فى بساطة وقوة وشرف حرصا على الدين . وهو سبيل الأمم الوحيد للتغير وللخروج من دائرة العبودية والهوان . وكنا نسمع ونهز رءوسنا ، فالموافقة والمعارضة لاتفيد ، ولعلها تضر بالتأكيد . ولكن الصدور تغلى مما تراه من الحق ، ومن تناقضه مع الواقع المهين الذي نعيشه كل يوم تحت رقابة صارمة وأوهام لاندرى أولها من آخرها .

وكان المدربون يقترحون إرسال برقية تأييد للرئيس عبد الناصر فى مناسبة ما ، وربما كان يوحى لهم بمثل هذه الاقتراحات ليروا أثر ذلك على الناس ، وكان الناس يسارعون فى التوقيع بأسمائهم على مثل هذه البرقيات تجنبا للأذى

وتحسبا مما قد تأتى به الأيام . وكان محمد قطب يرفض التوقيع على مثل هذه البرقيات رفضا تاماً ، هو ومن معه ، وآخرون ليسوا معه بالمعنى الذى تعرفه الأجهزة .

وكان بعض العقلاء يقولون إن توقيعاً مثل هذا لن يضر المرء فى دينه أو شرفه ، فالتوقيع لايعنى أن النفس مجبرة به ، ولكننا نبش فى وجوه قوم وقلوبنا تلعنهم ، والتقية واجبة ، وإهدار النفس ليس من الدين فى شيء ، فالحكومة كافرة ظالمة باغية ليس فى هذا شك ، وهى حمقاء أيضاً عندما تطلب منا التوقيع على مثل هذه الأوراق وتصدقنا وتظن أننا لانخدعها .

وكان الذين يرفضون التأييد ولايوقعون على مثل هذه البرقيات لايطلبون من غيرهم أن يسلكوا سلوكهم على عكس الذين يؤيدون ويوقعون ، فهؤلاء كانوا حريصين على أن يفعل الجميع مثلهم وينجون بهذا من تأنيب داخلى يعذب النفس ، ويقولون لو أيدنا جميعا فلن ندع للحكومة فرصة تدخل فيها بيننا ، ومن ثم فهم مجبورون على تركنا وشأننا ، ولايعودون إلى إيقاع العداوة والبغضاء بيننا ، وسيكون المعتقل حرما آمنا يتخطف الناس من حوله ، ويوم يأتى لعله ليس ببعيد تنزاح فيه الغمة عن الأمة ونخرج إلى بيوتنا وأهلينا .

وكان كل فى واديه ، لاهذا يسمع لذاك ، ولاذاك يسمع لهذا ، والأمور تجرى على الناس بقدر يعلمه الله ، ومقادير قد سطرت علما فى الأزل الأبدى ، والناس فى شغل شاغل بأمور قد حسمت علما وسطراً ، والغيب يدور فى نفس الدورة خارج كل تصور أو خيال بشرى ، وهى حلقات لاانفصال لها ، وبها بيان كل شيء ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون ، كان محمد قطب يتكلم فى

أوقات صفوه عن الأدب والشعر ومدارس النقد ، ويعقد المقارنات بين شوقي وحافظ ، أو بين شوقي والعقاد ، وكان غزير الثقافة ، ويتمتع بخفة دم نادرة ، وهو حاضر النكتة والبديهة ، ولم يكن أيامها يغضب ممن يعارضه الرأى ، بل يكتفى بابتسامة سمحة متمتما :

– هذا هو رأيى ، فإن جاء خير منه قبلناه .

متمثلاً فى ذلك قول الإمام أبى حنيفة النعمان .

وكانوا يسمحون لنا بالخروج نصف ساعة بين اليوم والآخر إلى خارج مبنى المعتقل ، بينما الأسوار عليها الأبراج وبها الحرس بالسلاح ، وبين مبنى المعتقل الرمادى اللون الراقد فى مروج أبى زعبل ، وزيدت النصف ساعة إلى ساعة ، و كانت تتم فى العادة بعد الظهر ، وبتدخل أهل الحنكة والسياسة والمال زيدت إلى أكثر من ساعة ، وكان التوقيت يتم فى العادة حسب الظروف . وعندما اعتاد الناس هذه الطوابير ، فقد كانوا يطلقون عليها طابور فسحة ، أصبحت تجد من يلعب كرة القدم ، أو كرة الشبكة ، أو يحملون حديدا قد صبوه من أسمنت مسلح ، ويدربون بهذا عضلاتهم ، وهم يحاولون تجنب الترهل ، بعد شهور « التخزين » فى العنابر .

وكان كل المعتقل ينزل فى وقت وعنبر ١٢ ينزل في وقت آخر ، يخشون بهذا عدوى الأفكار ونقل المفاهيم .

وعندما يأتى دور عنبر ١٢ ينزلون ، ويتجه من يهتم بلعب الكرة إلى ملعبه ، ومن يحمل الحديد الأسمنتى إلى ذلك « البار » العمومى الموجود فى فناء المكان ، والباقون يكتفون

برياضة المشى فى دائرة طويلة ، وهم يتحدثون ويتحدثون ، وكان الأستاذ محمد قطب من أقطاب رياضة المشى ، فهو يسير مثيرا غبارا من قدميه وأقدام أصحابه، ولاشك أنه كان يثير فى نفوسهم نوازع أخرى عجيبة ، فكنت ترى طابورهم - إن جاز التعبير - رجلاً واحداً يتكلم والكل حوله فى صمت ، وهو يحرك إصبعه ويده لتأكيد كلامه وتثبيت معانيه ، وعند العودة إلى العنبر يتذكرون وقائع ذلك الطابور البهيج .

وكان الأستاذ شمس الدين الشناوى من حملة الأثقال ، وهو يلعب الكرة أيضا ، ويقسم وقت الطابور بين هذا وذاك . وكان شاعرا يحفظ الشعر ويقرضه أيضا ، وكان هو الآخر جم الأدب شديد التواضع ، بشوشا رغم شوقه الذى لايفتأ يعبر عنه إلى أطفاله ، وإن لم تخنى الذاكرة فقد كانت أسماؤهم عمر ، وفائقة ، ونائلة ، فهو يذكرهم بالنهار ، وتداعبه طيوفهم بالليل ويستعين على هذا كله بالصبر والصلاة .

وكانت تحدث المساجلات الشعرية بينه وبين الأستاذ محمد قطب ، وكنت أشترك فيها ، وكان من عادة الأستاذ محمد قطب أن يقول شعراً ظريفاً مسجلا فيه أحداث اليوم والليلة ، ويتم ذلك عقب العودة من طابور الفسحة . وقد غاب عنى معظم هذا الشعر ، وكم وددت لو كان قد سجل أو كتبه واحد ممن اهتموا بمثل هذه الأمور ، ولكنى أذكر واحدة وربما أكثر قليلاً . نزلنا إلى طابور الفسحة ، ولم يلعب الأستاذ شمس الشناوى كعادته ، بل جلس فى ناحية مهموماً يفكر فى أولاده ، وكانت هذه مسألة طبيعية تحدث للكثيرين وله بصفة خاصة ، ومازلنا به حتى قام إلى اللعب قبل أن ينتهى وقت الطابور ، لعله ينسى مابه من شجى وحزن .

وعندما عدنا إلى العنبر أراد محمد قطب أن يخفف عنه بطريقته فقال :

أراك اليوم لا « شايل » حديد
ولا بوكس ولا كرة شراب
فقل ياسمى الشمس قل لى
عزوف منك أم ولى الشباب

وانفرجت أسارير الأستاذ شمس الدين الشناوى وشحذ قريحته وانبرى يرد على الأستاذ محمد قطب من بديهته :

لعبت رياضتى وخلصت منها
وأنت تلف عفرك التراب
ويمكن شفتنى لكن بعين
بلا نضارة شيش كباب

وكانت هذه المساجلات كثيرة وطريفة ومتنوعة ، فمثلا كان للأستاذ شمس الشناوى غرائب كثيرة ، ففى وسط هذا الأتون الملتهب كان يمكن مثلا أن يأتى لى بسيجارة أمريكية خلسة ، وكان لايدخن ، فأسأله من أين يأتى بها ، فيقول « دخِّن ولا تسل » ، وكانت شركة بسكو مصر تنتج نوعا فاخرا من البسكوت لم يكن يأكله إلا الملوك فى زعمنا لفخامته ، وقد سمته « رمسيس » تيمنا بالرئيس عبد الناصر فهو ورمسيس صنوان فى رأيهم فقلت فى « الشغتية الكبرى » – وهى قصيدة كنت قد ألفتها ونسيتها إلا قليلاً أسجل فيها الأحداث – :

على أعتاب نائلة سؤالى
وفائقة شددت لها رحالى

همـا النجمـان مالهمـا شبيــه
عدا شمس أباهم ذو المعالى
« أبو الخطاب » يحرس فى حماهم
إلى أن تأذن الدنيا بحـال
ويكتمـل الجميـع بشمـل بـيت
و « شمس » ربه والدهر خالى

وكان ذلك فى أبيات كثيرة من الشعر الذى قد يسمى « بالحلمنتيشى » ومنها :

وعنبرنـا بـه عـدد كبيـر
من « الزعماء » والأسر العوالى
ثلاثونـا تجدهـم بعـد ست
لهم صبر على سود الليالى

ثم تناولت كل واحد منهم فى أبيات فى ترتيب وتسلسل وكم يحزننى أننى قد نسيتها ، ليس حزنا على الشعر ، ولكن على الأحداث التى سجلت فيه . وكان للشيخ عبد الفتاح المحروقى طفلة صغيرة اسمها عزة ، قد حصل على صورتها بطريقة لا أذكرها ، وعلقها بجانب « نمرته » ويحييها كل صباح ومساء ، وكان يسكن بجواره الدكتور عبد العال محمد عبد الواحد ، وكان يطلب زواجها كلما رأى الرجل يحيي صورتها ويحدثها ، وكان الدكتور عبد العال حياه الله يسأسىء ويفأفىء أحيانا فى الكلام وقلت فى تسجيل قصته ، وهو ما أذكره :

وعـزة زهـرة الأزهـار طـراً
وفاتنة القلوب بلا جـدال
وعبد العال يصرع فى هواها
ويبدو واجما بادى الهـزال
تسأسىء عـزة لبكـورِسٌ
وعبد العال « سئساء » الرجال

ولعل من يقرأ هذه السطور يظن أننا كنا نعيش حياة رغدة هنية ، وليس أمامنا غير قرض الشعر والمساجلات الأدبية ، وأن البال خال والدنيا آمنة مطمئنة ، والأيام تسير بنا رخاء ، ولم يكن الأمر على هذا النحو بطبيعة الحال ، ولكنها محاولة للابتسام من خلال الضباب الكثيف الذى كان يسيطر على المكان . كانت الحياة صعبة وكنا نخاول البسمة بين الحين والآخر ، خوفا من انهيارنا أو انهيار بعض من معنا . وربما كانت رغبة خفية فى التماسك تجاه الآخرين ، من الجانب الآخر . وهذه أمور تبين كم كانت الناس متحابة ومتآلفة ، وكيف أن بين الجميع علاقات إنسانية طيبة قد غذاها الدين وأكدها الإسلام ، كانت الحكومة تمنع التكافل بين المعتقلين وهم يصرون عليه ولو سرا أو من وراء حجاب ، كانوا يدعونهم إلى التفكك وهم يترابطون .

وكان فريق من المُدَرَّبين يرددون أن سبب إبقائنا فى المعتقل هم أصحاب عنبر ١٢ وأن الطريقة المثلى فى الخلاص من هذا العذاب هو مزيد من تأييد الحكومة ، على الأقل تتحرك الأمور قليلاً ويفرج عن البعض .

وكان فريق من العقلاء يردون بأن الحكومة لاتهتم بهذا كله وأنها لاتفكر فى الإفراج عن أحد فالحالة فى خارج المعتقل سيئة جدا ، والحكومة تنفق مليون جنيه يوميا فى حرب اليمن ، وتردد أنها قد باعت أرصدة الذهب ، والأسعار فى زيادة ، والغلاء يشمل الفقير والغنى ، والناس غير قادرين على تحمل أعباء الحياة ، وليس من العقل أن تفرج الحكومة وهى طاغية مستبدة عن فريق من الموتورين ، ليشيعوا البلبلة

فى نفوس الناس ، فى وقت هى أكثر ماتكون حاجة إلى الراحة والاستقرار ، ولكن إن أيدتم وأرسلتم برقياتكم فلا يمكننا أن نتخلف ، ولكننا ننصح بعدم إشاعة هذا بين الناس ويكفى ماهم فيه .

وكان من عقلاء عنبر ١٢ المستشار محمد المأمون الهضيبى ، وكان ينصح بعدم إثارة هذه المسائل فهى شائكة جدا ، وتعرض الناس جميعا لضغط وخطر هم فى غنى عنه ، فلا داع مطلقا لإرسال برقيات التأييد لأنها تحرج قوما يكفى مابهم من سجن وأذى ، فيسأله واحد :

– وماذا تفعل إن بدأت موجة التأييدات وأرسلت البرقيات ؟ .

ويرد المستشار فى بساطة وحسم :

– لن أفعل بالتأكيد .

ويعاوده السائل فى إلحاح :

– هو تأييد كاذب لا معنى له ، نحن جميعا نمقت جمال عبد الناصر ، ولكن لابد من المراوغة مع هؤلاء الذئاب .

ويرد المأمون الهضيبى وقد ارتفع صوته قليلاً :

تريدون منى أن أرسل برقية أؤيد فيها جمال عبد الناصر ؟ أؤيده فى أى شيء على وجه التحديد ؟ فى ضربه للحركة الإسلامية ؟ فى إعدامه لسيد قطب وعبد الفتاح إسماعيل ويوسف هواش ومن قبلهم عبد القادر عوده وإبراهيم الطيب ويوسف طلعت وغيرهم وغيرهم ؟ تريدون منى أن أؤيد من وضع أسرتى كلها فى السجن رجالاً ونساءً ؟ تريدون منى

أن أخادعه ؟ لا والله لن يكون أبداً ، والسجن أحب إلىَّ مما تدعوننى إليه . وينفض الجمع يائسا فقد بدأت موجة التأييدات .

وكانت هذه التأييدات من الأمور العادية التى تحدث بين الحين والآخر ، ولاتهتم بها الحكومة ممثلة فى إدارة المعتقل كثيرا ، ولكنها لعبة تستهوى عبد العال سلومة قائد المعتقل أكثر من أى شخص آخر . فتأتى المناسبة ، أية مناسبة ، وتكتب البرقية ويمر المدربون على العنابر يجمعون التوقيعات ، وهى تكتب بطريقة تلقائية آلية ، ويتوقف المدربون عند بعض الأسماء التى اعتادت عدم التوقيع ، وذلك ليتأكدوا من نيتهم فى عدم التوقيع ، وكانت هناك بعض الشخصيات لاتسأل عن هذا أبدا ، فموقفهم معروف سلفا ، مثل الأستاذ محمد قطب مثلاً . وتكثر الأسئلة وترتفع الضجة عندما يدخل دائرة المعارضين شخص جديد ، بمعنى أن يعلن واحد قد اعتاد التأييد أنه لن يؤيد الحكومة مرة أخرى .

وكانت المسألة كما قلت من الأمور العادية التى تحدث كل حين قريب ، ولكن الأمر قد اختلف تماما عندما أعلن عبد الناصر غلق خليج العقبة فى وجه الملاحة الإسرائيلية وتعاقبت الأحداث يوما بعد يوم ، وصار شبح الحرب واقعاً مرأ يراه الجميع ، وكان فى المعتقل صفوة المجتمع ممن يكتبون ويقرءون ويفهمون .

وبدأ المدربون يجمعون التأييدات للرئيس فى موقفه البطولى العظيم على زعمهم . وهذه المرة حرص الجميع على التوقيع لأنها الحرب لا محالة ، وعدم التأييد يمكن أن يفسر بأنه خيانة عظمى من حكومة لاتدرك واقعها ، ولا تفهم غير

عظمة رئيسها ، وامتنع عن التأييد والتوقيع واحد وثلاثون شخصا وهم كالتالى :

١ - محمد قطب .

٢ - المأمون الهضيبى .

٣ - أحمد نصير .

٤ - عزمى بكر .

٥ - مصطفى كامل .

٦ - السيد عيد .

٧ - شكرى مصطفى .

٨ - عصمت بدوى .

٩ - محمود حلمى .

١٠ - فاروق عباس .

١١ - محمود الجوهرى .

١٢ - على حمدى .

١٣ - جمال متولى .

١٤ - محمد حسن .

١٥ - عبد العال محمد عبد الواحد .

١٦ - د. يحيى .

١٧ - الشيخ على إسماعيل .

١٨ - حامد المصرى .

١٩ - عز الدين عبد المنعم .

٢٠ – محمود متولى .

٢١ – الشيخ محمد صقر .

٢٢ – د. مجد الدين صادق .

٢٣ – كمال الغايش .

٢٤ – حسن عطيـــة .

٢٥ – محمد عمـــارة .

٢٦ – محمود شكرى .

٢٧ – محمد رشـــاد .

٢٨ – حسن شـــرابى .

٢٩ – لاأذكر .

٣٠ – لاأذكر .

٣١ – لاأذكر .

وذهبت البرقيات إلى قائد المعتقل وقد خلت من الأسماء السابقة ، وأراد الرجل أن يعطى فرصة للأخذ والرد وإحداث فتنة ، فطلب من مساعديه ، وكانوا من بعض المعتقلين الذين يقومون على إدارة المعتقل من الناحية المعيشية أن يحاولوا محاولة أخرى مع هؤلاء الذين رفضوا التأييد ، لأن هذه المرة تختلف عن سائر المرات . واستمات الناس فى إقناع هؤلاء بالتأييد حرصاً عليهم وخوفا من أن يصيبهم طائف من خطر . ورفض الجميع رفضاً باتاً . وكان شقيقى محمود حلمى من هؤلاء كما ذكرت ، وكلمته فى التأييد واستعنت عليه بآخرين أذكر منهم حسن حافظ الفقى وسمير الهضيبى ولكنه رفض رفضاً باتاً .

وأذكر أننى تكلمت فى هذا اليوم مع الأستاذ محمد قطب ، وأذكر أنه كان حليما لم ينفد صبره أثناء الحديث المستفز ، فقد كنت فى الواقع أخشى عليه البطش هو ومن معه :

– ليس هذا من البطولة فى شىء .

– ومن قال لك إننا نبحث عن بطولات ؟ .

– ولكن .. هؤلاء الشباب الذين معك ؟ .

– ليس معى أحد ، كل نفس بما كسبت رهينة .

– صدقنى كلنا جميعا نمقت الحكومة ونعرف خطرها على الإسلام والمسلمين ، ونعرف أنها لاتعمل لصالح مصر ولا للعرب، وأنها تسير بالبلاد والعباد إلى خراب لايعرف مداه إلا الله سبحانه وتعالى ، وسوف يأتيك صدق ما أقول بعد سنين إن أحيانا الله .

ونظر الرجل إلَّى فى دهشة شديدة وقال فى هدوء :

– ورغم كل ما قلت تريدنا أن نؤيدها ؟ .

وخجلت من الرجل ولم أكمل معه الحوار ، ولكنه عاودنى بنظرته الودود المتلطفة :

– صدقنى أنا أفهم مبررات شاب مثلك – كنت أيامها شابا – وأعذرك ، وأعذر أيضا بعض الآخرين ، ولا أطلب منكم أن تقفوا الموقف الذى أقفه الآن ، ولم أطلبه من واحد من الذين امتنعوا ، بل إنى فوجئت ببعض الأسماء ، ربما يكون صعبا علينا أن نأخذ حقنا فى الحرية ، ولكن لعلنا نحصل على حقنا فى الشهادة . ونظرت للرجل وقد سحرنى هدوؤه ووقاره مع ابتسامته التى لاتغادر وجهه فى الحديث ،

وكان نحيلا شاحبا نبيلا ، تلمع عيناه من خلف نظارة طبية قد طال العهد على إطارها المعدنى فهو يمسكها بصعوبة ولايستطيع تجديدها .

وتمتمت فى خوف :

– أنت تتكلم عن الشهادة . أتراهم .. .

ولم أكمل سؤالى فالطمأنينة تملأ وجه الرجل وهو يقاطعنى باسما :

– أتراهم يتورعون ؟

والتفت ناحية فوجدت شكرى مصطفى يمرح ويمزح مع محمود الجوهرى وكلاهما قد أعلن عدم التأييد ، وهما قد فعلا هذا للمرة الأولى ، ولم يكن فى بال أحد أن يمتنع هذان عن التأييد ، محمود الجوهرى مهندس شاب عبقرى ، لايهتم كثيراً بالسياسة ولايتكلم فى هذه الموضوعات بالمرة ليس عن خوف ولكن عن عدم اهتمام جدى بهذه الشئون ، وكان يوقع عندما يطلبون منه ، ولكنه قد امتنع هذه المرة ، لماذا ؟ لست أدرى على وجه التحديد . لم تكن علاقته وثيقة بالأستاذ محمد قطب فنقول إن تأثيره قد انتقل إليه ، كانت علاقته به عادية جدا مثل أى شخص فى العنبر ، وربما أقل من الآخرين ، ورغم هذا فقد رفض رفضا قاطعا لايقبل المناقشة فى مسألة تأييد الحكومة وأن نجعل الأمور تجرى على خير وقال يومها ساخرا :

– هى تجرى على خير . ماذا سيفعلون بنا أكثر مما فعلوا ؟

وكان امتناع شكرى مصطفى عن التأييد مثار دهشتى البالغة ، فهذا الشاب الطالب فى كلية الزراعة جامعة أسيوط

قد جاء صدفة إلى السجن الحربى وهو لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ، وعذب مثل الآخرين ، وكنت أراه أيام الحربى لماما ومن بعيد فلم نتجاور فى زنزانة ، ولم يشملنا تحقيق واحد ، ولكنه كان يلفت انتباهى بكونه واحد من أصغر المعتقلين سنا . لم أقترب منه إلا بعد إعادة التصنيف عقب توعية نوفمبر وفوجئت به فى عنبر الزعماء وهو الغلام الحدث ، وفوجئت أنه لايعرف الكثير أو القليل عن الإسلام اللهم إلا الصلاة ، أما الإسلام كبعد عقائدى يجاهد من أجله فلم يكن عند هذا الشاب كذلك حتى يوم التقينا فى عنبر ١٢ ، وإن أردت أن أكون أكثر دقة أقول إنه لم يكن يبدو كذلك . وكان يسكن فى العنبر على مقربة منى ، وكان هذا أدعى للأحاديث الكثيرة بيننا ، كنت فى أغلبها المتحدث الذى يجيب على أسئلته الكثيرة النهمة ، فهو يريد أن يعرف قصة الإخوان المسلمين وكيف اعتقلوا ؟ ولماذا ؟ وماهو الجهاد فى سبيل الله ؟ وكيف قامت دولة الإسلام فى سالف عهدها ؟ ومامعنى دين ودولة ؟ مصحف وسيف ؟ كان يسأل ويسأل ولا يفعل أكثر من ذلك وفيما عدا ذاك فهو مهرج مع المهرجين ، ضاحك مع الضاحكين فى مرح بالغ ، ولا يظهر اهتماما كثيرا بشئون السياسة . وكانت ظروفه الأسرية شديدة فقد طلقت أمه ، وتزوج أبوه امرأة أخرى ، وتزوجت أمه رجلا آخر ، وهو لايدرى أين يذهب بعد الإفراج عنه ، وكان كثيرا ما يتندر بهذه الحالة ، ويقول ضاحكا :

– هذا الاعتقال قد حل لى الكثير من المشكلات .

وكانوا قد سمحوا لنا مرة بعمل حفل ترفيه احتفالاً بذكرى انتصارنا فى السويس عام ١٩٥٦ ، وطلبنا أن نمثل مسرحية ، ووافقت الإدارة ، وكتبت المسرحية وقام بإخراجها الأستاذ

محمد حسن ومثل فيها شكرى مصطفى دور التلميذ العبيط المدلل من أبيه المعلم الجاهل صاحب المال ، وكان اسم المسرحية أشمونى أفندى وقد أعجب بها محمد قطب كثيرا وبين لنا مافيها من إسقاط سياسى ، وكتبت بتشجيعه مسرحية « البعد الخامس » ولكن هذه قصة أخرى .

كان شكرى مصطفى من غير المهتمين بالسياسة رغم كونه معتقلاً معنا فى قضية سياسية ، ولم يكن أيضا من المهتمين بالإسلام كبعد جهادى رسالى ينبغى التضحية فى سبيله ، وكان يسأل ليعرف ، ثم انتابته حالة لم تلفت نظر أحد فهى كثيرا ماتحدث ، ولا نفسرها إلا بسوء الحالة النفسية ، فهو يصمت ويستمر فى الصمت حتى أنه لا يتبادل الحديث مع أحد بالمرة ، واقتربت منه أيامها وكنت الذى أجيب على أسئلته الكثيرة أسأله عن سبب صمته المريب فلا يجيب ، ويكتفى بالقعود على بطانيته محدقا فى لاشىء ، ويأكل فى موعد الطعام ، ويصلى مع المصلين ، وإذا خرجنا إلى طابور الفسحة لايخرج معنا ويكتفى بالجلوس وحيدا فى العنبر متأملا محدقا حتى يعود الناس ، وتطور الأمر معه فصار يصلى فى الليل ، وكان فى العنبر كثير يفعلون هذا ، وانضم إليهم وصار واحدا ممن يقيمون الليل .

وكففت عن سؤاله عن سبب صمته واكتفيت بملاحظته عن كثب أحاول أن أدرك مايفكر فيه بلا فائدة حتى جاء اليوم الذى رفض فيه التوقيع على التأييد ، وانحلت عقدة لسانه وصار مرحا ثرثاراً كما كان من قبل .

وصرت أنظر إليه ولا أتحدث متأملا متعجبا أحاول أن أفهم فينغلق علىّ الفهم ، ورآنى واقترب منى وجلس بجانبى – وكان عنبرنا يسمح بهذا لقلة عدد من فيه – وقال لى بشوشا :

– لعلك تعجب من عدم توقيعى على التأييد ؟

– فى الحقيقة نعم .

– تريد أن تعرف السبب ؟

وقلت له ملحا :

– لو سمحت .

وتنهد شكرى مصطفى تنهيدة طويلة ملأت عينيه بالحزن وفارقه مرحه وبدا جاداً صارماً :

– قد رأيت ما حل بنا ومافعلته حكومتنا معنا ، استباحت أبناءها وضربتهم بالسياط ، وقتلتهم واغتصبت الفتيات والأطفال ، قد رأيت بنفسك هذا هنا فى هذا المكان ، وفى السجن الحربى كنا سويا ، وصنفونى من الزعماء ولست كذلك ، قد عرفت هذا بنفسك ، لقد سمعت منك قصة الإسلام بالتفصيل ، لم أسمعها من قبل ، وكلما ازددت معرفة ازددت غيظا ، والظن أنه إن لم تأتنى هذه الفرصة للمعارضة وإعلانها لمت كمدا ، أقل مانفعله لحكومة مثل هذه التى تحكمنا أن نظهر احتقارنا لها ، هذا أقل ماينبغى علينا فعله ، ولو استطعت أكثر من هذا ماترددت .

وتركنى وانصرف ، وظللت غارقا فى تأملاتى ، وشعرت بحزن جارف وأسف عميق ، وأذن لصلاة المغرب فصليت ، وجلست صامتا حتى صلينا العشاء ، ونام الناس وبقيت ساهرا أفكر فى هؤلاء الذين يحدق بهم الخطر وهم مطمئنون هادئون ، ونحن البعيدون عنه القلق يملأ صدورنا وعروقنا متوترة وقلوبنا تكاد تكف عن العمل . وتذكرت أيام الإسلام الأولى والشهداء وروح الفداء التى أقامت الدول وغيرت الأرض .

صرت أفكر فى مواقفهم ومواقفنا ، وروحهم العالية وجذوة الإيمان التى تكاد تخمد فى صدورنا باسم الحكمة والتعقل وعدم الوقوف أمام القطار المندفع ، وباسم التخطيط والرؤية المستقبلية وسائر مانقوله من كلمات لهم تبريرا لمهادنتنا للقوى الخائنة الشرسة ، وأننا أسرى وليس للأسير إذن أو أمر .

وأذن لصلاة الفجر وقمت للصلاة مع المصلين .

وأشرقت الشمس ومع شروقها كانت الطوارىء فى كل ركن من أركان المعتقل ، النظام مشدود ، ممنوع الخروج من العنابر حتى للخدمات العادية التى كان يقوم بها المتطوعون المختارون . ذهبت إلى باب العنبر أنظر من وراء جدرانه إلى فنائه ورأيت ما أعده خبراء الجغرافيا والسياسة ، كانوا قد شبكوا عدداً كبيراً من البطاطين بعرض الفناء وارتفاع الأدوار الثلاثة ، قد رسم بها رسما لشبه جزيرة سيناء وقناة السويس ، وعليها مواقع الجيش المصرى ، وتمركز القوات عند الممرات وفى كل مكان ، والخطة التى رسموها عبر الأسهم لاختراق إسرائيل ولا أدرى من أين حصلوا عليها .

واستدارت الشمس ولا أحد يدرى ماذا يعد أو سبب هذا الكدر العظيم ، حتى ظهر الشاويش النوبتجى ومعه المفاتيح ومر على العنابر وأخرج منها أولئك الذين يديرون المعتقل من بين إخوتنا ، ومضت ساعة وجاء رئيسهم كسيفا حزينا ، وقال هامسا للبعض : سوف يعرض الواحد والثلاثون على قائد المعتقل للاستجواب ، يبدو أنهم سوف يوجهون إليهم تهمة الخيانة العظمى ، لابد أن يرجعوا عن موقفهم ، حاولوا أن تقنعوهم ، هم فى خطر بالفعل .

أنزلوا الواحد والثلاثين الذين رفضوا التوقيع على التأييد إلى الفناء ، وأبواب العنابر القضبانية قد ملئت بالنظارة الذين ملأهم الخوف من الغيب المجهول . وارتفع صوت منكر من مكان لم أستطع تحديده يسب محمد قطب ، وتطور السباب حتى شمل كل شيء ، صوت واحد لم يتابعه أحد ولم يشجعه إنسان ، والرجل واقف فى الفناء تعلو وجهه تلك الابتسامة الخالدة التى تعبر عن التماسك الداخلى العظيم .

ودخلوا واحدا بعد الآخر إلى عبد العال سلومة قائد المعتقل وكانت إجاباتهم تتفق أحياناً وتختلف أحياناً أخرى ، وكاتب يسجل كل شاردة وواردة .

عبد العال سلومة يسأل :

– لماذا لا تؤيد الحكومة فى موقفها العظيم ؟

– نحن كمسلمين لا نؤيد الكفرة .

– وهل تراها حكومة كافرة ؟

– وهل تشك فى ذلك ؟

– هل ترضى أن يحكمك اليهود الذين يغتصبون الفتيات ويقتلون الشباب ، ويفعلون الكثير ؟

– قد فعلت حكومتك التى تريدنا أن نؤيدها أكثر من ذلك ، لم تحسن القتلة حين قتلت واستباحت الأعراض ، ولم ينج حتى الأطفال من هذا .

– أليس من العقل أن ترجع عن هذا الرأى ؟

– أرح نفسك من هذا .

– أنت لاتدرى العاقبة .

– وما العاقبة ؟

– المحاكمة والإعدام شنقا .

– ولماذا المحاكمة ؟ يكفى الإعدام شنقا أو رميا بالرصاص ، أو ضربا بالسياط .

– إلى هذا الحد لاتخاف ؟

– هل عندك كلام آخر ؟

– هل جئت لتستجوبنى أم لتجيب على أسئلتى ؟

– هل يمكن أن أنصرف ؟

– فكِّر لآخر مرة ! .

– قد فكرت .

كانت هذه هى إجاباتهم كما نقلت إلينا منهم ومن الكتبة ، وعلمنا فى آخر هذا النهار أن محاكمة ستجرى لهم ثم يتم إعدامهم رميا بالرصاص لعدم توفر أماكن للشنق فى تلك الظروف العصيبة التى تمر بها البلاد .

وفى هذه الليلة كان المؤتمر الصحفى الشهير الذى حضره صحافيون من كل أنحاء العالم لسؤال عبد الناصر عن خططه فى مواجهة إسرائيل ، والذى أعلن فيه أن سنه مازالت صغيرة وأن صحته جيدة وأنه « ليس خرعا كإيدن » وأنه على استعداد لحرب أمريكا نفسها ، وأن هناك خططا قد أعدت لذلك .

وكانوا قد أذاعوا علينا المؤتمر الصحفى من الإذاعة عبر مكبرات الصوت .

وخيم الوجوم على وجوه الناس فهى مقدمات ساخنة لحقيقة مخيفة سوف تكون والساعات تسرع بها وتهيأ كل شيء من حولها .

ونظرت فوجدت محمد قطب ينظر إلىّ باسما واقتربت منه وقال لى بصوته الهادىء :

– هل تذكر النسر الذى جاوز الفضاء فى الرؤيا ؟ هاهو يعلو ويرتفع ثم يسقط من شاهق كما قلت لك ، الحرب واقعة ، والهزيمة حقيقة ، فلقد نسجوا خيوط هزيمتهم بأنفسهم منذ سنين .

وفى صباح نادوا على الواحد والثلاثين معارضا ، وطلبوا منهم أن يأتوا بكامل عهدتهم من حاجيات وبطاطين ، ونزلوا إلى فناء المعتقل ، وجاء طبيب السجن وتم الكشف عليهم أمام أعيننا ، وقيل إنهم سوف يعدمون دون محاكمة ، وتعجبت من هذا ، فإن كانوا سيفعلون فما ضرورة الكشف عليهم ، ثم تركوهم فى فناء المعتقل حيث الحر الشديد والشمس الساطعة حتى اقتربت من الغروب .

وحدث هرج ومرج وجاء جند يحملون الرشاشات ، وانهمرت دموع من أعين ووجم الناس وعم صمت جاثم ثقيل ، وفتشت أمتعتهم بدقة ، وعاملوهم بفظاظة ثم أودعوا زنازين شمال .

الفصل التاسع عشر

إذا جاءت الصاخة
(٥ يونيـــو) !!

أودع محمد قطب ومن معه زنازين شمال ، وسرت الشائعات القوية أنهم سيعدمون ، وشمل الناس ذهول لبعض الوقت ، وتطورت الحوادث ، وصاروا يذيعون علينا نشرة الأخبار وتعليقات أحمد سعيد النارية ، وانتاب الناس ذعر ، وضاعت المعاني من أنفسهم ، وفقدوا القدرة على التقدير السليم ووزن الأمور بميزان دقيق ، وصدق الناس أن عبد الناصر سوف يلقى بإسرائيل فى البحر كما يقول أحمد سعيد ، وأن هناك قوة خارقة قد حازها الجيش المصرى ، وربما كانت القنبلة الذرية ، وأن القاهر والظافر سوف يطيران في الفضاء ويحولان مدينة مثل تل أبيب إلى رماد . وكفت الألسنة التى كانت تنتقد الحكومة وتلعن عبد الناصر همسا ، وصار حديث الجميع عن الحرب المزمعة ، ولم يعد أحد ينطق بكلمة ضد الحكومة مع آخرين ، وأذكر أننى اجتمعت مع أحد الأصدقاء القدامى الذين يفهمون اللعبة وكيف تدور وقال :

ــ يبدو أننا كنا واهمين طول الوقت .

ــ لماذا ؟

ــ لقد أقام الرجل امبراطورية ضخمة فبعد أن يدمر إسرائيل سوف يأتيه العرب ركعا وسجودا من كل مكان ، يجب أن نجد لنا مكانا فى العالم الجديد ، يبدو أن الرجل لم يكن هازلا فى كتابه : « فلسفة الثورة » . دوائره الثلاث تتحقق . قوة جديدة تظهر فى الأفق ، ونحن سوف يلقى بنا فى متحف التاريخ .

واستمعت إليه فى صمت ، وتأملت حال المصريين والعرب ، وكيف يصنع الإعلام فعله فيهم ، بلاد تردد فيها

الأكاذيب فتصير حقائق بعد حين قريب ، أمم تعيش على الوهم ، وأوطان تقتات الكلام ولا ترضى بغيره بديلا ، واستفقت على صوته :

ــ لماذا لا ترد ؟

ــ إن كنت أنت تقول ذلك فكل الناس معذورون .

ــ ماذا تعنى ؟

ــ لقد صنع عبد الناصر نظاما لايحقق له غير الهزيمة ، والهزيمة غير المشروطة .

ــ هل أنت جاد ؟

ــ سيأتيك صدق ما أقول فى أيام .

وبدا الذعر على وجهه وهمس صاخبا :

ــ لاتخبر أحدا بهذا الرأى .

وولى من وجهى هاربا .

وارتفعت الشعارات ، وزينوا الوثن ، وامتلأ الصخب وسدت الآذان ، وقالوا سوف يجتمع بنا قائد المعتقل ، واجتمع بنا ، وسبنا سباً قبيحا وقال :

ــ ها أنتم أولاً ترون بأنفسكم وتدركون بعقولكم إن كانت لكم عقول ، ليس رئيسنا المحبوب عميلا لأمريكا كما ادعيتم ، وها هو ذا يحشد الجيش لحرب أمريكا ، الحرب القادمة مع أمريكا وليست إسرائيل ، وسوف ترون علم الجمهورية العربية المتحدة يرفرف فوق تل أبيب ، لن تروا هذا بأنفسكم فأنتم لن تغادروا المعتقل أبدا ، ربما نعرض عليكم هذا فى التليفزيون .

وانطلق صوت :

ــ ياسيادة القائد ، لقد أيدنا رئيسنا المحبوب وكتبنا له برقية بدمائنا ، وظننا أنكم تفهمون موقفنا .

ونهره سيادة القائد وأسكته صارخا :

ــ ليس عندنا وقت لمناقشة هذه السفاسف ، أمور الأمة هى التى تشغلنا ، أما أنتم فليس هناك من عنده وقت للتفكير فى أمركم ، وأنصحكم بالتزام السكينة والهدوء حتى يدخل الجيش إسرائيل ، ولعل رئيسنا يفكر يوما فى أحد أعياد النصر أن يفرج عن المؤدبين المطيعين منكم .

ثم غادر المكان بين وجوم الجميع وعدم تصديقهم لما سمعوه ، وندم كثير من الموجودين على انسياقهم فى لعبة التأييد .

ومضت طبول الحرب تدق ، وساعة الصفر تقترب ، ومن الناس من يؤكد أنها لعبة كبيرة تلعبها أمريكا ، وأنه سوف ينتصر أمام إسرائيل ، فيكون بطلا أسطوريا يحقق لهم كل ما يريدون فى أرض العروبة والإسلام ، أما أنا فكان يقينى أن الحرب واقعة ، وأنه مهزوم لامحالة ، فنظامه لايحقق انتصارا ما ، وجيشه لايصلح لغير ضرب المصريين فى مصر والعرب فى اليمن ، أما القتال الجدى أمام عدو شرس مثل إسرائيل فهو ضرب من المحال . فالذى يحكم أمة من الأمم ويتصرف فيها برأيه دون الرجوع إلى أحد لابد وأن يؤدى به منطقه إلى الهاوية .

وتذكرت حينئذ ذلك اليوم المشهود من أيام يوليو ١٩٥٦ حين قرر الزعيم أن يؤمم قناة السويس ، ولم يخطر قائد جيشه إلا فى هذا اليوم ، وجمع مجلس وزرائه قبل إعلان قراره

بساعتين ، وكيف أنهم قالوا له إنها الحرب ، وإن الجيش لايقوى على هذا ، وإنه لم يستوعب بعد الأسلحة السوفيتية ، واعترض كل وزرائه حتى إنه نهر سيد مرعى كما جاء فى مذكراته ، وأعلن القرار ، وكانت الحرب ، وكانت الخسارة الكبيرة التى لم تعلن على الناس إلا هذه الأيام ، فإسرائيل لم يكن يسمح لها باستعمال خليج العقبة فى الملاحة ، وكانت قرية أم الرشراش التى استولت عليها وصنعت منها ميناء إيلات لاقيمة لها ، فهو ميناء لا يستعمل ولا تجرى له السفن ، ثم سارت القوافل بعد ذلك وصارت علاقة إسرائيل بدول أفريقيا وطيدة ، وجاءها البترول من إيران أنهارا . ودارت الأيام وصار هذا سببا لحرب جديدة تزمع أن تكون .

إن كان هذا الزعيم قد أثبت للدنيا قصر نظره فى حروبه الفاشلة المتعددة فكيف يمكن أن يقدم هذه المقدمات لحرب لايدرى مداها وأبعادها إلا الله سبحانه وتعالى ؟ ، وكيف يعرض الجيش لمعركة ونصفه فى اليمن ، ونصفه الآخر يدير المباحث الجنائية العسكرية فى السجن الحربى ؟ ، أسئلة ليس لها أجوبة ، وألغاز لايفهم سرها ، وغيب لايدرك أحد مرماه وحكمته .

وقال قائل من أهل الحكمة والفهم :

ــ هو يريد التخلص من الجيش !! .

ــ وهل هذا يعقل ؟ لماذا ؟

ــ لقد تخلص من كل القوى الموجودة فى مصر على مدار السنين التى مضت ، ولم تبق قوة أمامه غير عبد الحكيم عامر ، فهو يلفق له تهمة الهزيمة ويتخلص منه ، ثم يحكم البلاد حكما شرعيا دستوريا ديموقراطيا اشتراكيا لاينازعه فيه أحد .

ــ التخلص من الجيش إذلال لمصر وقضاء عليها .

ــ هذا لا يهم فى الموضوع ، يمكن أن نأتى بشعب آخر وجيش آخر أكثر قوة وأشد فاعلية ، ويكون سلاحه إسرائيليا أو أمريكيا .

ــ أنت متشائم أكثر مما ينبغى .

ــ أنا أرى الأمور بوضوح .

* * *

عندما عزلوا محمد قطب ومن معه فى « زنازين شمال » صار عنبرنا أكثر العنابر راحة فى الإقامة ، وأكثرها حزنا على من عزلوا ، فقد خرج من العنبر عشرة أشخاص وتبقى به ستة وعشرون ، وهو مكان يضعون فيه سبعين أو ثمانين ، وخلا العنبر من شخصيات كانت تشيع البهجة فى النفوس ، وتعمق الإيمان فى القلوب ، ونسى الناس حديث الإفراج ، ولم يبق لهم غير حديث الحرب القادمة ، وكانت الأخبار والشائعات تملأ المكان ، ووصل التوتر بالمعتقلين مداه ، فهم يستعجلون الحرب ليروا ماذا يحدث بعدها ، والأناشيد الحماسية تتعالى من مذياع المعتقل فتشيع جوا (هتلريا) مفعما بالخوف والترقب .

وسرت شائعة فى المعتقل مؤداها أن أهل زنازين شمال سوف يعدمون فى الغد ، بعد محاكمة صورية لامعنى لها ، وكان هذا نهار ٤ يونيو عام ١٩٦٧ .

وجاشت النفوس بالحزن والغضب والرهبة ، وعلت الكآبة كل الوجوه بلا استثناء ، وعربد الخوف فى نفوس الكثيرين .

وصاحب هذا الأخبار التى تعلن عبر أجهزة الإعلام أن العالم كله يتوسل إلى عبد الناصر ليكون رحيما بإسرائيل وأن يمنع الحرب ، وأن الرئيس يفكر فى الأمر ، كل هذا جعل قتل ثلاثين أو حتى مائة أمرا لا معنى له ، ولا يلتفت له إنسان ، ولايهتم به العالم المنشغل بالحدث العظيم ، وهو اعتزام الرئيس القضاء على إسرائيل وإلقائها فى البحر .

وجاء صباح ٥ يونيو عام ١٩٦٧ .

التوتر يملأ المكان ، لم يخرج أحد من العنابر حتى الخدمات العادية ، فهو يوم محاكمة أهل زنازين شمال كما تواترت الشائعات من قبل ، وكان الحر عارما ، والذباب يملأ المكان ، وكنت قد نمت ساعات مضطربة بعد صلاة الفجر ، واستيقظت مرغما من كثرة الذباب والعرق الذى يحرق الأعين ، وجلست مستويا فى مكانى ، ورأيت على مقربة أحمد عادل كمال يقرأ القرآن دون أن يرفع صوته ، والمرحوم منير دله يحاول أن يزيل الذباب الكثيف من حوله ، وقد آذاه الحر وأرهقته السمنة وهو الأرستقراطى المرفه ، وكان يقضى مثل هذا الوقت من السنة فى منطقة من جبال الألب فى أوروبا تقع بين ألمانيا وفرنسا كما حكى لنا ، وكان شمس الدين الشناوى يتناول طعامه ويزدرده فى آلية ، وأمامى كان حافظ سلامة يحاول أن يرتق ثوبه ، والصمت يغشى المكان ولا يتكلم أحد ، وكأن الناس قد ملت الحديث والكلام . ودارت عينى فى الوجوه حتى استقرت على الأستاذ شمس الدين الشناوى ، وقال ببشاشته التى لاتفارقه :

ــ ما رأيك فى الطعام ؟

وقلت أداعبه وأنا أقوم متحركا ناحيته :

ــ «كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ماحرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة » .

وقال :

ــ والشاى ساخن طيب يذهب الحزن ويعين على مصائب الدهر .

وهممت بالجلوس بجانبه لتناول الإفطار معه ، ولكنى سمعت أصوات مدفعية تأتى من بعيد وانفجارات مكتومة وانتبهت :

ــ هذه أصوات المدافع والقنابل تأتى من بعيد .

وقال الأستاذ شمس الدين الشناوى :

ــ هى التدريبات والمناورات تمهيدا للحرب .

وقال الأستاذ أحمد عادل كمال الذى انتهى من قراءته وأغلق المصحف :

ــ عند ما تعلن التعبئة العامة لايكون هناك تدريبات أو مناورات .

واهتممت والتفت إليه :

ــ وماذا تظن عن هذه الأصوات ؟

وفكر أحمد عادل كمال قليلا ثم قال :

ــ نحن نبعد عن مطار ألماظة الحربى بحوالى ثلاثين كيلو مترا .

ــ ماذا تعنى ؟

ــ الظن أن اليهود يدكون المطارات والمنشآت العسكرية فى مصر الجديدة .

وانتبه أهل العنبر ، كف حافظ سلامة عن رتق ثوبه ، انتهى شمس الشناوى من الطعام ، جلس منير دلة وفى وجهه قلق ، قام عبد الفتاح المحروقى يصيخ السمع وهو يقول :

ـــ لقد كنت ضابطا فى المدفعية . هذه مدفعية مضادة للطائرات .

ثم يسمع أكثر ويقول :

ـــ هذه انفجارات الطوربيدات .

وانطلقت إلى الباب القضبانى أنظر إلى الفناء ، ولكن لا أجد أحدا غير الوجوه المطلة من أبواب العنابر الأخرى وهى تشير لى بأيديها إشارات متسائلة عن الأصوات البعيدة ، فأشير لهم بذراعى ما معناه أنها الحرب ، ثم رأيت قائد المعتقل يدخل مهرولا وهو يرتدى القميص والبنطلون ويصعد السلم عدوا ومن خلفه الجند والشاويشية والضباط ، والكل فى انتباه شديد واهتمام بالغ ، ورأيته فى الدور الثالث يشير بيديه هنا وهناك ، والضباط والشاوشية والعسكرينتشرون وفى أيديهم المفاتيح يفتحون بها أبواب العنابر فى هرجلة وسرعة واضطراب ، وعدت أنقل إلى أهل العنبر ما رأيت ، وتوتر الناس فلا أحد يفهم مايجرى .

وعدت أراقب ما يحدث فى الدور الثالث .

قائد المعتقل يدور على العنابر بنفسه ويقول لأهل كل عنبر كلاما لا أسمعه ، ثم يلتفت إلى الضباط ويشير لهم إلى الدور الثانى حيث نقيم ، ونزلوا مسرعين بعد أن فرغوا من فتح عنابر الدور الثالث . واقترب الملازم حازم شفيق من عنبرنا ومعه جندى بيده المفاتيح وقلت أسأله :

ـــ ماذا هناك ياحازم بك ؟ هل هو الإفراج ؟

وقال الرجل فى اهتمام بالغ :

ـــ هى الحرب . الجيش المصرى يجتاز الحدود الإسرائيلية الآن .

ـــ ياجماعة اعملوا حسابكم ، فى خلال نصف ساعة سوف ينزل أهل الدور الثالث ليقيموا مع الدور الثانى ، العنبر الذى فوقكم ، يعنى عنبر ٢٤ سوف يقيم معكم هنا ، أوسعوا لهم مكانا .

ثم انصرف مسرعا ليفتح الباب الذى يليه .

وعدت إلى مكانى بجوار أحمد عادل كمال وأنا أقول له :

ـــ ذهبت أيام الراحة ، سنعود كما كنا سبعين أو ثمانين . ولكن لماذا يفرغون الدور الثالث من ساكنيه .

وقال أحمد عادل كمال فى هدوء :

ـــ سيُمَلأ بمعتقلين جدد ، والظن أن هذا يتم اليوم للسرعة التى بها يتصرفون.

ـــ وصرت أتمتم مذهولا :

ـــ معتقلين جدد ! لا إفراج إذن ؟

ـــ ربما يأتون بمن خرج من قبل .

ـــ لعلهم يريدونه فى شىء آخر .

وابتسم أحمد عادل كمال :

ـــ هذا معتقل ، ويستعمل لهذا الغرض . هيا نضيق الأماكن فسيكتظ العنبر بالسكان بعد قليل ، ويبدو أن لا وقت عندهم .

وصرنا نلملم أمتعتنا لنعيد ترتيبها من جديد على ضوء هذه المتغيرات ، وكان الحديث متصلا بيننا ، والرجل له علم وثقافة بالحروب ، فقد خلق ليكون عسكريا ناجحا ولكنه أخطأ الطريق إلى عالم المال والبنوك .

ــ ماقولك فى هذه الحرب ؟

ــ الظن أنها تنتهى هذا النهار .

ــ يقولون إن الجيش المصرى يجتاز الحدود الإسرائيلية .

ــ ربما يكون هذا صحيحا ، ولكن ما قيمة هذا لو انقطعت خطوط الإمدادات والتموين ؟

سيتحولون إلى أسرى ، إسرائيل لها خطط ثابتة فى حروبها مع مصر . طوابير من المدرعات تصل إلى قناة السويس لعزل الجيش المصرى . هذا بطبيعة الحال بعد تحطيم الطيران المصرى وأجهزة الدفاع الجوى . وهى لايمكنها الحرب على أرضها فهى دائما تنقل العمليات العسكرية إلى أرض العدو ، إلى الأراضى المصرية .

وكأن الرجل كان معهم فى رسم خطط القتال ! هذا عندما عرفنا ماجرى بعد ذلك . ونزل أهل العنابر العلوية ، وامتلأ المكان بالناس وعدنا كأيام الاعتقال الأولى ، كل واحد من النازلين يحمل أمتعته وحاجياته ، ويدخل ليجد مكانا بعد مداولات مع مسئول عنبرنا ومسئول عنبر ٢٤ .

وكنا فى المعتقل نادرا ما نعرف أسماء الأيام باستثناء يوم الجمعة ، ونعرف اسم الشهر بعد انقضاء أسبوع منه على الأقل ، ولانعرف من علامات الأزمنة غير الفصول ، الشتاء والصيف والربيع والخريف . ولكن كان البعض يحفظ الأيام

والتواريخ ويراقبها ويحصيها وينتبه لها ، وسألت واحدا من هؤلاء :

ــ ما اسم هذا اليوم ؟

ــ الإثنين .

ــ ما رقمه ؟

ــ خمسة يونيو عام ١٩٦٧ .

ــ تذكر هذا التاريخ جيدا فهو يوم له أثره فى تاريخ مصر والعرب .

* * *

صارت أصوات الانفجارات تسمع بوضوح بعد أن انتصف النهار ، وصار الوقوف على الباب القضبانى للعنبر أمرا بالغ الصعوبة عندما امتلأ المكان . وصدقت فراسة أحمد عادل كمال فقد امتلأ فناء المعتقل بعد قليل بمعتقلين جدد ، ولم يكونوا من الإخوان المسلمين ، بل بدأت الوفود بجمع من الشباب والشيوخ لهم سحنة غربية أجنبية وهم يرتدون ملابس فاخرة أو كنا نراها كذلك لرداءة ملابسنا وقدمها .

ــ لقد جاءوا بخواجات .

ــ هؤلاء يهود .

ــ ما أسوأ ما فعلوا بنا ، يسجنوننا مع اليهود ، نحن الذين حاربناهم عام ١٩٤٨ ؟

ــ أنت لاتعرف نعمة حبس اليهود معنا .

ــ أهى نعمة ؟

ـــ سوف ترى بنفسك .

ـــ كيف ؟

ـــ هؤلاء قوم لهم من يبحثون عنهم ويهتمون بأمرهم . ستتحسن الأحوال هنا بوجودهم ، هناك الصليب الأحمر سوف يأتى للتفتيش ، والدول الكبرى ستتدخل ، ومن ثم سوف يصيبنا شيء من الخير الذى يأتيهم .

ـــ أتظن هذا ؟

ـــ سوف ترى بنفسك ، حكومتنا ضعيفة عميلة ، والقائمون على أمرنا يخافون ولايختشون .

ـــ الجيش المصرى يجتاز الحدود الإسرائيلية .

ـــ سلِّم لى على الحدود الإسرائيلية !

وأضاف بعد بسمة مستنكرة ساخرة :

ـــ وعلى حضرتك !

وانطلق أحمد سعيد مدوياً بصوته من مكبرات الصوت يعلن عدد الطائرات التى أسقطتها مدفعيتنا المضادة ، وقرب الغروب وصل عدد الطائرات التى سقطت إلى أكثر من ستمائة طائرة ، الأمر الذى ملأ نفوس العسكريين وعلى رأسهم أحمد عادل كمال بالدهشة الشديدة ، فإن كان الذى سقط أكثر من ستمائة طائرة فما هى قوة إسرائيل الجوية على وجه التحديد ؟ وقال واحد :

ـــ هذه بيانات كاذبة .

واستنكر آخر :

ـــ لايمكن أن تصل بهم الوقاحة إلى هذا الحد ، هذه

بيانات يسمعها العالم كله ، ولا يستطيعون الظهور على هذه الصورة . البيانات صحيحة .

ــ هم لايستحون ، ولا يضحكون على أحد غير الشعب المصرى الغلبان .

وجاء الليل والإضاءة ممنوعة ، وخيم الظلام ، وانقطع صوت المذياع ، ولم يعد يصل إلى حواسنا غير أصوات الانفجارات التى لم تنقطع طول الليل ، واقترب صوت بعض هذه الانفجارات وقال قائل :

ــ ماذا لو أخطئوا وظنوا المعتقل منشأة عسكرية ودكوها بالقنابل ؟

ــ فى هذه الحالة سوف ينجو أهل زنازين شمال فهم فى مخبأ طبيعى .

ــ لاتخف . اليهود يعرفون كل شبر من أرض مصر .

وارتفع صوت متشنج :

ــ سينتصر الجيش المصرى ويعلو علم الجمهورية العربية المتحدة فوق الأرض التى سرقتها إسرائيل .

وجاء صوت متثاقل :

ــ لماذا لانخلد إلى النوم خير من التعليقات العقيمة .

ــ النوم صعب فى هذا الحر الشديد .

ــ الغريب أن الذباب يملأ وجهى رغم شدة الظلام .

ــ الذباب يأتى على وجهك المضىء . .

ولعل هذه الجمل المتناثرة لم تنقطع طوال الليل ، ولعل الجميع قد ظلوا مستيقظين فى هذه الليلة فى توتر وترقب ، والكل يفكر ويحسب العواقب والألم يعصر القلب .

انتفض الناس فى اليوم التالى للحرب على صوت أحمد سعيد وهو يرشد العدو الإسرائيلى محددا أماكن القوات العراقية المتجهة إلى إسرائيل عبر الأردن وسوريا ، وصار يذيع أماكن تواجدها على طول الطريق الكيلو سبعين ... الكيلو ستين .. وهكذا . وعرفت بعد ذلك أن أغلب هذه القوات قد ضاع فى الطريق ودمره الطيران الإسرائيلى تماما .

ظهر قائد المعتقل والضباط والعسكر ، ولفت نظر الواقف على الباب القضبانى أن الكل يمسك بالهراوات والعصى والكرابيج ، وتوتر الناس جميعا ، وعقب توترهم بدا عليهم شىء من الراحة وقال قائل :

ــ مضى زمن ولم نضرب ، لعلنا نهدأ بعد أن نمد على أرجلنا .

وصارت السيارات تنقل معتقلين جددا من اليهود وغير اليهود .

وتحول هؤلاء الضباط الودعاء إلى وحوش كاسرة ، وصاروا يقذفون بالشخص المعتقل إلى داخل الفناء ، حيث تتسلمه فرقة تطحنه طحنا بالهراوات ، ثم يذهب إلى أحد الشاويشية ليملأ أورنيك الاعتقال . كان هذا مع التعليمات الجديدة التى وصلت مع الصباح ، جميع من فى عنابر الدور الثالث وبها اليهود يهتفون بسقوط إسرائيل وأمريكا ، وظلوا جميعا يهتفون هذه الهتافات عدة أيام حتى وضعت الحرب أوزارها .

وارتفع صوت من أحد عنابر اليهود مرددا والآخرون يردون عليه :

ـــ تسقط فرنسا .

وانتفض قائد المعتقل غاضبا :

ـــ فرنسا معانا ياابن الكلب .

كأن الهتاف يذاع على العالم تليفزيونيا !

وعظم عدد المعتقلين من اليهود عند انتصاف النهار ، وأنزلوا بعض المعتقلين القدامى من الإخوان ليشاركوا فى عملية الإيواء فى العنابر ، وتسجيل الأسماء وملء أورنيكات الاعتقال .

ومع غروب الشمس كان فى كل عنبر من عنابر الدور الثالث مائة على الأقل وصار اليهود أقلية مع عدد المصريين الغفير الذين تم اعتقالهم ، ولا أحد يعرف هويتهم ، فهم ليسوا بالإخوان وفى بعض الأحيان ليسوا بالمسلمين ، فقد كان هناك عدد غفير من المسيحيين الأرثوذكس والكاثوليك ، وجماعة شهود يهوا .

وكان الإجراء أن يرفع المعتقل الجديد رجليه فى « الفلقة » ويمد عليها حيث الضرب الموجع بالهراوة ، وعليه أن يهتف أثناء العلقة :

ـــ يعيش الرئيس جمال عبد الناصر .

إى والله هذه كانت التعليمات ، وهذا ما شاهدناه بأعيننا وسمعناه بآذاننا .

ورفض واحد من جماعة شهود يهوا أن يهتف هذا الهتاف ، وصار يردد :

ـــ المجد لله فى الأعالى ، وعلى الدنيا السلام ، وبالناس المسرة .

وكنا نضحك سخرية وغيظا وكمدا ، وهل هناك مسرة أعظم من هذا ؟ وكنا نسأل ضباط المعتقل عن أخبار القتال ، فقد أغلقوا المذياع بعد العصر ، فكانوا يقولون لنا :

ـــ معظم أرض فلسطين قد تحررت تقريبا ، هناك منطقة صغيرة على مقربة من سوريا استعصت على التحرير .

ـــ وهل سقطت تل أبيب ؟

ويبدو التفكير على الضابط الجاهل ويقول :

ـــ لست أدرى بالضبط ربما سقطت ، ولكنهم لم يعلنوا عن هذا بعد .

وجاء الليل وتزايد عدد المعتقلين ، ونفس الإجراءات تتم مع الظلام الدامس والخوف المتزايد ، والصراخ والعويل ، وأصوات الانفجارات التى بدأت تتلاشى حتى انتهت تماما .

ونام الناس على أمل أن يعلن فى الصباح تحرير كل أرض فلسطين .

* * *

وجاء صباح اليوم الثالث من الحرب ٧ يونيو عام ١٩٦٧ .

انقطعت الأخبار تماما ، لا صحف لا مذياع ، وعندما نسأل واحدا من الضباط أو الجند عن الأخبار نسمع إجابة واحدة :

ـــ ممنوع الأسئلة .

والمعتقلون الجدد يفدون تباعا ، أشكالا وألوانا ، وكلهم فى اليوم الثالث من أيام المعركة من المصريين الذين ليست لهم هوية سياسية فيطلقون عليهم ما يسمى « بالنشاط المعادى » لتمييزهم عن الإخوان وعن الشيوعيين .

من كل بلاد مصر وقراها جاء هؤلاء المعتقلون ، وهم يجهلون السبب لاعتقالهم فى براءة واضحة وتأكيد صادق . وكانوا يصنفونهم مجموعات ويحشون بهم العنابر وفقا لخطة لا نعرفها ونظام نجهله ، والناس الجدد ليس بينهم رابط ما يعرفونه ، ولكن هناك بالتأكيد مايجمع بينهم فى رأس المباحث .

وتسربت شائعات الهزيمة ، واستنكرناها جميعا ، وفهمنا أن الحكومة تقوم بجس نبض المعتقلين .

وفتح المذياع على مكبرات الصوت فجأة ، وسمعنا الأناشيد الحماسية ، ثم أحمد سعيد يعلن أن قواتنا وصلت « نيوجرس » ثم أناشيد حماسية فنشرة الأخبار ، التى تؤكد الانتصار وتضيف عددا من الطائرات التى سقطت إلى المئات الأخرى التى تم الإعلان عنها من قبل ، ثم اجتماع للقيادة العامة للقوات المسلحة ، وإعلان أن قواتنا تتمركز فى خط الدفاع الثالث ، ثم أغلق المذياع فجأة كما فتح ، وعرفنا أنها غلطة من أحد الشاويشية ، وقد عوقب من أجل ذلك .

وسألت أحمد عادل كمال فهو مرجعنا فى تفسير مالا نفهمه من المصطلحات العسكرية :

ــ مامعنى خط الدفاع الثالث ؟

ــ هو خط وهمى يمكن أن يكون غرب قناة السويس أو فى الشرقية أو القاهرة .

ــ وما معنى هذا الكلام ؟

ــ معناه أننا هزمنا هزيمة ساحقة منكرة .

ــ وهل هذا معقول ؟

ــ ليس هناك ماهو أكثر معقولية منه .

وكنت أتوقع الهزيمة ، وكنت واثقا منها ، فمقدماتها قد حدثت بالكامل فى السنين التى سبقتها ، ولكن توقع المصيبة شىء وحدوثها شىء آخر .

* * *

وجاء اليوم الرابع من ايام الحرب ٨ يونيو عام ١٩٦٧ .

تأكد للجميع رغم التعتيم على الأخبار أن الجيش المصرى قد هزم هزيمة ساحقة ، وضاع كله وتبدد ، ولم ينج منه غير أفراد قلائل بعد أن تركوا أسلحتهم وملابسهم وتخلصوا منها فى صحراء سيناء الحارقة .

والنهار يمضى بطيئا كئيبا ، واليهود فى الدور الثالث يهتفون :

ــ تسقط أمريكا .. تسقط إسرائيل .. تسقط بريطانيا .. يعيش الرئيس جمال عبد الناصر .. الموت لأعداء القومية العربية .

ولكن بطريقة أكثر تثاقلا هذه المرة ، وذلك من شدة الإنهاك ، ومن معرفتهم بالحقيقة كاملة .

من أين عرفوا بهزيمة عبد الناصر وانتصارهم ؟

لا أحد يعلم .

ورغم تأكيدات الأخبار بالهزيمة إلا أنه لم يصدر إعلان

رسمى بذلك ، وعلى هذا كان الكثير يداعبه الأمل فى عدم دقة الأخبار ، وأن سوف تعلن وهى عكس هذا تماما ، ولم يتصور أحد حجم الهزيمة الهائلة فى ذلك الوقت ، ولم يخطر تخيلها على الصورة التى حدثت فى بال أحد .

ونسى الناس أحاديث الإفراج ، ولم تعد تخطر الفكرة ببالهم ، بل صاروا يفكرون فى المصيبة الجديدة العظيمة التى « زادت وغطت » وفاقت كل شىء .

رأينا ضباط الشرطة الودعاء الطيبين ، الذين لم تمتد يدهم بأذى قط ، ولا لسانهم بقول بذىء ، وهم ينقلبون وحوشا ضارية ، يسبون بأقذع الكلمات ، ويضربون الناس ضربا موجعا قاتلا بلا رحمة ، وعندما تسألهم :

ـــ لماذا هذا الذى تفعلونه ؟

فيجيبون فى بلاهة وبلادة وبساطة :

ـــ هى الأوامر .

وأتعجب من قول ذلك الضابط ، الأوامر أن تكون وحشا من داخلك ، وهل يمكنه الاستجابة على هذا النحو الدقيق العجيب ، يتلقى باطنه أمرا فيستجيب له بكل مافى عمقه من طاعة عمياء وعبودية كاملة . ولم أر ذلك الذى ترفع عن تنفيذ هذه الأوامر المشينة المخجلة المخلة بالشرف ، لم ألقه فى سجن أو معتقل من تلك التى جُلت فيها تحت سماء مصر .

وفى هذه الليلة تم الإعلان رسميا عن الهزيمة المنكرة ، وحررت لها شهادة الميلاد ، وأطلقوا عليها اسم النكسة ، وفى خانة الأب تقرأ اسم جمال عبد الناصر رغم أنهم لم يكتبوه ، وفى خانة الأم تقرأ اسم الشعب المصرى للأسف الشديد .

كان الناس فى عنبر ١٢ يبكون فى تلك الليلة عندما تأكد خبر الهزيمة ، وكان ضباط المعتقل يسهرون فى الفناء الخارجى بين مبنى المعتقل والسور المحيط به ، وظللنا نسمع ضحكاتهم حتى انتصف الليل ، رغم أنهم كانوا أكثر دراية بتفاصيل الهزيمة منا ، فهم يعيشون فى القاهرة حيث الصحف والأخبار الآتية من إذاعة لندن ، وحيث الأهل والمعارف من ضباط الجيش وجنوده ، كانوا يضحكون ولا يبكون وهم سامدون ، فقدوا انتماءهم لوطنهم ، ولم يعد الأمر يعنيهم فى قليل أو كثير .

* * *

طلع نهار يوم الجمعة التاسع من يونيو عام ١٩٦٧ .

ومن الباب القضبانى رأينا العجب العجاب ، كأنه فيلم سينمائى أو مسرحية ، والممثلون يرتدون ملابس ذلك العصر .

كل رجال الحكم الديموقراطى قبل الثورة يدخلون إلى فناء المعتقل مع الخيوط الأولى من ذلك النهار ، حامد زكى ، محمد صلاح الدين ، سليمان حافظ ، وغيرهم وغيرهم ، مكثوا ساعة ثم انصرفوا بهم إلى حيث لانعلم ، لم يضربوا ولم يشتموا ، بل ظلوا واقفين فى رزانة مشوبة بالانبهار .

وجاء عبد العال سلومة قائد المعتقل وقال لمن هم وقوف من المعتقلين على باب مكتبه وكان وجهه متهللا باشا كما روى من رآه لحظتها :

ـــ سوف تسمعون اليوم أعظم خبر فى حياتكم .

ـــ سوف يفرج عنا ؟

ـ شيء أعظم وأكبر .

ـ استقالة الرئيس جمال عبد الناصر .

ونسى الرجل القصة بعد ذلك ، ولم يذكرها كأنها لم تكن ، وعاوده وحشه الذى يعيش فى أعماقه .

استقال وألحوا عليه أن يبقى فبقى ، ورقص النواب فى القاعة .

وقالوا دون حياء : إننا لم نهزم فقد كان غرض العدو أن يسقط النظام وها هو ذا زعيمنا بيننا باق ، وهو غاية ما نطمع فيه ونريده ، أما الجيش فنستطيع أن ننشىء جيشا آخر ، وسيناء التى احتلت لاقيمة لها ، فهى أرض من الرمال لا زرع فيها ولاماء ، والكرامة العربية كلمة لامعنى لها ، وهى فوق ذلك محفوظة بإذن الله مادام رئيسنا المحبوب معنا لم يغادرنا .

ولتسقط إسرائيل . .

وليحيا الرئيس عبد الناصر .

وليشرب من لم يعجبه هذا من البحر ، وإن لم يكفه البحر الأبيض فليشرب من الأحمر .

* * *

انتهت الحرب وعرفنا الأخبار الصحيحة وفهمنا قدر الهزيمة ، وعلمنا أنها لم تستغرق غير يوم واحد كما قال أحمد عادل كمال بالضبط ، ومع نهاية أيام الحرب صار الإخوان المسلمون أقلية فى المعتقل ، بعد أن حشروا الناس فى الدور الثالث حشراً ، وصدرت الأوامر بعدم ضرب الناس ، وعدم لعن آبائهم وأمهاتهم ، وصاروا مثلنا لهم وعليهم نفس مالنا وعلينا .

وكان فى الدور الثالث عنبر لعله رقم ٢١ اسمه عنبر « النكت » كل من جاء فيه قد قال « نكتة » ضد الرئيس عبد الناصر ، فكنا نختلس الوقت ونصعد ، وعلى بابهم ذى القضبان الحديدية نسمع ونضحك ، وننزل ونحكى ليضحك الآخرون والمرارة تملأ حلق الجميع .

وصدق حدس من قال إن اعتقال اليهود معنا سوف يصيبنا بالخير ، فما هى إلا أيام بعد انتهاء الحرب حتى جاءتهم الخطابات بعد أن سمحوا لهم بإرسالها ، وجاءتهم الهدايا والطرود من كل مكان ، وزارهم أهلهم ، وصار يأتيهم الطعام من بيوتهم يوميا ، ومن ثم صاروا سادة المعتقل ، سادة الإدارة بطبيعة الحال ، ثم رحلّوا اليهود من معتقل أبى زعبل إلى طرة ، لأنه من غير المناسب أن يتميز هؤلاء ويترك أولئك ، وبعد ذلك بشهر أو أكثر سمحوا لنا بإرسال خطاب فى الشهر لكل معتقل ومن ثم يستقبل خطابا واحدا إن جاء .

* * *

كان تأثير هزيمة يونيو عظيما على المعتقلين . فكل التدريبات التى كانت تجرى وعمليات غسيل المخ التى كانوا يقومون بها ليل نهار انتهت فجأة ، وذكرنى هذا بتجربة قرأتها يوما وهى أن عالما أجرى تدريبات لبعض الفئران والقرود على أداءات معينة ، وهى فى أقفاصها بمعمله ، ولما أتقنت هذه التدريبات حدث سيل مفاجىء واجتاح معمل هذا العالم ، وغطى الأقفاص جميعها ، وانزاح الماء ولاحظ العالم أن هذه الحيوانات قد نسيت التدريبات .

وكانت هزيمة يونيو هى السيل الذى اجتاح كل شىء فأفاق الناس .

بطل السحر ، وهانت الحكومة فى عين الجميع ورأوها على حقيقتها ، ووضعوا رئيسهم فى حجمه الحقيقى ، وعرفوا أن كل ماسمعوه دجل وتزييف .

اختلفت الأحوال فى أبى زعبل بعد الهزيمة ، صار الناس يتكلمون فى السياسة بعد أن كفوا عن هذا ، صاروا يسبون رئيسهم بعد أن كانوا لايستطيعون مجرد ذكر اسمه ، بدأت روح جماعة الإخوان المسلمين تظهر من جديد فى نفوس الناس وكلامهم ، وصاروا لايتحرجون من هذا بعد « تقية » استمرت حتى تلك اللحظة ، صاروا ــ وفى ليلة واحدة تم كل هذا ــ يتجرءون على قائد المعتقل يوبخونه ويعنفونه ويصفونه بعدم الوطنية عيانا جهارا ، وكان هذا من المستحيل قبل ذلك .

ورغم عظم الهزيمة إلا أن إدارة المعتقل ــ بتوجيه من المباحث ــ ظلت أحوالها على النمط الذى كانت تسير عليه فى الماضى .

كان أصحاب زنازين شمال ممنوعين من أى طعام أو شراب باستثناء طعام السجن الردىء الذى يضر الصحة والبدن ، وكنا نقوم على تهريب الطعام لهم كل يوم ، تهريب الطعام مثل الخضراوات والفواكه والألبان والعسل والأدوية وكل شىء ، وكان لى شرف الاشتراك فى هذا ، وكان أشهر من قام بتهريب الطعام إلى أصحاب زنازين شمال هو الأخ السيد عجوة ، والأخ رشدى عفيفى ، وكان هناك ابتكار واختراع فى تهريب الطعام إليهم رغم تضييق الخناق على هذه العملية ، وكثرة التفتيش بين الحين والآخر ، ولكن الطعام

والشراب فاض وزاد فى زنازين شمال حتى إنهم طلبوا عدة مرات تخفيض الكميات لأنهم لا يستطيعون الاستفادة منها جميعا فهى تفسد ، وكانت كل العنابر تتبارى فى تقديم الأطعمة للمسئولين عن توصيلها .

وكانوا قد منعوا الاتصال بهم تماما ، فكنا نكلمهم من النوافذ أثناء طابور الفسحة اليومى ، ثم احتلنا على قائد المعتقل لندخل إليهم بدعوى استتابتهم وصدق المسكين فسمح لى ولآخرين بالدخول عليهم ، فجلسنا معهم نسمر وننظر فيما يحتاجونه لنأتيهم به ، ويسألنا قائد المعتقل عن النتيجة فنسأله الصبر لأنها أمور تحتاج إلى وقت ، ثم نفد صبره ، ومنع هذه الزيارات بحجة أننا لا نستطيع تغيير عقولهم ، ونفد صبرنا نحن الآخرون وقلت له :

ـــ إن كانوا لم يؤيدوا عبد الناصر وهو فى أوجه أتظن أنهم يؤيدونه بعد أن هزم هذه الهزيمة الشنعاء ؟

وساءت الأحوال بينى وبينه وصرت من المتهمين لديه .

ومن الطريف أن فكرة تكفير المجتمع كانت قد ظهرت بين أصحاب زنازين شمال بعد ذلك الظلم الذى أصابهم ، والقتل الذى كان ينتظرهم يوم خمسة يونيو وسمعت بهذا وناديتهم من الفناء :

ـــ أصحيح أنكم تكفروننا ؟

ورد على المرحوم أحمد نصير وكان جارى فى عنبر ١٢ :

ـــ نعم .

وامتلأتُ دهشة :

ــ أترونا كذلك ؟ لسنا من أهل القبلة ؟

ــ وهل تظنون أنفسكم من المسلمين ؟ الإيمان والكفر كلمات تقال .

ــ والطعام الذى آتيكم به مع الآخرين ؟ وتعريض أنفسنا للخطر من أجلكم .

ــ كان المطعم بن عدى وحكيم بن حزام يذهبان بالطعام إلى المسلمين فى شعب أبى طالب وهما على شركهما .

ــوإذا أردت أن أعود إلى الإسلام فماذا على أن أفعل ؟

وجاء ضابط وانتهت المناقشة .

وعدت شاردا واجما أفكر فيما قاله المرحوم أحمد نصير ، وأنا أعجب كل العجب .

كيف يفكرون على هذا النحو ؟ ولا شك أن الحكومة هى التى غرست فى رءوسهم هذا التفكير بظلمها وانحرافها وجهلها .

فسدت العلاقة بينى وبين قائد المعتقل عندما علم أننى كنت أقوم بتهريب الطعام إلى زنازين شمال ، وضاقت نفسى بالمعتقل ومن فيه ، وفى ليلة كنت أتحدث فيها مع الدكتور حامد صفراطة ــ وهو أستاذ فى كلية الهندسة جامعة الرياض الآن ــ قلت له :

لابد أن أغادر المعتقل ، والليلة .

وضحك الرجل كثيرا وقال :

ـــ كأنك جالس على مقهى بلدى وآن وقت انصرافك إلى بيتك .

ـــ سوف ترى بنفسك . قف على الباب وارفع صوتك كالعادة « واحد مريض فى ١٢ ياافندم » .

وكان هذا النداء يتكرر فى بعض الليالى ومعناه أن هناك شخصا مريضاً جدا ، ولا يستطيع فعلها إلا الشخص المريض جدا .

وبدت أمارات الاهتمام والجدية على وجه الدكتور حامد صفراطة :

ـــ وماذا بعدها ؟

ـــ لاشيء ، سوف أذهب إلى القصر العينى لأجرى عملية الزائدة الدودية .

ـــ ولكنك لست مصابا بها .

ـــ أستطيع أن أشرح أعراضها بدقة .

وارتفع صوت الدكتور حامد مجلجلا فى الليل :

ـــ واحد تعبانِ فى ١٢ ياافندم .

وجاء الشاويش النوبتجى وفتح الباب وأخرجونى مسندا ، وأجرى الكشف علىَّ أحد أطباء الإخوان هو الدكتور أمجد صديق ثم استدعى زميلا له من الإخوان أيضا ، وأكدا أنها زائدة دودية . وجاءوا بالطبيب الرسمى من بيته فلابد أن يوقع على الأوراق التى تسمح بذهابى ، وأجرى الرجل كشفا دقيقا ، وسرعان ما ملئت الأوراق ووقعت وجاءت عربة الإسعاف وبعض الجند من قسم الترحيلات ، وقبل أن يبزغ الفجر كنت فى الطريق إلى القصر العينى .

كانت هذه أول مرة أغادر فيها المعتقل وما أن سارت العربة رافعة عويلها حتى اعتدلت فى جلستى بعد أن كنت راقدا وصرت أنظر من النوافذ فلا أجد غير الظلام الدامس يغطى أرض مصر .

ولا أريد أن أطيل فى هذه القصة ، فقد أجرى الكشف علىَّ ، وتبين للأطباء فى القصر العينى أننى متمارض ، ولما سألونى عن سبب ذلك قلت لهم إننى قادم من المعتقل ، وهى حياة لعينة وإجراء عملية الزائدة لن يضر ولن ينفع وهى فرصة لقضاء بعض الوقت معكم ، وافقوا مشكورين ، وأجرى العملية الدكتور هشام مورو إن لم تخنى الذاكرة ، وكان فاضلا ذا خلق ، أولانى عنايته ورعايته مدة تقرب من ثلاثة شهور ، وظل أياما طويلة يضع لى المطهرات على بطنى بعد أن شفى الجرح تماما لأبقى أطول فترة ممكنة فى معتقل القصر العينى ، وهو ليس تعبيرا مجازيا ، بل هناك معتقل بالفعل بمستشفى القصر العينى ، باب عادى تماما كأى باب تراه فى ممرات المستشفى ، ينتشر حوله الشرطة السريون ، ومن خلف الباب حجرات وعنابر وصالات وجند كثيف وضباط ، فمن تجرى له عملية جراحية ينزل إلى هذا المعتقل بعد يومين أو ثلاثة حسب درجة الخطورة ، ثم يذهب تحت الحراسة المشددة للغيار على الجرح ، أو للكشف أو لأى سبب تراه الإدارة مناسبا .

كان حديث الأطباء والممرضين والمرضى وكل الناس عن هزيمة خمسة يونيو ، وكيف خدعتهم الحكومة كل هذه السنين الطويلة ، ثم يكتشف الشعب أن وراء الستار لا يوجد غير الخواء والهراء ، وكان الأطباء ينظرون للمعتقلين نظرة مليئة بالاحترام والتقدير وقال واحد فيهم يوما :

ـــ أنتم الفئة الوحيدة من الشعب التى لم تستطع الحكومة خداعها ، ومكان أى وطنى صادق هو السجن أو المعتقل فى هذه الأيام السوداء ، نحن انخدعنا وانطلت علينا الحيلة اللئيمة التى استخدمت فى سرقة هذه البلاد ، أما أنتم فلا .

ومن مكانى فى معتقل القصر العينى رأيت بعض القادة العظام الذين قادوا الجيش إلى الهزيمة النكراء فى خمسة يونيو ، لقد جاءوا بهم كمعتقلين ، ليس بسبب الهزيمة ، ولكن بسبب ما سمى فى ذلك الوقت بمؤامرة المشير عبد الحكيم عامر ، وأودعوهم فى معتقل القصر العينى ربما لأنهم مرضى ، وربما إرضاء لخواطرهم وأذكر منهم اللواء عبد الحليم محمد عبد العال واللواء عصام خليل ، كانوا عددا يتجاوز العشرة بقليل ، ولا أدرى ماذا كان مصيرهم بعد أن غادرت المعتقل ، معتقل القصر العينى بطبيعة الحال .

وأثناء وجودى هناك قرأت خبر انتحار المشير عبد الحكيم عامر ، وتعجبت لماذا انتظر كل هذه المدة ليقتل نفسه ، فما دام يرى الانتحار مشروعا فكان عليه أن يفعله يوم خمسة يونيو ظهرا أو مساء فى أقصى تقدير ، وليس بعد ذلك ، ثم زال عجبى بعد أن عرفت أنه انتحر لسبب آخر ، واعتدلت الأمور فى رأسى أكثر عندما علمت أنهم قتلوه بالسم . ولله فى خلقه شئون .

وتأملت كيف يتشاجر هؤلاء الناس على الحكم ودم البلد لم يبرد بعد ؟ وكيف يرى كل واحد فيهم أنه أحق بالحكم من الآخر وهم الذين وضعوا رأس مصر والعرب فى الطين ،

يتقاسمون الجيش وينهبون السلطة ويشترون الأعوان ، ولا يأتى على بالهم ذكر ما فعلوه فى الأمس القريب .

ويقف الرئيس عبد الناصر ويخطب فى الناس خطبة يقول فيها معلقا على الهزيمة :

ـــ أنا المسئول عن كل ما حدث .

ويضج الناس بالتصفيق الشديد ، وترتفع الحناجر بهتاف يشق عنان السماء حتى اختلط الأمر علىَّ وظننت أن الهزيمة فى يونيو كانت مطلبا قوميا استطاع الرئيس بحكمته وحنكته أن يحققه ويريد عبد الحكيم عامر أن يسرق منه هذا الشرف !

الفصل العشرون

مصر تحكمها عصابة

كانت مصر وأحوالها هى شغلنا الشاغل فى هذه الأيام ، وكنا نتعجب من عقوق من يفترض أنهم أبناؤها ، وكيف هانت عليهم وأذلوها ، ووضعوا رأسها فى الطين أمام العالم عن عمد واضح وترصد لاينكر ، وكنت أثناء وجودى بالقصر العينى ألتقى بالناس من مختلف الطبقات : الأطباء والمرضى وزائريهم ، والحرس الذى يتناوب علىَّ فى غدوى ورواحى من معتقل القصر العينى إلى العيادة الخارجية ، حيث الغيار على الجرح أو علاج أى شيء آخر ، وكانوا قد نصحونى أن أعرض كل ما فى جسدى من علل لتطول فترة بقائى هناك ، وللأسف الشديد كان جسدى فى ذلك الوقت قويا لا يشتكى من علة ، وقلت للطبيب الذى نصحنى :

ــ ماذا أفعل ؟ ليست بى علة .

ــ فلنبدأ بالأسنان ، بلغ فى الصباح أنك تشكو من أسنانك وسأدبر أمرك هناك .

ونفذت أمره فى الصباح كما قال .

وفى عيادة الأسنان استقبلنى الأطباء كأنهم يرون زائرا من المريخ :

ــ أنت من المعتقلين ؟

ــ نعم .

ــ إخوان أو شيوعيون ؟

ــ إخوان .

ــ الحمد لله نستطيع أن نقوم على خدمتك بضمير مستريح ، ماذا يفعلون بكم هناك ؟ هل صحيح أنكم تضربون ؟

ــ يضربوننا بالأحذية .

ــ هل هذا صحيح ؟ نحن لانصدق هذا .

ويرد زميله الذى يساعده :

ــ ولماذا لا نصدق ؟ قد رأيت بنفسك الهزيمة المنكرة ، وكنا من قبل نسمع كلاما آخر مختلفا . حكامنا يخدعوننا ويكذبون علينا .

ــ أسنانك سليمة للأسف ، قوية ليس بها عيب .

ويتبادل النظرات مع زميله :

ــ ما رأيك ؟

ــ نطلب أشعة على الأسنان ونستخرجها بعد عشرة أيام ، وعندها يفرجها المولى .

وتناول البطاقة التى أحملها معى ، وملأها كلاما وقال :

ــ الأشعة بعد غد ، والنتيجة بعد ذلك بعشرة أيام ، مارأيك ؟

ــ كتر خيرك .

ويرد زميله متحمسا :

ــ وربما يفسد الفيلم فنعيدها من جديد .

ــ هذا عظيم والله .

ويقول الطبيب وهو يناولنى البطاقة :

ــ أخبرنى . ما رأيك فى النكسة ؟

وأقول له :

ــ ما رأيك أنت ؟

ــ شيء فظيع كأنه حلم ثقيل . الناس لاتصدق ماحدث ، مازالوا لا يصدقون .

ويتدخل زميله :

ــ أخبرنى . هل صحيح أنكم أعددتم مؤامرة لقلب نظام الحكم ؟

ــ غير صحيح بالمرة .

ــ ولماذا قبضوا عليكم ؟

ــ هذا موضوع طويل الشرح .

ويقول الطبيب الأول لزميله :

ــ إنت عارف ياحسن ، الحكاية إن فتوة فى حى بلدى ومتضايق من أحد الناس فهو يلفق له قضية ، يدس له مخدرات ، ويبلغ عنه فيقبضون عليه ويرتاح منه .

وقلت له مبتسما :

ــ هذا ما حدث بالضبط .

ويندفع متحدثا متحمسا :

ــ شغل عصابات ، مصر تحكمها عصابة .

وقلت له مهنئا :

ــ قد عرفت السر . مصر تحكمها عصابة .

سمعت هذه العبارة من ذلك الطبيب الشاب الذى بذل جهده فى استبقائى بعيدا عن المعتقل رحمة بى ، ومساهمة منه فى تخفيف آلام المعتقلين ، وسمعتها من كثيرين فى تجوالى بين العيادات المختلفة ، فقصتى مع الأسنان استمرت شهرا كاملا ، فقد أعيدت الأشعة مرة ثانية ، ثم نصحونى بإجراء جراحة لاستخراج ضرس العقل ، وقالوا إنها عملية مثل الزائدة الدودية لا تضر ولا تنفع ، ولكنها تبقيك معنا أياما

طويلة ، وبعدها يفرجها المولى . وبعد أن انتهت العملية وآثارها صرت أفكر ماذا يمكن أن أستأصله من جسدى بشكل قانونى ؟ وبينما أنا أفكر وأجهد ذهنى ، جاءنى أحد الإخوان بمرآة هربها ليحلق ذقنه ، وكانت هذه من مزايا معتقل القصر العينى ، فنحن مرضى ويدللوننا قليلا ، وأمسكت بالمرآة له حتى فرغ من الحلاقة وقال لى :

ــ ما رأيك ؟

ــ لا بأس .

وأمسك هو بالمرآة لى وصرت أحلق ذقني وشغلى الشاغل عملية جراحية جديدة تستبقينى أياما ، وسألته :

ــ يا أخ حسين . ماذا يمكن أن أستأصله دون أن يحدث ضرر .

وقال مازحا :

ــ هناك ما يمكن استئصاله وتستريح وتريح ، عقلك .

وكنت أحدق فى المرآة وأنا أحلق ذقنى ، وفجأة تركت ماكينة الحلاقة ،واختطفت المرآة منه ، وصرت أحدق فى وجهى الماثل على صفحتها وأنا أردد :

ــ وجدتها وجدتها .

ــ ماهى ؟

انظر فى عينىّ .

ونظر حسين الحنفى دهشا فى عينى :

ــ ماذا بهما ؟

ــ ألا ترى شيئا غريبا ؟

وصار يحدق فيهما ويفكر :

ــ أنا هنا لعلاج عينى من الماء الأزرق ، لهذا أنا خبير بالعيون ، ماهذا ؟ بالفعل هناك شىء غريب ، العين اليسرى بها بقعة بنية اللون فى حجم رأس الدبوس ليست موجودة فى العين اليمنى .

ــ لم تكن موجودة من قبل .

ــ ماهذا الكلام ؟

ــ أنا لم ألحظها قبل ذلك ، فهى بالنسبة لى قد ظهرت اليوم .

ــ ومن ثم سنذهب سويا إلى عيادة العيون من الغد .

* * *

وهكذا ذهبت إلى عيادة العيون ، وتفهم الأطباء الموقف ، وقالوا : تحليل وأشعات وفحوص ، ومزيد من الأيام فى جنة القصر العينى الوارفة الظلال ، ولا شك فى أن هذا المعتقل الموجود بالمستشفى كان من حسنات الثورة كما يؤكد جميع الذين ذهبوا إليه .

وكنت أسأل نفس الأسئلة فى كل مكان أذهب إليه ، وأسمع نفس الكلام ، والجملة بذاتها تكررت فى مواضع كثيرة ، مصر تحكمها عصابة ، وصرت أسمعها حتى نطق بها عبد الناصر نفسه فى خطاب عام كأنه كان يعبر عن ضمير الأمة ، ويشعر بنبض الجماهير ، فهو يعرف ما يفكر الناس فيه .

عدت إلى المعتقل وتلقانى الإخوان بعد هذه الرحلة الطويلة ، وجلسوا إلىَّ يسألوننى وكان انبهارهم شديدا بحكاياتى التى جئت بها ، مثل واحد قد عاد من أمريكا إلى قريته وهو يحدث أهله بما شاهده هناك ، وهم يستمعون إليه فى إعجاب وجلال .

واستنفدت قصصى وشغلنا جميعا بقصة المشير عبد الحكيم عامر وكانت تأتينا عبر الصحف التى تتسرب إلينا فقد ضعفت القبضة ، وملَّ الضباط ما يفعلونه بنا ، فهم يتغاضون عن بعض الممنوعات ، وشجعهم على هذا ماترويه الصحف كل يوم عن حكايات هى إلى الأساطير أقرب ، والناس يدركون بأنفسهم الجرح العظيم الذى انشق فى جسد مصر ، ومن بين الجرح يفور الصديد والقيح والنتن ، من بين حكايات المشير وشمس بدران وعباس رضوان وجلال هريدى ، وما لايقال من بين السطور ، وما يفهمه الأذكياء والعارفون ، قد صدق « الرئيس » فمصر تحكمها عصابة !

كنا نفكر فى المعانى التى تبرز من بين سطور قصة مؤامرة المشير ، وكنا نقارن بين حالهم وحالنا ، فقد شغلوا الدنيا بمؤامرة الإخوان عام ١٩٦٥ لقلب نظام الحكم ، وكنا نعرف الحقائق فنحن المتهمون وأدرى الناس بما جرى وكان . ولندع علمنا جانبا فنحن فى أى الأحوال متهمون كما قلت ، ولننظر فيما قالوه وأعلنوه للناس ، مجموعة من المهندسين والأطباء والمدرسين والمفكرين والفلاحين والعمال والطلبة ، لايتجاوز عددهم مائة كما أعلنوا ، اتفقوا على قلب نظام الحكم كما قالوا . ضبطوا عندهم بندقيتين ومسدسا ومدفعاً رشاشا ومائة سكين ، وعشر زجاجات كولونيا ٥٥٥ زعموا أنها متفجرات ، واعتقلوا بسبب هذا ثلاثين ألفا ، قتلوا منهم

عدة مئات فى التحقيق الوحشى الذى أجروه ، وقدموا للمحاكمة عددا لا يصل إلى المائة ، حكموا على خمسة منهم بالإعدام ، ونفذوا الحكم فى ثلاثة منهم ، وعلى الباقى بالأشغال الشاقة تبدأ من المؤبد وتنتهى عند سبع سنوات ، ومن لم يقدم إلى المحاكمة ظل فى المعتقل حتى ظهرت مؤامرة المشير ـ واستمرت بعد ذلك بطبيعة الحال ـ ومن يتأمل يدرك ، حتى لو صدقوا فيما زعموا وهم ليسوا بصادقين ، أن الجريمة كانت ثابتة حقا فلا ينبغى أن تكون العقوبة على هذا الحد من الوحشية ، ولكنه حكم العصابات كما قال رئيسهم عبد الناصر .

ولنتأمل فى مؤامرة المشير كما بينتها التحقيقات لندرك ماذا تعنى مؤامرة لقلب نظام الحكم ، فالمؤامرة المزعومة للإخوان لا يمكنها الاستيلاء على قسم شرطة لو صحت ، أما مؤامرة عبد الحكيم عامر فنسبة النجاح فيها تتجاوز التسعين فى المائة ، ويتبين لنا هذا من أشخاص القائمين على الانقلاب والأدوات التى يملكونها والمال الموضوع تحت تصرفهم ، وإمكانيات التنفيذ المتاحة لهم بحكم موقعهم من الحكم ومعرفتهم بالخفايا والأسرار . فهم مثلا كانوا قد أعدوا خطة لخطف عبد الناصر ، وكان يمكن لها أن تنجح ، فقد قام بالتفكير فيها شمس بدران وزير الحربية ، وهو يعرف أين يبيت عبد الناصر ، ويعرف مكانه بدقة ، وعلى علم بكل التفاصيل ، وهو يتردد عليه فى بيته للصلح بينه وبين عبد الحكيم عامر ، فمن السهل عليه كما ثبت فى التحقيقات أن يخفى مجموعة معه بالرشاشات ، ويرغم عبد الناصر الذى كان يوصله حتى باب السيارة على الركوب معه والذهاب إلى أى مكان .

يوم تنفيذ المؤامرة كان الجيش على حالة التى تركه عليها عبد الحكيم عامر ، نفس القيادات التى صنعها بنفسه ، استجابت له المخابرات وعلى رأسها صلاح نصر فهى تعد مجموعات الاعتقال ، وهى تعرف أين تجد من تريد اعتقاله .

الفرقة الرابعة المدرعة تنتظر المشير غرب القناة ، ليقودها منصورا فى استيلائه على الحكم فى القاهرة .

كل قيادات الجيش وضعت نفسها تحت تصرف المشير ، وعلى استعداد لتنفيذ أوامره

البوليس الحربى جاهز لتأمين القاهرة ، كانوا يملكون الجيش فى وحداته المنتشرة هنا وهناك .

وكانت هناك سبائك الذهب ، وعشرات الألوف من الجنيهات التى قدمها عباس رضوان ، ووضعها تحت تصرف المشير ، ولا أدرى من أين جاء بها ، ويبدو أن نظام الحسابات لم يكونوا يعرفونه ، فأموال البلد هى أموالهم ، وهم يتصرفون فيها بالشكل الذى يريدون .

ضبطت فى مقر قيادة المؤامرة ــ منزل المشير عبد الحكيم عامر ــ مطبعة كبيرة بالإضافة إلى الأسلحة الآتى بيانها :

٣٤ قاذفا صاروخيا مضادا للدبابات .
١٨٧ بندقية آلية .
٣٢٠ قنبلة يدوية .
٧١ رشاشا .
٤ مدافع هاون ٨٢ مليمترا .
٤٦١ مسدسا .
٢٩٤ صندوق ذخيرة .

هذه الأسلحة للقتال فى شوارع القاهرة إن لزم الأمر ، ولست أدرى : أى منزل هذا الذى يحتمل هذا القدر من الأسلحة ؟ ربما كانوا يضعون مدافع الهاون فى الصالون والأنتريه بدلا من « الفازات » ، فهو منزل المشير . والأسلحة التى حازوها استعملوها ، مرة عندما أرادت السلطات القبض على جلال هريدى فأطلق عليهم الرصاص ، وأسرع عدوا ناحية البيت المذكور ، وقامت القوات المتحصنة بتأمينه وأمطروا المهاجمين بوابل من الرصاص . وهم جادون فيما يريدون ، فالجيش والطيران والبحرية فى انتظار الأوامر .

وأفسد المشير عبد الحكيم عامر كل شيء بسوء تدبيره وعدم حنكته ، فقد دعاه عبد الناصر ، ونُصِح بعدم الذهاب ولكنه ذهب ، ووجد فى المنزل زملاءه القدامى من أعضاء مجلس قيادة الثورة الذين كانوا على ولاء مع عبد الناصر واستُبْعِد المناوئون ، وحاكموه ، لا أدرى كيف ، وحكموا عليه بالاعتقال وتم ذلك ، وفى الوقت نفسه كانت قوات الفريق محمد فوزى تحاصر منزل المشير الذى لو لم يذهب فى هذه الزيارة لكنا الآن نشق الفضاء بهتافاتنا التى لاتنقطع :

يعيش الرئيس عبد الحكيم عامر منقذ مصر .

ولكانوا قد أقنعونا بأننا انتصرنا فى ٥ يونيو .

ولله فى خلقه شئون .

قدم للمحاكمة فى هذه القضية مائة ضابط عظيم ، يكفى خمسة منهم لعمل الانقلاب وإنجاحه ، وكانت كلها أسماء كبيرة .

المتهمون الاثنا عشر الأول كالتالى :

سبعة تتهمهم النيابة بتزعم التنظيم العسكرى المسلح الذى أعد لقلب نظام الحكم ، وهو تنظيم عسكرى مسلح بالفعل لأنه الجيش المصرى ، أو ما تبقى من الجيش المصرى فقد كانت هذه الأحداث بعد شهر من الهزيمة .

أما أسماء السبعة فهى :

شمس بدران	وزير الحربية
عباس رضوان	وزير الداخلية
صلاح نصر	مدير المخابرات
جلال هريدى	قائد قوات الصاعقة
عثمان نصار	أحد اللواءات
أحمد عبد الله	من قوات الصاعقة
تحسين زكى	من قواد سلاح الطيران

وخمسة اعتبرتهم النيابة فاعلين أصليين فى محاولة قلب نظام الحكم وهم .

حسن مختار .
محمد حلمى عبد الخالق .
محمد عبد العزيز الحسامى .
سعيد عثمان مصطفى .
محمود فتحى الريس .

يعنى باختصار قادة الجيش وقواد الألوية والفرق ، وبعد ذلك ضباط عظام أقل رتبة فيهم مقدم أو عقيد .

وقد بدءوا بمظاهرة عسكرية يوم ١١ يونيو بالمدرعات التى أبقوها فى القاهرة لحراستهم واعتقال الناس ، وطالبوا ببقاء القيادة العسكرية القديمة .

لم يفكر واحد منهم فى ذهاب هذه المدرعات إلى الجبهة ، لأنهم كما يبدو لا يتقنون غير المؤامرات أو الاعتقال والسلطة أو الحكم هو مطلبهم الأسمى .

حملت الأسلحة التى وضعت فى ست سيارات لورى ضخمة ، وكانوا قد ضبطوا أثناء عملية اعتقال القوة المتحصنة فى منزل المشير سبع سيارات لورى أخرى قادمة محملة بالأسلحة ، ومازلت أتعجب أين يمكن أن توضع هذه الأسلحة فى بيت من البيوت مهما كبر وعظم ؟ والظن أن هذا البيت كان يمكن له أن يستوعب كل أسلحة الجيش ما عدا الدبابات .

وقالوا إن الخلاف بينهم وبين عبد الناصر حول الديموقراطية التى ضاعت ، والحرية التى أهدرها ، وكرامة الفرد التى مُسحت بها الأرض .

إى والله هكذا قالت منشوراتهم !

ولا ندرى من نصدق ، ولعل كلا الجانبين صادق .

أنصدق شمس بدران الذى قال أمامى يوما أثناء التحقيقات :

ـــ أنا مفوض من الرئيس عبد الناصر فى قتل من أشاء ، ولو قتلناكم جميعا ما شعر بكم أحد ، وما اعترض على ذلك إنسان .

ولاشك أن تلخيص المؤامرة واجب ، لأن هذا يساعد على التخيل الصحيح .

كان من المقرر أن ينتقل عبد الحكيم عامر ومعه بعض كبار أعوانه ممن ذكرت إلى القيادة العامة بمنطقة القنال ، ويتم هذا بمعرفة فرقة من الصاعقة ، التى كان ينبغى عليها أن تكون فى القتال مع العدو الإسرائيلى ، ويتولى قيادة هذه الفرقة أحمد عبد الله ، ويتم الاستيلاء على القيادة ، ويسهل بعد ذلك إلقاء الأوامر .

فى نفس الوقت ينتقل شمس بدران وزير الحربية إلى مقر الفرقة الرابعة المدرعة للسيطرة على القاهرة واحتلالها .

فى نفس الوقت ينتقل اللواء عثمان نصار إلى مقر قيادة القوات البرية المعسكرة فى دهشور حيث كان يعمل ، وحيث يوجد كل الضباط الذين تحت قيادته ، ويتم تحريك بعض هذه القوات لمساعدة شمس بدران فى السيطرة على القاهرة فى نفس الوقت يقوم عباس رضوان بدور الحاكم العسكرى العام للقاهرة ، ويقوم بتأمينها والسيطرة على وزارة الداخلية ، حيث كان يعمل ، وإدارة جهاز المخابرات بتفويض من صلاح نصر الذى أعد له المجموعات الخاصة التى كانت تجيد القبض والاعتقال .

وأثناء ذلك يتولى تحسين زكى قائد القاعدة الجوية بأنشاص بتأمين كل هذه التحركات بما تبقى من أسراب الطائرات ، ويبدو أن سلاح الطيران لم يتحطم بالكامل كما أرجفت بذلك إسرائيل ، وكان من واجبات تحسين زكى تجهيز طائرة هليوكوبتر تكون معدة فى مطار أبو صوير لتحركات رئيس الجمهورية الجديد . ولذلك تفصيل طويل . .

* * *

كنا نقرأ هذا الكلام ونسمع به ونحن رغم كل مبررات التصديق لانكاد نصدق ، هل يمكن أن يكون ذلك صحيحا ؟ وكان ذلك صحيحا .

وبعد ثبوت التهمة على المتهمين قدموا للمحاكمة .

وتذكرت عندما استدعيت ليلة من ليالى الشتاء القارص فى السجن الحربى لمقابلة شمس بدران ، وكيف سمعت حوارا بينه وبين أحد الضباط المعتقلين من رجاله فى قضية لا صلة لها بالإخوان ، وكيف قال له إن عنده محكمة فى الغد ، وعليه ألا يناقش رئيسها كثيرا ، فالحكم بالمؤبد ، ووعده بالذهاب إلى بيته فى وقت قريب ، وكل ما هو مطلوب منه هو الأدب ، الأدب أثناء المحاكمة وبعدها ، وطمأنه على مستقبله أثناء السجن وبعده .

وكان هذا ما حدث للمتهمين ، محاكمة فأحكام لا معنى لها ، فلندن فالتجارة فى الملايين المنهوبة ، والأمن والأمان بعيدا عن أى إنسان .

وتأملت عندما قرأت فى الصحف عن واحد من المقبوض عليهم فى هذه القضية وكيف وجدوه مقتولا فى شقته بلندن ، وفى الشقة مليون جنيه استرلينى فى حقيبة من الحقائب ، والله وحده يعلم ماذا فعل هؤلاء الناس بمصر ، وكم نهبوا من أموالها .

لم يُعدم واحد ، هذا إذا استثنينا المشير ، فهو من المنتحرين .

كانوا يرتدون الملابس الغالية الثمن وهم فى طريقهم إلى المحاكمة .

وكان منهم من يتطاول على رئيس المحكمة ، ويتهمه بالجهل ، وأنه كان (طرطورا) لا يعرف شيئا عما يدور ، وهو نائب لرئيس الجمهورية .

وكُشِفت أسرار وانزاحت أستار ، وقالوا الكثير والكثير .

وظن بعض الكتاب أن هذه المحكمة وإعلان هذه التفاصيل معناها إشارة البدء فى سبهم ولعنهم ، وكان هذا الكاتب من المدربين الذين يحسنون التقاط الإشارة ، وكتب فى الصفحة الأولى عن الذهب المنهوب من الشعب المصرى الغلبان ، والأسلحة المسحوبة من ميدان القتال للاستيلاء على الحكم ، ولم يفهم المسكين أنه حكم العصابات .

وفى خطاب عام أنب عبد الناصر وعنف ذلك الصحفى لاجترائه فى الحديث عن هذه المثالب ، وقال لا تنسوا أنهم وضعوا رءوسهم على أكفهم ليلة الثورة للحصول على هذا الذهب وتلك الأموال .

وما هى إلا أيام حتى رفت الصحفى وطرد من وظيفته .

لاينبغى لأحد من خارج العصابة أن ينتقد الفتوات ، حتى لو اختلفوا فيما بينهم ، هذا حق شيخهم وحده ، وغيره ممنوع من هذا .

كنا فى معتقلنا نتأمل الحوادث ونمتلىء بالقهر والغضب ، ولا نملك غير الصمت والصبر وانتظار الأيام .

وكنا نقرأ عن الحرية والديموقراطية التى يزمع « الرئيس » أن يمكن الشعب منها ، وكيف أن يده كانت مغلولة ، فهو يريد الخير وتحول بينه وبين تحقيقه مراكز القوى ، وهو اسم عجيب أطلقوه على من يتمرد من العصابة على الزعيم .

ثم طبلوا وزمروا ببيان ٣٠ مارس ، فهم يعلمون أن حاجة الشعب عارمة للكلام ، وعليهم أن يبيعوه كلاما ، هكذا عودوه وهو لا يعيش بغيره .

وبدأ التمهيد فى الخطب والمقالات لتحويل الهزيمة فى يونيو إلى نصر .

سموها نكسة ، ثم قالوا هى المعركة الأولى من سلسلة معارك مع العدو الإسرائيلى ، وهذا هو حال الحروب فى التاريخ ، ونحن شعب جاهل لا يفهم معنى المعارك ، ولو كنا على ثقافة ووعى لعلمنا أن الحروب هكذا ، معركة نخسرها ، وأخرى نكسبها ، والترتيب غير مهم .

ثم بدءوا يعزفون على وتر النصر ، فقالوا إن إسرائيل لم تحقق غرضها فى تلك المعركة ، تلك المعركة الصغيرة التى نبالغ فى تقدير حجمها دون وعى ، فقد كان العدو يريد تغيير القيادة السياسية وفشل فى هذا ، ومن ثم لم يتحقق غرضه فى العدوان ، وإن الإرادة المصرية قد انتصرت على الجيش الإسرائيلى ، وأن جماهير ٩ ، ١٠ يونيو قد أثبتت أن مصر لايمكن أن تهزم وإننا شعب سخيف لا يفهم الفرق بين النكسة والهزيمة ، وليس المهم هو تحرير الأرض ولكن تحرير الإرادة ، وما الجيش ؟ ماهو إلا بعض الأدوات من الحديد ، وجمع من الناس قد ارتدوا الملابس « الكاكية » ، وبالإرادة وصداقة الاتحاد السوفيتى نستطيع أن نأتى بهذه الأدوات من الحديد ، أما الناس الذين ماتوا فخيرا فعلوا ، فنحن مصابون بتضخم سكانى !

كانت هذه هى النغمة ، وكان ذلك هو العزف ، عزف سقيم لا يطرب ، ولا يثير غير المرارة والاحتقار ، فى أمة قد هانت على نفسها وعلى أسيادها وفقدت كرامتها ، ومرغ شرفها بالوحل ، وغاب أبناؤها فى غياهب السجون .

وهمُّوا أن يعلنوا انتصارنا فى يونيو لولا تواتر الأحداث .

* * *

ويقول لى واحد من المعتقلين من السياسيين القدامى وليس من الإخوان :

ـــ هل كنتم تتآمرون على قلب نظام الحكم عام ١٩٦٥ ؟

ـــ كلا بالطبع .

ويتمتم الرجل فى مرارة :

ـــ ليتكم فعلتم .

وأنظر إليه فى دهشة :

ـــ ماذا تعنى ؟

ـــ لو أن انقلابا حدث فى عام ١٩٦٥ ، وتغير نظام الحكم فى مصر لتجنبت البلاد الكارثة التى حلت بها . أنتم لا تعلمون حجم ما جرى فى ٥ يونيو .

ـــ بل نعلم .

ولكنه استطرد شاردا حزينا :

ـــ إن ما حدث فى يونيو أمر عظيم ، سوف يفرض نفسه على مصر والعرب ، وهو أمر له ما بعده ، فهو يغير السياسات

والآفاق التى ينظر إليها العرب بمن فيهم مصر ، وإن أثر ما حدث لن يتغير قبل جيلين كاملين . ولن يبدأ التغيير قبل أن نتخلص من هذه الحكومة ومن ذيولها ، وهو أمر لن يجدى فيه غير الزمن ، مائة سنة غير كافية لإصلاح ماحدث ، أنتم حقيقة لا تعلمون من يحكم مصر .

وتفرست فيه وأنا أسأل :

ـــ ومن يحكم مصر ؟

ورد على فى برود وحزن :

ـــ مصر تحكمها عصابة .

ويممنا صوب العنابر فى صمت ، فقد كانت صفارة الشاويش تعلن انتهاء الطابور .

الفصل الواحد والعشرون

مهرجان
الحرية والاعتقال
معتقل طره السياسى

كانت الإدارة تشعر بسخف تصرفاتها مع المعتقلين – رغم الأوامر المشددة – التى تقضى بالمضايقة ومزيد من القرف والإيذاء ، فالضباط كثيرا مايتهاونون فى تنفيذ ما يطلب منهم احتقارا للحكومة ، وقد عبر بعضهم أحيانا عن هذا الاحتقار ، ولكنه لايستطيع أن يفقد وظيفته ، وربما ضموه إلينا كمعتقل ، فهى أيام يحوز فيها أى شىء ، والضباط خير من يعلم هذا بحكم اطلاعهم على مايدور وراء الكواليس من عجائب .

ويبدو أن مشاكل الصراع حول السلطة فى القمة جعلت القائمين على أمر المباحث يشعرون بمتغيرات يمكن أن تكون ، وأن فى هذه المتغيرات مستقبل بعضهم وربما حياته ، فالجميع يعيشون أياما لا يؤمن جانبها ، والعاقل من لا يأمن جانب الأيام أبدا ، ومن ثم فقد قرروا انتقال المعتقلين الموجودين فى أبى زعبل إلى طره السياسى وتخليصهم من عبد العال سلومة الذى كان يجرى عليهم تمارينه لحساب المباحث بشكل عام ولحسابه بشكل خاص ، وكان يبالغ فى أداء هذه التمارين .

وفى ساعة من نهار صفى معتقل أبى زعبل السياسى ، وركب الناس الحافلات وهم مقيدون بالحديد إلى طره ، فقد كان هذا هو أسلوب الترحيل ، يضعون القيود الحديدية فى اليدين ، وربما الجنازير فى الصفوف الجالسة والواقفة ، هذا حسب المزاج العام .

وصار عبد العال سلومة يعتذر للمعتقلين الذين أساء إليهم واحدا بعد الآخر وهو يشعر بحسرة ضياع الفرصة منه ، وعودته ثانية إلى وظيفته الأصلية إلى سجن من السجون المنتشرة فى بلاد مصر حيث المجرمين والقتلة واللصوص ، ويلفه الضباب ويضيع فى عالم النسيان .

والغريب أن هذا الأمر قد حدث معه عدة مرات ، يتمكن فيطغى ، ويسلب المكانه فيندم ثم يعتذر ، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم كاذبون ... ماعلينا من هذا .

وجدنا أنفسنا فجأة فى معتقل مزرعة طره السياسى ، وهو عالم يختلف تماما عن أبى زعبل .

الأسوار والأبراج والحرس الشديد كأى سجن أو معتقل فى مصر المحروسة ، وفى داخل الأسوار توجد العنابر - عنبر واحد واثنين فى مبنى واحد على اليسار ، وعنبر ثلاثة وأربعة على اليمين ، فإذا أردنا الوصف بدقة فإن الداخل يدخل من كوة صغيرة فى بوابة ضخمة ، وفور الدخول غرفة قائد المعتقل على اليمين ، وعلى اليسار غرفة نائب القائد ، ثم على اليمين حجرتين تقابلهما مثيلتهما على اليسار ، وهى غرف للضباط وللإداريين والخدمات المختلفة ، ثم بوابة أخرى تخرج منها فتجد أمامك فى منتصف مربع المعتقل مبنيين خلف بعضهما الأول يشمل المطبخ (والكانتين) والمسرح والملاحظة:والملاحظة هذه : عبارة عن عنبر كبير يوضع فيه أنصاف المرضى ، وخلف هذا المبنى يقع مبنى المستشفى ، وبين المبنيين ساحة تتسع لاجتماع أكثر من ألفى شخص . وعلى يمين الداخل ويساره تقع العنابر التى ذكرت ، واحد ، واثنان ، وثلاثة ، وأربعة ودخلنا أول ماوصلنا إلى عنبر ٣ ، ٤ ، وكما قلت فهما مبنى واحد له باب قضبانى ، يفتح فيدخل الداخل - وقانا الله السوء -

فيجد على اليمين عنبر ثلاثة وعلى اليسار عنبر أربعة ، وكان من نصيبنا هو عنبر ثلاثة ، حيث توجد ثلاث حجرات كبيرة على اليمين ، وأخرى مثلها على اليسار ، وفى آخره بوابة حديدية أخرى تفضى إلى ساحة صغيرة تنتهى بدورات المياه ، عشرة عيون لم تكن

بينها حواحز ، وجاهد الإخوان سنين حتى وافقت الحكومة على السماح لهم بعمل حواجز من الصاج على حسابهم . وفى داخل العنبر توجد بجانب الغرفات الكبيرة أربع (زنازين) انفرادية ، على يمين الداخل إلى عنبر ثلاثة ، وعلى يسار الداخل إلى عنبر أربعة .

وكل المباني من دور واحد ، يرتفع السقف فى الحجرات إلى أكثر من أربعة أمتار ، وسمك الحائط حوالى متر ، يظهر من النافذة القضبانية ذات القاعدة الحائطية المائلة فلا تسمح لشىء بالاستقرار عليها إنسانا كان أم جمادا . ولاتستخدم هذه النوافذ إلا للتبريد ، حيث يلف الوعاء (البلاستيكى) بقطعة من الخيش مبلولة وتربط بحبل فى قضبان النافذة وتترك ، ثم تمد بالماء كلما جفت الخيش ، ومن ثم يتم الحصول على ماء بارد يمكن أن يستخدم فى صنع مشروب مشهور اسمه « ساكُّو » ، بالتشديد على الكاف ، وهو عبارة عن ماء مضافا إليه عسل أسود ، وترج الزجاجة قبل الاستعمال لتوفير الرغوة التى تجعل شكله غريبا بعض الشىء ، وطعمه أغرب ، ولكن لابد من شرب شىء مامن باب التغير وكسر المألوف ، أو كما قال الجميع .

وجدنا الحياة فى معتقل طره السياسى مختلفة تماما عن مثيلتها فى أبى زعبل ، فكنا وكأننا هبطنا جزيرة فى وسط المحيط بعد أن غرق المركب كما تروى أساطير ألف ليلة وليلة ، أول ماطالعنا فى هذا المعتقل هو قائده العميد « ناصف مختار » ، وهو شخصية عجيبة بالفعل ، أولا هو رجل من أقباط مصر ، وأغلب المعتقلين من الإخوان المسلمين وعلى عكس ماتوقعنا ، كان ودودا كريما متبسما دائما ، يحاول جهده التخفيف عن المعتقلين فى حدود صلاحياته ، ويتجاهل كثيرا من المخالفات والممنوعات رغم ذكائه الشديد ، وكان بوجه عام أفضل ألف مرة من عبد العال بك .

قابلنا الرجل باسما وقال لنا :

– تذكروا شيئا هاما ، أنا لم آمر باعتقالكم ، ولامصلحة لى فى ذلك ، وأود لو تخرجون إلى بيوتكم ، ولكنى هنا حارس وبواب ، أنفذ أوامر الحكومة كما تعلمون ، وأريد أن تجنبوننى المشاكل وتجنبون أنفسكم كذلك ، خير لكم وخير لى . لاأفهم فى السياسة ولا أحب الحديث فيها ، افعلوا ماتشاءون فى حدود النظام والقانون ، تكلموا بما تشتهون ، لادخل لى بكم ، ماأنا إلا حارس كما قلت ، وأدعو الله ألا تطول إقامتكم هنا ، فالسجن شيء مؤلم ، ولو أنى سجين معكم نصف الوقت بحكم عملى وأنا على استعداد تام للاستجابة إلى مطالبكم ، فى حدود النظام والقانون ، تفضلوا مشكورين ، أتمنى لكم إقامة سعيدة . هكذا كان استقبال الرجل لنا ، كأننا فى استقبال فندق أربع نجوم وربما خمسة ، ثم قادنا (شاويش) أنيق يحمل المفاتيح ، وفوجئنا بمن يتقدم ليحمل أمتعتنا : أناس يرتدون الملابس الزرقاء ، عرفنا بعد أنهم من المساجين الذين جاءوا بهم لخدمة المعتقل ، فهم يقومون بعمليات النظافة الشكلية والخدمات بوجه عام ، ثم يعملون لحسابهم ، هذا بعلم الإدارة وسكوتها عن ذلك ، فهذه أمور لاتعنيها .

والنقود ممنوعة فى المعتقل ، وكان من الضرورى وجود بديل ، وكانت السجائر هى البديل ، فالمسجون يحمل الأمتعة حتى باب الغرفة داخل العنبر بسيجارة ، وربما حمل أمتعة شخصين بنفس الأجر ، ويقومون بخدمات كثيرة أخرى .

وكان هذا من المفاجآت العديدة التى توالت علينا فى اليوم الأول من أيام إبريل عام ١٩٦٨ حيث حللنا هناك ، فكان من الممكن لذوى اليسار أن يتخذوا خدماً من هؤلاء المسجونين ، وكان الأجر زهيدا جدا فهو فى اليوم الواحد خمسة (سجائر) بلمونت أو

كليوباترة صغيرة هذا فى حالة الاستمرار ، فهو قاعد عند باب الغرفه يلبى طلباتك وينفذ كل أوامرك ، وكان ذوى اليسار قلة فى المعتقل .

دخلنا العنابر واستقر كل واحد فى غرفته ، وتقسيم الأماكن فى الغرفة شبيه بالنظام فى معتقل أبى زعبل ، ولكن المعتقلين هنا يختلفون ، فقد فوجئنا بقوم قد علتهم سمرة الشمس من استمتاعهم بها طوال النهار ، وظهروا أمامنا كأنهم وقد صارت مهنتهم الاعتقال ، يختلفون عنا كثيرا ، نحن قد جئنا والجدل السياسى والدينى لاينقطع لحظة من نهار وجانب كبير من الليل ، فالقضايا السياسية والدينية حية فى نفوسنا ، وهى تظهر فى كلامنا العادى ، وفى نظرتنا إلى كل شيء ، كانت ضغوط الإدارة وعبد العال سلومة تجعلنا فى حالة استعداد دائم ، متأهبين للخطر ، الإسلام هو محور حديثنا ونقاشنا ، أما أهل طرة فكانوا ينظرون إلينا أيضا – فى أول الأمر – كمخلوقات عجيبة قد أتت من عالم غريب ، فهم متمدينون متحضرون ، ونحن مازلنا بعبق الريف فأقدامنا مشققة والطين ينفذ من بين أصابعها ، وعلينا أن نفهم النقلة الحضارية الهائلة التى قفزناها من أبى زعبل إلى طرة .

وماهى إلا أسابيع حتى انتشر عبق الريف فى كل أرجاء المعتقل !
رغم اختلاف كل شيء عند حضورنا كما قلت !

وجدت أساتذتنا القدامى فى مدرسة الإخوان ، ودعيت إلى طعام الغذاء فقد آن أوانه عند حضورنا ، وفوجئت بالطعام ، وبالفعل كان صدمة ، لم أتخيل أن يوجد فى معتقل طعام بمثل هذه الفخامة وإرتفاع المستوى وإليكم القائمة :

ديك رومى
أرز بالخلطة

بوفتيك
كباب حلة
سمك مشوى
مكرونة فرن
سلطات فاخرة
تفاح أمريكانى
بسبوسة
حلوى أخرى مازلت لا أتذكر اسمها .

تناولت الغذاء فى انبهار شديد وانفعال أشد ، وتأملت فقد كان كل من بالغرفة يأكل من نفس الطعام ، وهم يجلسون كما كنا نفعل أيام أبى زعبل ، وهناك مسئول يقوم بتوزيع نفس الأصناف - التى ذكرت - على جميع الناس ، وهذا ماوعته الذاكرة من الأسماء بعد مرور كل تلك السنين ، فقد كانت هناك أصناف أخرى بالإضافة إلى ماذكرت بالتأكيد .

وانتهيت من الطعام ، وفوجئت أن هناك من يصنع الشاى ، نعم هناك من يصنع الشاى ، أكررها لأن المنظر كان غريبا ومبهجا ، موقد قد تم تصنيعه فى المعتقل من علب الصفيح المتخلفة عن المشتريات ، قد صممه واحد من المعتقلين وله شرائط قد صنعت من خيوط ملابس المعتقل ويوقد (بالشل توكس) الذى يأتون به للقضاء على الحشرات ، والشاى يأتيهم رغدا من كل مكان .

وانتحيت أهمس لمحدثى الذى استضافنى :
- لكم حق ألا تهتموا بالسياسة ، هذا طعام طيب !
- هذا لايكون كل يوم ياصديقى .
- ومتى يكون ؟
- حسب التساهيل .
- لاأفهم !

– اليوم زيارات ويأتينا الطعام فيها ، الأهل يعدون ماعندهم ، ويأتى الأخ من الزيارة ، ويسلم ماجاءه من طعام للمسئول عن العنبر ، ويتولى هو توزيعه ، واليوم كان عدد أصحاب الزيارة من هذه الغرفة كثير .

وامتلأت دهشة :

– يأتيكم طعام فى الزيارة ؟

– أو لم يكن يأتيكم مثله فى أبى زعبل ؟

– كلا .

– هذه هى تصرفات عبد العال سلومة – عليه لعنة الله – هنا ناصف بك لايهتم بهذه الأمور ، فهو يتركنا نفعل مانشاء ، والحكومة نائمة لاتعرف مايدور ولايعنيها .

– هذا والله جميل جدا . ولكن ، الشاى ! من أين تحصلون عليه ؟

– ستكتشف المكان بنفسك ، هنا يمكنك شراء أى شىء ، وتستطيع الحصول على ماتشاء ، ماعدا الإفراج ، هذا بإذن الحكومة .

– هو بإذن الله .

ومكثنا أياما ندور فى حجرات المعتقل ونتكلم مع الناس فقد كان هذا مسموحا به ، ونمضى معظم وقتنا فى الشمس التى حرمنا منها سنين ، والناس يتحفظون فى الحديث معنا ، فنحن فى نظرهم متشددون نرفض التفاهم والحوار مع الحكومة ، وقد كانت هذه هى السمعة التى سبقتنا إلى طره ، والأمور نسبية بطبيعة الحال ، وكان أهل معتقل طره الأصليين هم الذين نجوا طول الوقت من التعذيب الوحشى الذى حدث فى المعتقلات الأخرى ، والأمور تحكى لهم كأنها قصص أسطورية لم يعاينوها أو يشاهدوها .

وكانوا فى أول الأمر يتحفزون فى جدالنا والكلام معنا ، وسرعان ماوجدوا أننا مثلهم لانختلف كثيرا فى الرؤية والتصور ، وكان الوقت هو العامل الحاسم فى الانسجام والتفاعل ، حتى صار الجميع شيئا واحدا بعد أسابيع قليله ، وتحول معتقل طرة إلى صورة مكبرة من أبى زعبل .

اكتشفنا فى أول صباح مرَّ بنا فى طره أن الفول المدمس هو طعام الإفطار وكان هذا ممنوعا فى أبى زعبل ، أما فى طرة فالأمر يختلف لاتوجد أية ممنوعات بالنسبة للطعام والشراب ، فالمعتقل يدار إدارة كاملة من جانب المعتقلين ولا تتدخل الإدارة إطلاقا فى هذه الشئون إلا لتدبير مايطلبه الناس من مواد أولية ، فتأتى للمعتقل يوميا أو أسبوعيا المواد التى تصرفها الحكومة لطعام المعتقلين الذين يقومون على طهية وتقديمه فى نظام دقيق ، فالأرز يوزع على العنابر كل يوم ليتم تنقيته قبل الطهى ، وكذلك الفول ، ثم يجمع ليقوم فريق على إعداده ، وهناك مطبخ كبير يقوم بالخدمة فيه فريق من المعتقلين الإختصاصيين فى الطهى يعاونهم عدد من المسجونين ، ولأول مرة فى تاريخ الاعتقال نتناول لحما مطهوا مما يصلح للاستخدام الآدمى ، فقد كان اللحم فى أبى زعبل نتن الرائحة ، وكانوا يتعمدون تركه حتى يفسد وتظهر رائحته ثم يقدمونه لنا هنيئا مريئا وكانت هذه مما يتفق عنه ذهن عبد العال سلومة .

(الكانتين) فى طرة عبارة عن (سوبر ماركت) يبيع كل شيء مما يمكن أن يكون موجودا فى أسواق القاهرة ، حتى معجون الأسنان ومعجون الحلاقة ، وسائر المعلبات ، الممنوع الوحيد هو الشاى ، فقد كانت أيامها أزمة فى كل بلاد مصر ، فالشاى لا يوجد بسهولة فى الخارج ، ورغم منعه كنا نحصل عليه فى سهولة ويسر ، ليس عن طريق « الكانتين » ولكن بطرق لا أعرفها ، وفى النهاية نجد الشاى عندنا فى الوقت الذى نريد .

وكان الطعام متنوعا ومختلف الأصناف من الزيارات أو من البيع والشراء ، والتكافل موجود ، فالذى لاتأتيه زيارة لافرق بينه وبين الموسر الذى تأتيه الأطعمة كل أسبوع ، وهناك من كانت تأتيه كل يوم ، والمسئول يوزع الطعام بالعدل والمساواة ، ولكل مجموعة من المعتقلين خمسة كانوا أو سبعة موقد ومطبخ صغير ، فهم يصنعون طعامهم كل يوم ، ويتفننون فيه ، ويجرون تجارب حول ذلك ، ويتفتق ذهنهم عن أصناف وخلطات لم تكن على البال ، ولكنها مقبولة المذاق والطعم .

وكنت تذهب زائرا إلى أحد الإخوان فى (نمرته) فيقدم لك الشاى أو القهوة أو ما يقدم فى البيوت كأنك تزوره هناك ، ثم يودعك إلى باب الغرفة وربما إلى باب العنبر .

والخضروات والفاكهة تأتى إلى (الكانتين) وتذهب وتشترى كيلو طماطم أو كيلو بلح أو ماتشاء مما هو موجود ، تشتريه بالسجائر أو عن طريق رسمى خلال دفتر فى يدك وصورة منه طرف الكانتين ، ثم يخصم من أماناتك ، وهى النقود التى لك عند الإدارة والمبينة فى دفتر آخر هناك .

وكانت دعوات الطعام كثيرة فى تلك الأيام ، وكان الحاج حسنى عبد الباقى من أعيان مصر ومن كبار الإخوان أيضاً كان يقيم الولائم للجميع بلا تمييز بين الحين والآخر ، وكان من الذين يعرفون عبد الناصر معرفة وثيقة قبل الثورة ، وكان الأخير يقوم بتدريب الإخوان فى عزبته من أعمال مركز الصف ، وكان الحاج حسنى عبد الباقى كثيرا مايحل أزمة عبد الناصر المالية ويمنحه قروضا غير قابلة للسداد ، ثم تغيرت الأيام وجازاه « جزاء

سنمار » ، ولم يكن الرجل يتكلم فى هذه الأمور أبدا ، بل كنا نسمعها من أطراف أخرى عاشت تلك الحوادث وشهدت ذلك التاريخ .

وكان الحاج حسنى عمدة معتقل طرة السياسى بحق ، فهو الذى يجلس للقضاء بين الإخوان إن تنازعوا ، وحكمه لايرد ، وكان كثيرا مايتدخل لفض المشكلات التى كانت تنشأ بين الإدارة وبين المعتقلين ، وهى مشكلات إدارية حياتية لها علاقة بشئون المعيشة ، وهو الذى يتفاوض مع قائد المعتقل فى الحصول على البطاطين الصوفية عندما يأتى الشتاء ، وكان للرجل حضور عظيم بوجه عام ، فهو بجلبابه البلدى وطاقيته الصوف ، ونظرته المتأنية العميقة ، وصوته الهادىءيستطيع أن يفض أى خلاف قد ينشأ ، ويحل أية مشكلة فى إطار النظام العام والقانون .

كان الحديث عن الطعام فى معتقل طره السياسى .

وكان هذا النظام يتناقض مع ماألفناه فى معتقل أبى زعبل ، « فالتكافل » هناك ممنوع (رغم حدوثه) ، فهو يتم خفية ودون علم الإدارة ، أما هنا فى طرة فالأمر علنى وعلى رءوس الأشهاد ، وذهب بعض المدربين إلى الإدارة حسب ماتعودوا فى أبى زعبل ، وقدموا تقريرا عما يجرى ويدور إبقاء على العلاقة الطيبة مع قائد المعتقل أو بدءا لها ، وهذا ماتعودوه فى أبى زعبل مع عبد العال سلومة ، وفوجئنا بمكبرات الصوت تزأر وارتفع النداء :

– سمع كل المعتقلين !

وأرهفنا السمع ، وكان بيانا قصيرا من ناصف مختار : يعلن فيه عن سخف الذين جاءوا يعرضون عليه خدماتهم ، ويؤكد المعانى التى قالها عندما استقبلنا عند حضورنا أول مرة ونصح الجميع

بالاهتمام بأشياء تفيد ، وأكد أن لاوقت لديه لهذه السخافات الممثلة فى تقارير بلهاء عن ماذا قال هذا أو ذاك ؟ وأعلن أنه سوف يعاقب كل من يفكر فى التطوع بتقديم أية معلومات عن الآخرين ، وأكد أنه ليس فى حاجة إلى هذه المعلومات .

وعم سلام وأمان فى كل مكان :
وبدأ مهرجان الحرية والاعتقال فى معتقل مزرعة طرة السياسى !

كان آمن مكان فى مصر هو معتقل طره فى تلك الأيام ، فأنت تناقش كافة القضايا الوطنية والقومية والإسلامية دون خوف أو وجل ، الكل يتحدث بما يشاء فى الوقت الذى يريد ، وكان المواطنون خارج المعتقل لايتمتعون بهذه الميزة ، كما كنا نعلم من أهلنا فى الزيارات ، فقد كان الإرهاب يسيطر على المواطنين ، والشائعات تملأ البلاد ، ومنها ما يقول إن عبد الناصر شبه معتقل فى قصوره ، وأن هناك أربعة يحكمون مصر هم قادة الجيوش وعلى ماأذكر كانوا : محمد فوزى ، ومدكور أبو العز ، ومحمد فؤاد أبو ذكرى ، وربما عبد المنعم رياض ، وأن الإرهاب يسيطر على مصر ، وكافة أجهزة الأمن لها حق فى قمع المواطنين ، وكان يأتينا معتقلون ربما كل يوم تقريبا يؤكدون هذه الأفكار .

أما سكان معتقل طره فلم يكونوا يشعرون بهذا الإرهاب بل كانوا يتمتعون بالحرية كل الحرية فى جب السجن .

وكانت المباحث تدرى بما يدور فى المعتقل وتصرف الذين يناوءون ، وتعلم الذين يرفعون أصواتهم فى نقد الحكومة وسبها ، وكان هناك طبيب سمين اسمه « خليل » لايعرف عن الطب شيئا ، وكان هذا الرجل له حق تحويل المريض صاحب الحالة المتأخرة إلى مستشفى ليمان طرة وهى تقع على بعد كيلو مترين حيث

تجرى له فحوص أكثر دقة أو إلى مستشفى القصر العينى حيث العمليات الجراحية ، ويمكنه أن يصرف غذاء طبيا لمن يحتاج ، وكان هذا « الخليل » يمنع هذا الغذاء الطبى عن المشهورين بشتم الحكومة ونقدها .

هل كان خليل هو الذى يخبر المباحث ؟ أم كانت المباحث هى التى تأمر خليل ؟

الله وحده يعلم ، ولكنا كنا نلحظ هذا ، والغذاء الطبى عبارة عن قطعة كبيرة نسبيا من اللحم وكوبين من الحليب وثمرة من فاكهة الموسم كل يوم ، ويعرض عليه أصحاب الغذاء الطبى يوم العرض من صباح الجمعة ، فيوافق أو يلغى ، وكان الإلغاء هو غاية ماتمارسه المباحث من ضغط بمعرفة خليل ، ولم يكن الأمر يهم فى قليل أو كثير .

وملحوظة جديرة بالانتباه : أن هذا الضغط لم يكن يمارس إلا على المعتقلين من جماعة الإخوان ، أما غيرهم فلم يتعرضوا لأية ضغوط ، والكل عدو للحكومة كاره لها ، متحدث عن مثالبها ، ولم يكن أحد يعلم لها مزايا تذكر .

وكان أطباء الإخوان هم الذين يقومون على علاج المرضى من كافة الاتجاهات والنزعات ، وكان معنا اختصاصيون فى كافة الأمراض ، ثم وضعوا معهم طبيبا يهوديا هو الدكتور موسى جبلى الذى كان يثق فى أطباء الإخوان كثيرا وينصح اليهود بالكشف لديهم والتعامل معهم .

وكان أشهر أطباء الإخوان فى تلك الفترة الدكتور فاروق عباس زميل الزنزانة ٢١٠ فى السجن الحربى فى الأيام الأولى ، وكان رجلا مباركا ماعالج مريضا إلا وشفى بسرعة ، وكان الناس يقصدونه تيمنا وبركة وعلاجا ، وهناك أسماء أخرى الدكتور إبراهيم

عبيد ، وابراهيم الكومى ، والدكتور محمد عامر إختصاصى الأنف والأذن والحنجرة ، وهناك صبيان كثيرون لاعلاقة لهم بالطب ولكنهم كانوا يقومون على مساعدة الأطباء فألموا بكثير من أعراض الأمراض وعلاجها وكيفية التعامل مع الجروح والحروق وحالات الإسعاف الأولية ، وكنت من هؤلاء .

ورأيت يوما الدكتور فاروق عباس يخفى مريضا فى غرفة من غرف المستشفى ، ويقوم على تطهير موسى حلاقة ، واستدعانى لمساعدته وأخبرنى مداعبا :

– لو أخبرت أحدا بما رأيت قتلتك .

– ماذا ستفعل ؟

– عملية فى عين فلان !

– ومالخوف من إفشاء السر ؟

– هذه عملية كحت للحبوب فى داخل الجفن . ولاتوجد أدوات أو استعدادات فنحن نجربها للحالات الصعبة فقط ، ولو فتحنا الباب على مصراعيه فسنجد كل هؤلاء فى حاجة إلى تلك الجراحة فيحسن عدم ذكر أى شيء عنها .

وأتم العملية فى هدوء وبرود أعصاب يحسد عليهما ، ونجحت العملية !

وكان خليل طبيب السجن الرسمى يقصد الدكتور فاروق إذا ألم به مرض أو أراد الفحص وكذلك الضباط وكافة رجال الإدارة وقائد المعتقل .

وكانت الأدوية الهامة غير موجودة والاستعدادات لعلاج الحالات الصعبة لم تكن متوفرة ، وكانت الأمور تسير بستر الله أولا وآخرا .

وكانت المستشفى مكانا للحالات المستعصية التى يصعب علاجها ، فهم يضعونهم هناك حيث ميزة النوم على الأسرة وقلة العدد نسبيا ، وكانت مكانا لبعض ذوى اليسار من غير الإخوان ممن يطلقون عليهم « النشاط المعادى » وهم مجهولوا الهوية من المعتقلين والذين جاءوا بغير سبب واضح ، وكان هؤلاء يعيشون بالمستشفى لأنهم أصدقاء القائد ، وبعض الشخصيات الهامة من وزراء وقادة عسكريين وأعيان . ويكون الحجز فى المستشفى يتم بقائمة انتظار طويلة ، ويتم شغل السرير عندما يموت صاحبه أو تتأخر حالته ، ويفضلون موته فى القصر العينى ، فيرحل بليل ويشغل السرير آخر فى الصباح من قائمة الانتظار الطويلة .

و « الملاحظة » : بها أنصاف المرضى من وجهة نظر العدد ، أما هم فمرضى جدا ، فليس هناك فى المرض تنصيف ، ويجرى على هؤلاء مايجرى على أهل المستشفى ، إلا أن الخدمة أقل على نحو ما ، وكان المعتقل بوجه عام مستشفى كبيراً فالكل يشكو من مرض ليس له شفاء ، ويبحث بلا أمل عن دواء .

وكان على مقربة منا على بعد كيلو مترين يوجد ليمان طرة حيث الإخوان الذين حكم عليهم بالاشغال الشاقة المؤبدة ، أو الذين حكم عليهم بالإعدام ثم خفف إلى المؤبد ، وقد كتبت فى بطاقة كل واحد منهم عبارة غريبة :

« يحول إلى المعتقل بعد قضاء فترة العقوبة ».

والعبارة ممهورة بتوقيع عظيم من أنصاف العظماء فى عالم لم يسد فيه غير الأقزام والسفهاء .

وكان هؤلاء المسجونون من الإخوان فى حالة متدنية من سوء الأحوال المعيشية ، ولايصرف لهم من العلاج غير « بزموت طباشير » وهو علاج لكل داء ، وقام المعتقلون بتهريب الدواء لأهل

الليمان كل أسبوع ، ودفع فى سبيل ذلك كل مرتخص وغال ، وكانت شبكة قوية قد بذلت الجهود الكبيرة من أجل تحقيق هذه الغاية وتوصيل الدواء حسب ماتم طلبه بشكل دورى .

وكانت هذه من بعض مهام القسم الطبى فى المعتقل أن يوفر الدواء لأهل السجن ، وكم ضبطت البضاعة وهى فى طريقها ، ودفعت الإكراميات الضخمة من أجل وصولها فى سلام دونِ علم المباحث التى كانت تضيق الخناق على الجميع والمسجونين بوجه خاص .

كان اليهود يعيشون سادة فى معتقل طره السياسى ، فهم ينتمون إلى دولة منتصرة ، أعلامها مرفوعة ، وجهات دولية كثيرة تسأل عنهم وترسل مندوبيها للاطمئنان كل حين وآخر ، فهم يعيشون أيام المعتقل فى بحبوحة من العيش يرتدون الملابس الغالية الثمن ويخرجون للرياضة كل صباح ، ويتخذون مايشاءون من خدم من المسجونين الذين تكلمت عنهم ، وتعمل الإدارة لهم كل حساب ، وهى تطيع رغبتهم فى كثير من الأمر ، وكانوا ينقسمون إلى قسمين : الربانيين والقرائين ، وهم يعيشون معا فى عنبر واحد ورقمه واحد أيضا ، فيهم الشباب وفيهم الشيوخ ، وكانول على صلاتهم يحافظون ، وتراهم متمسكين بدينهم ، يعملون حسب أوامره ونواهيه ، وكان زعيمهم « إيلى صفدية » وهو رجل عجيب ، يستطيع أن يفعل مايشاء وأن يحصل على مايريد ، وكنا نعجب من أحوالهم وكيف يعيشون ؟ وكيف يحصلون على تلك المكاسب فى بساطة ويسر ؟ ونحن لم نأكل الفول المدمس حتى سقط منا شهداء وقد أخبرنا بعضهم بتفسير هذه الألغاز ، فالمال فى الخارج كثير ونساؤهم لهن قدرة كبيرة على إقناع كبار المسئولين ، هكذا حكوا لنا ، وكنا نجادلهم فى كثر من الأحيان ، ونقول لهم :

– فى القرآن الكريم أنكم تفسدون فى الأرض مرتين ، وفيه أيضا أننا نقاتلكم ونهزمكم ونطردكم من أرض فلسطين ، ونحن على يقين من هذا .

ويقول قائلهم فى هدوء :

– ونحن على يقين مثلكم ، فقد حكت التوراة عن هذا ، ولكن ليس فى هذا الجيل ، أنتم أضعف من أن تفعلوا ، ونحن أقوى من أن نهزم أمامكم .

وتستفزنى هذه الصفاقة الهادئة فأقول :

– عجيب أمرك ، هل ترى هذا حقا ؟

ويرد فى هدوء :

– اسأل نفسك . ألا تقرأ صحف الصباح ؟ انظر فيها لتعرف الفرق بين العرب وإسرائيل ، ثم أنت تقول إن المسلمين هم الذين يهزمون اليهود ، أين هم هؤلاء المسلمون ؟ هم جميعا فى السجن ، والقائم على أمركم يتبرأ من الإسلام كل صباح ومساء ، ليس هو فقط ، بل كل الحكام العرب ، عداؤهم للإسلام والمسلمين أعظم من عدائهم لإسرائيل واليهود ، حتى يتوحد العرب يحتاجون إلى جيلين ، أما أن تخرجوا أنتم من السجن وتحكموا البلاد فهذا بعيد ، وسوف يحول بينكم وبين هذا إخوانكم من حكامكم ، أما إن حدث ذلك فتلك قصة أجيال تذهب وتجىء ونحن لن نشهد منها شيئا ، هذا أمر يكون بين أحفادنا وأحفادكم ، هى حرب لن يشهدها واحد فينا ، أما هذه الأيام فهى عصر اليهود ، لقد بذل الحكماء والكبراء فينا أعمارهم وأموالهم من أجل الوصول إلى هذه الأيام ، وقد شهدها جيلنا ، وأنتم تعيشون عهدنا الذهبى .

وكنا نتأمل صراحتهم فى دهشة ، ونرقب إيمانهم فى فضول وتعجب ، ونرى كثيرا مما يقولون ينطبق على واقعنا المر .

وكنت أسأل بعضهم :
- لو أفرجوا عنك إلى أى البلاد تذهب ؟
فيقول متعجبا من سؤالى :
- إلى إسرائيل بطبيعة الحال ، هذه هى أيام الرب ، وهو يتجلى من جبل صهيون .
- ولكنك تعودت الحياة فى مصر .
- سوف يمكننا الرب من مصر ، وطنى إسرائيل من الفرات إلى النيل .

وأفقت مذعورا على كلامه :
-. أعوذ بالله - لن يكون هذا فى حياتنا أبدا .

وبهدوء الواثق :
- لو امتد بك العمر فسوف ترى هذه الحقيقة ، وبعدها الأيام دول وليفعل بنا الرب مايشاء ، قد نسينا وصايا الرب لموسى فشردنا فى الغربة قرونا ، ونحن الآن نعود إليها ، والرب جبار وقادر وهو رحيم وعادل أيضا .

وكانت تدور بيننا وبينهم مساجلات ومناقشات حول التوراة والقرآن ، واليهودية والإسلام ، وهل اعتور التوراة تحريف ؟ وهل القرآن من عند الله ؟ والأدلة على ذلك من التوراة ، وسيرة المصطفى ﷺ من الأسفار فى كتبهم ، وجئنا بتوراة ناقشناهم فيها ، وكانت حجتنا قوية ، وحجتهم داحضة ، وكانت المساجلات من نصوص التوراة ، وكانوا يضحكون عندما يعجزون عن الرد ويغيرون موضوع الحديث ، ولكن أسلم واحد منهم وحسن إسلامه ، كان اسمه (شارل مزراحى) وتسمى باسم محمد المهدى وكان يحضر صلاة الجماعة معنا ، وكان لايحب الحديث مع أحد خوفا من أن يفسر إسلامه تفسيرا سيئا ، وأن يظن إنه إنما فعل ذلك من أجل التجسس ، وقالها الإخوان علانية :

– احذروا الأخ محمد اليهودى .

وانبرى له الشيخ عارف :

– لماذا ؟

– لقد أسلم ليتجسس علينا ويعرف عوراتنا .

وانفجر الشيخ عارف ضاحكا :

– ياأستاذ عبد اللطيف نحن فى السجن منذ سنين ، ولم تعد لنا أسرار ، وعوراتنا كلها مكشوفة ، وليس عندنا مانخفيه .

وقال الأستاذ عبد اللطيف محتدا :

– أسرار الجماعة ياشيخ عارف ، هل أنت نائم ؟

– أسرار الجماعة ياسيادة اللواء طرف المباحث العامة ، والظن أنهم على صلة وثيقة بهم ، فإن كانوا يريدون شيئا فسوف يعرفونه ممن يعرفون ، والرجل صامت لايتكلم مع أحد ، ولايمثل علينا ، فهذا حاله لايتغير ، فكر فى شىء مفيد يامولانا . وكان الشيخ عارف على صواب ، فهذا الرجل لم يتحدث مع أحد حديثا يذكر حتى انقطع الزمن بيننا وبينه ، ولاأعرف الآن عنه شيئا .

وكانت العنابر تقفل فى الساعة السادسة قبل الغروب صيفا أو مع الغروب شتاء ، حتى يخرج جمع من اليهود – من رؤسائهم – إلى الإدارة ، ويعودون مع الفجر أو مع إشراقة الشمس ، كان هذا يتم كل يوم تقريبا ، ويقولون : إنهم يجتمعون مع ضباط كبار ، من هم ؟ لست أدرى ! فيم يتكلمون ؟ الله وحده يعلم !

حتى جاء يوم أخرجوهم على دفعات إلى فرنسا فإسرائيل ، ورفض أربعة هذا الأمر ، وظلوا حتى أفرج عنهم إلى بيوتهم فى مصر منهم الأخ محمد اليهودى ، ومنهم الدكتور موسى جبلى، ولاتزال عيادته ومنزله بروكسى بمصر الجديدة ، على مقربة من منزل الرئيس حسنى مبارك ، ولاأدرى هل هو من الأحياء أم من

الأموات . وكان اليهود أثناء فترة الاعتقال التى عشناها معهم يتوعدوننا ، ويصرحون أننا الخطر الحقيقى على دولة إسرائيل ، ويقولون عن حكوماتنا الرشيدة : إنهم سفهاء لايفهمون ، ويسيرون فى طريق مفيد ، أما الخطر الحقيقى فيكمن فى المد الدينى الذى يتوقعونه عقب هزيمة العرب المنكرة ، ويقولون : ليت قادتنا فى إسرائيل يفهمون هذه الحقيقة ، ويتركون للعرب بعضا من كرامتهم التى ضاعت قبل أن تنقلب المنضدة عليهم ، ويعودون فيقولون :

– هم بالتأكيد حكماء ويعرفون ماذا يفعلون ، والخطر لن يأتى قبل ثلاثة أجيال بعد أن تنتهوا أنتم بكثير .

عشنا أياما حافلة فى مهرجان الحرية والاعتقال بمعتقل طره السياسى . وكانت تدور المناقشات والمساجلات حول كل شىء وفى كل موضوع ، وذهب الخوف من قلوب من كان فى قلبه خوف ، حتى إن البعض تنبأ أن هذا المهرجان لن يدوم ، وكيف يدوم ؟ وجاءت الشائعات أن عبد العال سلومة قادم إلى المعتقل .

ومرت الأيام رويدا والشائعة تتأكد حتى صارت حقيقة واقعة فى صباح أغبر من أيام الشتاء ، وكأن من عادته أن يأتى مع البرد والصقيع .

ورأيته يمر ومن حوله الضباط ، وعلى وجهه ابتسامة ظافرة كتلك التى جاء بها يوم رأيته أول مرة فى أبى زعبل ، وتذكرت اعتذاره لمن أساء إليه قبل حضورنا إلى طرة ، ورأيت منظره مختلفا ، فقد كان الرجل ممتلئا بالعدوانية والتشفى ، وقد بدا ذلك فى عينيه اللامعتين ، وفى ضغطه على شفته السفلى ، وكان يمر بين الناس ثم يقف عند واحد له معه تاريخ وحساب ينبغى أن يصفيه ، فينظر طويلا إليه ولا يقول شيئا ، ثم يتركه ويتحول إلى الآخر ثم عاد راضيا منصورا إلى مكتبه الذى كان به القديس ناصف مختار فى الليلة البارحة .

تغير قانون اللعبة منذ قدوم عبد العال بك .

وكان الشيوعيون والنشاط المعادى يعجبون من اهتمامنا به ويقولون :

– لم كل هذا الاهتمام لن يعد كونه حمارا من الحمر التى مرت علينا ؟

ونقول لهم :

– الأمر أعظم وأكبر من حمار يذهب وآخر يجىء ، وسوف ترون بأنفسكم كان قد مرَّ شهر تقريبا منذ إطلاق شائعة أن عبد العال سلومة قادم حتى لحظة قدومه ، وفى هذا الشهر تغير كلام الناس وفكرها ، فقد ترك الجميع الحديث فى السياسة ، ولم يعد لأحد من حديث إلا عن عبد العال سلومة وماذا سيفعل ؟ ولماذا جاءوا به ؟ وماذا ينبغى علينا أن نفعل ؟ وكيف نلقاه ؟ وقال البعض :

– أنا سوف اضرب عن الطعام !

وقلب وجهه فينا ليرى أثر ذلك علينا ، فلم يجد غير السخرية الصامتة .

– يبدو أنكم لم تسمعونى فى وضوح .

ورد عليه آخر فى تثاقل :

– لسنا صما ، قد سمعناك فى وضوح .

– وماذا يجدى إضرابك عن الطعام ؟

– اتفلق !

وقال مشجعا :

– افهمونى ، لو اضرب مجموعة عن الطعام فسوف تستجيب الحكومة لطلباتنا .

وقال واحد :

– وأين هذه الحكومة ؟

– الحكومة يسرها ويرضيها أن نموت جميعا ، ولعلها تبيت تصلى وتدعو الله أن يخلصها منا .

– انس قصة الحكومة ، فهى لن تعرف بقصة إضرابك عن الطعام هذه .

هكذا يدور الحديث يوما بعد آخر ، واتفق الجميع أن ينتظروا حتى يجىء ، ثم يكون التصرف معه حسب مايقتضيه المقام .

وتبدل الأمن خوفا ، وصارت الراحة شرودا وقلقا ، وأضحت المناقشات طوال النهار وجزءا كبيرا من الليل حول نفس الموضوع ، ولعل هذا كان بعض ماتريده الحكومة أن ينصرف تفكيرنا إلى شىء آخر غير الخيبة الكبيرة التى كانت تعيشها البلاد ، وتبدد الخوف والقلق يوم جاء عبد العال سلومة مقدما بعد أن كان رائدا ، وصار وجوده أمرا عاديا من اللحظة التى جاء فيها .

وتحفزت النفوس فى انتظار ماذا يفعل بنا أو معنا ، وماذا أعدت لنا المباحث العامة ؟ وقال البعض : هذه خطط الرائد فؤاد علام ، وقال البعض الآخر : الأمر أكبر من فؤاد علام لعلها أفكار الغمراوى أو زهدى ، أو ... وعددوا أسماء لامعة فى « لاظوغلى » ، ووصل الأمر إلى حسن طلعت وأنه صاحب فكرة إرسال عبد العال .

وبدأ عهد عبد العال سلومه الزاهر بمنعه دخول الطعام مع الزائرين للمعتقلين ، ويبدو أن الرجل قد هاله هذا القدر من الحرية والنعمة الذى يعيشه أهل طره ولم يكن معتادا على هذا ، وتقبل الناس ذلك بثورة عارمة سرعان ماانطفأت فهم عقلاء جدا ، واقترن ظهور عبد العال بالحوادث الجسام منذ حادث استشهاد الإخوان فى الليمان عام ١٩٥٧ ، وعلموا أن حضوره للاستفزاز ، وربما هذه هى المقدمة وليس من المناسب الشهادة فى سبيل دجاجة محمرة أو حلة من الأرز وعلى العاقل أن يوفرها لشىء أكبر ، وكان هذا

مجرد جس نبض من عبد العال سلومة ، كان يريد أن يعرف ردود الأفعال ، وقد عرفها ، الصمت الشديد بعد الثورة العارمة ، ومن ثم لابأس من إجراء التدريبات من جديد ، وليعوض شهور الكسل التى قضاها حيث لايعلم أحد فتألقه وازدهاره مرتبط بالإخوان ، وربما يصل من خلال التضييق عليهم وإيذائهم إلى منصب كبير .

وبدأ (البروجرام) السمج المتكرر !

برقيات التأييد والامتناع عن التوقيع عليها .

عزل اثنين وتسعين معتقلا إلى عنبر « الخطرين » وهو عنبر اثنين ، غرفة واحد واثنين وثلاثة وأربعة ، والزنازين الداخلية .

وانتقلت مع سكان العنبر الجديد ، وكنت فى جوار الأستاذ أحمد عادل كمال كالعادة فى غرفة رقم أربعة ، وكان معنا جمعا طيبا لم يكن معظمه خطرا من قبل ، ولكنه اختلاف الليل والنهار .

وأشهر من كان معنا فى هذه الغرفة الأستاذ اسماعيل النشار والمهندس محمد الشافعى ابراهيم واللواء عبد اللطيف راشد والشيخ محمد عبد الفتاح عارف والمرحوم الدسوقى المراكبى والأستاذ محمد فهيم راشد وآخرون .

وفى الغرفة رقم ثلاثة كان الأستاذ محمد قطب ومصطفى كامل وعزمى بكر وعلى حمدى وفوزى نجم ولفيف من تلامذة الشهيد سيد قطب الذين أمضوا معه فى الماضى مدة العقوبة بالتمام والكمال دون تأييد أو إفراج ، وانتقل إلى هذه الغرفة شقيقى محمود حلمى .

وفى الغرفة رقم واحد كان المرحوم شكرى أحمد مصطفى ، وعبد الله بن أحمد السماوى والمرحوم الشيخ على اسماعيل ومجموعة من الشاب قدر لهم أن يكونوا زعماء بعد ذلك . وكان المرحوم أحمد نصير قد أقسم قسما مغلظا أن يضرب عبد العال سلومة بالحذاء عندما يراه ، ولذلك حرص البعض أن يبعدوه عن أماكن زيارته عندما جاء للمرة الأولى ، ومازال خطر القسم قائما .

وذهبنا إلى الرجل زرافات ووحدانا ننشده الله والإسلام وإخوانه ألا يفعل ويكفر عن قسمه ، وليدعه إلى الله سبحانه وتعالى ، فأمره معه أشد من ضرب الحذاء ، ونؤكد له أنه سيذهب فردا إليه فى يوم « يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام » ، واستجاب الرجل مشكورا بعد ضغط والحاح وتوسل حرصا على الجو العام .

وكان عبد العال سلومة قد استدعانى والأخ عبد الحليم خفاجى وسألنى عن هذه الواقعة فقلت :

– فى المعتقلات والسجون تكثر الشائعات وتنقل على أنها أخبار .

– ألم يقسم أحمد نصير على ضربى بالحذاء عندما يرانى ؟

– أنا أقسم أننى لم أشهده أو أسمعه يفعل هذا .

– ألم تسمع بهذه القصة ؟

– ياسيادة القائد هذا لاينبغى ولايجوز أن تحقق فى هذه الأشياء لأنها تهز هيبتك ، حتى لو صحت فى رأيك فمن الأوفق أن تتجاهلها كأنها لم تحدث .

وأيد الأخ عبد الحليم خفاجى كلامى واقترح أن يدعو أحمد نصير لشرب القهوة فى مكتبه ، وأن يتحمل بعضنا بعضا تلك الأيام التى كتب علينا أن نقضيها سويا . وعدنا إلى أحمد نصير وقال له عبد الحليم :

– قد تورطت واتفقت على شرب القهوة فى مكتب عبد العال .

وقال له أحمد نصير عليه رحمة الله :

– أنت حر فيما تفعل ياعبد الحليم .

وقال عبد الحليم بلهجته المحببة الودودة :

– المشكلة أننى صاحب الإقتراح والمعنى به أنت لا أنا فلا تخذل أخاك ومازلنا به حتى وافق عليه رحمة الله .

وجلسنا عنده وأغلظ له المرحوم أحمد نصير القول ، واشتد عليه وعلى الحكومة فى كلام كثير بليغ موجع ، وكنا نستمع صامتين ، وربما أيدناه فى أقل القليل إن لم تخنى الذاكرة ، وكان عبد العال سلومة ينظر إلينا فى دهشة عندما يسمع منا مايؤيده .

واستدعانا فى اليوم التالى وقال :

– هلى أعجبكم ماقاله أحمد نصير بالأمس ؟ والله لقد سكت خوفا أن ينفذ قسمه ! وكتمنا ضحكاتنا أنا وعبد الحليم ، فقد كنا فى خوف بالأمس من نفس السبب . وتكلم عبد الحليم كثيرا واشتركت معه ، وشرح لعبد العال «بك» كيف أن الظروف قد تغيرت ، وماكان بالأمس مقبولا لم يعد اليوم كذلك ، فقد اختلفت الدولة واختلف موقعها ، واختلف الناس كذلك ، وليس من الحكمة الدعوة إلى تأييد حكومة فى ظروف مثل التى تمر بها حكومتنا . فهو إساءة إليها وامتهان لعقول الناس ، فالحكومة مجروحة مهزومة .

وانتفض عبد العال بك :

– أتسمى النكسه هزيمة ؟ ألم تقرأ الصحف ؟

قلنا :

– الكلام فى الصحف شيء والواقع شيء آخر ، ونحن هنا نتكلم بالحقيقة ولا نريد أن تشق على نفسك وعلى الناس ، فدعهم وماهم عليه ، وحتى تستريح فلا تصدق أن هناك إنسانا واحدا يحب هذه الحكومة ، ولو وجد هذا الشخص لكان مختلا فى عقله ، فليس من العقل أن يحب أحد جلاده ، ودعنا نواجه الحقائق فى وضوح وصراحة ، أنت تطلب أشياء تتناقض مع المنطق السهل البسيط ، وكل شيء سوف ينتهى يوما ، طال الزمن أو قصر ، فلماذا لانعمل حسابا للذكرى الطيبة ؟

واستمع الرجل طويلا إلينا ، وكانت الأمور واضحة ، الموقف مختلف والناس على استعداد للتحدى وهم متحفزون مستفزون ، ومستقبل الحكومة بيد الله سبحانه وتعالى ، وارتفع الهمس فى الشارع المصرى حتى صار صخبا ، وخرجت المظاهرات من العمال ومن الطلبة ، وهان أمر الحكومة على الشعب ، ولم تعد تخيف أحدا .

كانت التدريبات التى يجريها عبد العال سلومة على المعتقلين تستدعى مناخا ذو طبيعة خاصة لنجاحها ، ولم يكن هذا المناخ متوفرا فى معتقل طره السياسى .

وحتى يحدث الأثر المطلوب يجب أن يكون المكان منغلقا تماما فلا أخبار ولازيارات ولاكتب . ولاراديو ولا تليفزيون ، وهذا كان الأسلوب فى أبى زعبل ولكن الحال فى معتقل طره السياسى كان مختلفا ، وحاول عبد العال سلومة أن يقنع الإدارة العليا بأن تلغى هذه الامتيازات بلا فائدة ، فالمكان به اليهود ، وهم يأخذون حقوقهم رغم أنف الحكومة اعتمادا على نفوذهم فى الداخل والخارج ، وكانت الإدارة العليا منشغله بأمور كثيرة أهم من الاستجابة لطلبات عبد العال ، ويكفى أن يقوم بواجبه فى مضايقتهم ، وتظل أفكاره سيفا مصلتا عليهم ، ولعل الأمور تتغير ، ومن ثم يستطيعون الاستجابة لمطالبه ، ذلك بعد أن ينتقلوا اليهود والنصارى والنشاط المعادى والشيوعيين إلى مكان آخر ويفرغون بعدها للاخوان عدوهم اللدود ، وحتى يأتى هذا الحين ليفعل عبد العال سلومة بهم مايشاء .

كان يطلب أخبارا عن المعتقلين فلا يستجيب أحد ولايحصل على شىء إلا أقل القليل مما لايضر ولاينفع ، وكنا نقول للناس : لاتهتموا بهذه الأشياء ، فقوم قد مضى على اعتقالهم سنوات لم يعد عندهم ماينبغى أن يعرفوا من أنباء وأخبار ، وكان كل تركيزه على

المعتقلين من الإخوان ، أما غيرهم فهم ضيوف لايطلب منهم شيئا ، وليقولوا مايشاءون ، لاحساب عليهم ولامساءلة ، ومن الطبيعى أنهم ضد الحكومة ، ومن الطبيعى أنهم يشتمونها صباحا ومساء ، وكان يتقبل منهم هذا أما الإخوان فلا . وكان المعتقلون من غير الإخوان يتعجبون لعدم اهتمام الحكومة بهم ، ممثلة فى شخص عبد العال "بك"، ويفسر « النشاط المعادى » هذه الظاهرة بقوة الإخوان وبالمضمون الدينى والسياسى الذى تحمله الجماعة ، أما الشيوعيون فيفسرونه بضعف الإخوان وتهافتهم سياسيا ، وينصحون بتحدى الحكومة وعمل إجراءات لاستفزازها ، وكانوا يفعلون هذا ، وينتهزون الفرص والظروف لإثارة الشغب وإعلان تحديهم للسلطة وأملهم أن يعمل لهم أى اعتبار بلا فائدة ، وهو أمر كان يغيظهم كثيرا ، وأذن الإدارة « من طين والأخرى من عجين » كما يقول المثل ، فيمتنعون مثلا عن استقبال زوارهم فلا تهتم الإدارة ولاتسألهم لماذا فعلتم ؟ ويمتنعون أحيانا عن استلام الطعام فلا يأتى من يحاول اقناعهم باستلامه ، يجلسون ويسبون الحكومة سبا علنيا على رءوس الأشهاد ، ويصل الأمر إلى قائد المعتقل فيضحك وكأنه لم يسمع شيئا ، هل كانت الأوامر تقضى بهذا ، أم أنها قوة لاتخيفهم ؟ ربما كان الإثنان معا .

والأمر يختلف مع الإخوان ، لو حدثت مشادة بين واحد من الإخوان وأحد الحراس أثناء الزيارة فإن الدنيا تقوم وتقعد ، وتغلق الأبواب ، وتعلن حالة الطوارىء ، ويستدعى القائد الناس ، ويسأل عن دوافع هذا الحادث وأبعاده وصداه ، بين غيظ الشيوعيين . وضحك « النشاط المعادى » .

كانت الكتب تدخل للشيوعيين ، ويمنع منها الإخوان المسلمون ، عيانا بيانا فى رابعة النهار . وذكر واحد حكاية الشيوعى الكبير الذى أفرجوا عنه قبل خمسة يونيو بيومين ، وكيف ذهب إليه بعض الإخوان يسلمون عليه قبل خروجه من معتقل طره :

– كنا نود أن نخرج معك لنحارب اليهود فى معركة فلسطين القادمة .

وقال الشيوعى :

– لست خارجا للحرب فى فلسطين ، هذه ليست قضيتى ، بل هى قضيتكم ، ولو نظرتم لرأيتم أنها قضية خاسرة ، ليتكم تلحقون بالزمن وتنسون قصه الجهاد فى سبيل الله لأنها لاتفيد .

ومصمص الإخوان شفاههم استنكارا ، وخرج الشاعر الشيوعى الكبير (ع . أ) ليقابل وزير الداخلية شعراوى جمعة ، فيهنئه على الإفراج ويقول له :

– مصر كلها تحت أمرك .

تعرفنا على الشيوعيين المقيمين فى عنبر واحد عندما نقلونا إلى عنبر اثنين الملاصق ، فقد كانت دورة المياه مشتركة قسمناها قسمين ، واحد لهم وآخر لنا ، وكان يشترك فى دورة مياههم اليهود والنصارى والنشاط المعادى ، ثم جاء الصحفى على محمود رئيس مكتب « الاسوشيتد برس » فى القاهرة ، والمفروض أنه يتبع للنشاط المعادى بحكم تصنيف المباحث العامة ، ولكنه رجا الناس أن يسمحوا له باستعمال دورة مياه الإخوان وقال قولته المشهورة :

– الفرق بين الإخوان والشيوعيين كالفرق بين دورتى المياه ، واحدة نظيفة جدا ، والأخرى على العكس من ذلك .

وكنا نذهب إلى زيارتهم ، وكانوا يأتون لزيارتنا ، ونتناقش أحيانا كثيرة فى القضايا القومية والوطنية والدينية ، وكانوا يتكلمون فى وضوح وصراحة فتجدهم مثلا يقولون :

– « الدين أفيون الشعوب » .

فنقول لهم :

– هذه قولة قد قيلت عن أوروبا وأثر الكنيسة فى تاريخها ، أما الإسلام فهو شىء يختلف واقرءوا التاريخ .

ويقولون :

–قضيتنا هى حكم الكادحين (البروليتاريا) .

ونقول لهم :

– قضيتنا هى العدل والحق والحكم بالقرآن .

فيقولون :

– قد ذهب أوان القرآن ، إن أنتم إلا فى ضلال مبين .

ويستمر الحوار على هذا النحو شهورا وسنين بلا فائدة . وكانوا يقولون أشياء غريبة ويعلنون مبادىء عجيبة ، وهم فى واد والأمة فى واد آخر ، فكل القضايا الهامة التى تشغل الناس لايفكرون فيها ولايلتفتون إليها ، ورغم الاختلافات البينة فقد كنا نتعامل معهم فى ود وأدب ، رغم أنهم لم يكونوا هكذا معنا :

نحن نتابع الموقف مع إسرائيل والحرب بيننا وبينهم وأخبار حرب الاستنزاف رغم اتفاق الجميع على كراهية الحكومة والزعيم بينما هم يتابعون فى اهتمام أخبار حرب فيتنام !

ونقول لهم :

– ينبغى أن يكون اهتمامكم بفلسطين أكبر من اهتمامكم بفيتنام .

فيقولون :

–فلسطين نزاع حول أرض أما فى فيتنام فهى حرب المبادىء .

وأهتف لهم فى عجب :

– سبحان الله ! أن ترون الدنيا بالمقلوب !

ويرد واردهم فى سماجة :

– هى وجهة نظر على أى حال يازميل .

وكانوا لايغسلون وجوههم وأيديهم وملابسهم ، ولايستحمون إلا نادرا ، وكنت إذا دخلت عنبرهم شممت رائحة (النوشادر)

والعفن كأنك قد دخلت حظيرة للخيل ، وكنا نسد أنوفنا ونتنفس من أفواهنا حتى نتحمل الرائحة ، أو نطلب إليهم أن نخرج فنجلس فى الطرقات ، فنتكلم ونعطيها حقها .

وكانوا يحبون استخدام الكلمات الفخيمة الضخمة ، وينطقون الكلمات الأوربية فى عظمة ، وتجد نصف كلامهم مصطلحات اقتصادية واجتماعية وسياسية ، وعندما يضيق ذرعنا بهم نقول :

– ياجماعة تكلموا معنا بالعربية فلعلكم تفهمون ماتقولون !

وكانوا يتجرءون على الله سبحانه وتعالى وعلى الإسلام ، ويقولون قولا عظيما . وكنا نتحملهم ونجادلهم بالتى هى أحسن .

وكانوا يذكروننا بالمشركين والكافرين الذين خاطبهم رسول الله ﷺ فعندما نقول لهم إن القرآن يقول كذا ، فنجدهم يقولون :

– « إن هذا إلا إفك افتراه » .

هكذا كان الأمر بيننا وبينهم ، ونقول لهم : أنتم تنتمون إلى أمة أخرى وتتبنون قضايا لاتهم بلادنا ، وتعيشون فى غير عالمكم ، فيقولون لنا :

– هذا صحيح .

وكان يغيظهم عدم اهتمام قائد المعتقل بهم ، وعدم اكتراثه بما يقولون . لم يكن قائد المعتقل يرى فى طره غير الإخوان المسلمين ، وربما كان يراهم فى أحلامه بالليل ، كان اهتمامه بهم كبيرا عظيما ، كأنه فى معركة مع ذاته ويريد أن يثبت لنفسه شيئا يؤرقه فى صحوه ونومه ولايستطيع الفكاك منه .

وكان الضباط مثل قائدهم يكون اهتمامهم وفقا لاهتمامات قائدهم ، لايعرفون أحدا من الشيوعيين ، ويحفظون كل واحد من الإخوان ، ويحاولون التقرب منهم ، والمرور فى عنابرهم والاحتكاك بهم سلبا أو ايجابا .

ولم نكن نعرف قضايا مميزة للشيوعيين ، ولانعرف أسبابا واضحة للقبض عليهم ، مهما كان السبب ضعيفا ومتهافتا ، ولاأدرى لماذا أتذكر تلك الكلمة التى قالها واحد من الإخوان وهو يودع واحدا من الشيوعيين الذين خرجوا قبل خمسة يونيو بأيام :
– نلتقى فى فلسطين .

– سوف ندع لكم الجهاد فى فلسطين ، هذا أمر لايعنينا .
كلام شبيه بقول آخر قد قلته قبل ذلك فى صفحات سبقت .
ولله فى خلقه شئون !

كان النشاط المعادى مزيج من شخصيات مختلفة وأنماط متعددة ولا يربط بينها رابط ماغير رابط الزمان والمكان ليس أكثر .

كان هناك عبد العزيز خميس الصحفى الذى اتهم فى الأربعينات مع أنور السادات فى قضية اغتيال أمين عثمان باشا ، ثم فى عام ١٩٦٥ فى قضية اغتيال عبد الناصر والمتهم الرئيسى حسين توفيق ، وهو يرتدى الروب (الكاروهات) من أيام الحربى فى الزنزانة التى تقع فى الركن عند البئر ، ثم فى الانفرادى الموجود فى عنبر واحد أمام غرف الشيوعيين ، والرجل فاضل وطيب ، ولاعلم له بالسياسة كثيرا ، وهو متشائم رغم مايبدو عليه من بشاشة وضحكات عالية ودودة ، وقد برىء من قضية الاغتيال ، ثم جاء إلى المعتقل ليقضى بقية أيامه ، أو أيام عبد الناصر فى ضيافة عبد العال بك الذى لم يكن يعرفه ، فهو كما قلت لايهتم بغير الإخوان المسلمين .

وكان هناك عنبر الشعراء وبه جمع غفير منهم ، أذكر الشاعر محمد بدر الدين وكان ينتمى إلى مدرسة الإخوان المسلمين فى الأصل ، ولكنه أمسك به بهذه التهمة ، وقد اعتدى عليه أحد الشيوعيين بالضرب بمقص فى بطنه ، وظل يعالج من هذا الجرح القاتل لمدة أسابيع ، وحفظ التحقيق فالمسألة فى نظر الإدارة مجرد

مشاجرة عوقب عليها الشيوعى بالحبس الإنفرادى أسابيع ، وهذا الحبس الانفرادى نعمة كبيرة فى تلك الأيام ، وكان الأستاذ محمد بدر الدين سيداً صاحب كلمة مسموعة فى عنبر الشعراء ، فهو عاقل كريم ، بليغ فصيح ، له علم بالفقه وأصوله ، ويقول الشعر فى المناسبات فيجلجل صوته كريما قويا شجيا ، يملأ القلوب نشوة وراحة ، من جمال ما ينظم ومن صدق مايقول .

وكان هناك الشاعر محمود الماحى عليه رحمة الله الذى ألف قصائد فى سب النظام ووصف هزيمة يونيو ، وكان يقوم على أداء قصائده مغناة مع بعض أهل الشهرة من الفنانين ، وكان يقول لاأظن أن هذا هو سبب اعتقالى وإلا أحضروا من كان يغنى معى .

وكان هناك الأستاذ على شلش ، وهو من النقاد المهتمين بالأدب الأفريقى فى ذلك الوقت ، وكانت له بعض الكتابات فى كشكول أحمر عن ترجمات لقصائد أفريقية لاأذكر منها الآن شيئا ، وكان مهذبا ودودا لطيفا .

والأستاذ عبد اللطيف أبو السمح الشاعر الشارد ، وكانوا قد وجدوا فى جيبه ورقة بها بعض الأرقام عبارة عن التالى :

« ١٨ خطوة ثم تتجه يسارا ٥٤ خطوة ، وتكرر العملية فى عكس الاتجاه فتصل إلى ماتريد بالضبط » .

وعذب الرجل تعذيبا شديدا ليفسر معنى كلامه ، وكل مايقوله مرفوض ، فتفسير هذا هى خطوات يسلى بها الرجل نفسه فوق كوبرى الجامعة ، يحسب طوله وعرضه وأبعاد أخرى فيه ، ولم يرحموه من العذاب حتى ذهب أحد الخبراء من المخبرين وقاس المسافات كما حكاها الأستاذ عبد اللطيف أبو السمح ، وضربوه على شىء آخر بعدها . وكان هناك الأستاذ كامل أمين الشاعر

صاحب المزاج الحاد ، والشعر الأبيض الفضى والبايب الذى لايفارقه ، وهو من ألف ملحمة (السماوات السبع) ، وكان رساما يجيد الرسم ، ورسم لوحة رائعة عن معركة القادسية كما تصورها بخياله .

وكان معهم الشاعر وجدى شبانة ، وكان فنانا صاحب خط جميل ندر أن يوجد مثله . أكثر من ثلاثين شاعرا منهم من يعرف الآخر ، ومنهم من يلتقى بزملائه للمرة الأولى ، ويجمع بينهم سبب غريب عجيب ، مؤداه أنهم حضروا ندوة شعرية فى منزل شاعر سعودى اسمه « على غسال » ، وقال كل شاعر فى هذه الندوة شعرا مما يمكن أن يقال فى الحب والغزل والمديح والهجاء ، وكافة أغراض الشعر قديمه وحديثه ، ولم يتعرضوا للسياسة فى قليل أو كثير حسب ماروروا ، وأودعوا جميعا معتقل القلعة السياسى حيث ضربوا ضربا مبرحا بالنعال وبغير النعال ، وهم يحاولون تأليف تنظيم يجمعهم ، واستحال ذلك رغم كافة المحاولات ، ولما تعذر جاءوا بهم إلى معتقل طره السياسى ، وصار شغلهم الشاغل أن يتبينوا سبب اعتقالهم دون فائدة .

واستقطب الإخوان معظم هؤلاء الشعراء إلى صفوفهم ، وكانت النتيجة أن غرقوا جميعا فى السياسة ، وصارت لهم مواقف إيجابية من قضايا الوطن والدين ، وصاروا يؤلفون الشعر فى المشاكل العامة بعد أن تحرروا جميعا من الخوف داخل المعتقل .

كان معنا فى المعتقل الصحفى على محمود ، والوزير المفوض أمين سوكه ، وكان هناك أيضا سعيد حبيب أحد وكلاء وزارة الداخلية فى العهد الماضى ، والمحامى محمد شوكت التونى ، والمستشار محمود عبد اللطيف ، ونخبة كبيرة من رجال المجتمع المصرى فى كافة التخصصات ، فتجد قوما من وزارة الخارجية والثقافة والعدل وقضاة ومستشارين ومحامين ومدرسين وأطباء ومن

كل مهنة وعلى كل لون ، وكافة الأديان كانت ممثلة فى معتقل طره السياسى ، واليهود والفلسطينيون فى عنبرين متجاورين !

وكان هناك عبد الفتاح حسن باشا الوزير الوفدى السابق عليه رحمة الله وكان مهذبا ودودا متحفظا فى حديثه ، ولكنه سرعان ماتأقلم وصار يتكلم كما يتكلم بقية الخلق فى كافة الموضوعات ، ويدلى برأيه فى صراحة ودون خوف .

سألته مرة :

– ياباشا .. لقد كنت وزيرا قبل الثورة .

– هذا صحيح .

– ألم يكن هناك فساد فى الحكم فى تلك الأيام ؟

وصمت الرجل برهة ثم أجابنى :

– بلى قد كان هناك فساد قبل الثورة ، وهذا أمر طبيعى ، حيث يكون الحكم يكون هناك ضرب من الفساد ، ولكن السؤال كم يكون حجم هذا الفساد الذى كان ؟ يابنى نحن فى حاجة إلى خمسين أو مائة عام من الإصلاح لنصل إلى درجة الفساد التى كنا عليها قبل الثورة ، هناك فرق بين حكم يشوبه فساد ، وحكم سمته الفساد . لقد قضى عبد الناصر على أمل الاصلاح لأجيال قادمة ، لقد أفسد أخلاق الناس وقتل منهم روح الشهامة والمروءة والمثل الأعلى .

وتذكرت وأنا أستمع إلى كلام عبد الفتاح حسن باشا عند ماكنت فى معتقل القصر العينى أجرى عملية الزائدة ، وكيف أرسل الطبيب الشهم إلى أسرتى فجاءت أمى عليها رحمة الله لزيارتى ، وكان هذا ممنوعا ، وكنت أثناء العملية الجراحية أعيش مع باقى المرضى فى العنابر العامة ، ونظرا لكونى معتقلا فقد وضعونى فى غرفة بها سريرين ، أنا على واحد ، والآخر لعبد المسيح أفندى وهو موظف بالشركة الشرقية للدخان فرع شبين الكوم ، وكان هو الآخر

يجرى جراحة لاأذكر طبيعتها الآن ، وأقاموا على سريرى جنديين للحراسة ، وجاءت الوالدة عليها رحمة الله وأفهمناها أن تتظاهر بأنها قادمة لزيارة عبد المسيح أفندى هذا إذا فاجأنا ضابط المعتقل ، والذى كان لسخرية القدر أحد الزملاء القدامى فى المدرسة ، وكان يعرفنى جيدا بطبيعة الحال ، وكنت عندما رأيته لأول مرة قد شعرت بفرحة غامرة سرعان ماتبددت :

- هل أنت فلان ؟

فاجابنى بغلظة شديدة ؟

- نعم هو .

وتعجبت وشككت فى نفسى !

- ألم تكن فى مدرسة شبين القناطر الثانوية ؟

وانفجر غاضبا :

- نعم كنت كذلك ، ولكن الزم جانب الحذر وتكلم مع السادة الضباط بما يليق !

وقلت له بصوت مسموع :

- وهل ترانى أخطأت ؟ سبحان من يغير ولايتغير !

وصارت وطأة هذا الزميل القديم شديدة ، فهو يتسلم نوبته لمدة اثنتى عشرة ساعة ، كان يفتش علىَّ فيها أكثر من خمس مرات ، ويضيق الخناق كأن بينى وبينه ثأرا ، رغم العلاقة الطيبة التى كانت بيننا أيام الدراسة .

وتكررت زيارات أمى عليها رحمة الله ، وكنا نختار الوقت الذى لايتواجد فيه ذلك الزميل النذل ، ورأيته فجأة فى غير نوبته يدخل علىَّ الغرفة ، وماهى إلا دقائق وتأتى الوالدة ، ترى ماذا يحدث من هذا الزميل النذل ، وفوجئت به وهو ينظر إلىَّ منتصرا متشفيا ، وكان لديه (إخبارية) عن وصول الأم بعد قليل ، والله يعلم ماذا يمكن أن يحدث ، فهى حالة فريدة لم يسبق لها مثل من قبل .

واقترب منى متشفيا :

– سمعت أن لديك زواراً .

ووجدتنى أجيبه :

– هذا صحيح .

وصار وجهه خنزيريا وهو يقول :

– من أرسلته فى طلب أهلك ؟ وكيف تم الاتصال ؟ لن تستطيع تنبيه أحد ، لقد صنعت لك كمينا ، وأنت لاتعرف عقوبتك وعقوبة من سيأتى ، هيا أجب على سؤالى ، من أرسلت فى طلب أهلك ؟

وصرت أقلب النظر بينه وبين عبد المسيح أفندى الذى كان يتمنى أن تنشق الأرض وتبلعه من الخوف ، وقلت له فى هدوء :

– لقد أرسلت لهم زميلا قديما فى المدرسة صار الآن ضابطا واسمه محمد عبد الخالق ... (وذكرت بقية اسمه) وهو يعرفنى ويعرف بيتى ، وهذا ماسوف أقوله فى التحقيق ، وقد أفهمت أمى هذا عند سؤالها .

واصفر وجهه من الخوف فقد كنت أعنيه :

– سوف يعرفون الحقيقة .

– بالتأكيد سوف يعرفونها ، ولكن بعد نقلك إلى مديرية أمن أسوان . وكاد قلب عبد المسيح أفندى يتوقف من الخوف ، وهو يتوسل للضابط النذل :

– يابخت من قدر وعفى ياسعادة البيه ، أنت الكبير ، ياشيخ فى عرضك سيبه . ووقف الضابط قليلا متأملا مشدوها ، ثم غادر المكان ، ولم يعد يضايقنى بعد ذلك ، ثم نقل من المعتقل بعد أيام أخرى ، ولم أره بعد ذلك أبدا ، لقد صدق عبد الفتاح باشا حسن ، لقد أفسدوا أخلاق الناس ، وقتلوا فيها الشعور بالعزة والكرامة والوفاء حتى لزملاء الصبا والدراسة !

وحكت لى أمى (عليها رحمة الله) كيف تنكر لها الأهل والأصدقاء ، ولم تعد تدعى إلى عرس ، وإن ذهبت تؤدى واجباً فى عزاء فر الناس منها وتأففوا من لقائها حتى أصحاب الميت الذين ذهبت تعزيهم ، وقرت فى دارها لاتزور أحدا ، ولايزورها أحد ، وكيف أطلقوا الشائعات عن صناديق القنابل التى كنت أخفيها وشقيقى محمود حلمى ، وكيف أنهم أمسكوا بنا ونحن نحاول نسف القناطر الخيرية ، وهكذا : حكومة من السفاحين لابد وأن يتولد منها شعب من الخائفين ، فقد كان الشعار أيامها من يفتح فمه يضرب بالحذاء ويلق فى السجن ، ولست أدرى أيهما قبل الأخرى .

وتوفيت (عليها رحمة الله) ونحن بمعتقل طره السياسى بعد أن زارتنا زيارتها الأخيرة وقالت لنا :

– هذه هى زيارتى الأخيرة ولاأظن أنى أراكما بعد الآن !

وكان منزلنا يقع على مقربة من محطة القطار ، وقالوا لنا بعد ذلك أنها كانت تهرع إلى النافذة كلما سمعت صفير القاطرة لعلها ترى ولديها ، وكانت تدخر مبلغا صغيرا لتعد لنا احتفالا عند الإفراج عنا ، ولم تفرط فى هذا المبلغ حتى توفاها الله ، ولم يقدر لنا أن نراها بعد تلك الزيارة .

وعندما جاء النعى بها ، فرشت البطاطين فى الطرقات ، ووقفنا نتقبل العزاء مع أهل عنبرنا ، حيث هرعت إلينا جميع العنابر والغرف ، وجلس من يقرأ القرآن كأى مأتم يكون خارج الأسوار ، وكانت هذه من العادات فى السنين الأخيرة فى الاعتقال ، إن أصيب أحد فى أهله فنحن نقيم له مأتما ونتقبل العزاء ونقدمه ، وكانت هذه من مآثر **ناصف مختار** قائد معتقل طره الذى استبعدوه وجاءوا بعبد العال بدلا منه .

مالبثنا حتى جاءوا لنا بزعماء الطلبة الذين قادوا المظاهرات ضد عبد الناصر يطالبون ببحث مسئوليته عن الهزيمة العسكرية ، وكانوا جميعا من منظمات الشباب التى أقامتها الحكومة ، ومن أهل الثقة ، ومن الذين كتبوا التقارير فأسرفوا فيها على أنفسهم وعلى زملائهم ، ولم يكونوا يصدقون بوجود المعتقلات ، ولم يعقلوا قصص التعذيب الوحشى الذى سمعوها من هنا وهناك ، وكانوا يسألوننا عن سائر الترهات التى سمعوها عن ترسانة السلاح التى ضبطوها لدى الإخوان ، وسألونا عن الاغتيالات ، وقتل شادية ونجاة الصغيرة ، وسائر ماأعلنوه على الناس من بلاهات ، وعرفوا الحقائق بحكم معيشتهم معنا ، وأحصوا عدد المحكوم عليهم ، فهم لايتجاوزون بضع عشرات ، قد سجنوا بتلفيق ظاهر وقادر ، وأحصوا عدد المعتقلين فوجدوهم آلاف لاذنب لهم إلا كلمة « لا إله إلا الله » وقال قائلهم : « تالله لقد كنا فى ضلال مبين » .

وكانوا شباباً فى العشرين من كل جامعات مصر ، قد ملئوا رءوسهم بالأكاذيب وأفاقوا على الحقائق فى المعتقل ، وكانوا يطالبون الإخوان بالتصدى للمشكلات الجسام التى تمر بالبلاد ، وينظر الإخوان إليهم فى عجب ولايتكلمون ، فتاريخهم كله قصد لكافة مايصلح البلاد والعباد ، وأكثر من ثلاثين عاما وهم يضربون ضربا مبرحا دون هوادة .

كان هذا الشباب يعشق عبد الناصر ويرى فيه منقذ مصر ، ثم غيروا رأيهم بعد ذلك تماما ، فقد أحاطوا بمالم يحط به غيرهم ، وجاءوا من المعتقل بنبأ يقين ، وكان حماسهم عظيما فهم لم يضربوا ولم يعذبوا ، ومازالت لديهم أفكار الإصلاح والتغيير .

وكان يقول قائلهم :

– لابد من حكومة تشكل من الإخوان المسلمين لانقاذ البلاد وإصلاح الأوضاع المتردية . وكنا نستمع إليهم ويقول لهم قائل الإخوان :

– أنتم تتحدثون إلى قوم خارجين على القانون من وجهة نظر من صنع القوانين . وكانت لهم وجهات نظر عجيبة وغريبة ممتلئة بالفتوة والشباب والحماسة والرغبة العارمة لإحداث شيء ، التحرك إلى الخارج ، أن تخرج جماعة الإخوان من خارج المعتقل فى مظاهرة وطنية ضخمة تتسلم الحكم من أيدى الفجرة والكفرة (هكذا كان تعبيرهم بالضبط) ولكن كيف يمكن الخروج ؟ لم يخبرونا بهذا !

وكانوا قد دربوا وأعدوا فى معسكر حلوان الاشتراكى إعدادا وتدريبا اشتراكيا يتناقض مع الدين ، ويتأسس على السخرية من العبادات والتهاون بكل القيم الدينية ، وتغير حالهم فى المعتقل ، صاروا يقيمون الصلاة معنا ، ويقرءون القرآن ، وبدءوا يؤكدون أن حل كل مشاكل مصر يكمن فى اعتناق المصريين للإسلام من جديد ، فالناس ليسوا مسلمين على الوجه الصحيح ، وهم بعيدون عن الإسلام فى كل تفصيل وإجمال من حياتهم ، ونظام الحكم جاهلى بالمعنى الدقيق الصحيح ، الأمة كلها بعيدة عن الإسلام ، ونجاتهم فى اتباعه .

وقال قائل الإخوان فى هدوء :

– لم يقل سيد قطب الشهيد أكثر من هذا .

واستدعى عبد العال سلومة واحد من هؤلاء الطلبة الذين ربوا فى المنظمات الشبابية الحكومية ، وكان عضوا لاتحاد طلاب الجمهورية عن كلية الهندسة جامعة الإسكندرية ، وكان اسمه نادر إن لم تخنى الذاكرة ، ولما احتدم النقاش بينهما أرسل فى استدعاء زميل له إن لم تخنى الذاكرة أيضا فقد كان اسمه أحمد عبد العزيز وجرى الحوار كئيبا ضجرا مملا ، فيبدأ عبد العال :

– أنتم رجالى ومن يمكن أن اعتمد عليهم فى السيطرة على هؤلاء المجرمين .

– نحن لسنا رجالك ، ولكنا شباب مصر ، وهؤلاء الذين تتكلم عنهم ليسوا بمجرمين .

– لماذا تشغل نفسك بأمور لافائدة منها ؟ الحكومة لاتدرى عنك شيئا ، وقد نسيت كل من فى المعتقل ، ولايهمها أمرهم .

– أنا أريد أن أعرف فيم يفكر هؤلاء الناس وماذا ينتوون ، وأنتم أصحاب خبرة فى كتابة التقارير وقد دربتم على قراءة الأفكار ، ويجب أن تساعدونا .

– كنا نكتب التقارير على ظن منا أن هناك قيادة حكيمة تصلح المعوج ، وتقوم الأمور ، ثم فهمنا أنهم ينتقمون من أعدائهم ، ويتخذون التقارير وسيلة للبطش بمعارضيهم ، ولم نكن نعرف بما يدور فى المعتقلات وراء الأسوار .

– أصحبتم إذن من الإخوان المسلمين !

– ياليتهم يقبلوننا فى صفوفهم .

وانفجر عبد العال سلومة غاضبا كالبركان :

– يقبلوكم فى صفوفهم ؟ سوف ترون ماذا أصنع ! لم تعد للإخوان صفوف.وأجابه أحمد عبد العزيز ساخرا :

– مثل جيشنا الذى انهزم ومزقته السرقة وأنهكه تعاطى الحشيش ، وهد قوى قادته الفساد والنساء .

– أنتم ترفضون التعاون معنا إذن ؟

– نحن نود أن نشترك فى القضاء عليكم ولو بأقل القليل .

وعادوا وحكوا القصة ، واستمعنا إليها دون تعليق يذكر ، ثم انصرف كل واحد إلى شأنه من قراءة أو كتابة أو تسميع للقرآن الكريم .

كان المعتقل كالبحر الزاخر تتقاذفه الأمواج ، ممثلة فى التيارات المختلفة ، والحوادث الكبيرة التى تمر بالمعتقلين ، أو تحدث فى مصر .

وأعلنت حالة الطوارىء فى المعتقل .

وهذا تمهيد لمعتقل كبير فى طريقه إلى القدوم ، أو زائر كبير من رجال الأمن .

وكان المعتقل الكبير هو المرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين العالمية المرحوم الأستاذ حسن الهضيبى .

وكانوا قد حكموا عليه بالسجن خمس سنوات ثم تدخل بعض رؤساء الدول ، فغيروا مكان سجنه إلى بيته بدلا من الليمان ، وسجنوه فى بيته بينما بقية أسرته فى المعتقل .

وقالوا : إن تصريحا قد نشر فى جريدة أجنبية لأحد الإخوان الذين يعيشون فى الخارج أن مؤتمرا قد عقد فى المغرب حضره بعض كبار الإخوان الذين استطاعوا النجاة من بطش عبد الناصر ، وإنهم حددوا لجنة تقوم بعمل المرشد العام حتى يتمكن من ذلك بعد انتهاء محنته .

وقالوا : إن ضابطا كبيرا ذهب إلى زيارة المرشد فى بيته وهو الشيخ الكبير الذى لايترك الدواء لحظة ، وسألوه عن رأيه فى هذه الأخبار ، وقال لهم الرجل :

– لاأعرف شيئا من هذا .

فقال له الضابط الكبير وكانوا قد قالوا إنه أحمد صالح داود :

– عظيم ! عليك إذن أن تصدر بيانا تستنكر فيه هذه التصريحات ، وسوف ننشرها فى الصباح فى كافة الصحف اليومية ، وسوف تطيرها وكالات الأنباء إلى كافة أنحاء العالم .

ثم أضاف مهددا :

– ومن ثم تظفر بالراحة فى بيتك ، وتنعم بالدفء فقد اقترب الشتاء .

وقام المرشد العام مثقلا بوطأة المرض والضعف والشيخوخة وقال :

– استأذنك لحظة .

وغادر صالون بيته وظن أحمد صالح داود أنه قد ذهب ليأتى بورقة وقلم . وبعد برهة عاد الرجل وقد ارتدى ملابسه وفى يده حقيبة صغيرة تحمل بعض حاجياته . وقال لهم فى هدوء شديد :

– إنى على استعداد .

وقام الضابط الكبير ومن معه واصطحبوا المرشد العام لجماعة الإخوان العالمية إلى باب العمارة ، حيث كانت سيارات تملأ المكان ، وانطلقت وأمامها واحدة تملأ الشارع بالعويل الصادر من صفارتها .

ولانعرف أين ذهبوا به قبل أن يأتوا إلى معتقل طره السياسى .

وأودعوا الرجل فى مستشفى المعتقل ، وفرض حظر التجول فى جميع العنابر حتى تم دخوله بسلام ، وظهر الجند و (الشاويشية) فى كل مكان ومع كل تحرك ، فكل من له عمل يسير وفى صحبته أحد الشاويشية الذين زاد عددهم بشكل ملحوظ . ومنع الاتصال بالمرشد العام تماما من جانب المعتقلين ، ولايتصل به إلا الموظفون الرسميون من ممرضين وأطباء وغيرهم ، ثم سمحوا لأبنائه الثلاثة بزيارته واحدا بعد الآخر ، المهندس أحمد أسامة الهضيبى ، المستشار محمد المأمون الهضيبى ، إسماعيل الهضيبى المحامى ، واستطاع الأستاذ المأمون الهضيبى أن يدبر لى لقاء مع فضيلته فى المستشفى ، وتم هذا اللقاء بتعاون جميع الموظفين الرسميين الذين يقومون بالاتصال به .

وكان الغرض من هذا اللقاء أن نعرف وجهة نظره فى كثير من الأمور ، فالجميع يريدون الاستفسار منه عن أشياء ويستحيل ذلك .

ودخلت الحجرة ورأيت الرجل الجالس على سريره البسيط المتواضع ، ويرتدى (روبا) أكثر بساطة ، وطاقية على رأسه ، ونظارة طبية تبدو من خلفها عينين حادتين تدل على قوة الشكيمة وشدة البأس ، روح عظيمة تطل منهما ، رغم وهن الجسد وضعفه وكثرة الأمراض . كأن الرجل هو آخر الرجال العظماء ، فقد كان الوحيد الذى صمد أمام الإرهاب وشدة البأس ، ولم تلن قناته لحظة ، ولم يعرف الضعف طريقه إلى روحه أبدا ، ورفض مهادنة الطاغية رغم منطقية كافة الضغوط التى فرضت عليه ، رجل وضعته الظروف على رأس أكبر جماعة إسلامية فى العالم فى وقت ضربها ومحاولة القضاء عليها ، وصدرت ضده أحكام مختلفة من سجن إلى إعدام ثم إلى سجن ، وتخلل ذلك كله الاعتقال والإهانة والتعذيب أخيرا ، والرجل هو هو لم يتغير .

وكان للرجل سمات عديدة عجيبة : فهو حكيم فيلسوف ، صاحب نظر ورأى فى الكون والحياة والإنسان ، وهو فقيه قد درس الفقه وله فيه نظر واجتهاد ، وكان أديبا بليغا يتذوق الشعر ويحفظه ، ويستشهد به فى المناسبات ، وكان ساخرا يستملح النكتة فى بديهة حاضرة وذهن يقظ .

ومرة فى السجن الحربى ، والحرس يطارده حتى وهو يغسل وجهه ، التقى بولده الأستاذ اسماعيل الهضيبى خلسة ، فابتسم له معزيا ومخففا وهمس له بأبيات من شعر أحمد شوقى فى مسرحية مصرع كيلوباترة :

ياشرميون تعلمى الدنيا ... وياهيلانة اختبرى الزمان القاسى
إن التى حرست بأبطال الوغى ... باتت تصانع سفلة الحراس

ثم ذهب إلى زنزانته بعد أن أظهر روحا عالية ليشجع أولاده جميعا من المسلمين . وكان متواضعا ، ألوفا ، ودودا ، مع جميع الناس ، لين الجانب رقيق الحاشية إذا تخاطب معه أحد ، ولكنه

شديد الاستعلاء والأنفة عظيم الكبرياء إن اضطر للتعامل مع أعدائه أو سجانيه ، وهو يخاطبهم بلهجة من يقدر ويملك ، وكأنه المنتصر أو هو المحقق الذى يجرى معهم التحقيق وليس العكس ، وكانوا يهابونه مهابة شديدة رغم كونه أسيرا عندهم ، وهو أكبر من أن يُسَاوَمْ على شيء مهما عظم ، وأظنه من قلة عرفوا أن الدنيا معبرة إلى الآخرة ، وأن السلوان الأعظم فى ظل العرش ، حيث لاجلبة ولاضوضاء ولاملك ولاسلطان ، ولايوجد إلا ديان واحد : هو الله سبحانه وتعالى .

وكان الناس جميعا يحبونه حبا ملك عليهم قلوبهم فهو أبوهم الروحى ، ومنه يستمدون طاقتهم فى الصمود ، ومن روحه يأخذون القبس الأعظم فيستعينون به على مرارة الحبس والاعتقال ، ولم يكن يعد بنتائج ولكنه كثيرا مايقول : إن المسلم الحق هو الذى يؤدى واجبه كاملا ، ولايفكر فى نتيجة ما على هذه الأرض .

أذن لى الرجل بالجلوس ، وجلست خاشعا عند طرف السرير أنظر فى وجهه ، ولاأعرف كيف أتكلم ، أتأمل تقاطيعه وأفكر كيف استطاع هذا الرجل أن يغيظ جمال عبد الناصر الذى دوخ الناس جميعا ، ويطول الصمت ولا أجد ما أقول ، وأنا الذى جئت لأسأل ثم أخرج للمعتقلين فأحكى لهم ماسمعت .

وقطع المرشد حبل الصمت سائلا :

– كيف حال جميع الإخوان ؟

– بخير يسلمون على فضيلتكم ويدعون لكم .

وسرح الرجل ببصره قائلا :

– قد مضت أيام التعذيب والأجر ووفيت كل نفس ماكسبت ، وهذه هى أيام العبادة والاستغفار وذكر الله ، قل هذا للإخوان وقل لهم أيضا إنها أيام قد لاتعود فتزودوا منها وخير الزاد التقوى .

ورأيتها فرصة للحديث وتشجعت وقلت له :

– هل أقول هذا للمؤيدين أم للمعارضين .

وأنا أقصد بهذا الذين يكتبون برقيات التأييد والذين يمتنعون .

وقال الرجل :

– « هم جميعامن الإخوان المسلمين ، وهذه ظروف غير عادية ، ولاتحكموا على الناس وهم يحملون أثقالا ، انتظروا حتى يخفف الله عنهم وعنكم ، وهم جميعا من الذين امتحنوا « وماكان الله ليضيع إيمانكم » .

– لو كنت مكان الحكومة ماذا كنت تفعل ؟

– كنت لا أفعل شيئا واحدا مما فعلوه .

– ماذا ينبغى على الحاكم أن يفعل لخدمة الشعب والبلاد ؟

وتأمل الرجل قليلا ثم أجاب :

– « الحاكم المخلص فى هذه البلاد هو الذى يحكم بالإسلام ، هو الذى يكون قدوة للناس فى كل أحواله ، والناس على دين ملوكهم ورؤسائهم ، يكفى أن تتوفر النية فى قلبه فيتحسن كل شىء ، لن يجتمع حوله إلا أهل الخير مادام لايظلم ولايسرق ولايستأثر بمال أو برأى » .

– ماهو مستقبل الإسلام فى رأيك ؟

– تقصد مستقبل المسلمين ؟

– نعم .

– سوف يتحقق الإسلام فى يوم قريب فى نفوس المسلمين ، ولعل الهزيمة التى حدثت فى يونيو تدفع الناس إلى الدين كحل لمشكلاتهم ، ولتخلصهم من الهوان الذى لحقهم ، ربما لو أذن الله لك فى الخروج من هذا المعتقل فستجد أحوال المصريين قد اختلفت سوف تجدهم أقرب للإسلام مما تركتهم ، مستقبل المسلمين فى مصر يبشرّ بالخير .

- إلى أى مدى يافضيلة الأستاذ فى رأيك ؟
وسرح الرجل بخاطره قليلا ثم أجاب ببسمة ودودة :
- سوف يحكمون هذه البلاد يوما ، ولعله قريب .
- تقصد أنك سوف تكون على رأس حكومة فى مصر ؟

وزادت ابتسامة الأستاذ الهضيبى :
-« أنا شخصيا ؟ لاأظن . ومالفرق لو حكم واحد من إخوانى أو أبنائى ؟ هذا لايهم . المهم أن تسود الأفكار التى نؤمن بها ، عقيدتنا تظلل الناس ، وشريعة الإسلام تنير لهم الطريق فى المدلهات ، لايهم شخص الحاكم ، ولكنى أؤكد لك ، لقد ضاع سلطان عبد الناصر بعد هزيمة يونيو ، وظهر نظامه عاريا للناس ، والبديل هو الأصل ، والأصل هو الإسلام ، والإسلام هو طوق النجاة ، وهزيمة إسرائيل لن تأتى على غير يد المسلمين ، ربما تشهد هذا فى حياتك قبل أن تموت ، وعندها سوف تدرك أن أيام السجن والاعتقال التى قضيناها لم تذهب عبثا ، نحن ندفع ثمن المستقبل ، ونضحى من أجل الأجيال القادمة بحق ، وسوف يسود الإسلام ، ويرتفع شأن المسلمين ، لقد بدأت خطوات كثيرة من الألف خطوة التى تنتهى بسيادة الإسلام ، ولاتعجب فهذه الحكومة الفاسدة ومايمكن أن يأتى بعدها من حكومات مثيلة ، تدفع عجلة الإصلاح بفسادها ، وتقرب المسلمين من دينهم بفسق رجالها ، هم يقدمون خدمة عظيمة من حيث لايدرون ، المشكلة أننا مسلمون ، نعم نحن مسلمون قد ابتعدوا عن دينهم ، لم يعد للدين فاعلية فى حياة الناس ، وهم فى حاجة إلى صدمات كبيرة حتى يفيقوا ، وقد بدأت الزلازل والحوادث العظيمة » .

- بماذا تنصح الإخوان ؟
- « أن يحب كل واحد منهما الآخر ، وليعكفوا على قراءة القرآن ، وليتجملوا بالصبر ، وأخبرهم بقول رسول الله ﷺ: طوبى

لمن أمسك الفضل من قوله . ولاشك أنهم يعرفون هذا الحديث الشريف ، وأخبرهم أيضا أن أشد ساعات الليل ظلمة هى أقربها لطلوع الفجر » .

وسألت الرجل أسئلة كثيرة وأجاب عنها واستفاض فى الحديث ، وخرجت وحكيت للناس ماسمعت ، وقد سطرت ماوعته الذاكرة ، وقد كان الرجل على يقين كامل وإيمان عظيم ، يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، لايداهن فى دينه ، ولايقبل الدنية ، ويقف كصخرة صلبة تعييها المعاول وقد قال لى فى عزة وشموخ :

– أنا الإخوان المسلمون : لو استسلمت لاستسلموا ، وأنا واقف على أمر هذه الجماعة لأنها بقية ممن ينهون عن الفساد فى الأرض .

وكان ذلك تعليقا على ذكر من يؤيد الحكومة ويسير فى ركابها .

وقضى الرجل سنين فى المعتقل ، يحجب عن الرؤية أحيانا ، وفى غفلة من الحراس أو فى لحظة من فوضى ، يذهب إليه جميع المعتقلين ليهنئوه بالعيد ، جميعهم بلا استثناء ، وكان غير الإخوان ينظرون إليه فى نزهته اليومية وحيدا عدا الحرس ، ويتأملون الشيخ فى إعجاب واحترام ، أهذا الرجل الضئيل استطاع أن يقف وحده فى وجه نظام طاغ عنيد ؟ استطاع أن يقول : « لا » بملء فمه دون خوف من قتل أو سجن .

وقال له واحد من الإخوان مرة فى مرح ودعابة :

– يافضيلة المرشد ، نحن نبتلى بالسجن والفقر ونقص الأنفس والثمرات ، ألا نبتلى بالغنى والثروة والجاه ، لمذا لانجرب فى هذا الابتلاء ؟

وقال الرجل بحكمة السنين التى يحملها :

– سوف تبتلون بهذا ، نعم سوف تبتلون بهذا ، ولكن هل تصبرون ؟

ومرت السنون وابتلى كل من شهد هذا الحديث ببلاء الغنى والثروة كأن الرجل كان يقرأ فى كتاب الغيب المفتوح !

وجاء يوم أصابته نوبة قلبية ، وارتفعت الأصوات بالدعاء فى كل مكان بالمعتقل أن يخلص هذا الشيخ الفانى من آلام المرض والحبس ، وعز الدواء وكان لابد من نقله إلى مكان مناسب لعلاجه ، واشترط الشياطين أن يتقدم المرشد العام بورقة إلى الحكومة يطلب فيها العلاج ، ورفض الرجل ذلك وقال : المريض لايتقدم بورقة إلى أحد يطلب فيها علاجه ، وعلى السجان أن يعالج مسجونيه ، ومكثوا حوله طوال الليل يساومونه على صحته ، والرجل يتلو القرآن متحملا آلامه فى هدوء ، وأذن الله له بشفاء ، وشاءت إرادة الله أن يبقى حتى يشهد موت خصمه المبين .

﴿ ... ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين . ويذهب غيظ قلوبهم ... ﴾ • التوبة آية ١٤ ، ١٥

كانت حلقات التعليم تنتشر فى كل مكان بالمعتقل ، جميع العلوم والتخصصات كان هناك من يتقنها أو هو أستاذ فيها ، فيجلس إلى ناحية ويقوم بتدريس المقرر فى علوم اللغة العربية مثلا ، أو فى نظرية (الكمبيوتر) ، فهو يقوم بتدريس المنهج كاملا فى أيام معدودة ، ويقوم الناس من عند الأستاذ ويأتى آخرون وهو واقف فى الوقت المخصص يقدم العلم ويشرح ويفسر .

وكان هناك منهج لمحو أمية من لايتقنون القراءة والكتابة ، ولم تنته أيام المعتقل حتى أتقن كل الأميين القراءة والكتابة .

وكان هناك من يدرس الموطأ للإمام مالك ، والفقه على المذاهب الأربعة ، وشرح كتاب الخراج لأبى يوسف ، وسائر أمهات الكتب فى الفقه والعلوم الإسلامية .

وكان الشيوعيين ينظرون إلى نشاط الإخوان بكثير من الغيرة والحسد الممزوجين (مع ذلك) بالإعجاب الشديد .

وصار معظم أصحاب « النشاط المعادى » من الإخوان المسلمين .

ولم تكن الأمور هادئة فى هذا الجو العلمى ، بل كانت القلاقل تثار والتدريبات الممسوخة التى يجريها عبد العال سلومة فى يأس قائمة على حالها ولكن كانت قد فقدت فاعليتها وتأثيرها على الناس .

وكان عنبر اثنين هو أعظم العنابر خطرا على الإدارة والحكومة ، وكان فى تسلسله يبدأ بغرفة اثنين حيث بها شكرى مصطفى ومحمود حلمى ، والشيخ على اسماعيل ، وعبد الله بن أحمد السماوى، وآخرين يبلغ عددهم حوالى العشرين حيث الحدة فى تناول الأمور من وطأة الاعتقال الرهيب والتعذيب البشع الذى كان .

ثم انتقل محمود حلمى وآخرون إلى غرفة ثلاثة حيث محمد قطب « والعشرات » وهى طبقة الذين قضوا عشر سنين كاملة فى السجن دون تأييد ، وهؤلاء أقل حدة .

ثم غرفة أربعة فى نفس العنبر حيث كنت هناك فى جوار أحمد عادل كمال ، وهذه طبقة الذين يقرءون ويكتبون ويكتفون بهذا .

ففى هذه السنين : عكف أحمد عادل كمال على إعادة كتابة مؤلفه الضخم « الطريق إلى المدائن » وكانت المباحث العسكرية قد استولت عليه عند الاعتقال ورآه ورقا يتبدد فى الهواء أمام عينيه ، بعد أن قضى فى أعداده سنين ، وأعاد الرجل الكتابة من جديد فى صبر وجلد ومثابر ، وكان يقوم على تهريب الوريقات التى ينتهى من كتابتها أثناء الزيارة ، وكم هوجم العنبر مرات كثيرة للتفتيش عن هذا البحث لإعدامه ، وكانت هناك نوادر كثيرة تحدث فى هذا المجال : فمثلا هاجم العنبر ضابط ومعه الجند ، وتوجهوا مباشرة إلى « نمرة » أحمد عادل كمال وطلب التفتيش وكان عادل

كمال يخفى أوراق بحثه فى مسند كرسى فى حيازته ، وتظاهر بالارتباك والحيرة وسأل الضابط :

– ماذا تريد ؟

– التفتيش !

وصارت عينا أحمد عادل كمال تدوران فى المكان ليلفت نظر الضابط إلى بعض الأماكن التى يمكن أن يكون بها شيئا ، هكذا أوحى إليه .

وتعجل الضابط :

– نريد التفتيش ، لاوقت لدينا .

وبسرعة قدم أحمد عادل كمال الكرسى وبه البحث المختبىء وقال :

– تفضل استرح ودع الجند يفعلون مايشاءون .

وجلس الضابط على الكرسى وبه مايبحثون عنه ، ووضع ساقا فوق ساق ، وأشعل سيجارة ، وقلب الجند المكان بلا فائدة .

وكانت غرفة اثنين حيث شكرى مصطفى ومن معه تضطرم بالثورة العارمة ، شكرى يريد أن يعلنها حربا على العالم أجمع ، ومن ليس معه فهو من الكافرين ، وعنبره هو سفينة نوح والناجى من ركب فيها ، ومن ليس معه فهو عليه ، كانت نفسه تضطرم بالغضب والرغبة فى الانتقام ، ويعلن هذا فى كل مكان ولكل شخص ، وكلمه العقلاء والحكماء بلا فائدة ، وصار الغضب يغلى فى صدره حتى جافاه النوم فهو يقطع الليل جيئة وذهابا فى الممر الطويل صامتا متأملا يفكر كيف يبدأ ومتى يخرج ، واستثمرت الإدارة هذه الروح فى إجراء التدريبات السمجة .

وانتقل محمود حلمى بغضب أقل ، وتعقل أكثر إلى عنبر ثلاثة ، وكانت الأفكار تضطرم وتتأجج .

وكان محمود حلمى يرى أن سبب فساد هذا العالم هو عبد العال سلومة.

وفى يوم من أيام الصيف القائظ ، وعند إشتداد الظهيرة حيث عكف الناس فى داخل الغرفات يحتمون من الحر ، جاءنى الأستاذ محمد هلال المحامى وكان رجلا فاضلا صاحب دين وورع وله معرفة قديمة بعبد العال سلومة ، وهو يستخدم هذه المعرفة القديمة لتخفيف وطأة السجن والحبس على الناس ، ونجح الرجل فى ذلك كثيرا ، وتعجبت من زيارته ، وهمس لى :

– أريدك فى الخارج .

وقلت متعجباً :

– فى هذا القيظ ؟

– نعم .

وخرجت معه مستسلما ، وكانت الشمس تشوى المكان ، ولايوجد مخلوق واحد فى الفناء ، ومشى الرجل صامتا لايتكلم ، ورابنى صمته وأقلقنى ، وكنت أسأله ولايرد :

– ماذا هناك ؟

ولما وصلنا إلى مكان آمن خلف العنابر وقف ووقفت ، وأخرج من جيبه مظروفا ناوله لى :

– اقرأ هذا .

وأمسكت بالمظروف وهو من النوع الذى يستخدم فى البريد الجوى ومكتوب عليه من الخارج العبارة الآتية :

« إلى السفاح الأكبر عبد العال سلومة المجرم » .

وتجمد الدم فى عروقى فقد كان هذا خط شقيقى محمود حلمى ، وأسرعت بفتح الخطاب وقراءته ، والأستاذ محمد هلال يرمقنى صامتا وأنا أقرأ الكلمات النارية ومضمونها : إن محمود حلمى يخبر القائد أنه سوف يقتله لشروره ولن يجديه أى شىء فقد أعد سكينا قد سنها فهى حامية ، وسوف يغرسها فى كرشه إن لم يكن اليوم ففى الغد بالتأكيد ، ولكنه لن يفلت منه مهما فعل .

ونظرت إلى محمد هلال فى ذهول لا أكاد أصدق وقال لى :

– مارأيك ؟

وقلت :

– كيف عثرت على هذه الرسالة ؟

– أعطاها شقيقك للمراسلة الذى يقف على مكتب عبد العال وقال له هذه الرسالة له ، ولكن الرجل أعطاها لى .

– ولم يقرأها عبد العال ؟

– ولم يقرأها عبد العال ، ولكن ليست هذه هى المشكلة ، ليست الرسالة هى المشكلة بل هو فحواها ، حاول أن تفكر معى ، محمود حلمى يريد قتل عبد العال سلومة ، ويعلن هذا فماذا نفعل ؟

– فى الحقيقة لست أدرى .

– ماذا لو ذهبت إليه وتكلمت معه ؟

– وماذا أقول له ؟ هل أقول له لاتقتل عبد العال ؟

وأجاب الأستاذ محمد هلال فى ضيق ظاهر :

– لاأعرف ماذا ستقول له ولا أقترح عليك شيئا ولكن يجب أن تقابله .

ووافقته وعدت واجما إلى العنابر ، وكانت أفكارى تزعجنى ، ويد ثقيلة تعصر قلبى ، فهذا الشاب الغض مثل شقيقى محمود حلمى الطيب القلب ، وكيف حولته قسوة السجن والسجان إلى إنسان عصبى المزاج يفكر فى القتل ، أما كان يكفى مانحن فيه من عذاب فيأتى واحد مثل عبد العال سلومة ، فيزيد فى وطأة مانحن فيه ، وهؤلاء الذين أمسكوا بنا قد نسوا الآخرة ولم يعد يعنيهم شأنها فى قليل أو كثير ، وهم جبابرة متغطرسون وينظرون إلينا كدمى يحركونها كيف شاءوا ، ولكنهم يخافوننا أكثر من خوفنا منهم فى نفس الوقت ، يشعرون بجرمهم وبنهايتهم السوداء فى الدنيا أو الآخرة ، فهم يحاولون أن يؤجلوا هذه النهاية المرة بالضغط علينا وإيذائنا ، وإفساد نفوس غضة بريئة لم يكن لها من ذنب إلا أن تقول ربنا الله.دخلت غرفة ثلاثة فى عنبر اثنين ،

عنبر الخطرين حيث أعيش ، ولكن ليس فى نفس الغرفة ، وكانت الغرفة يلفها جو رمادى ، ففى هذه الأثناء كان يمكن لكل واحد أن يصنع لنفسه « كابينة » من البطاطين بحيث يستطيع أن ينفرد بنفسه داخلها ، فهى شىء أقرب إلى معسكرات الحجيج عند « مطوف » غادر آكل للحقوق فى موسم قد ازدحم بالناس .

ووقفت أمام خباء محمود حلمى وناديت :

– ياأخى محمود .

وأتانى صوته برما من داخل الخباء :

– نعم . ماذا تريد ؟

واقتحمت عليه المكان فوجدته يتناول طعام الغذاء وقد غرس سكينا فى قطعة من الخشب بجانبه وتوجست شرا :

– هل أستطيع أن أتكلم معك قليلا ؟

وأجاب مزمجرا :

– لست أصما ، تكلم بما تشاء ؟

وهمست :

– لعلى أريد أن أفض لك بسر ولاأريد أن يسمعه أحد .

وأجابنى بصوت كأنه يأتى من العالم الآخر :

– اسمع . لاوقت عندى ، إن كان عندك ماتود قوله فأنا أسمع ، ولاأخفى شيئا عن الإخوة هنا ، وأنوى أمرا عظيما أريد أن أتهيأ له .

– تنوى قتل عبد العال بهذه السكين ؟

وأجفل وتوقف عن الطعام :

– من أخبرك ؟

– ألم ترسل إليه خطابا بهذا المعنى ؟

– وكيف عرفت ؟

– لاشىء يخفى فى هذا المعتقل .

وبدت عليه الحيرة قليلا ثم زمجر قائلا :

- لايهم على أى حال أن تعرف أو لاتعرف ، سوف أفتح كرشه إن شاء الله بهذه السكين .

- لماذا ؟

والتفت إلَّى دهشا :

- لماذا ؟ ألا تعيش معنا فى المعتقل ؟ ألا ترى مايفعل ؟

- هبه يستحق القتل . هل تظن أنهم يمكنونك منه ؟ .

- قد فكرت فى الأمر وخطتى واضحة فى ذهنى .

- ولكن لماذا أرسلت إليه تخبره ؟ لقد نبهته وهو يأخذ حذره .

وضحك محمود حلمى ساخرا :

- قد أعددت الخطة ، وعملت حسابا لهذا ، سوف يحيط نفسه بالحرس ولكنى أعرف كيف أصل إليه .

- سوف يقبضون عليك قبل أن تراه .

وضحك عاليا فى سخرية :

- يقبضون على ؟ أين تظننا نعيش ؟ نحن مقبوض علينا منذ سنين .

- لماذا أرسلت إليه الخطاب ؟

وكان قد فرغ من الطعام فاعتدل إلَّى وهو يلعب بسكينه :

- سوف أسليك بالقصة .

- هذه قصة غير مسلية على الإطلاق .

- هذا من وجهة نظرى على الأقل .

- تفضل .

- لو وضعت هذا السكين فى قلبه فسوف يموت فى لحظة واحدة .

- ماالضرورة إذن فى إرسال الخطاب إليه ؟

- انتظر . سوف اشرح لك . لو مات فى لحظة فلن يتعذب طويلا ، ولكنى أرسلت إليه الخطاب ليعيش ساعات من الرعب والفزع ، هذه واحدة .

– والأخرى ؟

– لن أضع السكين فى قلبه ، سوف أمزق بها كرشه ليتعذب أياما قبل أن يموت ، ونحرق قلبه على الدنيا التى يغادرها ، والآمال التى ضاعت منه ، وقلب أهله عليه .

وشعرت بمرارة وتعاسة لاحد لها وقلت له :

– هذا جميل والله .

– هل رأيت ؟ كنت على يقين من أن القصة سوف تعجبك .

– هذه ليست قصة ، هذه مأساة إغريقية ، ولكنها تحدث الآن .

– ماذا تعنى ؟

–أخبرنى . وكيف ستتمكن منه رغم تحذيرك له ؟

– هذا هو السر الذى لاأستطيع البوح به لأحد .

وقلت له مراوغا :

– وهل تظن أننى أشى بك أو أفشى سرك ؟

– ليست المسألة هكذا ، ولكنى أود نجاح العملية ، وأريد أن تمر بنجاح .

وقلت له ببطء :

– وهل تعرف مصيرك بعد هذا الحادث ؟

وأجاب ببداهة :

– بالطبع . سوف أقتل ، إما برصاص الحرس ، أو المحاكمة ثم الإعدام .

– جميل والله . شىء جميل جدا !

– سوف أقدم حياتى فداء لكل الأخوة من المعتقلين .

وتفرس فى وجهى قليلا :

– لايبدو عليك السرور لمقتل عبد العال سلومة .

وكان صدرى يمور بالغيظ والشفقة ولكنى كتمت هذا وتظاهرت بعدم الاكتراث :

– بالفعل لست سعيدا لهذه الفكرة . هى غير مضمونة أولا .
وقال بسرعة :
– اطمئن سيموت مائة فى المائة . وماذا عن ثانيا ؟
– ماذا يفيد قتله ؟ ألف عبد العال سلومة عندهم .
وقال باستنكار شديد :
– لا .. لايوجد مثل هذا الخنزير فى الدنيا ، هذا ليس له مثيل ، ومن يأت بعده فسيسير مثل الكلب وإلا ظهر له محمود حلمى آخر .

وتملكتنى حيرة شديدة فالفتى يتكلم بهدوء وثقة وإطمئنان ولكنى قلت :
– قص علىَّ الخطة حتى يمكن لنا أن ننقحها .
واعترض بسرعة :
– لادخل لك بشىء ، ولا علم لك بالموضوع ، لأريد أن أشرك أحدا فى هذه القصة ، يكفى شهيد واحد عوضا عن هذا الكلب .
– فى الحقيقة أنا غير واثق من نجاحك .
وأجاب فى بساطة :
– سوف نرى على أى حال .
وتظاهرت بالتفكير قليلا ، وقد كنت أفكر بالفعل .
– اسمع . عندى فكرة .
– ماهى ؟
– لماذا لانتركه لله سبحانه وتعالى ليحاسبه .
وأجاب محمود حلمى :
– هذا ماسأفعله بالضبط .
وشعرت بالفرحة :
– هل غيرت رأيك ؟
– كلا . أنا لا أستطيع حسابه ، ولكنى أرسله إلى الله سبحانه وتعالى فى سرعة ليتولى هو حسابه .

– ولماذا لاننتظر عليه قليلا ؟ ماوجه العجلة ؟ فليحاسبه الله فى الوقت الذى يريد ، لماذا نتدخل فى إرادة الله ؟

– نحن ننفذ إرادة الله .

وشعرت بعقم الحديث فتكلمت معه بحدة شديدة وبحزم بالغ :

– اسمع . ماتنوى فعله ضرب من ضروب العبث ، وهى محاولة لن تنجح ، وسوف يسقط فيها شهداء كثيرون ، لست وحدك الذى يضرب برصاص الحرس ، سوف يطلقون الرصاص دون تمييز ، والله وحده الذى يعلم النتيجة فرفقا بى وبإخوانك ، والصبر أولى وأجدى .

– الحياة فى المعتقل سخيفة لايتمسك بها عاقل .

وصرت أتوسل إليه وأناشده الله والرحم أن يصرف من ذهنه هذه الفكرة ، ورفض مناقشة العدول عن قتل عبد العال رفضا تاما .

وخرجت من الغرفة أبحث عن بعض أصدقائه ، ومن يرتاح إليهم ويثق فيهم ، ووجدت الأستاذ عبد الحليم خفاجى ، والدكتور فاروق عباس الذى أيقظته من النوم ، وأريتهم الخطاب وطلبت منهم المعونة ، وأسرعوا معى إلى لقاء محمود حلمى ، وفى الطريق وجدنا الأستاذ محمد هلال يقف فى ناحيةمن الظل وسألنا متلهفا:

– ماالأخبار ؟ هل وصلتم إلى نتيجة ؟

– ليس بعد .

ودخلوا إليه وجمعوا له آخرين ، ومازلنا نحاوره ساعات حتى هدأت نفسه ، ولم نتركه حتى عاهدنا جميعا عن عدوله فى قتل عبد العال سلومة .

وكان المراسلة قد أخبر عبد العال سلومة بقصة الخطاب وماهو مكتوب عليه من الخارج ، وعاتب فى هذا الأستاذ محمد هلال ، لأنه حجب الخطاب وفهم من الحديث أنه مجرد خطاب غاضب من شخص مضيق عليه ، واستدعانى عبد العال :

– ماذا كان فى الخطاب ؟

– لم أقرؤه . وماذا يمكن أن يكون فيه ؟ شخص غاضب مضيق عليه ، قد حبس بغير ذنب فهو يعبر عن سخطه وضيقه .

وسرح عبد العال سلومة فقد كان جبانا :

– شخص مثل هذا خطر جدا ، هذا يمكنه أن يرتكب جريمة ، يعنى كان خطابا مليئا بالسباب مثلا ؟

– اسمع ياعبد العال بك أنا أشير عليك ، محمود حلمى شاب صغير وقد تم اعتقاله دون سبب مثل الآخرين ، وهو مندفع ومتهور ، والطريقة الوحيدة لتجنب المشاكل أن يصدر أمرك باشتراكه مع مجموعة الخدمات فى المعتقل ، فيعمل طول النهار ومن ثم يأتى الليل وهو منهك فينام وينسى أفكاره المزعجة .

واستحسن عبد العال سلومة الفكرة وقال :

– أحسن مكان هو المطبخ ، سوف يكون مسئولا عن المطبخ من الغد . وأمنت على كلامه وأنا أشعر بالقلق والتوتر ، فالمطبخ معناه سكاكين كثيرة وسواطير لاحد لها ، والمطبخ على مقربة من مبنى الإدارة ، وعبد العال سلومة يذهب إلى هناك وحده بين الحين والآخر للتفتيش .

وعمل محمود حلمى فى المطبخ ، وتحسن الطعام ، وزادت كمية اللحم المقدمة لنا ، وعرفنا السر فقد كان العساكر (والشاويشية) يأخذون نصفها ولما جاء محمود حلمى منع كل هذا فى قصة طريفة ؛ فقد جاءه فى أول يوم من حكمه فى مملكة المطبخ العسكرى الذى يأخذ طعام حضرة الصول ، وقدم له محمود حلمى الأرز وفوقه قطعة من اللحم وبقية الطعام ، ونظر العسكرى فى دهشة وقال :

– ماهذا ؟

– هذا طعام حضرة الصول .

واستنكر العسكرى هذا وقال :
- لا . هو يأخذ أكثر من هذا !! قروانة لحمة كاملة ، وكذلك سائر (الشاويشية) ليس أقل من قروانة .

وكلمه محمود حلمى فى حدة وفى يمينه السكين ، فقد كان يعمل وقتها :
- انت عارف قروانة لحمة يعنى إيه ، يعنى أكثر من اثنين كيلو .
واحتدم النقاش بينهما وأنهاه قائلا :
- اسمع أرسل حضرة الصول ليأخذ طعامه بنفسه .

وكان حضرة (الصول) قد استبطأ حضور الطعام ، فجاء بنفسه إلى المطبخ وسمع الحوار ورأى الطعام الذى صرفه له محمود وهاج وماج ، فما كان من محمود حلمى إلا أن أمسك بتلابيبه وضربه (علقة) ساخنة ، وانقذوه من يده بصعوبة بالغة ، واجتمعنا على الرجل واتفقنا معه ألا يخبر أحدا بهذه العلقة ، وألا يصل أمرها إلى الإدارة العليا ، وأرضيناه نظير مبلغ دفع له !

وحسنت الأحوال وزادت كمية اللحم للمعتقلين بعد أن حرم العساكر والشاويشية والصول من الكمية الزائدة المصروفة دون وجه حق .

وكان عبد العال سلومة يأتيه بالشاى الذى يرسل ضباطه للبحث عنه لأنه من الممنوعات ، ولكنه يناول محمود حلمى الشاى ويوصيه همسا :
- لاتدع أحدا يراك وأنت تصنعه وتشربه .
ويطمئنه ثم يوزعه على من يعرف ومن يريد ومن يحتاج .

أخذوا صلاح الأنور إلى مستشفى القصر العينى لإجراء جراحة الزائدة الدودية ، وأجريت العملية بنجاح ، وفى اليوم التالى لإجرائها غافل حراسه وهرب من المستشفى ، وهو فى حاجة شديدة إلى العناية والرعاية ، ولم يكن فى جيبه غير جنيهين ، وكان قد مكث فى السجن عشر سنوات دون تأييد ، وكان أيضا من تلامذة الشهيد سيد قطب المخلصين ، وبعد السجن جاءوا به إلى المعتقل ، فرؤية المدينة غريبة جدا بالنسبة له ، وقد بهره منظرها وتذكر السجن والاعتقال الطويل فقام من سريره وجرحه ينزف ، وخرج من عنبر الجراحة أمام نظر الحارس الذى ظنه ذاهبا إلى الحمام ، وغادر وركب الأتوبيس، وكان فى طريقه إلى شبرا .

وقامت الدنيا وقعدت ، وجاءت سرية من الجند على رأسها أحد الضباط وسألونا عن أمتعة صلاح الأنور ، وحملوها فى تحفظ شديد كأنما لايريدون للبصمات أن تضيع ، وتم هذا بين دهشة الجميع ، ماذا هناك ؟ لاأحد يجيب ، هل مات صلاح الأنور ؟ لاإجابة . وماهى إلا أيام حتى شاع خبر هروب صلاح الأنور من المستشفى . وصار بطلا فى نظر جميع المعتقلين ، ورويت الأساطير عن قصة هروبه ، وأصبح الآخرون يفكرون فى الهرب ويرسمون الخطط الساذجة ، وكلها لاتؤدى إلى شىء فخارج بوابة المعتقل مجهول لايعرفه أحد إلا أقل القليل ممن خرجوا لسبب ما ، أما جغرافية المكان ، وكم يبعد عن الطريق العام ، وماذا يمكن أن يلقاه الهارب إن نجح فى الخروج من البوابة ، فكل ذلك طلاسم لايمكن لأحد فكها أو فهم أسرارها .

وكان هناك حوذى يأتى مرة فى الأسبوع ومعه عربة عبارة عن خزان كبير للجاز ويجر هذه العربة حمار ، وصار من يفكر فى الهرب يتودد إلى ذلك الحوذى تمهيدا للتنفيذ هذه الفكرة ، وبعد قليل من الوقت فاتحوه فى أمر الهرب ، ورحب الرجل بالفكرة ،

فهو سيكسب من ورائها المال الكثير كما أفهموه ، وقال لهم عليكم بالتخطيط والتفكير وعلى التنفيذ ، والثمن تدفعونه بعد خروجكم .

ونمى الخبر إلى علمى ، فقد كان هناك من يصطفى بعض الإخوان ويسر له بالموضوع ليكون شريكا معهم ، واستحسنت الفكرة ساخرا ، وهى (كوميديا) ينبغى ألا تفوتنى فى هذا الجو الخانق ، ثم سألت عن أسباب التعطيل فى التنفيذ فقالوا لاشىء ، مجرد رسم الخطة ، وقلت لهم هذه النقطة هى أصعب شىء فى الموضوع على الإطلاق ، فقالوا : بسيطة جدا فقلت كيف ؟ فقالوا بعض التفكير ، وسألت عن عدد الذين سينفذون الفكرة ووجدتهم يزيدون عن الخمسين ، وانتظرنا موعد وصول الحمار وصاحبه ، وجاء ليفرغ الجاز المطلوب ، وكانت هناك بوابة جانبية يدخل منها تحت حراسة مشددة وبعد تفتيش دقيق ، ويخرج بنفس الطريقة .

ووقفنا على مقربة من البوابة فى داخل المعتقل لنعاين أداة الهرب الوحيدة ، وندرس المسألة من كافة جوانبها ، ورأينا الحمار وهو يدخل جارا خزان الجاز وهو ينوء من التعب وصاحبه يلهبه بسوط فى يده بلا فائدة ، ويبدو أنه حمار قد تجاوز الثمانين ، فهو ضعيف مريض ، مثقل بالأحمال ، ومر بنا صاحبه :

– السلام عليكم .

وردنا عليه السلام ، وكل واحد يتحسس الحمار وخزان الجاز فى فرح ظاهر وأمل مرتقب وسأل الرجل فى دهشة :

– كل هؤلاء الواقفين فى العملية ؟

وأجابه الذى اتفق معه بالإيجاب ، وبدت الدهشة شديدة فى وجه الرجل وعاد يسأل :

– كل هؤلاء ؟

وأكدوا له نعم ، وعاد الرجل يسأل :

– ولكن كيف يخرجون مع هذا الحمار ؟

– لاتشغل بالك ، نحن نعد العدة لكل شيء ، وسوف يخرجون على دفعات .

– على دفعات ؟ معقول على أى حال .

وبدت على الرجل أمارات عدم الفهم ولكنه عاد يقول :

– أنا تحت أمركم على العموم ، فكروا أنتم وعليَّ التنفيذ .

وتعجبت من شجاعة الرجل وشهامته ومروءته البالغة ، وظننت أنه أبله أو متخلف ، ولكنى بالحديث معه لم أجده كذلك ، فقد كان رجلا من أولاد البلد الذى يريد أن يقدم خدمة لهؤلاء الأسرى الذين يراهم كلما يأتى يصلون ويقرءون القرآن ، فهو يريد إنقاذهم وخدمتهم على أى صورة وبالكيفية التى يرونها ، ويتمنى لو يخرجهم من الحبس ، وهو يتعجل تنفيذ الخطة .

وما أن عاد بعد الأسبوع حتى تضاعف عدد الذين يريدون الهرب على الحمار المسكين ،وقمنا باحصاء العدد ، عدد المشتركين فى الهروب فوجدناهم جاوزوا المائتين ، واتفقنا على الاجتماع فى موعد حضور الحمار وصاحبه لنضع الخطوط النهائية للهرب .

وكانت مظاهرة ، الرجل يفرغ الجاز الذى أتى به ، بينما المعتقلين يقدمون شيئا من الشاى له ، وبعض الطعام للحمار ويدورون حوله إعجابا وأملا راقصا مرتعشا يداعب القلوب فى غموض لانهاية له .

والرجل يقوم بعمله وهو يقلب النظر إلى الجمع بين الفينة والأخرى ، ويهز رأسه فى عجب شديد :

– كل هؤلاء .

وتأتيه الإجابة حاسمة ومطمئنة :

– نعم .

وارتفع اللغط من سيخرج أولا ، وكم شخصا فى المرة الأولى ،

وارتفع صوت يقول :
– لاتوجد إلا مرة أولى .
وأكد آخر :
– لن تسمح الحكومة بتكرارها ، فصاحب الحظ هو من يقع عليه الدور فى المرة الأولى .
واقترب واحد من صاحب الحمار وسأله هامسا :
– أرجو أن تقدم لنا بعض المعلومات ليتسنى لنا رسم الخطة بأحكام .
– تحت أمرك .
– كم شخصا يستطيع الحمار حمله وهو خارج ؟
وبدا على الرجل أنه لايفهم :
– كم شخصا ؟ الحمار أمامكم ، اركبوه وجربوا قوته ، لقد قلتم لاشأن لى بالتفكير .

أنا شخصيا لا أعرف كيف يمكن أن يخرج هذا الجمع مع هذا الحمار الهزيل أنتم تحتاجون إلى (ونش) وعدد كبير من « طواقى الإخفاء » لأن هذا العدد من الحرس ليس مصابا بالعمى .

– سنختفى داخل خزان الجاز .
– وكيف تدخلون فيه ؟ له فتحتان كما ترون ، واحدة بأعلى للملء ، وأخرى بأسفل للتفريغ ، وكلتاهما لاتكفى أكثر من يد للدخول أو الخروج .
– اطمئن . لقد عملنا حسابا لكل شيء .
– أنا تحت أمركم .

وفجأة أعلنت حالة الطوارىء فى المعتقل ، وغلقت الأبواب ، وصار الخروج والدخول بإذن بين الغرفات والعنابر ، وقال واحد :
– لقد اكتشفوا خطتنا للهرب . ماذا سنفعل ؟
وضحكت ساخرا :

– اطمئن هذه خطة محكمة لن يضلوا إلى سرها أبداً .

وجاءت الأخبار فقد أمسكوا بصلاح الأنور ، وجاءوا به مخفورا إلى المعتقل وهو فى حالة صحية سيئة ، واستطعت أن اجتمع به فى غرفته الانفرادية بالمستشفى حيث كان يعالج ، وكانت التعليمات أن لايتصل به مخلوق ، يريدون أن تظل الأمور فى أذهان الناس طلاسم وألغازا ، فهم قوة هادرة قاهرة ظافرة ، وقد أمسكوا بالهارب فى بساطة ويسر .

وحكى لى صلاح الأنور ماجرى له .

خرج من المستشفى يمسك أسفل بطنه بيده ، وركب (الأتوبيس) ، وسأله قاطع التذاكر :

إلى أين ؟

وكان لايعرف شيئا بطبيعة الحال فأجاب :

– آخر الخط .

وكانت الأتوبيسات وقتها تمكن الراكب من الجلوس فى بعض الأحيان ، وجلس صلاح الأنور بجوار النافذة يرقب الطرقات والمارة فى دهشة وانبهار ، ورأى ميدان رمسيس ومحطة السكـ الحديدية وهو معلم يذكره ولاينساه ، وتجاوز الأتوبيس المكان فخاف من الضـ ياع فنزل عندما توقف الأتوبيس ، ورأى مسجدا كبيرا فى أول شارع شبرا ، وكان رجلا قلبه معلق بالمساجد ، التى لم يرها منذ كان غلاما حدثا ، فبعدها سجنوه ثم اعتقلوه ولم يعرف من الأماكن غير العنابر والزنازين ومكاتب الإدارة حيث التحقيق بالسياط . ودخل المسجد وأدى صلاة العصر ، ثم خرج متلهفا يشترى طعاما وشيئا من المضادات الحيوية للعلاج ، وعاد مرة ثانية إلى المسجد ، وبقى فيه حتى أدى صلاة المغرب ، ثم غادره راكبا أتوبيسا وهو يفكر فى أهله وبيته يريد أن يراهم ولكنه كان يعرف أن كلاب الصيد تنتشر حول البيت ، فعاد حزينا خائبا وانتابته نوبة

قیء فی (الأتوبیس) ، وفزع الناس فقد کانت الکولیرا منتشرة فی تلك الأیام . وأغمی علیه وحملوه إلی مستشفی القصر العینی القریب ، وهناك قابلوه بإهمال شدید وأفاق وسأل فعرف أین هو ، وخرج فزعا من المکان ، وعاد إلی المسجد الذی کان فیه بأول شبرا وکانت أبوابه قد أغلقت ، فقضی اللیل علی عتبته ، وعند الفجر دخل وتوضأ وأدی الصلاة ، وجلس یفکر فی تصاریف القدر . لم تکن فی رأسه فکرة محددة أو هدف واضح ، جاءته رغبته للهرب فجأة ونفذها دون تمهید ، وکان غایة أمله أن یظفر بشیء من الحریة ولو لساعات قلائل ، کان یعرف أن مصر المحروسة تعج بالحرس وأنها محروسة بالفعل ، وکان مریضا به جرح غائر یحتاج إلی عنایة ، ولکن أمله فی الحریة ولو لساعات غطی علی کل تفکیر ، وألغی من رأسه کل حذر ، وصار منتهی مایرید أن یسیر فی الأسواق ، ویأکل الطعام ، ویتصرف کیفما یشاء فی حدود الجنیهین اللذین فی حوزته ، وقد فعل .

انتهت نقوده ولم یبق معه إلا قروش لاتکفی إلا للعودة بصعوبة إلی المعتقل .

وبالفعل سأل عن الطریق إلی طره ودله أهل الخیر ، وصار یرکب تراما مرة ، ثم (أتوبیسا) مرة أخری فالقطار من محطة باب اللوق ونزل فی محطة طره .

وصار یسأل الناس عن مکان المعتقل فهو لایعرفه إلا من الداخل ، ودله الناس وکان علیه أن یسیر عدة کیلو مترات ، وهو الجریح المریض المثقل ، فکان یشیر لعربات الشرطة والسجن حتی تحمله معها بلا فائدة !

وکان حول المنطقة بوابة کبیرة علیها الحرس والجند یحملون البنادق الآلیة والرشاشات الفتاکة ، وألقی علیهم صلاح الأنور السلام ، وطلب منهم أن یسمحوا له بالدخول فقالوا :

– لابد من تصريح .
وحاول أن يشرح :
– هذا للزيارة وأنا لست كذلك .
وسأله الشاويش متهكما :
– وأنت تريد الدخول للإقامة ؟!
وأجاب صلاح الأنور فى بساطة :
– بالضبط .
وسأله الشاويش متهكما فى دهشة :
– تريد أن تدخل لتقيم فى المعتقل ؟!
– فى الحقيقة المسألة ليست هكذا بالضبط ، فى الواقع أنا أقيم فى المعتقل منذ سنوات عديدة ثم ، ثم ....
– ثم خرجت لتشم الهواء أو لتشترى بعض الأشياء أليس كذلك ؟

كلا . فى الحقيقة لقد هربت من المعتقل ، ألم تسمعوا عن شخص اسمه صلاح الأنور قد هرب من المعتقل ؟

وصار الشاويش يتأمله كمجنون ، وكان لم يسمع بهذه القصة :
– هربت من المعتقل ؟
– نعم .
وهو يشير ناحية المعتقل الذى يقع بعيدا عند الأفق :
– هذا المعتقل ؟
– نعم . معتقل طره السياسى .
– وتعرف اسمه ؟

ألم أقل لك أنا أقيم هناك .
وبدت اللعبة مسلية للشاويش :
– كنت تقيم هناك لمدة وهربت .
– هذا صحيح .
– ولماذا عدت ؟

– من الطبيعى أن أعود . أين أذهب ؟ وأين أعيش ؟

وتأمله الشاويش قليلا ، ورأى وجهه الذى أرهقه الجرح الذى ببطنه ، ورأى قذارة ملابسه ، فقد كان يرتدى جلبابا لم يغسل ، ونعلا قديما باليا ، ويبدو فى هيئة الشحاذين بالإضافة إلى تصور الشاويشية أنه مجنون ، وضرب الرجل يده فى جيبه وأخرج قطعة من النقود وأعطاها لصلاح الأنور وقال :

– اذهب يابنى . ربنا يسهل لك !

وتعجب صلاح الأنور ، وامتلأ حيرة ، ولم يدر ماذا يفعل هو يريد الدخول إلى المعتقل ليظفر ببعض الراحة من ذلك التعب الشديد الذى يشعر به ولكن (الشاويش) يرفض أن يسمح له بالدخول ، وانتحى ناحية ليفكر .

وتغيرت الوردية وجاء شاويش آخر وحدثت نفس القصة ودار نفس الحوار تقريبا ، ولكن الشاويش الجديد كان أكثر غلظة من سابقه فنهر صلاح الأنور بقسوة ورد عليه صلاح بشدة :

– إن لم تفعل ما آمرك به فسوف يعتقلونك ، حاول أن تفهم أنا معتقل هارب وأريد العودة ، ولو بلغ الرؤساء هذا فقد يؤذونك .

وفكر الشاويش قليلا :

– معتقل هارب يريد العودة إلى المعتقل !! أمر لايدخل عقلا !

– ماذا لو اتصلت بالمعتقل من هذا التليفون ؟ تطلب القائد عبد العال بك .

وعاد الشاويش للتفكير من جديد :

– عبد العال بك هو قائد المعتقل بالفعل .

وأسرع إلى التليفون واتصل بالمعتقل .

– شخص يدعى صلاح الأنور يطلب الحديث مع عبد العال بك .

وسمع الشاويش الإجابة على الطرف الآخر ، واصفر وجهه ، وألقى بالسماعة ، ونادى بأعلى صوته يجمع الجند ، وهو يمسك بصلاح الأنور المسكين !

- حرس سلاح .

واجتمع الجند من كل حدب وصوب ، وأمسكوا بصلاح الأنور وطرحوه أرضا وهو جريح ينزف ونسوا أنه قد جاء بنفسه .

وماهى إلا ساعة وكانت سيارة تقطع الطريق وهى ترفع عويلها ، ومن خلفها سيارة أخرى بها صلاح الأنور وقد قيدت يداه ورجلاه بالحديد وبجواره عبد العال سلومة يسبه سبا قبيحا :

- ياابن الكلب . ظننت أننا لانمسك بك ؟ عيوننا يقظة ، ونحن نهيمن على البلد .

- ياسيدى القائد لقد جئت بنفسى إلى المعتقل .

وتتوالى عليه الكلمات والرفسات من الجند الذين يمسكون به فى العربة التى يقودها عبد العال بك بنفسه .

وأمام حسن طلعت مدير المباحث العامة ، وأحد حماة حمى الزعيم وقف صلاح أنور يحكى له حكايته وحسن طلعت يقاطعه :

- أريد أن أعرف لماذا هربت ؟

- حتى أقف أمامك وأعرض عليك مشكلة الإخوان المسلمين .

وبصوت كالرعد يرد عليه حسن طلعت :

- لايوجد شيء اسمه الإخوان .

ويرد عليه صلاح الأنور وهو يبلغ ريقه :

- أقصد مشكلة المعتقلين .

- ياسيادة مدير المباحث كل من فى المعتقل مظلوم ويستحق الرحمة من هذا الحبس الطويل ، والظلم ظلمات يوم القيامة ، وهو يسهل مهمة العدو فى القضاء علينا .

– اسكت ياكلب . هل جئت لتلقى علينا موعظة ؟ أنتم سبب هزيمتنا أمام اليهود .

أنتم الذين صنعتم النكسة ، شغلتم بال الحكومة ، وأزعجتم الرئيس .

– نحن ياسيدى المدير ؟

– اسكت . هيا خذوه إلى المعتقل .

ويسرعون بجره إلى الخارج ، وماأن يقتربوا من الباب حتى يستوقفهم المدير :

– انتظروا ، ماذا قلت عن اسمك ؟

– اسمى صلاح الدين عبد الخالق الأنور .

– سيكون اسمك بين المفرج عنهم فى الكشف القادم .

ويسأله صلاح الأنور فى فرحة :

– ومتى يكون ذلك ياسيادة المدير ؟

– هذا فى علم الغيب . هيا .

اشتدت الوطأة على المعتقلين بعد هرب صلاح الأنور وعودته ثانية ، وأسرفوا فى تفتيش الأطعمة التى تأتى فى الزيارات ، ومنع الرسائل الواردة والصادرة ، وتفتيش العنابر بحثا عن الممنوعات ، وكانت كثيرة ، فالممنوع فى المعتقلات والسجون شىء غير محدود ولا واضح ويمكن أن يندرج تحته أى شىء ، نعم أى شىء حتى الملابس ، ولايتبقى بعد أخذ الممنوعات غير البطانية الصوف ، والرداء الذى نرتديه ، والذى أخذناه عهدة من الدولة المضيفة ، وزاد الضيق والكرب بالناس ، وظنوا أن لاملجأ من الله إلا إليه ، وابتلى المؤمنون وزلزوا زلزالا شديدا .

ولم يكن هناك مانهرع إليه فى هذه المدلهمات غير الصلاة وقراءة القرآن .

وكان عبد العال مايكاد يصدق أن تأتيه إشارة يسيرة من المباحث حتى يعيث فى المعتقل فسادا ، وكما قلت كانت له أساليبه وطرقه التى يضيق بها على الناس ويغيظهم ولو استطاع لقتلهم كما فعل فى مذبحة طرة عام ١٩٥٧ ، وقد فعلها ثانية فى طرة .

كان هناك أخ كريم من المسجونين الذين قضوا عشر سنين دون تأييد للحكومة فى سجون مصر المختلفة ، وكما قلت هى طبقة من الطبقات ، أو هو باللغة الحديثة « كادر » إسلامى له أهميته الحركية الفائقة ، فهؤلاء هم الذين صمدوا أمام كافة وسائل الضغط الذى وصل إلى درجة القتل ، ورغم هذا لم يوقعوا ورقة ولو من الناحية الشكلية ، فقد كان صمودهم عظيما ، وكانوا يخيفون الحكومة بالفعل ، ولم يكونوا فى درجة ثقافية واحدة فمنهم الأمى الذى لايقرأ ولايكتب ، ومنهم أستاذ الجامعة ، ولكنهم جميعا مؤمنون مسلمون ، أخذوا على أنفسهم واجبا واحدا محددا وهو الصمود أمام كافة ماتصنعه الحكومة لتبقى جماعة الإخوان المسلمين ، وقد نجحوا فى ذلك إلى حد كبير ، وعندما دارت الأيام دورتها ، وبقى على حاله من بقى ، وتطرف من تطرف وزاد فى عداوته لعبد الناصر فهو سبب كل مصيبة ، وهناك ذلك الأخ الكريم الذى فقد عقله فى هذه الدياجى التى لاأول لها ولا آخر ذلك هو الأخ (س . ب) .

صار يظن أن الناس جميعا قد خانوا الأمانة وضيعوا عهد الله وتركوا كتاب الله وراء ظهورهم ومن ثم لابد لهم أن يموتوا ، فهو يأتى بالأدوية السامة ثم يطحنها ويضعها للناس فى الطعام ، وكثرت حالات القيء والإسهال ، وعرف كل المسجونين بهذه القصة بعد أن ذهب البعض ضحية لهذا ، ومضت أيام السجن وجاءت أيام المعتقل وجاءوا بالأخ (س . ب) والكل يعرف سره والإدارة كذلك ، ووضعوه مع الناس ، ولم يكن الأمر فى أوله يخيف ،

فليس هناك مايمكن أن يحصل عليه ، ليس هناك شيء على الإطلاق ، ثم تطورت الأمور وانفتح المعتقل على الزيارات وكثرت الممنوعات ، ومن هنا ظهر خطر هذا الأخ المسكين واستفحل ، فهو يستطيع الحصول على مايريد من أدوية وسموم ، والمكان مفتوح ولاحراسة على أحد ، وطلب العقلاء من قائد المعتقل أن يعزل ذلك الأخ خوفا من خطره فقال باستهانة :

– ولماذا لاتنتبهون وتأخذون حذركم .

وكنا نقيم عليه نوبات للحراسة حتى لايدس سما فى طعام لأحد من الناس ، وكان البعض يظن أنها مبالغة ، فالرجل ودود حلو المعشر والكلام ، ولاتبدو عليه علامات الجنون ، ولكن من يعرفه يؤكد ذلك ومن عاشوا معه فى السجن قبل المعتقل أكدوا لنا أن هناك من مات بسببه ، وهو غير مسئول عما يفعله فقد ذهب عقله ، ومن ثم فهو معذور.

ووطدت علاقتى به أنا والمهندس أحمد أسامة الهضيبى ، واستراح إلينا ، وقص علينا مايرى من آراء ، وكيف خان الجميع وغدروا ، وصرح لنا أن علينا واجبا مقدسا لامندوحة من أدائه وهو تطهير الأرض من هذه الأرجاس التى تشوه وجهها .

وقلت له لأسبر غوره :

– ولكن . لعل الإخوان المسلمين يختلفون عن غيرهم ؟

وقال فى صوت كالفجيج :

– هؤلاء كانت فى أيديهم الفرصة كاملة للقضاء على عبد الناصر وضيعوها بحجة أنهم لايريدون إراقة دماء ، انظر كم من دماء أريقت فى هذا السبيل ، لو كانوا قد تخلصوا من عبد الناصر لتغير حال مصر والعرب والمسلمين . هؤلاء هم أئمة الكفر ويجب أن نبدأ بهم .

وتظاهرنا بالاقتناع وقال له المهندس أحمد اسامة الهضيبى :

– ولكنهم جميعا يشكون فى أنك تضع السم لهم ، ومن ثم فهم يحذرونك .

وبدت عليه الحيرة :

– وماالعمل ؟

فقلت له :

– الرأى أن ترسم أنت لنا الخطة ونقوم نحن على تنفيذها .

وبدا عليه الاقتناع الكامل :

– هذا كلام معقول جدا .

وكان يأتينا بدواء مسحوق لاندرى كنهه فنعدمه ، ونخبره أننا قد وضعنا السم لفلان ، وتمضى الأيام ويسألنا :

– لم يمت الرجل .

وأكدنا له أننا وضعنا له المسحوق ولانفهم تفسيرا لعدم موته ، ويعطينا من جديد ، ونفس الإجابة ، وأذهب إلى القائد عبد العال واسأله باسم الإنسانية أن يعزل ذلك الأخ المسكين الذى ذهب عقله ، ويضحك عبد العال سلومة ويقول بوضوح :

– وجوده يثير الذعر بين الناس ، ولعلنا نستفيد منه يوما ما .

وأعجب ، هل إلى هذا الحد تجرد الرجل من كل مشاعر الرحمة .

وكان الأخ (س . ب) شديد الذكاء فبدأ يشك فينا فقلت له :

– انهم يستخدمون السحر فى التخلص من السم .

وأصر وقال :

– سوف أفعل بنفسى مافشلتم فيه .

وصار يعد الطعام الجيد الفاخر ويضع فيه مايصل إليه من سموم ، وكان يدبر موت الشيخ محمد عبد الفتاح عارف ، فكان يصنع الطعام الشهى ونحذره بلا فائدة ، وفى ليلة بات يتقيأ طوال الليل وعمل له غسيل لمعدته ونجا من الموت .

وجاء الأخ أحمد نصير عليه رحمة الله يخبرنى أنه يسعى إليه ليدعوه إلى طعامه ويسألنى الرأى وقلت له :

– وهل هناك رأى ؟ لاتذهب .

– أنتم تبالغون فى الأمر . الرجل طيب ومسكين .

– هو طيب ومسكين ولكن عقله قد ذهب ، وهو يعمل على موت الجميع .

– سوف أذهب إلى طعامه .

وقلت له محذرا :

– لاتفعل أرجوك .

وذهب المرحوم أحمد نصير إلى طعام الأخ (س . ب) وتناوله ، وهناك من قال إنهم رأوه يتردد على عبد العال سلومة ، وماأسهل إغراء مجنون وساءت أحوال أحمد نصير ، ولم يفهم أحد ماذا أصابه ، وعجز الأطباء فى التشخيص ، ونقل إلى القصر العينى حيث المعتقل الذى هناك ، وقال من كان معه :

– عندما حانت منيته قال : لقد وضعوا لى السم ، فعلها عبد العال سلومة ولما سألوه كيف قال لهم :

– انصتوا هل تسمعون الأذان ، رددوا معى . الله أكبر الله أكبر .. وظل يردد الأذان الذى لايسمعه سواه حتى فاضت روحه !

وجاء الخبر إلى المعتقل وأقيم المأتم . وكان (س . ب) يضحك فى جنون ، ويقذف بأشيائه هنا وهناك وهو يصرخ بأعلى صوته .

– قد نجحت . الحمد لله .

وصار يقولها حتى انهار من التعب مغشيا عليه .

صدقت جميع نبوءات محمد قطب عما تفعله الصهيونية وأمريكا بالعالم ، والعالم الإسلامى بوجه خاص ، كان يحكى لنا مايكون

ونحن فى أبى زعبل ، وجئنا إلى طره فوجدنا ماكان يقوله صحيحا ، وحكى لنا فى طره ، ماوجدناه حقيقيا بعد ذلك ، وكأن الرجل كان يقرأ من كتاب مفتوح .

وكان فكره متشعبا له آراء كلية فى الكون والحياة والإنسان ، وتفسيرات تفصيلية لكل مايحدث من تحركات سياسية ترسمها أمريكا ووكالة الاستخبارات المركزية لينفذها الفراعين الصغار ، فيحتفظون بكراسيهم ، وينفذون إرادة من يحمونهم ويحرسونهم ، ثم يستغنون عنهم ويقذفون بهم فى غياهب النسيان أو المجهول ، وكان يقول : أمريكا هى التى تحكم العالم ، وإسرائيل تحكم أمريكا واليهود هم الذين يحركون القوى فى الاتجاه الذى يريدون ، وتفصيلات مخططاتهم لايفهمها سواهم ، ولاملجأ من هذا كله لايكون إلا بالرجوع إلى الإسلام من جديد ، وأن تتجرد فى قولة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، عندها يشرق فجر جديد ، ونبصر آفاقا رحيبة ، ويكون لنا مكان فى عالم الأقوياء ، ونحظى بنصر الله ، ونتبوأ المكانة التى نستحقها كمسلمين .

والحديث عن مهرجان الحرية والاعتقال فى معتقل طره السياسى طويل لاينتهى ، كيف تكونت الأفكار والتيارات الجديدة ، وكيف كان الضغط والإرهاب سببا فى توجيه بعض العقول إلى منزلقات التطرف ونتائجه ، ولكن لامناص من الانتهاء من الحديث عن معتقل طره السياسى .

الفصل الثانى والعشرون

محكمة التظلمات

وهى حكاية من الحكايات العجيبة والقصص الغريبة التى حدثت لبعضنا أيام كنا هناك فى المعتقل . وكنا أيامها فى معتقل طره السياسى ، بعد أن انتهت أيامنا فى أبى زعبل ، **وغادرناه بعد هزيمة يونيو .**

وكانت هناك ضغوط شعبيه ومظاهرات طلابية تطالب بالتغيير ، وهو مطلب غامض غريب .

تغيير من ؟

من يريدون تغييره ، لا يتغير إلا بالموت أو القتل ، وهما شيئان فى علم الله سبحانه وتعالى وحده .

المهم كان مطلبا ساذجا انتشر بين الناس انتشار النار فى الهشيم ، وتظاهر الناس من أجل إعادة محاكمة قادة الطيران أثناء هزيمة يونيو لأن العقوبة كانت خفيفة لا تتفق مع جلال المصيبة التى حدثت والشيء الذى لم يعرفه الناس أن قادة الطيران هؤلاء مساكين مظلومون ولا دخل لهم بهذه الهزيمة المنكرة ، أو دورهم فيها ضعيف ، وأن المسئول عنها هو السلطان ونائب السلطنة ، ولكن هؤلاء فوق الشك ، ولا يمكن لوطنى مخلص أن يمد إصبع الاتهام تجاههم .

وكان لابد من صدور عدة شائعات وقرارات جمهورية حتى يمكن أن يستوعب النظام هول الهزيمة ، ويحكم قبضته قوية من جديد ، على ذلك الشعب المسكين الذى بدأ فى التمرد .

كانت الشائعة القوية التى أطلقتها أجهزة المخابرات فى ذلك الحين أن أربعة من كبار قادة الجيش يجبرون عبد الناصر على البقاء فى الحكم حتى يزيل آثار العدوان .

إى والله ! هذا ما سمعناه فى ذلك الحين !

وصدر **بيان ٣٠ مارس** ، وألقاه علينا عبر الإذاعة . وكنا نبتسم ضاحكين من الشعارات الطنانة العظيمة التى تضمنها البيان الشهير . وكان الناس يظنون أن كل حرف تضمنه البيان سوف يترجم إلى أعمال عظيمة تغير الحياة فى مصر . وصار الجميع يتوقعون عهدا من الحرية والانفراج .

أما نحن فقد كنا نداری ضحكاتنا فى أكمامنا من هذا الشعب الطيب الذى اعتاد الكلام وأدمنه ، وعرف هذا جلادُه منه ، فصار يقدمه له كل حين .

وامتلأت الصحف بالتعليقات على بيان ٣٠ مارس ، وناقشته الندوات الأدبية والفكرية ، واجتمع القضاة فى ناديهم يتدارسونه والمهندسون والأطباء والمدرسون فى نقاباتهم ، وامتلأت البلد بالكلام تعليقا على الكلام .

ودار همس على استحياء عن المعتقلين المساكين فى معتقلات مصر واستجابت القيادة السياسية الحكيمة لهذا الهمس ، فقد كانت تشعر بنبض الشارع ، كما كانت تدعى فى تلك الايام .

وصدر القرار الجمهورى رقم ١٥١٤ لسنة ١٩٦٨ وأنا أكتب من الذاكرة وليس من مذكرات ، ويقضى هذا القرار العجيب باعتقال المعتقلين الموجودين بمعتقل طره السياسى ، ويمكنهم أن يتقدموا بطلب تظلم من قرار الاعتقال أمام محكمة أمن الدولة العليا حيث توجد دائرة للنظر فى تظلمات المعتقلين . وأعلنوا بين المعتقلين :

من أراد الخروج فليكتب تظلما من اعتقاله الذى دام سنوات . وأقسم قائد المعتقل بشرف الحكومة أن من يكتب تظلما سوف يخرج ، وبطبيعة الحال لم نكن لنصدقه ،

فالإفراج عن معتقل لا يستدعيه أن يكتب تظلما من اعتقاله ، ولكن عدم كتابة التظلم معناه أننا نعلن عدم الثقة فى الحكومة وفى شرفها ، ولم يكن هذا من الحكمة ، هكذا كان يظن البعض ، وكنت منهم ، وكان هناك فريق من المعتقلين لا يكتبون أى شيء يقدم باسم أية جهة من جهات الحكومة ، وأثبتت الأيام أنهم كانوا على حق ، وأنهم أفهم لطبيعتها منا جميعا .

وأذكر أننى التقيت **بالمرحوم شكرى مصطفى** ، وقد أعدمه السادات فيما بعد بتهمة قتل **المرحوم الشيخ الذهبى** ، وقلت له :

ــ ياشكرى .. قائد المعتقل أقسم بخروج من يكتب تظلما . ما قولك ؟ فأجابنى عليه رحمة الله ساخرا :

ــ إنهم قالوا وخير القول قول العارفينا

مخطىء من ظن يوما   أن للثعلب دينا

ومشى إلى شجرته المعتادة ، حيث كان مجلسه لقراءة القرآن . المهم تقدم الكثير بطلبات متظلمين من قرار الاعتقال ، الذى مضى عليه سنوات ، والكل به أمل فى «**القشة**» كما يفعل الغريق ، وكما قلت فإن العقلاء هم الذين ازدروا الحكومة ولم يثقوا فيها ولا فى وعودها ، وأراحوا أنفسهم من العناء الشديد .

وكانت نوعيات المعتقلين فى معتقل طره السياسى مختلفة ومتباينة فمن المسلمين بمتطرفيهم ومعتدليهم إلى اليهود بطائفتيهم (القرائين) و(الربانيين) ، ثم القبط ، فشهود يهوا ، فالشيوعيين ، وبعض أهالى غزة وسينا ، وبعض رجال الأحزاب التى كانت من الوفد والحزب الوطنى «ليس الحزب

الوطنى الحالى ابن الاتحاد الاشتراكى وحزب مصر الذى مات أيام السادات» ومن لم تكن له تهمة واضحة المعالم كانوا يضعونه فى عنبر سموه «**النشاط المعادى**» ، وكانت هناك أشكال وألوان من المعتقلين ، وكل من يحاكم فى قضية ما ، ويحكم عليه بالبراءة يذهب إلى المعتقل ليقضى فترة ما بعد البراءة فى ضيافة الحكومة الرشيدة بمعتقلاتها ذائعة الصيت .

وكان عهد الضرب والكى بالنيران قد انقضى ، وكانوا يسمحون بقدر من الحرية يسمح لكل هذه الفئات أن تلتقى ببعضها البعض ، ويتبادلون الأفكار ، ويتصادقون ، وقد يتشاجرون فى بعض الأحيان ، ولكنهم فى معظم الأحيان كانوا يتفاهمون ، ومن خلال الجدل تنشأ أفكار جديده هذه هى سنة الحياة .

وصارت المجموعات تذهب إلى محكمة التظلمات تباعا يأتى البلاغ فى المساء ، أن من حُدِّدت أسماؤهم سوف يذهبون غدا إلى محكمة التظلمات ، ويبدأ المعتقل يعد ثيابه المدنية «المكرمشة» التى امتلأت برائحة النفتالين لزوم المحافظة عليها ، ويأتيه الزوار من العنابر الأخرى ، فهذا يوم من الأيام المشهودة . وقد يجلس إلى بعض من يثق بهم يتداول معهم الأمر فى جدية ، ماذا يقول للقاضى ، وما النقاط التى ينبغى عليه أن يثيرها ، والنقاط التى يهملها ولا يفتح الحديث عنها مع هيئة المحكمة . وكان بعض المعتقلين يهتم كثيرا بمثل هذه المداولات ، فقد كانوا يعرفون بموعد الجلسة قبلها بأيام ، بل يقدمون له اتهاما مكتوبا عليه أن يذهب به ويستطيع أن يعد دفاعا إذا رفض تظلمه ، أما عند المثول أمام المحكمه فلا يقبل غير الكلام الشفوى ، إجراءات تتسم بقلة الحياء .
وفى يوم من الأيام نادوا علىّ وآخرين .

وكان موعد الذهاب إلى محكمة التظلمات .

وتسلمت خطابا من السيد «**حسن طلعت**» مدير مباحث أمن الدولة .

ـــ «وهو فى خدمة الأمن السياسى من مايو ١٩٣٩ إلى مايو ١٩٧١» ـــ إلى السيد المحامى العام وهذا نصه :

السيد المحامى العام رئيس المكتب الفنى للتظلمات .

تحية

بشأن التظلم من اعتقال أحمد رائف والمقيد برقم ٣٠٢ لسنة ١٩٦٩ حصر عام تظلمات (اعتقال) نفيد سيادتكم بالبيانات الآتية :

١ ـــ رقم وتاريخ صدور أمر الاعتقال .

١ ـــ القرار ٢٧٣٥ لسنة ٦٥ بتاريخ ٢٦/٨/ ١٩٦٥

٢ ـــ القرار ١٥١٤ لسنة ٦٨ بتاريخ ١٠/١٠/١٩٦٨

٢ ـــ القانون الذى يستند إليه أمر الإعتقال .

١ ـــ القرار ٢٧٣٥ لسنة ٦٥ استنادا للقانون ١١٩ لسنة ٦٤

٢ ـــ القرار ١٥١٤ لسنة ٦٨ استنادا للقانون ١٦٢ لسنة ٥٨

٣ ـــ الأسباب التى أنبأت بخطورته وأدت إلى اعتقاله :

١ ـــ اعتقل عام ١٩٦٥ للتحقيق معه فى التحقيقات الإخوانية ـــ واعترف أنه يتعاطف مع أفكار جماعة الإخوان المتعصبة والمناهضة لسياسة الدولة وأنه اتصل بالشيخ عبد الفتاح عبده إسماعيل (حكم عليه بالإعدام) الذى كان يردد أن مصر دولة غير إسلامية ويجب التغيير بالقوة إلا أنه اعترض على ذلك وكون وآخرون أسرًا إخوانية مستقلة بهم من سنة ١٩٦٠ إلى

سنة ١٩٦٤ واشترك فيها عدد كبير من أفراد الجماعة .

٤ ـــ هل يخشى من إتيانه أعمالا ضد أمن الدولة تتعارض مع المصالح القومية للبلاد فى الوقت الحاضر ؟

الإجابة : مازال على أفكاره ومبادئه المناهضة لسياسة الدولة ويخشى من الإفراج عنه حاليا ، وننصح بعدم ذلك .

لواء
حسن طلعت
١٩٦٩/٣/٢٢

هذا هو نص الخطاب كما نقلته فى ورقة احتفظت بها كل تلك السنين التى مرت . والنص كما رأيتم ، حتى لاتوجد فيه تحية يختم بها الخطاب كالعادة . يعنى عليك أن تؤيد اعتقال من يحمل هذا الخطاب ، وهذا ما كان من جناب القاضى بالضبط كما سأحكى لكم .

كانت فكرة الخروج من المعتقل ورؤية الشوارع والناس والمركبات ، والحركة والنشاط فكرة رائعة تداعب مخيلتى وانتظر اليوم الذى يسمح لى فيه بالخروج ولو لساعات قليلة ، وكنا نتخيل المحكمة بمنظرها المهيب ورئيسها وعضو اليمين وعضو اليسار ، والأبهة والعظمة والعدل المفقود ، وسائر هذه التصورات المليئة بالرؤى المبهرة والمزعجة فى آن واحد .

وتحدد يوم عرضنا على محكمة التظلمات وكنا خمسة من المعتقلين على ذمة قضايا الإخوان المسلمين أذكر منهم الاستاذ **محمد فهيم راشد** موجه اللغة العربية فى التعليم

الثانوى ، وتسلطت عليه فكرة أيامها أن يكتب التماسات بالإفراج عن المعتقلين ويرسلها الى كل من يعرف ولا يعرف ، فبعد أن كتب المئات من الالتماسات إلى المسئولين كبارا وصغارا ، صار يكتب إلى الصحفيين والفنانيين ليوسطهم لدى الرئيس عبد الناصر ، وكان البعض يداعبه ويقول له لو كتبت التماسا إلى شادية المطربة فربما تستطيع بنفوذها التدخل لدى الكبار وإن لم يفرجوا عنا جميعا ، فسوف يفرجون عنك على أقل تقدير ، وكان الأستاذ فهيم راشد يتحمس لمثل هذه الأفكار ويكتب لشادية ولنجاة الصغيرة ولصباح ولسائر مغنيات مصر والعالم العربى لعل قلوبهن الرحيمة تتسع للتدخل فى الإنقاذ .

ولم تسفر كتاباته للمغنيات عن نتيجة ، وقيل له اكتب لراقصات مصر فهن بالتأكيد أكثر نفوذا ، وكان الرجل يدور على المعتقلين يسألهم عن اسم الراقصة التى يمكن أن تفتح أبواب المعتقل بين الضحكات والمداعبات ، والمرارة التى تغلف الكلمة والابتسامة ، فى حبس طويل مفتاحه فى يد سجان قاسٍ وخائن ، وقد أخذ على نفسه عهدا أن يفسد كل شيء ، وقد كان له ما أراد .

اجتمعنا فى زنزانة **الشيخ عارف** حيث كان يقضى فترة حبس انفرادى للتأديب وكان كثيرا ما يذهب للتأديب — وجلسنا نتداول فيما ينبغى علينا قوله فى المحكمة غدا ، وكان محمد فهيم راشد شديد التحمس للمحكمة ويظن أن فى يدها أمر الافراج عنه ، أما نحن فقد اهتزت ثقتنا فى إمكانية هذا .

كانت قد مضت أسابيع على ذهاب مجموعات المعتقلين ، بملاحظة النتيجة وجدنا أن الذين كانوا يذهبون

إلى المحكمة كانوا يختارون بعناية من غير الإخوان المسلمين ، اثنين من غير الإخوان ، أوثلاثة أحيانا ، ويستكمل الخمسة من الإخوان .

وتعود المجموعة المعروضة على المحكمة ، فيقبل تظلم غير الإخوان ، ويفرج عنهم بعد يومين أو ثلاثة ، ويطلب من الإخوان أن يتقدموا بمذكرة دفاع ، ويؤجل النظر فى تظلم أى فرد من الإخوان حتى يفصل فى المذكرة ، وعرفنا بعد ذلك أنهم لا يفصلون فى شيء ، وينسى الأمر بعد حين قريب .

وعرفنا أن القاضى يسأل المتظلم من غير الإخوان :

ـــ ما هى طلباتك ؟

ـــ الإفراج عنى .

ويقبل تظلمه ويفرج عنه ، أما المتظلم من أفراد جماعة الإخوان فيقول له القاضى العادل النزيه :

ـــ ما هو دفاعك .

ثم يتركه يقول أى كلام يشاء ، ثم يصرفونه فى هدوء إلى المعتقل بعد مذكرة بالدفاع ، يسلمها بعد ذلك إلى إدارة المعتقل ، والظن أنهم يلقون بها فى سلة المهملات ، فقد كانت الإخوان غولا رهيبا يخشاه الزعيم الخالد ، ولايقبل أن يسرى عليهم شيئا مما يسرى على غيرهم .

عرضنا هذه الامور على الأستاذ محمد فهيم راشد ، وصرنا نهز رءوسنا بين الشك واليقين ، وما ينبغى علينا فعله .

وكانت لفهيم راشد مشكله حية لما يمض عليها يومان .

لعلكم فهمتم مما سبق أننا كنا نعيش فى المعتقل بعد سنوات التعذيب الأولى على حسابنا ، طعام المعتقل لايصلح لاستخدام الآدميين ، وعلينا شراؤه من (كانتين) المعتقل ،

وكانوا يتاجرون فيه ويكسبون منا الكثير ، وكان الكثير ليست لديهم القدرة على شراء هذا الطعام ، وفى نفس الوقت بعضهم من كبار السن وأصحاب الأمراض المستعصية ، فكانوا يصرفون للقليل منهم غذاء طبيا ، وليس السبب الرحمة ، ولكنه الاتجار بهذا الغذاء الطبى ، فيصرفون نصفه ويبيعون النصف الآخر ، وكان هذا الغذاء الطبى مكوناً من قطعة لحم تصلح للاستخدام الآدمى وكوبا من اللبن وحبة من فاكهة الموسم .

وكان الذى يقرر من يستحق هذا الغذاء الطبى طبيب أمضى عمره فى العمل بالسجون والمعتقلات ، لايعرف عن الطب أكثر من سماعة يضعها على صدر الذى يعذبونه فيسمع دقات القلب ، فيقول مازال يتحمل العذاب ، ميت الإحساس بليد الشعور ، فاقد الضمير ، اسمه (خليل) ولا داعى لإكمال اسمه حرصا على الوحدة الوطنية ، وكان هذا الطبيب يأتى يوم الجمعة ، ويعرض عليه أولئك المساكين أصحاب الغذاء الطبى ، فيؤيد الغذاء لبعضهم ، ويلغى البعض الآخر من قوائم الذين يستفيدون من هذه الميزة التى لامعنى لها لولا الزمن الصعب ، وكانوا يسمونه (يوم العرض) ، وكان الشيخ عارف يدعو فى صلاته « اللهم لاتخذلنا يوم العرض على خليل » .

وتأيد رفض الأستاذ فهيم راشد عدة أسابيع ، وكانت بالفعل مشكلة تؤرقه وتهدد تهديدا حقيقيا ، والطبيب الجبان لايهتم بهذا .

وتكلم فهيم راشد فى زنزانة الشيخ عارف الانفرادية وقال :

– لقد تكلمت مع كل رجال القانون فى المعتقل وعلى

رأسهم الاستاذ شمس الشناوى والدكتور عبد الله رشوان والأستاذ عبد القادر حلمى وغيرهم وأكدوا أن نشاط الإخوان المسلمين شرعى وسليم ، وليس هناك نص قانونى يحرمه ، ومن هنا تكون حجتنا أمام محكمة التظلمات .

ويضحك الشيخ عارف ملء شدقيه :

ــ «نقول طور يقول احلبوه» يافهيم لايوجد قانون فى مصر ، بعد كل هذه السنين لم تفهم هذا ؟ أنا أشير عليك بشىء هام .

وينتبه فهيم راشد :

ــ وما هو ؟

ويعتدل الشيخ عارف فى جلسته .

ــ عندما تذهب غدا إلى محكمة التظلمات انس موضوع الاعتقال .

ويمتلىء وجه فهيم راشد بالدهشة :

– وفيم أتكلم إذن ؟

– تكلم عن الغذاء الطبى ، واطلب من القاضى أن يصرف لك الغذاء بحكم المحكمة وهى أكبر من (خليل) بالتأكيد .

وخيم الوجوم على وجه فهيم راشد ، بينما تعالت ضحكاتنا غير العابئة في سكون الليل .

جاء الصباح بعد ليلة ساهرة ، حلقنا فيها ذقوننا ، وارتدينا ملابسنا المدنية وخلعناها عشرات المرات ، سعادة وحبورا برؤية الشارع المرتقبة ، وتوافدنا إلى مبنى الإدارة ، وكان يقع على بعد مائة متر من عنبر اثنين حيث كان الخطر من الإخوان فى زعمهم ، وسار معنا جميع غفير من المعتقلين ، بين ناصح بما ينبغى علينا أن نقول ، أو ساخر من نتيجة ماسوف يكون ،

أو مهنئى بتلك الرحلة التى جاءت على غير انتظار عبر شوارع القاهرة التى جثم على صدرها شىء هو أعظم هولا وخطرا من الكابوس .

وضعوا القيود الحديدية فى أيدينا وأركبونا سيارة الترحيلات بين حراسة متجهمة غبية ، وضابط سمين كذكر الخنزير يجلس مغمض العينين معتمدا على الجند والحراسة والمخبرين .

وانقطعت ضحكاتنا وتوقف الكلام عندما غادرت السيارة فناء المعتقل الى الخارج ، واعترانا الذهول ورؤية النيل والشوارع والعربات ، وملأ الأسى وجوهنا ، وغرق كل منا فى أفكاره ، ولف السيارة صمت عميق . وفى منطقة «جاردن سيتى» انفجر إطار السيارة فأوقفونا فى مكان ، وكانت هناك سيارة چيب مزوردة بأجهزة اللاسلكى تسير فى مقدمة الركب التى سرعان ما اتصلت بمكان ما وجاءت قوة من العسكر أحاطت بالسيارة أنزلونا حتى يتم استبدال الإطار .

ومازلت أفكر إلى اليوم لماذا لم يأتوا بسيارة أخرى بدلا من هذا اللورى المحمل بالعسكر ، ألم يكن هذا أسهل وأيسر ، ولا أدرى لماذا تذكرت فى هذه اللحظات هزيمة يونيو والجيش الذى شرد فى سيناء ولم يعد منه أحد . لم يكن التفكير من طبيعة النظام فى تلك الأيام . استبدلوا إطار السيارة تحت الحراسة المكثفة، وبعض المارة يرقبون المنظر فى دهشة واستغراب ، ويشيرون بأيديهم من أنتم ؟ ونحن نجيب بابتسامة باهتة غامضة مريرة .

واصلت السيارة رحلتها حتى وصلنا دار القضاء العالى .

وتهيأنا للمثول أمام محكمة أمن الدولة العليا للنظر فى تظلمات المعتقلين .

اسم كبير عظيم يوحى بالأفكار الكثيرة ، من يكون هؤلاء الناس ؟ وكيف يفكرون ؟ وكيف ينظرون إلينا ؟ وما رأيهم فى الضياع الذى اجتاح مصر صباح الخامس من يونيو ؟

ووقفنا أمام باب القاعة غارقين فى التفكير ، وفى أيدينا القيود الحديدية ، وحولنا حرس شديدُ وشهُبُ ، وجلس ذلك النقيب السمين على مقعد خشبى قريب وأغلق عينيه وربما نام ، ومر عقيد من ضباط الشرطة للتفتيش ولمح فى أعيننا نظرات الازدراء فوقف قليلا وعيناه تتنقلان بين وجوهنا وبين القيود الحديدية ، واتسمت نظرته بعدم الرضا وأصدر أمره :

ـــ ارفعوا هذه القيود الحديدية أين الضابط المسئول ؟

وانتفض النقيب من نومه وهو يلقى التحية :

ـــ تمام ياأفندم .

وأشار له بيده ورفعت القيود ، ودخلنا إلى المحكمة اثنان اثنان وكنت مع الأستاذ محمد فهيم راشد .

وكانوا قد أخذوا الورقة الموجهة من حسن طلعت مدير المباحث إلى القاضى ووضعوها أمامه ، وصار يتظاهر أنه يقرأها باهتمام ، وكنت أتأمل المكان والأشخاص ، لم تكن قاعة محكمة مثل التى نراها فى الأفلام ، كانت منضدة كبيرة قد جلس عليها سبعة أشخاص ، رئيس المحكمة الذى عرفناه من تصدره للمجلس ومن قراءته للأوراق بين يديه ، ومن الوهلة الأولى تدرك أنه ليس قاضيا ، ولاينبغى له أن يكون ، له صلعة خفيفة ، وشارب قد رسم بعناية فوق شفتيه كأنه من صنع (ماكيير) ماهر ، ووجه شاحب غامض التعبير ، لايعانى من قلق ما ، ومن حوله شخوص قد اعتادوا هذا الموقف ، فكانوا يتحدثون فى أمور بصوت خافت ، وواضح من شكل وجوههم وطريقة حديثهم ، أنها أمور لاعلاقة لها بالموقف .

وكان واحد أو اثنان من الجالسين من ضباط مباحث أمن الدولة قد سبق أن رأيناهما فى معتقل ما وفى موقف ما مر منذ سنين ، وكان هذان الضابطان ينظران إلينا بتشف وسخرية وقسوة وهمس إلَّى فهيم راشد :

ـــ هذا الضابط أعرفه .

ولم أرد عليه فقد كنت منشغلا بالمشاهدة والتأمل .

ورفع القاضى غير النزيه وجهه إلَّى ، وربما لم يكن قاضيا وقال موجها كلامه إلى :

– ماهو دفاعك ؟

وكان يهز الورقة فى يده ويشير بها .

وفهمت أنه الاعتقال الطويل وأن استنتاجاتنا كلها صحيحة ، والتفت إلى فهيم راشد فوجدت وجهه وقد غشاه هم وغم عظيمان ، وابتسمت .

وقال القاضى :

ـــ أهناك ما يدعو إلى الابتسام ؟

ـــ هل ترى غير ذلك ؟

واربد وجهه وقال :

– هذه محكمة لها قدسيتها وهذا تصرف غير مقبول .

ـــ ابتسامتى تصرف غير مقبول أم اعتقالى كل هذه السنين دون سبب ؟

– ادخل فى الموضوع مباشرة . هل عندك دفاع عن اعتقالك ؟

ـــ سيدى القاضى . أنت قاض :هذه الورقة فى يدك لا معنى لها . ولو كان هناك سبب جدى لاعتقالى لسجنونى ، فقد أعدم من لم يفعل شيئا ، وعندنا فى المعتقل قضاة مثلك ، وهم فى سلم القضاء أعلى منك رتبة ومركزا ، وقد يأتيك

بعضهم بعد أيام وفى يده مثل هذه الورقة ، وقد يأتون بك شخصيا إلى المعتقل وتعود إلى نفس هذا المكان يوما ما وفى يدك ورقة مثلها ، فلا تغضب ربك وترض الناس وحاول أن تنظر بجديه إلى موقفك وأن تحسن التصرف .

ـــ هل عندك شيء آخر ؟

ـــ كلا .

والتفت إلى الاستاذ فهيم راشد الذى كان قد أدرك الموقف .

ـــ وأنت ؟

ولم يلتفت فهيم راشد إلى القاضى بل وجه كلامه إلى ضابط المباحث الذى حضر الجلسة وكان يعرفه :

ـــ سيدى أنت تعرف أننى رجل على المعاش ، وهو مبلغ لايكفى أسرتى ، فالأسعار غالية كما تعرف .

وتدخل القاضى فى حدة :

ـــ وجه كلامك لى أنا . أنا رئيس المحكمة .

وصار فهيم راشد يوزع حديثه بين القاضى وبين ضابط المباحث :

ـــ ظروف الأسرة لاتسمح بإرسال مبلغ من المال كل شهر لأشترى به طعاما من (الكانتين) وهذه هى المشكلة .

واهتمت المحكمة بهذا الحديث غير المفهوم ، وتبادلوا الهمسات ثم تكلم القاضى :

ـــ ما الذى تريد قوله ؟

وتشجع فهيم وقال :

– أنا أتكلم عن (الغذاء الطبى) الذى منعه (خليل) .

وظن القاضى أن الرجل به لوثة فأشار إلى واحد بجانبه وهمس إليه فأجلسوا الأستاذ فهيم راشد وقال القاضى :

ـــ بهدوء .. ما الذى تريد قوله ؟

وحكى لهم فهيم قصة (الغذاء الطبى) وضرورته له وكيف

منعه (خليل) ويطلب من المحكمة أن تتدخل مشكورة ، وترفع هذا الاختصاص من (خليل) على الأقل بالنسبة للأستاذ فهيم راشد .

وقال القاضى ونظرة أسيفة مرت عبر وجهه للحظة أو تكاد :

— والاعتقال ألم تكتب تظلما منه وجئت إلى هنا من أجل ذلك ؟

وابتسم فهيم راشد :

— لقد كانت خدعة منى حتى أصل إلى جنابكم وأحصل على الغذاء الطبى بأمر من محكمة أمن الدولة العليا .

— هذا خارج عن اختصاصنا .

— لاتستطيع الإفراج عنى فلا أقل من أن توصى بعلاجى .

وعدنا إلى المعتقل وفى الطريق كدنا نموت من الضحك من عبث ما رأيناه فى دار القضاء العالى .

•

كانت محكمة التظلمات أول ما بدأت لم تنتهج نهجا محددا واضحا ، ثم تبلورت تجاربها إلى سؤالين محددين . ماهو دفاعك ؟ أو ماهى طلباتك ؟ وعلى ضوئها يتقرر المصير . وعندما عدنا من محكمة التظلمات جلس إلينا كثير من رجال القانون المعتقلين الذين يأملون فى نجاح المحكمة ويشجعون الناس فى التقدم إليها بطلبات التظلم ، وحكيت للدكتور عبد الله رشوان وللأستاذ شمس الشناوى ماحدث فقالا لابد من كتابة مذكرة رداً على التهم ونحن لم نخسر شيئا ، وبطبيعة الحال لن نخسر شيئا ، وكانا مشكورين وغيرهما من رجال القانون يشرحان النقاط التى ينبغى أن تتضمن فى كل مذكرة من هذا النوع ونكتبها ونعرضها عليهم للتصويب والتصحيح .

وكان نص مذكرة الدفاع كالتالى :

محكمة أمن الدولة العليا

مذكرة

بدفاع أحمد رائف (متظلم)

ضـد

وزير الداخلية بصفته

فى التظلم رقم ٣٢ لسنة ٦٩ المحددة

لتقديم المذكرة والمرافعة فيها

جلسة ٢٨ يوليو سنة ١٩٦٩

الطلبات

يطلب المتظلم صدور الحكم بإلغاء قرار اعتقال والإفراج عنه

الموضوع

نوجز تفصيل المسألة فى النقاط الآتية :

أولا : عدم جدية الاتهامات المقدمة من المباحث العامة والتى أخذتها النيابة نقلاً عنها دون ماتصرف من جانبها :

١ ـــ قد نسبت المباحث العامة فى قضية لمتظلم آخر أمورا أكثر بكثير مما نسبته إلَّى ، ومع ذلك فقد أفرجت عن المتظلم ، الأمر الذى يحدونا إلى وجوب عدم التعويل إطلاقا على ماتذكره المباحث العامةفى الأوراق التى تسطرها وتقدمها للقضاء .

٢ ـــ فالاستاذ سمير حمزة المحامى صاحب قضية المتظلم رقم ٩١ ج سنة ١٩٦٩ نظرت دعواه أمام ذات المحكمة بجلسة ١٩٦٩/٤/٢٠ وتأجلت الدعوى لجلسة ١٩٦٩/٥/١٠ لتقديم ملفه وبين الجلستين أفرج عن المتظلم

وقضى بجلسة ١٩٦٩/٥/١٠ بانتهاء التظلم للإفراج عن المتظلم .

٣ — وقد تم إفراج المباحث العامة عن الأستاذ سمير محمود حمزة المحامى رغم اتهامه من قبلها بالعمل التخريبى ضد الوطن مع عناصر أجنبية فضلا عن عمله لقلب نظام الحكم وهو العامل الذى يشترك كل أفراد الشعب المصرى فيه .

٤ — وقد جاء فى مذكرة المباحث العامة عن الأستاذ سمير حمزة المحامى والمودعة فى ملف تظلمه الذى نرجو الرجوع إليه مايأتى :

نرى استمرار اعتقاله لأن فى الإفراج عنه خطورة على أمن الدولة للأسباب الآتية :

● ينتمى إلى حركة القوميين العرب وأصبح من قادتها فى الجمهورية العربية المتحدة (كان هذا هو اسم مصر زمان) .

● بالرغم مما ادعته الحركة بتجميد نشاطها بين المصريين فى الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٦٣ إلا انه ظل على اتصال بقادة الجناح الماركسى لهذه الحركة فى الخارج ويتلقى منهم توجيهات لتنفيذ مخططهم التخريبى داخل الجمهورية .

● وتنفيذا لهذا المخطط فقد استغل المذكور مركزه فى اللجنة المركزية لمنظمات الشباب باعتباره أمينا مساعدا لها فى العمل على تنظيم سرى داخل المنظمة يلتزم بالماركسية وكان يرأس هذا التنظيم والتقى أعضاؤه فكريا على أن القيادة السياسية فى الجمهورية غير قادرة على السير بالبلاد فى الطريق الاشتراكى الصحيح ، وأنه يجب أن تحل محلها قيادة جديدة ، وعملوا على استقطاب العناصر الصالحة من أعضاء

منظمات الاتحاد الاشتراكى وخاصة منظمة الشباب وتثقيفهم بالثقافة الماركسية ، ورفع هذه العناصر وإعطائها مسئوليات قيادية ، وتصعيدها إلى المراكز العليا بتنظيمات الاتحاد الاشتراكى حتى تصل إلى مواقع السلطة والسيطرة ويتحقق هدف التنظيم إلى قلب نظام الحكم .

● اعتقل لهذا النشاط فى ١٩٦٦/١٠/٤ وفصل من عضوية الاتحاد الاشتراكى كل هذه التهم التى وجهت للأستاذ سمير محمود حمزة المحامى من واقع ورقة الاتهام التى مثل بها بين يديكم ، وقبل أن تفصل محكمة أمن الدولة العليا التى تشرف برئاستكم فى قضية اعتقاله أفرجت عنه مباحث أمن الدولة ، بعد أن نسبت إليه هذه التهم الواضح خطورتها ، ألا يعتبر هذا دليلا على عدم جدية الاتهامات ، لأنه لايفترض فى جهاز أمن الدولة أنه يفرط فى أمن الحكومة ، وهو الغرض الذى أنشىء الجهاز من أجله .

أو كان من الأولى والأجدر أن تفرج عنى ــ لو كان الأمر أمر عدل ولكنه ليس كذلك ــ علما بأن الاتهامات التى مثلت بها أمامكم بالورقة إياها ليس فيها اتهامات تذكر قياسا على ماوجهته إلى الأستاذ سمير حمزة المحامى .

٥ ــ ثم يأتى بعد ذلك دور السيدين سليمان موسى سالم صباح وعامر عميرة موسى صباح وقد اتهمتهما المباحث العامة بالتجسس لحساب إسرائيل ورفضت محكمتكم الموقرة طلب تظلمهما من أمر الاعتقال بتاريخ ١٩٦٩/٥/١٨ ، وهذا أيضا ينهض دليلا على أن التهم التى وجهت إليهما لم تكن ذات طابع جدى ، وإلا لما كان فى مقدور مباحث أمن الدولة أن تفرج عنهما وهما فى نظرهما وطبقا لأوراقهم الرسمية يعملون لحساب إسرائيل ، وإلا كان فى ذلك أبلغ الضرر بمصلحة الوطن ، والمفروض فى مباحث أمن الدولة أنها تحافظ على أمن الجمهورية وسلامتها ، فهل

تعمل مباحث أمن الدولة لحساب إسرائيل ، لاشك أن هذا غير صحيح فإذا أحسنا الظن فإن جهاز مباحث أمن الدولة يعبث بكم وبنا وبكل مصالح الوطن العليا ، أو لديهم توجيهات يعجز عقلنا عن فهمها . ونربأ بكم أن تكونوا عونا لهم فى تخريب البلاد فى أيام حَرِجه من تاريخها .

ثانيا : الأسباب التى أنبأت بخطورتى وأدت إلى اعتقالى :

١ ــ ونناقش كلام مباحث أمن الدولة الذى جاء فى مذكرتهم .

تقول المذكرة «إنه يتعاطف مع أفكار جماعة الإخوان المسلمين المتعصبة والمناهضة لسياسة الدولة» وإن صح هذا فهو ليس عيباً ولا يشكل جريمة فى القانون الذى يحكمكم . بالإضافة إلى أنها ذكرت التعاطف ولم تذكر الانتماء إلى الجماعة ، وإلا كنت حوكمت وصدر ضدى حكم بالسجن كما حدث مع الكثير .

٢ ــ ودليل آخر من نفس مذكرة أمن الدولة ينفى تهمة التعاطف ويبددها فى الهواء فقد قالت المذكرة فى فترة لاحقة «وأنه اتصل بالشيخ عبد الفتاح عبده إسماعيل (حكم عليه بالإعدام) الذى كان يردد أن مصر دولة غير إسلامية ويجب التغيير بالقوة إلا أنه اعترض على ذلك» .

فإذا كان فكر الإخوان المسلمين ممثلا فى كلام الشيخ عبد الفتاح إسماعيل فعبارة مباحث أمن الدولة واضحة (إلا أنه اعترض على ذلك) .

٣ ــ تقول المذكرة الصادرة من مباحث أمن الدولة بعد ذلك (وكون وآخرون أسرا إخوانية مستقلة بهم من سنة ١٩٦٠ إلى سنة ١٩٦٤ واشترك فيها عدد كبير من أفراد الجماعة) وهو كلام واضح التناقض وبطلانه هين ويسير

ويتبينه أى قارىء ، فكيف لاتتهمنى مباحث أمن الدولة بالانتماء إلى الجماعة ، بل تنفى هذا ، ثم تتهمنى بتكوين أسر إخوانية ، فكيف يستقيم هذا ؟

فلما هو واضح ومعروف أن (أسراً إخوانية) عبارة عن مجموعات تكونها جماعة الإخوان المسلمين ، وتتبع فى النهاية إلى المرشد العام للإخوان المسلمين ، وتنتهج هذه الأسر بمنهج الإخوان فى الفكر والتثقيف والحركة . ولما نفت المباحث العلاقة بينى وبين مسئولى الإخوان ، فهى تنفى بالتالى الصلة التنظيمية .

٤ ــ والمباحث تقول إننى اعترضت على تغيير الحكم بالقوة فى أول المذكرة وتقول فى آخرها إنه أنشأ أسرا إخوانية تهدف تغيير الحكم بالقوة وكأن الذى كتب أول المذكرة شخص يختلف عن الذى كتب آخرها .

٥ ــ ورد فى مذكرة مباحث أمن الدولة أن هذه الأسر تكونت من سنة ١٩٦٠ إلى سنة ١٩٦٤ وهناك حقيقة تقول إننى قد اعتقلت فى ١٩٦٥/٨/٢٥ وينتج عن هذا تساؤل ، ما هو مصير هذه الأسر بعد عام ١٩٦٤ ؟

ولم تذكر مباحث أمن الدولة شيئا عن هذه النقطة .

٦ ــ كل هذا يؤكد عدم جدية الاتهامات المذكورة فى خطاب السيد حسن طلعت مدير مباحث أمن الدولة .

ثالثا :ــ هل يخشى من إتيانى اعمالا ضد أمن الدولة تتعارض مع المصالح القومية للبلاد فى الوقت الحاضر ؟

وتجيب مذكرة مباحث أمن الدولة .

« مازال على أفكاره ومبادئه المناهضة لسياسة الدولة ويخشى من الإفراج عنه حاليا » .

١ ـــ تبين مما سبق عرضه فى المذكرة ، حسب صياغة مباحث أمن الدولة ، أننى لم أكن منضما فى جماعة الإخوان المسلمين قبل اعتقالى ، وأننى عارضت فكرة تغيير نظام الحكم بالقوة ، وقد بينت للمحكمة الموقرة فساد زعم المباحث أن التشكيلات التى نسب إلىّ تكوينها لم تكن تابعة لتنظيم الإخوان المسلمين وإلا فلماذا لم أقدم للمحاكمة مثل غيرى .

٢ ـــ ومن صيغة التساؤل الذى ورد فى مذكرة مباحث أمن الدولة نفهم أن كل إنسان معرض لأن يأتى أعمالا ضد أمن الدولة تتعارض مع المصالح القومية للبلاد وأن هناك احتمالا لأن يسلك هذا السلوك .

فإن كان الأمر على هذا النحو ، فهل يكون من المنطقى درءا لهذا الخطر المظنون أن نقوم باعتقال أفراد الشعب جميعا ؟ لاحتمالات غير مؤيدة بدليل أو شبهة ما . أظن أن هذا ينافى المنطق والعدل وطبيعة الأشياء ، وربما ضد أمن الدولة وسلامتها .

٣ ـــ وتقول المذكرة ذاتها أننى مازلت مصرا على أفكارى المناهضة لسياسة الدولة ونفس المذكرة تنفى موافقتى على تغيير نظام الحكم بالقوة . وأرجو مراجعة المذكرة .

رابعا : عدم توافر دليل قانونى ضدى :

١ ـــ ليس من العدل وليس من الأمن ، أمن الدولة وسلامتها ، أن تقبض المباحث على شخص آمن مطمئن فى بيته ثم ترسله إلى المعتقل ويحدث له ما يحدث من تعذيب وتنكيل وبعد أربعة سنوات ترسله بقصاصة من الورق مكتوب فيها بعض الاتهامات التى يناقض بعضها بعضاً إلى محكمة أمن الدولة العليا ـــ والمعتقل هنا أمانة فى عنقها ـــ وتطلب من

المحكمة ان توافق على استمرار اعتقال هذا البرىء .

٢ ــ وليس تجاوزا إن طلبت من المحكمة الموقرة أن تتطلع على الملف الخاص بى ، وعلى أوراق التحقيق الذى أجرى معى ، ونظرة واحدة إلى هذا الملف وإلى أوراق التحقيق تكفى للحكم ببطلان ماتقدم ذكره من كلام المباحث .

خامسا : تضارب ادعاءات المباحث :

قد بنيت وشرحت للسيد المستشار رئيس المحكمة ولحضرات المستشارين أعضاء المحكمة ما فى الادعاءات من تضارب وتعارض ، ولايمكن أن يكون هناك حق متضارب متعارض على هذه الصورة إلا أن يكون ضرباً من الهوى والتلفيق والافتراء على الناس بغير حق .

سادسا : عدم جواز التعويل على الاتهامات العامة :

فلتغفر لى المحكمة الموقرة إذْ أقرر لها أننى لا أفهم فى القانون ، ولكنى أتكلم بما يعتمل فى نفسى من أحاسيس ، فيخيل إلَّى أن روح القانون والقواعد العامة التى وضعها الفقهاء والمشرعون لاتوافق على جواز التعويل على الاتهامات العامة التى تلقى جزافا ضد الأفراد دون دليل أوبرهان أو حتى شبهة مثل ماهو قائم فى حالتنا هذه .

سابعا : ماذا يتوقع منى عند الإفراج عنى وخروجى من المعتقل ؟

لكى أجيب على هذا السؤال أطلب من المحكمة الموقرة أن تفسح صدرها لكى استطرد قليلا فأشرح لها بعض ماوقع لى فى المعتقل ، ومن خلاله يمكن أن نتصور السلوك الذى يمكن أن أسلكه مستقبلا .

منهج صلاح نصر مدير المخابرات السابق

وهو منهج تخريبى الغرض منه تخريب نفسية المواطن والقضاء على المصريين ذهنيا ومعنويا ، وقد طبق علىَّ وعلى غيرى أثناء جولتى فى معتقلات الجمهورية العربية المتحدة المختلفة طيلة السنوات الأربعة الماضية ، وقد ذكره بتفصيله فى كتابه (الحرب النفسية) واسمحوا لى أن اتقدم لحضراتكم بتلخيص دقيق لما جاء فى الفصل الثانى من الجزء الثانى تحت عنوان :

اصطلاح جديد . غسيل المخ

«ويمكن أن نطلق هذه العبارة على أية محاولة تستخدم لتوجيه الفرد الإنسانى أو العمل الإنسانى ضد رغبة الفرد الحر أو ضد إرادته وعقله» .

«وتختلف الأساليب المتبعه فى تقويم الفكر تبعا للظروف وتبعا للجماعة التى تكون هدفا لهذا التقويم ، ولكن الأصول الأساسية واحدة متماثلة فى كل الحالات فهى تهدف إلى السيطرة على جميع الظروف المحيطة بالحياة الإجتماعية والجسمانية للفرد لإثبات أن الأفكار الفردية غير صحيحة ويجب أن تتغير ، كما تهدف إلى تنمية الطاعة والإخلاص لعقيدة معينة» .

«وللسيطرة على بيئة الشخص الاجتماعية تبذل كل محاولة لتحطيم ولائه لأى فرد أو جماعة خارجة ، ونقل هذا الولاء إلى جهة أخرى بعد ذلك ، ومن الأساليب التى تتبع لتحقيق هذه الغاية ما يأتى :

١ ــ عزل الشخص عن الحياة العامة : وذلك بأن يزج بالفرد وراء الأسوار بعيدا عن كل معارفه القدامى ، وعن كل مصادر المعلومات ، وصور الحَياة العادية ، دون أن توجد له أية اتهامات ، فيشعر الفرد بأنه قد أصبح وحيدا فى هذا

العالم ، كما يصبح فريسة سهلة للتقلبات والوساوس ، والتحذيرات المفزعة .

٢ ــ **الضغط الجسماني** : وهو يتفاوت من التجويع والحرمان من النوم إلى التصفيد بالأغلال والتعذيب وما إلى ذلك .. والهدف من هذا كله هو الوصول بالفرد إلى درجة من الإعياء والانهيار بحيث يكون عقله قابلا لتقبل أى توجيه ، **والاعتراف بما اقترف وما لم تعترف** .

٣ ــ **التهديدات وأعمال العنف** : ويتخذ هذا الأسلوب شكلين متناقضين ، فإما أن يكون مباشرا كاستخدام العنف والضرب والركل لدرجة الإشراف على الموت ، وإما أن يكون التهديد والعنف بشكل غير مباشر كان يستجوب بمنطق هادىء للغاية فى الوقت الذى يسمع فيه صراخ زميل له فى الغرفة المجاورة .

٤ ــ **الإذلال والضغوط** : تعتمد هذه الوسيلة على اتباع كل نظم السجن التى تتطلب الخضوع التام مع الإذلال فى أسلوب تناول الطعام والنوم والاغتسال وما إلى هذا طبقا لنظم محددة فى جو مفعم بعبارات السب والتوبيخ ، والإيحاء باستخدام أساليب التملق والمداهنة ، وذلك عن طريق الأفراد الأكثر تقدما .

٥ ــ **الدروس الجماعية** : وتأخذ هذه الدروس شكل قراءات أو محاضرات تتبعها أسئلة ليثبت كل فرد هضمه للدراسات التى يتلقاها ، ومناقشات يعيد فيها الفرد تقييم ماضيه من وجهة نظر الأفكار الجديدة وممارسة النقد الذاتى ، والنقد المتبادل الذى يصل أحيانا إلى درجة التشهير .

انتهى التلخيص بدقة ، ويمكن الرجوع إلى التفاصيل فى الجزء الثانى الباب الثانى من كتاب صلاح نصر «**الحرب النفسية**».

هذا هو المنهج الذى طبق على جميع المعتقلين وزيادة عن ذلك ، وأما عن ضرره النفسانى والعقلى والجسمانى فأترك لحضراتكم تصوره .

ماحدث لى شخصيا خلاف ماتقدم

أثناء وجودى بمعتقل القلعة فـى الفتـرة مابيـن ١٩٦٥/٨/٢٥ ، ١٩٦٥/٨/٢٨ ، ثلاثة أيام فقط ، أخرجت من الزنزانة عاريا ومعى أربعة أخرون من المعتقلين ، وسلمنا نحن الخمسة للمعذبين ، وظلوا يضربوننا بالتناوب ثلاثة أيام كاملة دون نوم ، حتى فارق واحد منا الحياة ، ولحقه آخران فى يومين على التوالى ، ولم أكن أُستجوب فى هذا الوقت ، ولم أكن أسأل عن شىء حينذاك .

ويمكن لحضراتكم أن تتخيلوا الاستجواب الذى تم بعد ذلك .

شاهدت عددا من المعتقلين فى السجن الحربى يفقدون أبصارهم وأطرافهم من التعذيب ، ورأيت النساء يجلدن بالسياط ، وكذلك الأطفال دون السابعة . رأيت الآباء يضربون أبناءهم ، والأبناء يجلدون آباءهم ، أمام سمع ونظر السادة المحققين وبأمرهم بحثا عن أشياء لا يعرفها أحد .

ورأيت أكثر من ذلك ياحضرات المستشارين أتعفف عن ذكره حتى لا أسيئكم بذكره .

ماذا يتصور من شخص مر بكل هذا أن يفعل بعد أن يخرج من هذه الأماكن إن قدر له الخروج ؟

أترك لحضراتكم الإجابة .

ما أرجوه من المحكمة

لا أتوقع من حضراتكم الموافقة أو الرضى على فعل هذا مع أى مواطن مصرى أو غير مصرى مهما كانت جريمته ، ناهيكم عن الأبرياء ، ولايمكن للمحكمة الموقرة أن تتخذ أداة لتحقيق أهداف المباحث العامة الشيطانية من سحق المواطنين والقضاء عليهم .

ولايفوتنى هنا أن أذكر شيئا هاما .

نحن نعرف أن كل هذه الأعمال الرهيبة التى اتخذت معنا لاعلم للسيد رئيس الجمهورية بها ، فإن القاصى والدانى يقول عنه إنه رحيم وشفيق وصاحب قلب كبير جدا ، ولاشك أنهم يفعلون هذا من خلف ظهره ، وعندما يعلم بهذا فى مستقبل الأيام سيعاقبهم عقابا شديدا كما فعل بالضبط مع حكومة شمس بدران ، التى كانت تحكم مصر من وراء ظهره ــ حفظه الله ــ وقد علمتنا حكمة الأيام أن الباغى تدور عليه الدوائر .

وأنبه حضراتكم ــ لو أذنتم لى ــ أنه مخطط خبيث الغرض منه هو القضاء على سمعة القضاء المصرى بأن يزج به فى هذه المؤامرة القذرة ليستصدر قرارات بالموافقة على استمرار اعتقال الأبرياء فتضيع سمعته إلى الأبد .

وإنى أذكر المحكمة أننى إذ أقف أمامها متظلما من قرار اعتقالى مدافعا عن نفسى فإن المحكمة نفسها ــ هيئتكم الموقرة ــ تنعقد لها فى نفس الوقت محاكم ثلاث لمحاسبتها :

الاولى : محكمه الله سبحانه وتعالى ويصدر حكمها يوم القيامة فى حيثيات لاتغادر صغيرة ولاكبيرة ، وهو حكم لا استئناف فيه ، ولا نقض أو إبرام .

الثانية : محكمة ضمائركم ، ولاشك أنكم تتمعون بضمائر مرهفة .

الثالثة : محكمة التاريخ التى لاتهمل حكما ، وأحكامها باقية على مر العصور ولاشك أنكم تعرفون أن ابراهيم الهلباوى المدعى العام فى قضية دنشواى قد أصبح اسمه علما على الخيانة الوطنية لاستجابته إلى مطالب المحتلين الغاصبين من الإنجليز . والتاريخ لاينسى شيئا .

بناء عليه

أرجو الحكم بالإفراج عنى .

التوقيع

أحمد رائف

صورة طبق الأصل

وقمت بتسليم نسخة من المذكرة إلى قائد المعتقل **عبد العال سلومة البرى** وبعد عدة أُسابيع جاءنى الخبر بتأييد قرار الاعتقال مع غيرى من المعتقلين فى قضايا الإخوان المسلمين .

لم تأمر المحكمة الموقرة بالإفراج عن شخص واحد فقط من الإخوان .

وبعد وقت وجيز لم يعد أحد يقبل الخروج للمثول أمام هذه المحكمة ، وبعد وقت آخر نُسِيَ الأمر وطوينا الصفحة .

كانت محكمة أمن الدولة العليا للنظر فى تظلمات المعتقلين من العجائب التى رأيناها فى ذلك العصر ، محكمة لها رئيس بدرجة مستشار ومعه عضو اليمين وعضو اليسار وأمين السر وبعض ضباط المباحث واختلط الجالسون فلا تعرف رجال القانون من رجال السوط وكأنهما شيء واحد ، وتستطيع أن تميز القاضى من نظرته القلقة المتلفتة وأصابعه المرتعشة التى تقلب ورقا بين يديه لايفهم منه شيئا .

وقد بدأت هذه المحكمة دون تقاليد سابقة أو تعليمات محددة لرئيسها فكان المسكين يجتهد فى أداء الدور ، وكان يخرج فى أغلب الأحوال ركيكا مفككا ، وكأنه نص هزيل لمسرحية فاشلة لمؤلف مغمور لم تجر عليها «بروفات» من قبل .

قبض على **على محمود** صحفى بمكتب الاسوشيتد برس فى القاهرة ، وحقق معه وحوكم بتهمة التخابر مع العدو وصدر الحكم ببراءته ورحل من المحكمة إلى معتقل طره السياسى فهى المكان الذى يودع فيه الأبرياء .

وجاء دوره فى العرض على محكمة أمن الدولة العيا للنظر فى تظلمات المعتلقين .

وكان على محمود من أوائل من عرض على المحكمة ، حيث لم تستقر التقاليد ولم تتضح طبيعة الأوامر والتعليمات .

ونظر إليه القاضى حائرا ثم قال :

– أنت متظلم من أمر اعتقالك ؟

– نعم .

– لماذا ؟

– لأنى لا أستحق الاعتقال ، وهو عقوبة غير محدودة لتهمة غير واضحة المعالم .

وهرش القاضى فى رأسه قليلا وبدت عليه علامات الحيرة وتلفت يمينا وشمالا كأنه يستنجد بمن حوله ثم قال :

– وماهى تهمتك ؟

وفكر على محمود قليلا وهو يتأمل القاضى فقد كان السؤال غريبا :

تهمتى أننى تخابرت مع العدو وقد حوكمت بهذا السبب وصدر الحكم ببراءتى وأظن أن الورقة أمام سيادتكم يفيد هذا .

وقلب القاضى فى الأوراق ورفع رأسه وهو يشير بيديه نفيا :

– لا . ليست هذه التهمة !

وازدادت حيرة على محمود فقد كانت الأسئلة على غير مايتوقع ولكنه استدرك :

– نعم قد فهمت . التهمة هى الإساءة إلى شخص السيد رئيس الجمهورية بمقالات أعددتها للنشر فى بعض المجلات الأجنبية ، وقد تم دفع هذه التهمة أثناء المحاكمة التى برأتنى ، فهناك فرق بين كتابة مقال يشتمل على تحليل سياسى

وعسكرى للأوضاع المصرية ، وبين التخابر مع العدو والإساءة إلى شخص رئيس الجمهورية .

وغرق القاضى والمعتقل فى حيرة شديدة ، وصار كل واحد ينظر إلى الآخر وهو لا يفهمه ، ولايدرك لماذا يقفان أمام بعضهما على هذا النحو ، وبدا على القاضى أنه يبحث عن كلام ، يفتش عنه فلا يجده ، وتخونه الحروف والألفاظ والكلمات وكأن غمامة قد غطّت عقله ونفسه فهو لايكاد يبين ، ثم فتح القاضى فمه أخيرا :

- لا . ليست هذه التهمة !

وفتح على محمود فمه عجبا ودهشة :

ـــ لا أعرف تهما أخرى .

وقال القاضى باصرار :

- عليك أن تخبرنى .

ولم يستطع على محمود جوابا ولكنه قال :

ـــ سيدى القاضى . عليك أن تواجهنى باتهام ما لأدافع عن نفسى .

وكان يجلس على المنضدة أحد المشاركين فى هذه المحاكمة الهزلية وهو شاب متأنق النظرة ، كأنما يريد أن يخلع جلد وجهه ليرفعه عاليا ، وكانت سيجارته الأمريكية يشعلها من (الولاعة) الفرنسية فى ترفع واستعلاء ، وهو يرقب الحديث فى احتقار بالغ لكل الموجودين ، وعندما وصل الحوار بين القاضى والمتهم إلى هذا الحد أطفأ سيجارته فى عظمة وكبرياء ، ثم قام إلى القاضى الذى بدا عليه الارتباك وهمس فى أذنه كلاما ، هز القاضى رأسه عليه مؤمنا وموافقا .

ثم تكلم القاضى موجها حديثه إلى على محمود :

- الحكم آخر الجلسة . اللى بعده .

وخرج على محمود من القاعة وقد وصلت به الحيرة مداها ، تهمة لايعرفها ودفاع لم يسمح له به ، وقاض لايملك

من أمر نفسه شيئا ، ورجل متأنق هو كل شيء فى القاعة ، يهمس ، فيعلن أن الحكم فى آخر الجلسة .

ودخل المعتقلون واحدا بعد الآخر ، ثم يخرجون وضحكاتهم الساخرة تجلجل فى قاعة العدل الكبرى ، وعلى محمود لايستطيع أن يجاريهم فى ضحكهم ، كان الأمر فى نظره مروعا وعجيبا ويدعو إلى الغضب ، وهو غاية مايستطيعه وقد أمسكت بتلابيبه هذه الآلة الضخمة المفزعة المليئة بالأسرار والطلاسم .

وأعلن الحكم فى آخر الجلسة .

كان حكما بالإفراج عنه .

ونفذ الحكم بعد ثلاثة أيام من معتقل طره السياسى .

ومازال سره لغزا فى ضمير مصر ، بماذا همس الضابط أو الرجل المتأنق ؟

لا أحد يعرف ، ماهى القواعد التى كانت تحكم هذه اللعبة ، لا أحد يعرف . وهل يرضى قاض أن تهان كرامته إلى هذا الحد ؟

وإن رضى وقبل ، ما هو الثمن المدفوع فى هذه الكرامة المهدرة والمهانة البالغة ؟

وقف **اسماعيل النشار** من الإخوان المسلمين أمام المحكمة الموقرة ، ولما استبان له الأمر صرخ فيهم :

ـــ عرف القضاء المصرى بالنزاهة والعدل ، وكانت صفحته بيضاء مشرفه ، ولم يخضع لأية قوة مهما كانت ، بل كان ضميره هو الذى يملى عليه قراره ، ولم تشب صفحته النقية إلا محكمة دنشواى التى كانت فى ظل الاحتلال الإنجليزى ، وكانت هى النقطة السوداء فى تاريخه ، وبعد وجودكم سيكون فى تاريخه نقطتان سوداوان حكموا ضمائركم قبل أن يكنسكم التاريخ .

واستمعت إليه المجموعة فِى صمت وبلادة ونطق القاضى :

ـــ هل انتهيت ؟

وأجاب اسماعيل النشار :

ـــ نعم .

واشعل القاضى سيجارة وهو يطوى الأوراق :

ـــ اللى بعده .

واقتاد الحرس اسماعيل النشار إلى خارج القاعة ، وتأيد أمر الاعتقال .

صور مختلفة ونماذج كثيرة متباينة وكلها تقول شيئا واحدا ، قد هانت مصر على أبنائها ، والكل يعمل على خرابها ، انهزمت عسكريا فى حربها ، هزيمة هزت العالم وكانت حديث الناس ، وأسباب الهزيمة ماضيةِ لاتزال تنخر فى جذورها ، وتكاتف الجميع على الاستمرار فى طريق الانزلاق ، الكرامة التى قال عنها الزعيم الخالد إنه قد خلقها

فينا ، لاوجود لها ، والناس يعاملون معاملة أقل ما توصف به أنها غير آدمية .

وجاء فى يوم من الأيام السوداء رجل عظيم ومعه حاشية وقالوا إنه رئيس نيابة جنوب القاهرة ليفتش على المعتقل والمعتقلين ، وتجول الرجل وحاشيته وحولهم جمع غفير من المعتقلين ، والحاشية ممسكة بأقلام وأوراق يسجلون مايرون من مهازل كأنهم يرونها للمرة الأولى ، وعلى وجوههم أمارات الرثاء والجزع ، وقال رئيس النيابة بصوت سمعه الجميع :

– لم أكن أظن أن هذا يحدث فى مصر . أعدكم أن ينتهى هذا من الغد بمجرد وصولى فى الصباح إلى مكتبى .

وكان **عبد العال سلومة** قائد المعتقل يسير معنا فى هذه المسيرة الساخرة عبر مبانى المعتقل ومرافقه ، ولم يكن يقول شيئا فى هذا السير ، ولكن وجهه كان معبرا بكل معانى السخرية من ذلك العظيم الذى يعيش فى مصر .

وانصرف الرجل وحاشيته مشيعين بالابتسامات الساخرة من الجميع ، بينما هم فى حماسة شديدة ، أنهم سيقومون بدور عظيم فى خدمة مصر والمصريين ، وإزالة هذه الرواسب ، على حد تعبيره ، حتى تكون هناك آفاق جديدة فى خدمة الوطن والقومية ، وفى ظل قيادة الرئيس جمال عبد الناصر الحكيمة ، حفظه الله ، هكذا قال .

ولم نسمع عنه بعد ذلك أبدا حتى هذه اللحظة .

بعد محكمة التظلمات خرج جميع من بالمعتقل باستثناء الإخوان المسلمين ، وأفراد لايتجاوزون الخمسة من الأقباط ، وأربعة من اليهود ، أسلم واحد منهم وكان يصلى معنا ،

وكانوا – كما ذكرت من قبل – يطلقون عليه الأخ « **محمد اليهودى** » ، بعد أن غير اسمه من « **شارل مزراحى** » إلى محمد ، وبعد هذه السنوات الطويلة يبدو أن الرجل كان صادقا فى إسلامه . وتهيأ الإخوان لاعتقال طويل المدى .

وقد تأكد هذا المعنى فى نفوسهم عندما أعلنت الصحافة فى صفحاتها الأولى أن الرئيس جمال عبد الناصر سوف يلقى خطابا تاريخيا هاما ، وكانت كل الخطابات التى يلقيها الرئيس توصف بأنها خطابات تاريخية هامة . ولكن الوضع مختلف هذه المرة ويرجع الاختلاف إلى ظروف البلد المحتل من أرذل خلق الله وضياع الدولة ، واكتشاف أن الذين كانوا يحكمون كلهم سراق ولصوص ، هذا ماقرأناه فى الصحف والمجلات المختلفة .

وفى الحقيقة أن المعتقلين كانوا ينظرون نظرة خاصة إلى مثل هذه الخطابات لحساسية وضعهم وموقفهم ، فهم رهن لاعتقال طويل ، فى دولة لايوجد بها رشيد . وكانت إدارة المعتقل تعلن على المعتقلين عن طريق مكبرات الصوت موعد إذاعة خطاب الرئيس ، ويتوتر الجميع ويستعدون للاستماع من باب الفضول والإيمان بالغيب المجهول ، ماذا يمكن أن يقوله هذا الرئيس على الناس ، بعد أن أضاع بتصرفاته جيش مصر بكافة أسلحته واحتل اليهود بلاده وبلاد العرب ، وأعلن فى قوة أنه مسئول عن هذا ، وماذا تعنى هذه المسئولية ؟ ليس للمسئولية معنى غير الحساب والعقاب ، وكان الناس يتلقون اعترافه بالمسئولية عن هذا الضياع بالتصفيق الحاد والهتاف الذى يجاوز عنان الفضاء .

بالروح بالدم نفديك ياجمال !

بسيناء التى ضاعت بطولها وعرضها نفديك ياجمال .

بالأسلحة التى تجاوز ثمنها عشرة آلاف مليون من

الدولارات والتى أخذها اليهود نفديك ياجمال .

بالجولان ، بالضفة الغربية ، بآلاف القتلى التى اختلطت دماؤهم برمال سيناء نفديك ياجمال .

بالكرامة المهدورة وبآلاف المسجونين نفديك ياجمال .

فليذهب كل شيء ولتبق بطلعتك البهية وبالوحى الذى ينزل عليك،بالفساد والإفساد فى الأرض نفديك ياجمال .

فليأخذ اليهود كل شيء أموالنا وأرضنا ونساءنا وكرامتنا ولتبق أنت حاكما لشعب من النعاج ، وهذا هو غاية مانريد ، وهى الأمنية العزيزة فمكنا منها ، وتجاوز عن سيئاتنا ، فنحن نعبدك وأنت إلهنا ، وليس للعبد أن يناقش إلّهه الحساب .

هذا هو الموقف يوم خطاب الرئيس الأخير الذى لم يخطب بعده أبدا . وبدأ الرئيس خطابه ، وتنقله كل مكبرات الصوت فى العنابر والزنازين ، والناس على رءوسهم الطير فى داخل السجن ، وفى السرادق الذى حضره رجاله وحشداً كبيراً .

ثم أعلن ولم يخجل من كذبه الذى يعرفه الكثير ، لايوجد فى المعتقل أحد ، قد أفرجنا عن جميع المعتقلين .

وضجت الجماهير المسحورة بالتصفيق والهتاف .

ثم أردف .

بقيت فئة قليلة ، ضالة مضلة ، هم الجهاز السرى للإخوان المسلمين وهؤلاء لن يخرجوا من المعتقل مادمت حيا .

وضجت الجماهير المسحورة بالتصفيق والهتاف .

يصفقون للشيء ونقيضه فى وقت لايتجاوز الدقيقة من الزمن الصعب وتلفتت الوجوه لترى التعبير على الأخرى ،

وكانت التعابير مزيجا من المرارة واليأس والتحدى ، وبرقت العيون بالقوة .

وكان يوما من أيام المعتقل ، لم يكن المعتقلون من الإخوان أكثر قوة منهم فى هذا اليوم ، صارت القضية بين يدى الله سبحانه وتعالى .

حاكم متغطرس قد داس بقدميه على كل شىء ، وأعلن أنه رب البلاد والعباد ، وأن لانجاة منه ولامهرب .

وقد صدق فى قوله هذه المرة ، فلم نخرج من المعتقل إلا بعد أن مات وقد هلك بعد شهرين من هذا الخطاب .

وخرجت أول دفعة من الخمسائة المعتقلين المجتمعين بطرة — ولم يكونوا مائتين كما قال — بعد الأربعين ، أربعين الزعيم الخالد .

كان على واحد أن يموت ، إما مصر وإما الزعيم .

وكان اختيار الله سبحانه وتعالى وذهب الزعيم ، وصار ذكرى مقتية مريرة نراها فى كل ما مر بالمسلمين والعرب والمصريين من ويلات لاندرى متى تنتهى .

انتهى الخطاب ، وسرت فى الإخوان روح جديدة ، كان البعض يمالىء السلطة من أجل الخلاص من هذا السجن الرهيب ، ولما أعلن الزعيم عزمه على عدم الإفراج عن أحد منهم ، برزت إرادة التحدى والاستهانة بكل ما يدور خلف الأسوار فى عالم النعاج والمسحورين .

بدأ الكل يهيىء نفسه لاعتقال طويل ، وظهر الرضى والراحة بقضاء الله ، ولكن لا أقل من احتقار سجانينا وجلادينا .

وكان هذا السلوك الجديد هو الذى فرض نفسه على نفوس الناس ، وبعد أن كانوا يسبون الحكومة سرا ، صار ذلك جهرا وفى كل مجلس وأمام أى مخلوق . واستفاق الناس .

وانتهى هذا الفصل من المهزلة بأن أعلنوا أن **حسن طلعت** مدير مباحث أمن الدولة قادم للاجتماع بالمعتقلين .

وجاء حسن طلعت ببذلته « الموهير » اللامعة وساعته الذهبية وقميصه الحريرى ، وبحذاء « ساكسون » وجورب لعله اشتراه من المريخ فقد كان يجلس على كرسى أنيقا جميلا بهى الطلعة ، كأنه مصنوع فى مصنع ، وبدأ حديثا سقيما سخيفا ، تحدث فيه عن عظمة الإله – إلهه هو – الزعيم الذى لايقهر ، وكيف نجاه الله من المهالك ، وكيف تغلب عليها ومازال يحكم ويأمر وينهى ويقتل ويحيى ويميت ويفعل بالعباد مايشاء .

كنا جلوساً أمامه على الأرض بملابس الاعتقال المصنوعة من «الخيش» والكل مستغرق فى أفكاره وقال :

ـــ تآمرتم عليه بتحريض من الاستعمار عام ١٩٥٤ فلم تفلحوا فجاء غزو سنة ١٩٥٦ لإنجاح مافشلتم فيه ، ونجاه الله ، وتآمرتم عليه فى عام ١٩٦٥ ولم تفلحوا فجاء غزو يونيو ١٩٦٧ لإنجاح مافشلتم فيه ، ونجاه الله . ألا يعطيكم هذا العظة والعبرة بأنه خالد باق لايموت ؟

وتمتم الشيخ محمد عبد الفتاح عارف :

ـــ سبحان الحى الذى لايموت .

وقال حسن طلعت الذى سمع تمتمته :

ـــ ماذا تقول ؟

وانفجر الشيخ عارف :

ــ ألا تستحى أيها الرجل من هذا الكلام الفارغ الذى تقوله ؟

واستعد الحرس الذين يحيطون بنا إحاطة السوار بالمعصم بالفتك بمن يتمرد ، وصوبت الرشاشات ، وكل من الجالسين أعزل لايحمل سلاحا إلا «شبشب» قديم مهترىء يضعه فى رجليه ،ويصعب استخدامه فى الضرب . وأشار حسن طلعت إلى الحرس فى شجاعة أن كفوا ، فكفوا واستأنف الشيخ عارف كلامه :

– ظلمتم الإخوان عام ١٩٥٤ فعاقبكم الله عام ١٩٥٦ ، وظلمتموهم فى عام ١٩٦٥ فمسح الله بكم الأرض عام ١٩٦٧ ، وجعلكم سخرية العالم ، ولو كان عند الرئيس كرامة لاستقال ولضرب نفسه بالرصاص . ولو كان عندكم إحساس ماقلتم هذا الكلام .

وقال أبو بكر الصديق وهو شاب من المعتقلين كلاما شبيها من هذا ، كل هذا وجمهور المعتقلين ساكنين قد تربعوا الأرض تحت تلك الشجرة الضخمة بين مبنى المستشفى ومبنى الملاحظة كشيوخ أثينا الحكماء ، يرقبون مايدور ولا تخلوا نفوسهم من راحة لما يسمعون .

ثم قام إليه **شكرى مصطفى** ووجه الكلام إليه كلاما سريعا حاسما قاسيا كطلقات نارية من مدفع أتوماتيكى حديث الصنع :

ــ أنت كافر . ورئيس جمهوريتك كافر . ولئن أحيانى الله وخرجت من المعتقل لأقاتلنكم قتالا شديدا . ولئن مت فسوف يأتى من بعدنا من يقضى عليكم ويديل دولتكم . ولئن هربتم من عقابنا فى الدنيا فلن ينج أحد منكم يوم القيامة .

وامتلأت الوجوه بالاستحسان رغم أن أغلبية الموجودين لايدينون بهذا الفكر ولايكفرون أحدا ، إلا أنهم سروا سرورا عظيما لوجود من يوجه هذا الكلام إلى الطاغية الصغير وفى

وجهه . لم يعد شيء يخيف لا السوط ولا البندقية ، ولا الرشاشات أو الكي بالنار وصرير الأسنان في زنزانة المياه المثلجة . بل شاب صغير ضعيف أعزل استطاع أن يوجه هذه الكلمات النارية إلى حسن طلعت ، وما أدراك ما حسن طلعت في ذلك الزمن البغيض »

وبطبيعة الحال تحركت الرشاشات والتف الجند حول شكرى مصطفى ، بإشارة يسيرة من مدير المباحث تركوه ، وبدأ حسن طلعت كلاما مختلفا هذه المرة :

ــ لاشك أنكم فئة من المؤمنين المظلومين ، وأنتم تقرءون القرآن ، وتعرفون أجر الصابر على البلاء ، وأن هذا مما يكفر الذنوب ، وأنتم في محنة الله وحده الذى يعلم متى تنتهى ، وأقسم لكم بالله العظيم غير حانث أننى أتمنى الإفراج عنكم ، ولكن هذا ليس في وسعى ، ولا أعرف كل مايدور في دهاليز السياسة ، هناك دواع عند رئيس الدولة تجعله مصرا على اعتقالكم ، ولو كان الأمر في يدى لأفرجت عنكم ، فأسألكم الصبر لتنالوا منزلة الصابرين يوم القيامة .

هناك ظروف ندعو الله أن تتغير فيصدر أمر الرئيس بالإفراج عنكم ، ولعلكم لا تعرفونه ، فهو صاحب قلب كبير ويحب الخير ، ويبحث عما يفيد شعبه ، ولكنه يعلم أمورا لانعلمها ، وليس بيننا كلام بعد هذا ، وأوصيكم بالصبر ، والصبر الجميل .

وقام الرجل إلى مبنى الإدارة وصحب معه شكرى مصطفى الذى غاب ساعات وأدخلنا الجند العنابر ، وكانت الأحاديث أمامهم ، فكانوا يتكلمون معنا كلاما ودودا طيبا وقال واحد من الشاويشية :

ــ يكفى أن مدير المباحث قد شهد لكم بالإيمان ، وأقر أنكم مظلومون.وانطوت صفحة محكمة التظلمات ولم يعد أحد يتكلم عنها إلا نادراً وتندراً .

الفصل الثالث والعشرون

مــوت الزعيــــم

كان الجو العام فى معتقل طره السياسى عام ١٩٧٠ جوا ثقيلا بغيضا ، فقد ملأ الضجر نفوس الناس مما يرون حولهم داخل المعتقل ، ومايسمعونه من أخبار عن الوطن ، وكيف ضاعت كرامة البلاد فى هزيمة ساحقة ، بعد سنين طويلة من النباح فى ميكروفونات الإذاعة ، والطنطنة بأننا أقوى جيش فى العالم ، والتبجح فى الكلام ، والدعاوى العظيمة العريضة بالوصاية على شعوب العالم الثالث . ثم جاء اليهود وأرونا مركز النابحين الحقيقى فى أقل من ست ساعات ، كل هذا كان يملؤنا بالحسرة والحزن على هذا الوطن سيىء الحظ .

وكنا نقرأ الأخبار كل يوم فى الصحف ، وكانوا قد سمحوا لنا بالصحف بعد هذه السنين الطويلة من الاعتقال ، ونقرأ أخبار الحرب والسياسة فيزداد ألمنا ، إسرائيل تضرب أهدافا عسكرية وبترولية ومدنية ، كبارى ، ومصانع ومدارس ، ومصافى الزيت وسماء مصر مفتوحة لطيرانهم وإذاعتنا ، ونحن نضرب فى الصحراء ، وقالوا إنهم فتحوا المدافع على طول الجبهة ، وهو طول قناة السويس ، وأية أهداف نضرب؟ ليس غير تلال من الرمل ، وصحراء جرداء ، والعسكر اليهود يستحمون فى مياه القنال ضاحكين ساخرين من شعب فقدت حكومته عقلها ، ثم يقبل الزعيم الملهم مبادرة روجرز ، وأصبح الصلح مع إسرائيل على انفراد قاب قوسين أو أدنى ، ثم دنى فتدلى فأوحى إلى الأردن ماأوحى ، واشتعلت النيران وحميت المعارك بين الأشقاء الفلسطينين والأردنيين ، والعالم يضحك والعدو قاهر وقادر ، ويعرف ضعفنا ، أكثر مما نعرف ولعلنا لانعرف وهى مصيبة المصائب ، وزادت أسعار السلع واشتد الغلاء ، وقمعت الحريات أكثر ، وارتفع شعار من مصنع الشعارات الجاهزة « لاصوت يعلو فوق صوت المعركة » وقالوا انتصرنا عليهم فى يونيو عندما أرادوا تغيير القيادة السياسية ، وسوف ننتصر عليهم بطردهم من سيناء .

واشتد بطش الحكومة وطغيانها ، ويأتينا معتقلون جدد مع كل طلعة شمس ، أو كلما انتصف الليل ، وأغلبهم وطنيون مخلصون يستحقون التقدير والإعجاب .

وتخرج الصحف وتصف صانع الهزيمة ، ومضيع الأرض بالزعيم الخالد والرئيس الملهم ، وينزل الكوماندوز اليهودى ، ويقوم بفك محطة للرادار ، محطة للرادار !! ويحملها على طائراته ويعود إلى بلاده ، والعالم يضحك ، ونحن نصفق بإعجاب بسيادة الرئيس الملهم ، واختلطت الأمور فى الأذهان ، هل نحن مع اليهود أم ضدهم ؟ نسبهم ونلعنهم صباح مساء ، ثم نفعل كل مايقويهم ويشد من عودهم ويقوى من دولة اغتصبوها ، ونجحنا فى تحويلها إلى أعظم دولة فى المنطقة ، صاحبة الذراع الطويلة ، والشرطى الذى يؤدب الجميع .

والرئيس يخطب والناس تصفق ، وصارت الأمور كسوق كبيرة فى بلد من الأرياف وبجانب السوق « مولد » لرجل دجال قدسه الناس بعد موته .

وكانوا كثيرا مايفرجون عن المعتقلين من غير الإخوان المسلمين . الأمر الذى كان يزيد الغيظ فى نفوس الناس .

وكان المعتقلون من أتباع المشير عبد الحكيم عامر الذى قتل أو انتحر فى صراع السلطة يحكون لنا الحكايات الطويلة عن فظائع كانت تحدث ، ويقصونها ليس من باب الاستنكار ، ولكن كحكايات عادية ، قصوا عن الشقق التى كان يتخذها كبار رجال السياسة والجيش : شقق لتدخين الحشيش وشرب الخمر واللعب مع النسوان ، حكوا لنا كيف كانوا يستخدمون بعض الفنانات للدعارة معهم ومع الضيوف ، ونحن نعجب من قولهم ، هل تدير حكومة بيوتا للدعارة والفسق ، وتشرف على أندية القمار ؟!

ويستوردون الحشيش والمخدرات الأخرى « ليتسلطن » القائمون على الأمر ، لو كانت هذه السلطنة تؤدى إلى النصر لما قبلنا فكيف الحال وقد أدت بهم إلى خراب أمة جاهدت أكثر من مائة عام ليكون لها وجود ودور ثم هاهى النتيجة مؤلمة مبكية محزنة .

رئيس دولة سرق الحكم فى غفلة من شعبه الطيب ، ووعدهم بمستقبل مشرق ، وقال لابد أن يكون لنا دور على المستوى العربى ، والأفريقى والإسلامى ، ومزق العرب ، وفتح أبواب التجارة بين أفريقيا وإسرائيل ، حيث صار لها النفوذ والوجود بقرارات مرتجلة عصبية حمقاء ، والبعض يقول إنها قرارات واعية متعمدة مدروسة ومقصودة ، وهو رجل ناجح يحقق مايريده فى نجاح ، ومايريده عكس مايعلنه .

كان مع أعداء المسلمين ضد المسلمين ، ناصر الهند ضد الباكستان ، أرسل الأسلحة الفتاكة التى دفع ثمنها الشعب المصرى إلى الأسقف « مكاريوس » ليبيد بها المسلمين فى قبرص الإسلامية ، وأذكر مرة كنت فى لقاء « دنكتاش » رئيس قبرص الإسلامية وأمر أحد مساعديه أن يذهب بى ليرينى الأسلحة المصرية التى قتلت آلاف المسلمين القبارصة ، أسلحة لاتفتك بغير المسلمين ، وجيش لايقوى على غير شعبه ، ورئيس يقول ما يشاء بالحق أو الباطل ، وليس أمامه من يقول له لا ، وكل من استطاع قولها تراه إما فى العنابر أو المستشفى أو عنبر الملاحظة .

انتهى الناس من تأملاتهم فى حزن ، وكانوا يجترونها فى أحاديثهم ومناقشاتهم ، وقال الذين أوتوا العلم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا .

ضاع الأمل فى خروج الناس من المعتقل البغيض ، الشعب لايستطيع ، والحكومة لاتريد ، ونسى أمر المعتقلين حتى قائد المعتقل القاسى القلب صار يشعر بالملل هو الآخر ، ويترك المعتقل

فى إجازات كثيرة ، فالصورة ثابتة لاتتغير كثيرا ، وانتقل نشاطه قليلا إلى غير الإخوان ، يحذرهم وينبههم من خطر الإخوان ، وقال مرة لواحد :

– أعداء مصر صنفان إسرائيل من الخارج والإخوان المسلمون من الداخل .

مثل ماكان يكرره لنا حسن طلعت المدير الذى كرّس نفسه لخدمة مايسمى بالأمن السياسى :

– حاولتم قتله عام ١٩٥٤ ففشلتم فجاء الاستعمار فى عام ١٩٥٦ ليحقق ماعجزتم عنه ، وحاولتم قتله فى عام ١٩٦٥ وفشلتم فجاء الاستعمار فى عام ١٩٦٧ ليحقق ماعجزتم عنه ، العناية تحرسه ولكنكم لاتفهمون ، وسوف تموتون بعد حين وينساكم الناس .

وكان الشيخ عارف الحكيم الساخر يرد عليه فى كلام كثير ذكرت بعضه فى الصفحات السابقة :

– افترى علينا فى عام ١٩٥٤ بعد أن مكناه فى الأرض ليحكم بالإسلام كما وعد فسلط الله عليه اليهود فى عام ١٩٥٦ ، وهو الذى استدعاهم بارتجاله وحمقه ، وكاد لنا فى عام ١٩٦٥ ليؤدب الشعب فسلط الله عليه عقله ومنطقه الذى جاء بالمدرعات اليهودية فى عام ١٩٦٧ ليفتضح كذبه ويظهر فساده المستبد الظالم له منطقه الذى يسويه بالأرض بعد حين .

كان المعتقل هو الرحم الكبيرة التى نضجت فيها كل المذاهب والتيارات ، والظلم يبيد الأمم ، حكمة قرأناها فى كتب المطالعة ونحن أطفال ، الاستبداد يمنع صاحب الرأى السديد من ذكر رأيه ، وكان هذا ماحدث فى مصر .

وكانت الأفكار تمور وتصطرع فى نفوس المعتقلين كل على حسب مايستوعب من دروس التاريخ وثقافة الأمم وتجاربها هذا من خلال الارتباط الإسلامى المستمر بالتراث وبالأصلين العظيمين: الكتاب والسنة ، وظهر بين الناس من يقول إنهم كفرة والواجب

قتالهم وجهادهم ، والأصل فى حياة المسلم هو طلب الشهادة ، فإن حصل عليها فى أى موقع فهو الفائز .

وشجعتهم الحكومة على هذا ، وأذكى هذه الروح الفراعين الصغار ، وكان مهندسو الإرهاب الحكومى لايعدمون وسيلة فى إذكاء العداوة ، وهى قائمة فى النفوس وليست فى حاجة إلى من يزيد من أوارها .

نادى شكرى مصطفى بأعلى صوته بضرورة جهاد الظالمين وحربهم والخروج عليهم ، ويجب أن يبحث المسلمون عن الشهادة فى سبيل الله ولو بين طرقات العنابر وظلمة الزنزانة ، والساكت عن الحق شيطان أخرس ، وقال له العقلاء : الدولة فى عنفوانها وهى كالقطار السريع أو العاصفة المدمرة ، فلندعها تمر والقرآن الكريم يقرر **﴿ أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ﴾** وكان يرد بمرارة : لاصلاح بغير جهاد فى سبيل الله ولو حسن تصوركم لعلمتم أن الشهادة هى الباب الصعب إلى عالم الله الرحيب والآلاف يموتون فى الزلازل وفى البراكين أو على رمال سيناء فى صيف قائظ حيث تتكوم الجثث كالتلال ، ثم تهوى بها الريح فى مكان سحيق . والرصاص فى الصدور خير للإنسان من أن يأتيه فى ظهره وهو يولى . وكانت مناقشات ومحاورات .

نجحت فترة الاعتقال فى طره أن تعدل من مفاهيم الناس ونظرتهم إلى واجبهم الإسلامى المقدس ، وإن اختلفت الوسائل والطرق ، وأكدت لهم أن الله سبحانه وتعالى قد اختارهم على قدر ، وأنهم « ملح الأرض » كما يقول المسيح . واستعاد الناس حيويتهم ونشاطهم وعلموا أن المستقبل لهم ، وأن الناس ينتظرون جهادهم ليخرجوهم من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، وأن الأجراس تدق مؤذنة بفجر الإسلام من جديد ، فى ساعة قد اشتدت فيها ظلمة الليل ، وعصر قد حكم .

فيه الفجرة والكفرة وكل الطواغيت ، وعلى رأسهم ألمعهم اسما وأدناهم مكانة فى قائمة الرؤساء والزعماء ومن على شاكلتهم من الأدعياء .

استعد المعتقلون لاعتقال طويل ، لايعرف أحد متى ينتهى ، فالمتسلط قد انعدم الحياء من نفسه ، وفقد النخوة والمروءة منذ زمن ليس بالقريب .

وكان البعض يؤكد أن الفرج قريب ، وهو آت لامحالة ، وأن سنوات فى عمر الأمم والشعوب لاتساوى شيئا فى ميزان الآخرة والتاريخ .

وكان الأخ سعد – وقد نسيت بقية اسمه – يدور على العنابر والزنازين بقولته المشهورة المرحة :

– والله لتفرجن قبل أن نجن .

وكان المرحوم شكرى مصطفى يؤكد :

– والله إن كتب الله لى الخروج من هذا الجب لأقاتلنهم قتالا ضروسا بما أستطيع حتى أغيرهم أو أموت شهيدا .

وكنت أرى العزم فى نظرته ، وتحرقه شوقا لحرب الظالمين والكفرة .

وبقية الناس يجترون أفكارهم فى صمت ويقرءون القرآن صباحا ومساء ، وقد توازنوا مع أنفسهم وبطل السحر ، وفقدت دورات « غسيل المخ » مفعولها .

واستدعى قائد المعتقل أحد المعتقلين يوما وهو يفعل ذلك بين الحين والآخر ، وكان هذا المعتقل أحد ضباط الشرطة الكبار فى الماضى وقال له القائد :

– مارأيك فى الحكومة ؟

ورد عليه الضابط القديم فى حدة وتهكم واستنكار :

– ومارأيك أنت ؟ والله إنك لقليل الحياء .

ويهتاج القائد ويغتاظ ويأمره بالعودة إلى العنبر ، ويخرج الضابط الكبير وهو يرفع صوته :

– لاتستدعنى إليك مرة أخرى .

أمن الناس بعضهم بعضا بعد أن ضاعت ثقتهم فى بعضهم فى الأيام الخوالى . وكانت الإدارة لها أساليب عجيبة – كما قلت – فى الماضى فمثلا فى أول أيام طره . وكانت هناك مكبرات صوت تتصل بجميع العنابر ، والنفخ فيها يؤذن بخبر سوف يعلن ، والخبر الأكبر الذى ينتظره جميع الناس هو الافراج ، وكان ذلك فى وقت التعتيم ، وعدم فتح العنابر ، ومنع التجول والاختلاط ، ويعلن عن اسم من الأسماء المعروفة للناس ممن لهم مكانه وحضور ويطلب منه الوقوف على باب العنبر حتى يأتى الشاويش ليفتح له لانه مطلوب للإدارة كما يقول النداء .

ويذهب الرجل فيستقبله أحد الضباط ، ويكون هذا فى العادة بعد الظهر وقبل الليل ، ويسأل المعتقل :

– خيرا إن شاء الله .

ويطمئنه الضابط ويقول له قائد المعتقل يريد أن يراك .

ويسأل المعتقل صاحب المكانة .

– وأين قائد المعتقل :

– اطمئن سوف يأتى بعد قليل .

وينتظر الرجل ساعات طويلة ، ويتململ ثم يعتذر له الضابط بأن القائد قد اتصل تليفونيا واعتذر عن الحضور ويؤجل اللقاء إلى الغد .

ويعود المعتقل إلى العنبر فيجد جميع المعتقلين فى قلق وتوتر ويسألونه جميعا سؤالا واحدا :

– ماهى الأخبار ؟ لماذا طلبوك ؟

ويشعرون بخيبة الأمل عندما يقص عليهم القصة ، ويذهبون إلى النوم .

ويتكرر هذا الحادث عدة مرات بنفس التفاصيل حتى يرتاب الناس ولايصدقوه . وآخر هذا التدريب يتم كالتالى :

يستدعى المعتقل ويقابله قائد المعتقل بالفعل ، ويقول له :

– مطلوب منك طلب إلى المصلحة التى تعمل بها بخصوص درجة متأخرة والطلب سوف يجعلهم يعطونها لك .

ويأمر أحد الضباط بإعطائه ورقة وقلما ويجلسه فى غرفة من غرفات الإدارة بحيث يراه وهو يكتب أى إنسان قادم من عنبر المعتقلين ، ويستدعى غيره ، وفى هذه المرة يكون فى الاستدعاء أكثر من فرد ، فيمرون على ذلك الذى يكتب ، ويسرعون بهم إلى مكتب قائد المعتقل الذى يحاضرهم فى ضرورة التعاون فى الحكومة ، وكتابة التقارير عن سائر المعتقلين من أجل مستقبل لمصر والعرب والمسلمين ، ويستمعون فى صمت أو احتجاج ثم يعودون من حيث أتوا .

وفى العنبر يسألون ذلك الذى كان يكتب :

– ماذا كنت تكتب ؟

ويحكى لهم القصة بالصدق . ومن يصدقه ؟

وتتوالى عليه التهكمات والاتهامات ، وهو صاحب المكانة القديمة فى نفوس الناس .

– كل هذه الأيام وأنت تكتب الطلب ؟

– لولا أن رآك فلان وفلان لقلت لنا الرواية القديمة .

– « الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » .

وتتوالى الآيات والأحاديث :

« لاتجد قوما يؤمنون بالله ورسوله يوادون من حادَّ الله ورسوله » .

– قال رسول الله ﷺ : « أتدرون من الأحمق ذلك الذى باع أخرته بدنياه » .

–« وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » .

ذهب ذلك الجو الكئيب الرهيب ، وأمن الناس بعضهم بعضا ، وصاروا يفكرون فيما عليهم أن يعملوه لو قدر لهم خروج . وحدثت اجتماعات سرية فى مسجد مهجور بفناء المعتقل بين كافة الاتجاهات والتيارات تحت رعاية المرشد العام للتوحيد بين المذاهب والآراء .

وكلف الأستاذ محمد المأمون الهضيبى بكتابة بحث يُفنِّد ويُناقش الآراء الحادة العنيفة التى ظهرت فى جو الإرهاب والضغط والتى تبناها الشباب ، وجلس إليهم العلماء والفقهاء ينورونهم ويبصرونهم وارتفع شعار حسن الهضيبى العظيم :

– نحن دعاة لاقضاة .

وتلقفته الأفواه ورددته فى أرجاء المعتقل .

وقال القائلون :

– لايجب أن نشغل أنفسنا فى الحكم على الناس ، بل يجب أن ننشغل بدعوتهم وتبصيرهم بأمور دينهم ، والتجمع خير وأبقى من التفرق . ولنبحث فى النصوص على مايشحذ الهمم النائمة ، ويجعل إيمان الناس حيا فى نفوسهم ، ويفهمون دعوتنا ويعوها ويصيرون جندا فى صفوفنا .

وكان المؤمنون أصحاب النظرة المتفائلة يتوقعون الإفراج بين لحظة وأخرى ، والمؤمنون أصحاب النظرة المتشائمة يتوقعون اعتقالا طويلا ، ويشبهون الحال فى مصر كالحال فى روسيا

الشيوعية ، ويقولون الحكومة فى مصر قد تكونت من عصبة من الناس صارت لهم مصالح ومكاسب ولن يفرطوا فيها أبدا .

وفى يوم من الأيام أعلنت الصحف أن « الزعيم الملهم » سيتحدث إلى الأمة بعد أيام ، وصارت الصحف تنشر كل يوم عن أهمية هذا الخطاب الخالد الذى لم يلق بعد ، كما كانت تفعل دائما مع كافة خطاباته ، وقالت إن هذا الخطاب به حجم من الكلام المركز المفيد الذى يحل كافة المشكلات ، وقالوا إن الخطاب سيحرر سيناء والجولان والضفة الغربية لأن به كلاما جديدا غريبا سيكون له مفعول السحر .

وقال المتفائلون من المؤمنين :

– لقد أفاق ورجع إلى الله وسيصدر أمره بالإفراج عن المعتقلين .

والصحف توالى نشر أصداء الخطاب الذى لم يلق بعد ، ومما قالته : إن الرئيس جونسون قد قطع إجازته ليستمع إلى خطاب « الزعيم الملهم » . ويبدو أن الرئيس جونسون كان يقضى أجازته فى أحد الكواكب السيارة حيث لا إذاعة ولاتليفزيون ولاصحافة ، والناس تصدق وتصفق .

وجاء الموعد ، وتهيأ الناس ، وافترشوا المكان بجانب مكبرات الصوت ، وأرهف الجميع سمعهم قبل موعد الخطاب بساعتين .

وتكلم « الزعيم الملهم » .

وكالعادة حكى للناس التعساء من عظمته وقدرته وحسن إدراكه للأمور ، وأنه خير من يمشى على قدمين ، وأن الحكام قبله كلاب أولاد كلاب ، وهوّن من شأن الهزيمة وسخر من أولئك الذين لايعطونها حقها ولايضعونها فى حجمها الأمثل ، وتكلم عن هزيمة فرنسا أمام الألمان ، وعن « دنكرك » وانسحاب البريطانيين ، وحكى قصة « بيرل هاربور » وكيف حطم الأسطول الأمريكى فى

ساعة ، وأن الدول العظيمة هى التى تهزم ، وكلما كانت الهزيمة منكرة كانت الدولة أعظم وأكبر ، وقال كفى حقدا وتطاولا على الثورة العظيمة التى خلقت مصر وغرست فيها العزة والكرامة ، والذين كانوا يستمعون إليه يقاطعونه بالتصفيق والهتاف ، وكأنهم صم لا يسمعون .

كل هذا الكلام لم يكن يهم المعتقلين فى قليل أو كثير ، كانوا يريدون شيئا عنهم ، كلاما يحدد مصيرهم ويحيى الأمل فى نفوسهم .

ولم يخيب الزعيم رجاءهم .

وفى آخر الخطاب ، وقبل الانتهاء منه بقليل قال الآتى أو شيئا قريبا منه :

– يقولون فى مصر معتقلات ، وهذا كذب وافتراء ، لاتوجد فى مصر معتقلات (تصفيق) . هناك قلة قليلة جدا (تصفيق) من الإخوان المسلمين (تصفيق) هم الجهاز السرى للإخوان المسلمين (تصفيق) هؤلاء (تصفيق) لن يخرجوا (تصفيق) أبدا (تصفيق) من المعتقل (تصفيق) لأن معنى خروجهم هو عودة الإخوان من جديد (تصفيق) كل واحد منهم يستطيع أن يجمع حوله ألفا (تصفيق) وهم أقل من خمسمائة شخص (تصفيق) وأؤكد أنهم لن يخرجوا مادمت حيا (تصفيق طويل) .

وقام الناس من حول مكبرات الصوت ولم يسمعوا بقية الخطاب .

كان هذا آخر خطاب ألقاه « الزعيم » .

ازداد المؤمنون المتفائلون تفاؤلا وقال لى واحد منهم :

– والله إن خروجنا لوشيك وسوف ترى .

وازداد المؤمنون المتشائمون تشاؤما وقال واحد منهم :

– لقد قلنا لكم وطنوا أنفسكم على اعتقال حتى الموت .

وقال واحد من المتفائلين :
– معك حق ولكنه ليس موتنا إن شاء الله .
وقال المهتاجون من أهل الحدة وهم يشمتون بالآخرين :
– قد سمعتم بآذانكم لم يقل كلمة واحدة صادقة ، وقد توعدكم وهو يعلن رأيه فيكم .

ورد واحد ظريف :
– نحن لم نقل لكم إننا نستمع إلى عمر بن عبد العزيز .

وقال آخر :
– لم يشك واحد من المعتقلين جميعا أنه حاكم مستبد ظالم .

– كافر يحارب الإسلام والمسلمين .

ورد الأخ الظريف على صاحب الحدة :
– الظلم والكفر أبناء عم .
وردد واحد بيتا لسامى البارودى :
– وعما قليل ينتهى الأمر كله   فما أول إلا ويتلوه آخر .

عم الهدوء المعتقل بعد الخطاب الجامع المانع الذى سمعه الناس من « الزعيم » . وانصرف كل واحد إلى مايهتم له وبه ، فكل شيء يمكن أن يكون فى هذه الأيام ، وعين الإدارة تغفو طويلا وتستيقظ قليلا ، وتدور المناقشات كالعادة .

وكان لى صديق كله أمل فى المستقبل ، وأن الشمس ستشرق وسنخرج ويقول :
– ماذا ستفعل بعد الإخراج ؟
– فى أى شيء ؟
– فى أى شيء ؟
– لست أدرى . هذا حديث سابق لأوانه على أى حال .
– هل تظن أنه يفرج عنا قريبا ؟

– من يدرى .

– لو أفرج عنى فسوف أسافر إلى الكويت وأعمل هناك وأبتعد عن مصر ومابها ، فالحياة فيها كئيبة كالحة . وأنت ؟

– لو أفرج عنى فسوف أعيش فيها لن أغادرها فهى أحوج ماتكون إلينا .

وكان الكل يحلم بالإفراج حتى يغادر مصر للعمل بالسعودية أو الكويت أو الإمارات وكان منهم من يتعلم اللغة الألمانية ، وهناك من أجادها ، على أمل أن يخرج يوما فيهاجر إلى ألمانيا ، ويقول :

– شمس الإسلام سوف تشرق من أوروبا وهى فى حاجة إلى دعاة ، أما هذه البلاد فأهلها زاغوا وفسدوا ولايفيد معهم شىء .

وكانت الحياة تسير على وتيرة واحدة ، يفعل الناس مايشاءون طوال النهار وعندما تغرب الشمس تغلق العنابر من الخارج ، ويستطيع المعتقلون أن ينتقلوا بين الغرفات ، أما فناء المعتقل فيخلو من المارة ، وكانوا يأتون بجهاز تليفزيون ويضعونه فى الفناء ليمكنوا أهل المستشفى من المرضى لمشاهدته ويتم هذا مرة كل اسبوع ، يخرجونهم فى الهواء الطلق ، ويضعون الجهاز على منضدة ويفترش الناس الأرض ثم يجلسون ذاهلين أمام الصورة المتحركة والأصوات المبهمة ، فأكثرهم لايفكر أو يركز فيما يرى ويسمع ، بل يجدها فرصة ليغوص فى أعماقه ويفتش فى ذاته .

وفى ذلك اليوم الذى أتحدث عنه كانت نوبة ضابط لطيف المعشر اسمه عصام ، ولاأذكر بقية اسمه ، وكان يدعو البعض بعد إغلاق العنابر فى يوم خروج أهل المستشفى للمشاهدة التليفزيونية ، ونجلس فى حديقة صغيرة بجوار مبنى الإدارة ، ويقدم لنا شايا ونتكلم حول مختلف الأمور ، وفى ذلك اليوم جلسنا كالعادة ، وكان الحديث يدور حول مؤتمر القمة العربى المعقود فى الهيلتون بمناسبة حوادث « أيلول » فى عمان بالأردن ، وانتهى المؤتمر

وغادرت الوفود تباعا إلى أوطانها ، ولاندرى إلام انتهت أعمال هذا المؤتمر ، فلا تأتيا إلا ماتكتبه الصحف وهو قليل لايشفى غليل ، ودار الحديث مملا مضجرا وعلى مقربة كان أهل المستشفى يتفرجون على برامج التليفزيون .

وكان يجلس يومها فى مجلس الشاى هذا عدد أذكر منهم حلمى الفيومى ، نجيب الهضيبى وسمير الهضيبى وكاتب هذه السطور وعدد آخر لاأذكرهم .

وكانت الساعة تقترب من السابعة والنصف مساء .

وكان اليوم هو ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ سنة .

وضجر نجيب الهضيبى وقال :

– إنى عائد الغرفة لعلنا ننام فننسى مانحن فيه .

وحاولنا إثناءه عن عزمه فرفض فقد كان الضجر قد بلغ به منتهاه .

وقام متثاقلا إلى العنابر مارا بأولئك الذين يتفرجون على التليفزيون .

وقال واحد متنهدا :

– أما لهذا الليل من آخر ؟

وقال آخر :

– لابد من صنعا وإن طال السفر . (وتحذف الهمزة لأنها مثل) .

وقلت :

– يبدو أن الكل قد سيطر عليه هم عظيم ، فلنعد إلى عنابرنا .

وقال الضابط عصام :

– ياجماعة وحدوا الله . أنتم مؤمنون ، والصبر على البلاء من صفة الأنبياء ، والشاى فى الطريق .

وجلسنا من جديد بعد أن هممنا بالانصراف .

وجاء الشاى .

وعن بعد وفى عتمة الغسق شاهدنا نجيب الهضيبى يعود إلينا .

ورحب واحد به :
– إجلس معنا يارجل ، ليالى الحظ لاتعوض .

ولكننا وجدنا وجهه جامدا قد علته دهشة :
– قطع التليفزيون إرساله ويذيع القرآن الكريم .

وانتبهنا جميعا لهذه العبارة ، واسرع واحد إلى التليفزيون وعاد يؤكد هذا الخبر ، وأسرع الضابط عصام إلى داخل الإدارة وعاد ومعه جهاز راديو صغير ، والتفتنا جميعا حوله ، وهو يدير المؤشر .

جميع محطات الإذاعة المصرية تذيع قرآنا .

كل الوجوه تتلفت إلى بعضها متسائله ، ولاإجابة نتخيلها أو نتصورها .

وقال واحد :
– ربما مات أحد الرؤساء الذين حضروا المؤتمر .

ورد واحد من الحاضرين :
– لو مات جميع الرؤساء مرة واحدة ماقطعوا الإذاعة وأذاعوا القرآن .
– ماذا حدث إذن ؟
لا أحد يدرى . وأسرع الضابط عصام وقال :
– سوف اتصل بالإدارة وأعرف ماذا حدث ، وأسرع داخلا وتركنا نفكر .

وأشرت إلى سمير الهضيبى وانتحيت به جانبا وبادرنى :
– ماذا تظن ؟
وهمست له :
– قد مات « الزعيم » !
والتفت إلَّى منتبها دهشا :
– هل تظن هذا ؟
– بالتأكيد هو الشخص الوحيد الذى يفعلون له هذا إن مات .
– هل هذا معقول ؟ هل يمكن أن يموت ؟
– كل حى يموت ، المشكلة هى طريقة موته .

– ماذا تعنى ؟
– لو كانت حادثة اغتيال فسوف يلصقون بنا التهمة ويفرموننا فرماً .

وتمتم سمير :
– ياخفى الألطاف نجنا مما نخاف .
وعاد الضابط عصام ونحن نسرع إليه :
– لأحد يرد فى الإدارة .
– ماذا تظن ياعصام بك ؟
– لست أدرى . على أى حال سوف ينتهون من إذاعة القرآن الكريم ثم يعلنون على الناس خبرا ما فلننتظر .

ويقلب مؤشر الراديو على المحطات المختلفة بلا فائدة ، الأمور خارج مصر فى المحطات المختلفة عادية جدا ، وسرت الهمسات بيننا بعيدا عن الضابط :

– مات الزعيم :
– مات الزعيم !
– معقول :
– وكيف مات ؟

وانتقلت أخبار إذاعة القرآن الكريم إلى العنابر واستيقظ من نام ، وترك الفراش من كان يتهيأ ، واتفق الجميع أن الزعيم قد مات ، وكان الوجل والقلق من طريقة موته ، فالكل يخشى أن يكون قد اغتيل ، لأن اغتياله معناه أن ندفع نحن الثمن ، ولأحد يدرى كم يكون هذا الثمن .

ومضت الساعات بطيئة كأنها الدهر ، وانتهت إذاعة القرآن الكريم قبل نشرة أخبار الساعة الحادية عشرة ، وأذيع اللحن المميز للنشرة ، والكل يكاد قلبه أن يتوقف من الصمت . وقال المذيع :

– السيد أنور السادات نائب رئيس الجمهورية يلقى عليكم بيانا هاما .

وتلفت كل واحد إلى الآخر ، ولمعت العيون بصدق الخبر .

وانبرى السادات يقول :

– فقدت مصر اليوم رجلا من أعظم الرجال وأعز الرجال ..

وصار يصفه بأعظم الصفات إلى أن قال :

– هو السيد الرئيس محمد جمال عبد الناصر !

هاج الناس وماجوا ، وفرحوا فرحة غامرة ، وأعلنت حالة الطوارىء فى البلاد ، وأدخلونا العنابر بعد أن جاء عبد العال سلومة وطلب إعداد سرير فى غرفته حتى يظل تحسبا للظروف .

دخلنا العنابر والجميع فى حالة من البهجة والسرور لايستطيع الإنسان أن يصفها أو يصورها .

وقال قائل يخطب :

– أيها الإخوان المسلمون ، لاشماتة فى الموت فكلنا سيموت .

ورد عليه آخر :

الشماتة شىء والفرح شىء آخر ، لقد توعدنا قبل أن يموت ، وقال : إننا نظل فى المعتقل حتى موته ، وقد مات وهذا يؤذن بخروجنا إن شاء الله ، فالفرحة هى فرحة الإفراج .

كان هذا يوم الاثنين أو الثلاثاء لأذكر على وجه التحديد . ولكنهم أعلنوا أن الجنازة ستكون يوم الخميس ليتيحوا للعظماء السير فيها .

وظل الناس فى فرحة غامرة وفى شك شديد من موته ، وهناك من صرح أن إعلان موته هذا خدعة وشائعة أطلقتها المخابرات والمباحث ليعرفوا من يؤمن ، ومن ينقلب على عقبيه ، ومن الحكمة عدم إعلان هذه الفرحة التى قد تذهب بنا فى داهية ، ويؤكد آخر :

– نحن فى داهية بالفعل .

وجاء يوم الجنازة وجلس الناس الساعات الطويلة يشاهدون سيرها دون ملل أو حديث ، وخشعت الأصوات فلا تسمع حتى الهمس ، ولايوجد فى المكان غير أصوات المذيعين الذين يتعاقبون فى وصف الجنازة .

وجاءت لحظة وضعه فى القبر .

وحبس الناس أنفاسهم .

وصرخ المذيع بأعلى صوته :

– أيها المواطنون .

وقام كل المعتقلين وقوفا ، وخاطر واحد فى رءوس الجميع . أن الزعيم لم يمت ، وأن الخدعة قد أدت غرضها ، وهم يعلنون حياته . أو أنه قد قام من الأموات !

أقام قائد المعتقل عبد العال سلومة مأتما وجلس يتلقى العزاء فى الزعيم ، وهناك من يحصى من حضر ومن لم يحضر ، وظل الرجل أياما صامتا لايتكلم ، وكأنه لايصدق هو الآخر بوفاته .

تأكد موت « الزعيم » بعد أسابيع ، وصار موته حقيقة لايناقشها أحد ، وذلك بعد أن كنا نفزع الشيخ عارف من نومه فى الأيام الأولى من الوفاة ونخبره أنهم أحيوه ، وأنهم أحضروا أطباء

من روسيا وأحدثوا له تدليكا حديثا للقلب ، وأذيع هذا فى النشرة .
وظل أياما يفزع من هذا الخبر .

وجلس أنور السادات على أريكة السلطنة ، والتف حوله المماليك يؤيدونه وينصرونه ، وتهيأ الناس لمغادرة المعتقل فقد انتفى شرط بقائهم .

غادرت المعتقل بعد عدة شهور من موت « الزعيم » ، وبعد أن سمعت قائد المعتقل يسب الزعيم ويصفه بوضاعة الأصل وأنه ضيع الوطن وسرق الثورة من السلطان العظيم أنور السادات القائد الحقيقى للثورة المباركة ، ولكن الله يمهل ولايهمل !

وتسير الأمور بنا وبالناس من المجهول إلى المجهول . ورحا الإسلام دائرة ، وافترق الكتاب والسلطان ، والعاقل من دار مع الكتاب حيث دار ، والدنيا سوق كبير ينفض بالموت ، والربح والخسارة لارجعة فيهما بعده ولا فوت !

والحمد لله من قبل ومن بعد .

الفهرس

رقم الإيداع/ ٥٦٧٤/ ١٩٨٥

رقم الإيداع الدولى
٩ ــ ٠١ ــ ١٤٧٠ ــ ٩٧٧
كتاب البوابة السوداء

« البوابة السوداء » تغلق بمصراعيها على شعوب بأكملها ، فتحول بينهم وبين رؤية الحقائق ، وتحجب عنهم حقهم فى عيش كريم ؛ وكرم العيش أن يكون للانسان رأيا فى حياته ، كيف يعيش ، ومن يحكمه ، وأن يسمع له إن أراد الحديث ، ويمنح الفرصة الكاملة ليدلى برأيه فيما يشاء من أشياء . حرية فى اختيار من يحكمه . حرية فى اختيار من يمثله . حرية فى التعبير عما يراه . حرية فى اختيار النظام الذى يرتضيه . على الأقل بالرأى والكلمة !

« البوابة السوداء » قد أوصدت على الحاكم والمحكوم على حد سواء ...

« البوابة السوداء » قد أغلقت على شعب مسكين لا يكاد يجد قوت يومه ، يريد أن يصل صوته إلى من يحكمه ، فلا تجيبه غير صرخات المُعذَّبين ، وصفير السياط ، وأصوات الزنازين وهى تُغلق فى عنف وصرامة .

وخلف هذه البوابة اللعينة نمت وترعرعت جرائم التعذيب التى لامثيل لها بين سائر الجرائم فلا توجد جريمة فى هذا الكون تعادل تعذيب برىء والتمثيل به ، ولاحتى مسىء . وإن النظام الذى يهدر كرامه الإنسان ، لايقوى أمام أى هجمه مهما كانت يسيرة . وإذا أردنا أن نصنع بلداً قويا وشعبا عظيما فلنعط كل واحد حقّه فى حياة كريم
يأمن من طرقة الليل المفزعة ، ومن زيارة الفجر
الخوف والذعر فى قلوب الجميع ، الرجا
والأطفال . ولن يتحقق أمن فى دولة مهما ظنت
وقادرة إلا بقدر الحرية الذى يأخذه أفراد شعبه